جان بول سارتر

دروب الحرية - ٣

الحزن العميق

نقلها عن الفرنسية
الدكتور سهيل إدريس

منشورات دار الآداب - بيروت

الطبعة الاولى

بيروت ، ايلول (سبتمبر) ١٩٦١

القسم الأول

نيويورك ، الساعة ٩ ق . ظ . السبت ١٥ حزيران ١٩٤٠

أخطبوط ؟ تناول سكينه ، وفتح عينيه ، كان ذلك حلماً . لا ، فان الاخطبوط كان هنا ، يجتذبه بأفواهه : الحرّ . كان يرشح عرقاً . وكان قد نام حوالي الساعة الواحدة ؛ وعند الساعة الثانية ، أيقظه الحرّ ، فقذف نفسه في مغطس بارد ، ثم عاد الى النوم من غير ان يمسح جسمه ؛ وبعد ذلك مباشرة ، عاد الكور يزفر تحت جلده ، وعاد هو يرشح عرقاً . وعند الفجر أخذه النوم ، فحلم بحريق ؛ والآن ، كانت الشمس بالتأكيد مرتفعة في السماء ، وكان غوميز ما يزال يرشح : كان يرشح بلا انقطاع منذ ثمان واربعين ساعة . وتنهّد قائلاً : « يا إلهي ! » وهو يُمرّ يده الرطبة على صدره المبتلّ . لم يكن ذلك حرّاً ، وانما كان مرضاً في المناخ : كان الهواء مصاباً بالحمّى ، وكان الهواء يرشح عرقاً ، وكان هو يرشح عرقاً في العرق . كان عليه ان ينهض ، وان يرشح وهو في قميصه . وانتصب : « ايّ حظ ! ليس لديّ بعدُ من قميص . » كان قد بلّل آخر قميص ، الأزرق ، لأنه كان مضطراً الى تغيير ثيابه مرتين في اليوم . اما الآن ، فقد انتهى : سيلبس هذه الخرقة الرطبة المنتنة ، الى ان تعاد الثياب من الغسل . ونهض واقفاً في حيطة ، ولكن من غير ان يستطيع تجنّب فيض العرق ؛ كانت القطرات تركض على جانبيه كالقمل ، وكان ذلك يدغدغه . القميص مدعوك ،

مكسّر في الف ثنية ، على مسند الأريكة . وجسّه : لا شيء يجف في هذا البلد القحبة . وكان قلبه يخفق ، وكان فمه متخشّباً من شدة الجفاف، حتى كأنه قد ثمل في الليلة البارحة .

وارتدى بنطاله ، واقترب من النافذة فسحب الستائر : في الشارع كان النور ابيض كأنه الكارثة ؛ ثلاث عشرة ساعة اخرى من النور . ونظر الى الطريق في ضيق وغضب . الكارثة « نفسها » : هناك ، على الأرض الطينية السوداء ، تحت الدخان ، كان ثمة دم وصراخ ؛ وهنا ، بين البيوت الصغيرة ذات القرميد الأحمر ، كان ثمة نور ، نورٌ فقط وعرق . ولكنها كانت الكارثة « نفسها » . ومرّ زنجيّان وهما يضحكان، ودخلت امرأة الى الصيدلية . وتنهّد : « يا إلهي ! يا إلهي ! » كان ينظر الى هذه الألوان جميعاً وهي تصرخ : حتى ولو كان لدي الوقت ، حتى ولو كان ذهني صافياً ، فكيف تريدونني ان « ارسم » في هذا النور ! وقال : « يا إلهي ! يا إلهي ! » .

ودق جرس الباب ، فقام غوميز يفتح ، وقال ريتشي وهو يدخل :

— هذه عملية قتل .

فانتفض غوميز :

— ماذا ؟

— هذا الحرّ : إنه عملية قتل . (وأضاف في عتاب) كيف ، ألم ترتد ثيابك ؟ إن رامون ينتظرنا في الساعة العاشرة .

فهزّ غوميز كتفيه :

— لقد نمت متأخراً .

فنظر اليه ريتشي وهو يبتسم ، فأضاف غوميز بحيوية :

— إن الحرّ لا يطاق ، ولا استطيع ان أنام .

فقال ريتشي بلهجة حليمة :

— الأمر كذلك ، في الاوقات الاولى . وسوف تعتاده . (ونظر

اليه في تنبّه) هل تأخذ أقراص ملح ؟
ــ طبعاً ، ولكن ذلك لا يحدث عندي أثراً .
فهزّ ريتشي رأسه ، وتلوّنت ملاطفته ببعض القسوة : « فلا بدّ » للاقراص من منع العرق . فاذا لم تكن تؤثّر على غوميز ، فلأن غوميز « لم يكن » كسائر الناس . وقال ريتشي فجأة وهو يقطّب حاجبيه :
ــ ولكن عجباً ! كان ينبغي ان تكون معتاداً : فالطقس حار كذلك في اسبانيا .
وفكر غوميز في أصباح مدريد الجافّة الفاجعة ، وفي ذلك النور الرائع الذي كان كذلك أملاً ، فوق « الألكالا » ؛ وهزّ رأسه :
ــ ليس هو الحرّ نفسه .
قال ريتشي في لهجة اعتزاز :
ــ انه اقلّ رطوبة ، أليس كذلك ؟
ــ نعم . واكثر انسانية .
وكان ريتشي يحمل جريدة ، فمدّ غوميز يده ليتناولها منه ، ولكنه لم يجرؤ ، وسقطت اليد ، وقال ريتشي بمرح :
ــ إنه يوم عظيم : عيد « ديلاوار » ؛ انا من هناك ، كما تعلم .
وفتح الجريدة على الصفحة الثالثة عشرة ، فرأى غوميز صورة : كان « لاغوارديا » يصافح يد رجل ضخم ، وكان كلاهما يضحك في استسلام . وقال ريتشي :
ــ هذا الشخص الى اليسار ، هو حاكم « ديلاوار » ، وقد استقبله لاغوارديا أمس في « وورلد هول » . وكان استقبالاً عظيماً .
وكان غوميز يرغب في انتزاع الجريدة منه وفي النظر الى الصفحة الأولى . ولكنه فكر : « خراء ! » ودخل غرفة الحمام ، فأجرى في المغطس ماءً بارداً وحلق ذقنه بسرعة . واذ كان يدخل الى المغطس ، صاح به ريتشي :

— اين أصبحت ؟

— لقد أفلست تماماً . فليس لديّ بعدُ اي قميص ، وقد بقي معي ثمانية عشر دولاراً . ثم ان مانويل عائد يوم الاثنين ، فيجب ان أعيد له شقّته .

ولكنه كان يفكر في الجريدة : كان ريتشي يقرأ وهو ينتظره ؛ وقد سمعه غوميز يقلب الصفحات . وتجفّف بعناية ؛ ولكن عبثاً : فقد كان الماء يفور في المنشفة . وارتدى وهو يرتعش قميصه الرطب وعاد الى غرفة النوم .

— مباراة عمالقة .

فنظر غوميز الى ريتشي من غير ان يفهم .

— مباراة البيسبول امس . لقد ربح « العمالقة » .

— آه ، نعم ، البيسبول ...

وانحنى ليعقد سير حذائه . وكان يجهد ، من تحت ، لقراءة عناوين الصفحة الاولى . وانتهى الى السؤال :

— وباريس ؟

— الم تسمع الراديو ؟

— ليس لديّ راديو .

قال ريتشي بهدوء : — انتهت ، صُفّيت . لقد دخلوها هذه الليلة .

واتجه غوميز نحو النافذة ، فألصق جبينه بالزجاج المحرق ، ونظر الى الشارع ، هذه الشمس اللامجدية ، هذا النهار اللامجدي . لن يكون ثمة بعد الا نهارات لامجدية . وانفتل ، وتداعى للسقوط على سريره . وقال ريتشي :

— عجّل ، إن رامون لا يحبّ الانتظار .

ونهض غوميز ثانية . وكان قميصه قد أصبح للعصر ، وذهب يعقد ربطة عنقه امام المرآة :

– هل هو موافق ؟

– مبدئياً ، نعم . ستون دولاراً في الاسبوع على ان تقدّم صفحة المعارض . ولكنه يريد ان يراك .

قال غوميز : – سيراني ، سيراني .

والتفت فجأة :

– انني بحاجة الى سلفة . أتعتقد أنه سيوافق ؟

فهزّ ريتشي كتفيه ، وقال بعد لحظة :

– قلت له إنك قادم من اسبانيا ، وهو يميل الى الاعتقاد بأنك لا تحب فرانكو ؛ ولكني لم احدثه عن ... امجادك . فلا تذهب لتروي له انك كنت جنرالاً : فلا ندري ما الذي يفكر به حقاً .

جنرال ! ونظر غوميز الى بنطاله المتهرّيء والى اللطخات الكالحة التي كان العرق يخلّفها على قميصه . وقال بمرارة :

– لا تخف ، فليست لدي الرغبة في التباهي بها . انني أعرف كم يكلفني هنا ان اكون قد حاربت في اسبانيا : فأنا منذ ستة أشهر بلا عمل .

فبدا ريتشي مصدوماً ، وأوضح في جفاء :

– إن الاميركيين لا يحبون الحرب .

ووضع غوميز سترته على ذراعه :

– هيّا بنا .

فطوى ريتشي جريدته على مهل ونهض . وعلى الدرج ، سأله :

– زوجتك وابنك في باريس ؟

فقال غوميز بحيوية :

– أتمنى الا يكونا هناك . ارجو كثيراً ان تكون ساره من الذكاء بحيث تكون قد هربت الى مونبلييه .

وأضاف : – ان اخبارها منقطعة عني منذ اول حزيران .

قال ريتشي : ــ اذا حصلت على الراتب ، امكنك استقدامهما .

قال غوميز : ــ نعم ، نعم . سنرى .

الشارع ، بُهرة النوافذ ، الشمس على الثكنات الطويلة المسطحة التي لا سقف لها ، ذات القرميد المسودّ . وامام كل باب ، درجات من الحجر الأبيض ؛ ضباب حرّ من جانب « الايست ريفر » ؛ كانت المدينة تبدو داسية . ليس ثمة ظلّ : وان المرء ، في اي شارع من شوارع العالم ، لا يحسّ انه في الخارج ، بمثل الفظاعة التي يحسّ بها ذلك هنا . إن ابراً محمّرة بالنار تثقب عينيه ؛ ورفع يده ليحتمي بها ، فالتصق قميصه بجلده . وارتعش :

ــ إنه لقتل !

قال ريتشي : ــ بالأمس ، سقط عجوز مسنّ امامي : ضربة شمس ، (واضاف) بررر . اني لا احب رؤية الأموات .

وفكر غوميز : « اذهب الى اوروبا تجد ما يعجبك ! »

واضاف ريتشي :

ــ انه على بعد اربعين اشارة . يجب ان نأخذ الباص .

وتوقفا امام عمود أصفر . وكانت امرأة شابة تنتظر . ونظرت اليهما بعين متفحصة شرسة ثم اولتهما ظهرها . وقال ريتشي بلهجة مدرسية :

ــ فتاة جميلة .

قال غوميز في ضغينة :

ــ ان عليها مظهر البغيّ .

وكان قد أحسّ ، تحت ذلك النظر ، بأنه قذر يرشح عرقاً . ولم تكن هي ترشح . وكذلك ريتشي : فقد كان متورداً نضراً في قميصه الجميل الابيض ، وكان انفه الأخنس لا يكاد يلمع . يا لغوميز الجميل . الجنرال الجميل غوميز . وكان الجنرال قد انحنى على عينين زرقاوين ، خضراوين ، سوداوين ، يغشّيهما خفقُ أجفان ؛ إن البغي لم تكن قد

رأت إلا رجلاً جنوبياً قصيراً يتقاضى خمسين دولاراً في الاسبوع ويرشح عرقاً في ثوبه المبتذل . « لقد حسبتني من جزيرة داغو » ومع ذلك ، فقد نظر الى الساقين الجميلتين الطويلتين ، ومسح عرقه . « اربعة أشهر لم أضاجع فيها » . من قبل ، كانت الشهوة شمساً جافة في بطنه . اما الآن ، فان للجنرال الجميل غوميز رغبات خجلة ومداورة .

وعرض عليه ريتشي :

— سيجارة ؟

— لا . إن حلقي يحترق . أفضّل ان أشرب .

— ليس لدينا الوقت .

وربت على كتفه بهيئة انزعاج ، وقال له :

— حاول ان تبتسم .

— ماذا ؟

— حاول ان تبتسم . فاذا رأى رامون هيئتك هذه ، فلا شك انه سيخاف .

وأشار غوميز إشارة لامبالاة ، فقال ريتشي بحيوية :

— انني لا أطلب منك ان تكون مفرطاً في المجاملة ، بل ان تضع على شفتيك ، وانت داخل ، بسمة غير شخصية تماماً ، وتنساها عليها ؛ وفي هذه الاثناء تستطيع ان تفكر بما تشاء .

قال غوميز : — سأبتسم .

فنظر اليه ريتشي في ملاطفة :

— أمن أجل طفلك انت مهموم ؟

— لا .

فبذل ريتشي جهداً مؤلماً للتفكير :

— أمن اجل باريس إذن ؟

قال غوميز بعنف : — طز بباريس !

– من الأفضل ان يكونوا قد اخذوها بلا قتال ، أليس كذلك ؟
فأجاب غوميز بصوت محايد :
– كان بوسع الفرنسيين ان يدافعوا عنها .
– أشكّ في ذلك ! مدينة فوق ارض مسطحة .
– كان بوسعهم ان يدافعوا عنها . لقد قاومت مدريد عامين ونصف العام ...
فردّد ريتشي بحركة مبهمة :
– مدريد ... ولكن ما جدوى الدفاع عن باريس ؟ إن هذا في غاية البلادة . كانوا سيهدمون اللوفر والاوبرا ونوتردام . كلما قلّت الأضرار ، كان الأمر أفضل . (وأضاف في رضى) والآن ستنتهي الحرب بسرعة .
فقال غوميز في سخرية :
وكيف ! اذا استمر العمل بهذه السرعة ، فستعقد السلم النازية بعد ثلاثة اشهر .
قال ريتشي : – إن السلم ليست ديمقراطية ولا نازية : انها السلم وحسب . انت تعرف جيداً اني لا احب الهتلريين . ولكنهم بشر كالآخرين . فحين ينتهي احتلالهم لاوروبا ، تبدأ المصاعب امامهم ، وعليهم ان يعتدلوا ويرقّوا . واذا كانوا عاقلين ، تركوا كل بلد يحكم نفسه داخل اتحاد اوروبي . شيء قريب من ولاياتنا المتحدة .
وكان يتحدث متمهلاً وفي جهد . وأضاف :
– اذا كان هذا سيمنعكم من القيام بالحرب كل عشرين عاماً ، فسيبقى هذا هو الكسب .
ونظر اليه غوميز في غيظ : كان في عينيه الرماديتين صدق واخلاص كبيران . كان مرحاً ، وكان يحب الانسانية ، والاولاد والعصافير والفن التجريدي ؛ وكان يفكر بان درهمين من العقل كافيان لحلّ جميع المنازعات . ولم يكن يكنّ كثيراً من الود للمهاجرين ذوي العرق

اللاتيني ، بل كان اكثر تفاهما مع الألمـان . « احتلال باريس ، ماذا يمثل ذلك في نظره ؟ » ولفت غوميز رأسه ينظر الى بسطة بائع الجرائد الملونة : كان ريتشي يبدو له فجأة شديد القسوة ؛ وقال ريتشي :

ـ انتم الاوروبيين تتشبثون دائما بالرموز . لقد انقضت ثمانية ايام والناس يعرفون ان فرنسا قد هزمت . صحيح : لقد عشتَ فيها ، وخلّفت فيها ذكريات ، وانا أفهم ان يحزنك ذلك . ولكن الاستيلاء على باريس ، ما عسى ذلك ان يحدث لديك ، ما دامت المدينة سليمة لم تُمس ؟ اننا سنعود اليها في نهاية الحرب .

وأحسّ غوميز نفسه محمولاً بفرح عظيم غاضب ، فسأل في صوت مرتجف :

ـ ما يُحدث ذلك لديّ ؟ إنّ ذلك يسرّني ! حين دخل فرانكو الى برشلونة ، كانوا يهزّون رؤوسهم لامبالين ، وكانوا يقولون ان ذلك مؤسف ، ولكن لم يكن ثمة من رفع إصبعه الصغير . حسناً ! انه الآن دورهم ، فليتذوّقوا ! (وصاح في صخب الباص الذي وقف ازاء الرصيف) إن ذلك يسرّني ! إن ذلك يسرّني !

وصعدا وراء المرأة الشابة ، وتدبّر غوميز امره ليرى ساقيها في هذه الاثناء ؛ وظلاّ واقفين في المؤخرة . وسارع رجل ضخم ذو نظارتين ذهبيتين بالابتعاد عنهما ، ففكر غوميز «لا بد ان رائحتي كريهة» وفي الصف الأخير من المقاعد ، كان رجل قد فتح جريدة . فقرأ غوميز من فوق كتفه : « الهتاف لتوسكانيني في ريو حيث يعزف للمرة الاولى منذ اربعة وخمسين عاماً . » وتحت ذلك : « العرض الاول في نيويورك : راي ميلاند ولوريتا يونغ في فيلم « الدكتور يتزوج » . وكانت جرائد اخرى ، هنا وهناك ، تبسط اجنحتها : لاغوارديا يستقبل حاكم ديلاوار ، لوريتا يونغ ؛ حريق في الايلينوا ، راي ميلاند ؛ احبني زوجي منذ اليوم الذي استعملت فيه مزيل

الروائح « بيتش » ؛ اشتروا شريسارغيل ، مُلين شهر العسل ؛ رجل في منامته يبتسم لزوجته الشابة ؛ لاغوارديا يبتسم لحاكم ديلاوار ؛ بادي سميث يصرّح : « لا حلويات « كيك » للقاصرين ، » كانوا يقرأون ؛ وكانت الصفحات العريضة البيضاء والسوداء تحدثهم عن أنفسهم ، عن همومهم وعن مسرّاتهم ؛ كانوا يعرفون من هو بادي سميث ، ولم يكن غوميز يعرفه ؛ وكانوا يقلبون نحو الأرض ، ونحو ظهر السائق ، أحرف الصفحة الأولى الكبيرة : « سقوط باريس » او « مونتمارتر تحترق » . كانوا يقرأون وكانت الصحف تصرخ بين ايديهم ، فلا يسمعونها . وأحسّ غوميز بالشيخوخة والوهن . كانت باريس بعيدة ؛ وكان وحده الذي يهتم بها ، وسط مئة وخمسين مليون نسمة ؛ انها لم تكن بعد الا هماً شخصياً صغيراً ، لا يكاد يجاوز في أهميته ذلك العطش الذي كان يحرق حلقه . وقال لريتشي :

— أعطني الجريدة .

« الالمان يحتلون باريس . ضغط نحو الجنوب . سقوط الهافر . هجوم من خط ماجينو »

كانت الحروف تصرخ ، ولكن الزنوج الثلاثة الذين كانوا يتحدثون خلفه استمروا يضحكون من غير ان يسمعوا .

« الجيش الفرنسي سليم لم يُمس ، اسبانيا تستولي على طنجة . »

وبحث الرجل ذو النظارات الذهبية في محفظته بانتظام فاخرج منها مفتاح « يال » تأمله في رضى . وأحسّ غوميز بالخجل ، وكانت به رغبة لأن يطوي الجريدة ، كما لو انها كانت تتحدث على غير حذر عن أشد أسراره صميمية . إن هذه الصيحات الهائلة التي كانت تُرعش يديه ، هذه النداءات التي تطلب النجدة ، هذه الحشرجات ، انما كانت مجوناً فاحشاً قليل التهذيب ، كعرقه عرق الغريب ، وكرائحته تلك القوية اكثر مما ينبغي . « الشك في وعود هتلر ؛

الرئيس روزفلت لا يصدق ... الولايات المتحدة ستفعل ما في استطاعتها من أجل الحلفاء » ؛ حكومة جلالته ستفعل ما في استطاعتها من أجل التشيك ؛ الفرنسيون سيفعلون ما في استطاعتهم من أجل جمهوريي اسبانيا . ضمادات ، عقاقير ، علب حليب . يا للبؤس !
« مظاهرة طلاب في مدريد للمطالبة بعودة جبل طارق الى الاسبان . »
ورأى كلمة مدريد ، فلم يستطع المضيّ في القراءة . « حسناً فعلوا ، قذرون ! قذرون ! فليشعلوا النار بأربعة اركان باريس ، وليحيلوها الى رماد . » « تور (من مراسلنا الخاص ارشامبو) : المعركة مستمرة ، الفرنسيون يصرحون بان ضغط العدو يتناقص : خسائر نازية فادحة ، الضغط طبعاً يتناقص ، وسوف يتناقص حتى آخر يوم وحتى آخر صحيفة فرنسية ، خسائر فادحة ، كلمات مسكينة ، آخر كلمات أمل لا تخدع أحداً ؛ خسائر فاشستية فادحة حول تاراغون ؛ الضغط يتناقص ؛ ستقاوم برشلونة ... وفي اليوم التالي ، كان الفرار الجنونيّ . »

« برلين (من مراسلنا الخاص بروك بترز) : خسرت فرنسا كل صناعتها ، سقطت مونتميدي ؛ هجوم اكتساحي من خط ماجينو ؛ العدو ينهزم » نشيد مجد ؛ نشيد نحاسي ، شمس : انهم يغنون في برلين ، في مدريد ، بأثوابهم العسكرية ؛ برشلونة ، مدريد ، فالانس ، فارصوفيا ، باريس ؛ وغداً لندن . وفي تور ، كان رجال بسترات سود يركضون في ممرات الفنادق . لقد أحسنوا صنعاً ! لقد أحسنوا صنعاً ، فليأخذوا كل شيء ، فرنسا ، انكلترا ، ولينزلوا في نيويورك ، لقد أحسنوا صنعاً !

كان الرجل ذو النظارات الذهبية ينظر اليه ، وأحس غوميز بالخجل كما لو انه صاح . وكان الزنوج يبتسمون ، وكانت المرأة الشابة تبتسم ، وكان قاطع التذاكر يبتسم .

قال ريتشي وهو يبتسم : — لنهبط هنا .

كانت اميركا ، على الاعلانات وعلى غلاف المجلات ، تبتسم ..
وفكر غوميز في رامون، واخذ يبتسم . وقال ريتشي :

— انها الساعه العاشرة ، فلن نتأخر اكثر من خمس دقائق .

الساعة العاشرة ، الساعة الثالثة في فرنسا . كان أصيل يوم يختبيء ممتقعاً ، بلا أمل ، في قعر هذا الصباح الاستعماري .

الساعة الثالثة في فرنسا .

قال الرجل — ها نحن في أزمة !

وظلّ متحجراً في مقعده ؛ وكانت سارة ترى العرق يسيل على رقبته ، وكانت تسمع ضجيج الزمامير .

— لقد نفد الوقود !

وفتح الباب ، فقفز الى الطريق وانزرع امام سيارته . وكان يتأملها برقة ، وقال وهو يكز أسنانه :

— تفه ! تفه !

وكان يمر يده على ظهرها المحرق : وكانت سارة تراه ، عبر الزجاج ، واقفاً تحت السماء المشعة، وسط هذا الصخب الهائل ؛ وكانت السيارات التي كانوا يتبعونها منذ الصباح تبتعـد في غيمة من غبار . وخلفهم كانت أصوات الزمامير والصفارات والمنبهات : صداحٌ لطيور من حديد ، وأغنية كراهية وحقد .

وسأل بابلو : ـ لماذا هم غاضبون ؟

— لأننا نسد عليهم الطريق .

وكانت تود لو تقفز خارج السيارة، ولكن اليأس كان يسحقها على المقعد . ورفع الرجل رأسه ، وقال في غيظ :

— ولكن انزلا ! الا تسمعانهم ؟ ساعداني في دفعها .

فنزلا . وقال الرجل لساره :

— اذهبي الى الخلف ، وادفعي بشدة .

وقال بابلو : — اريد ان أدفع ايضاً .

وانحنت ساره بازاء السيارة ودفعت بكل قواها ، وعيناها مغمضتان كأنها في كابوس . وكان العرق يبلل قميصها : وعبر جفونها المغضمة كانت الشمس تفقأ عينيها . وفتحتها : كان الرجل امامها يدفع بيده اليسرى الملتصقة بالباب ؛ وباليد اليمنى ، كان يحرك المقود ؛ وكان بابلو قد قفز الى واقية الصدم الخلفية وتشبث بها وهو يطلق صيحات متوحشة . وقالت ساره :

— حذارِ من الانزلاق !

ودرجت السيارة على هينة فوق طرف الطريق ، فقال الرجل :

— كفى ! كفى ! حسناً ، كفى يا إلهي !

وصمتت الزمامير ، وعاد النهر يجري . وكانت تحاذي السيارة الواقفة ، وعلى زجاجها تلتصق وجوه ؛ وأحست ساره بالاحمرار تحت الانظار ، فاحتمت بالسيارة ، وأطل نحوهما رجل طويل هزيل ، من خلف مقود شفروليه وصاح :

— يا للفروج القذرة !

سيارات شحن ، عربات وطيئة ، سيارات فخمة ، سيارات تاكسي ذات أعلام سوداء ، مركبات . وكانت ساره ، كلما ألمت بهم سيارة ، تفقد بعض رباطتها ، وكانت « جيان » تزداد بعـداً . ثم جاء صف العربات ، وكانت «جيان» ما تفتأ تتقهقر ، وهي تصر ؛ واخيراً غطى قار المثباة الاسود الطريق باكملها ، ولجأت ساره الى جانب الحفرة : كانت الحشود تخيفها . كانوا يسيرون ببطء ومشقة ، وكان العذاب يكسبهم هيئة عائلية : وكان بد لمن يدخل في صفوفهم ان يشبههم رويداً رويداً . لا اريد. لا اريد ان أصبح مثلهم. ولم يكونوا لينظروا اليها . وكانوا يحيدون عن السيارة من غير ان ينظروا اليها : فانهم لم تكن

لهم بعدُ عيون . وحاذى السيارة عملاق يرتدي قبعة ، حاملا حقيبة في كل ذراع ، فاصطدم على غير هدى بالقضيب الواقي من الوحل ، فاستدار على نفسه ، ثم استعاد سيره المترنح . وكان ممتقعاً . وكانت على احدى الحقيبتين طوابع متعددة الالوان : اشبيلية ، القـاهرة ، ساراجيفوا ، ستريزا .

وصرخت ساره : — انه يموت من فرط التعب . وسوف يسقط .

ولكنه لم يسقط . وتابعت بعينيها القبعة ذات الشريط الاحمر التي كانت تتأرجح بمرح فوق بحر القبعات .

— خذي حقيبتك وتابعي السير دوني .

فارتعشت ساره من غير ان تجيب : كانت تنظر الى الحشود بنفور مذعور .

— الا تسمعين ما اقوله لك ؟

فالتفتت اليه :

— اليس من الممكن انتظار سيارة وطلب صفيحة وقود منها ؟ فلا بدّ ان تأتي سيارات بعد المشاة .

فابتسم الرجل بسمة خبيثة :

— أنصحك ان تجرّبي .

— ولِمَ لا ؟ لماذا لا نجرّب ؟

فبصق باحتقار ، وظل لحظة من غير ان يجيب . وقال اخيراً :

— ألم تريهم اذن ؟ انهم يتدافعون بالمؤخرات : فكيف تريدين ان يقفوا ؟

— ولكن اذا وجدت وقوداً ؟

— أقول لك انك لن تجدي . أتظنين انهم سيفقدون صفهم من أجلك ؟ (وأشار اليها باصبعه وهو يقهقه) لو كنت صبية جميلة ما تزالين في العشرين من عمرك ، لما قلت لا .

فتظاهرت ساره بأنها لم تسمع ، وألحت :

– ولكن افرض مع ذلك اني وجدت لك وقوداً ؟

فهزّ رأسه بهيئة مصدومة :

– لا فائدة . فانا لن اذهب أبعد من هذا ، حتى ولو وجدت لي عشرين ليتراً ، بل حتى لو وجدت مئة ليتر . لقد فهمت .

وشبك ذراعيه وأضاف :

– هل تدركين ما افعل ؟ اني اقف ، واقلع ، وامشي كل عشرين متراً . أغيّر السرعة مئة مرة في الساعة : هذا ما يناسب السيارات تماماً !

وكانت على الزجاج لطخات سمراء . فاخرج منديله ومسحها في ملاطفة .

– ما كان ينبغي لي ان استسلم للخروج .

قالت ساره : – لم يكن عليك الا ان تأخذ وقوداً كافياً .

فهزّ رأسه من غير ان يجيب ؛ وكانت بها رغبة لأن تخمشه ، ولكنها تماسكت وقالت بصوت هادىء :

– وإذن ، فماذا تفعل ؟

– أبقى هنا وانتظر .

– تنتظر ماذا ؟

فلم يجب ، فتناولت معصمه وشدّت عليها بكل قواها :

– اتدري ماذا يحدث لك اذا بقيت هنا ؟ إن الألمان سينفون جميع الرجال الأصحّاء .

– بالتأكيد ! وسيقطعون يدي صبيك ، ويقفزون عليك اذا جرؤوا ! إن هذا كله خلط : فليسوا هم بالتأكيد على ربع ما يقال عنهم من الشرّ .

وكان حلق ساره جافاً وشفتاها ترتجفان . وقالت بصوت ابيض :

– حسناً . اين نحن الآن ؟

— على بعد اربعة وعشرين كيلومتراً من «جيان» .

« اربعة وعشرون كيلومتراً ! انني مع ذلك لن ابكي امام هذا الوحش » .

ودخلت الى السيارة فتناولت حقيبتها وخرجت ثم أخذت بابلو من يده :

— تعال يا بابلو .

— الى اين ؟

— الى جيان .

— هل هي بعيدة ؟

— بعض الشيء . ولكني سأحملك حين تتعب (واضافت بتحدّ) ثم اننا سنجد بالتأكيد رجالاً طيبين يساعدوننا .

وانزرع الرجل امامهما فسدّ عليهما الطريق . وكان يقطب حاجبيه ويحكّ رأسه بهيئة حائرة . وسألته ساره بجفاء :

— ماذا تريد ؟

ولم يكن يدري ما يريد . وكان ينقل نظره بين ساره وبابلو ، كأنما كان يبحث عن شيء . وقال في ثقة :

— وإذن ؟ انتما ذاهبان ؟ هكذا ، حتى بلا كلمة شكر ؟

قالت ساره على عجل : — شكراً ، شكراً .

وكان الرجل قد وجد ما كان يبحث عنه : الغضب . فغضب واحمّر وجهه :

— والمئتا فرنك ، اين هي ؟

قالت ساره : — لست مدينة لك بشيء .

— ألم تعدي بمئتي فرنك ؟ هذا الصباح بالذات ؟ في مولين ؟ في مرأبي ؟

— نعم ، اذا كنت ستقودني الى جيان : ولكنك تتركني مع صبي

في منتصف الطريق .

– لست انا الذي اتركك ؛ وانما هي السيارة .

ونفض رأسه فانتفخت عروق صدغيه . وكانت عيناه تلتمعان ويبدو مسروراً ، ولم تكن ساره خائفة منه :

– اريد المئتي فرنك .

وفتشت في محفظتها :

– هذه مئة فرنك . انني لست مدينة لك بها ، وانت لا شك أغنى مني ، وانما اعطيك اياها تفادياً للنزاع .

فتناول الورقة المالية ووضعها في جيبه ؛ ثم مدّ يده مرة اخرى . وكان شديد الاحمرار بفمه الفاغر وعينيه المتأملتين :

– يبقى لي معك مئة فرنك اخرى .

– لن تحصل على درهم واحد بعد . دعني امرّ .

ولم يكن يتحرك ، كأنما هو فريسة نفسه . إنه لا يريدها حقاً ، المئة فرنك هذه . انه لا يعرف ماذا يريد : ربما كان يريد ان يعانقه الصغير قبل ان يذهب ، إنه يترجم هذا بلغته . واقترب منها ، فحزرت بأنه يريد ان يأخذ الحقيبة .

– لا تلمسني .

– اريد المئة فرنك ، والا أخذت الحقيبة .

وكان احدهما ينظر في عيني الآخر . لم تكن به رغبة على الأطلاق لأخذ الحقيبة ، كان هذا امراً واضحاً ؛ وكانت ساره تعبةً جداً حتى انها كانت مستعدة بكل رضى ان تتركها له . ولكن كان لا بدّ الآن من تمثيل الفصل حتى النهاية . وترددا ، كما لو انهما لم يكونا يتذكران دورهما ؛ ثم قالت ساره :

– حاول اذن ان تأخذها ! حاول !

فتناول الحقيبة من حمالتها واخذ يشدّ ، وكان بوسعه ان ينتزعها

منها بجذبة واحـــدة ، ولكنه كان يكتفي بالشدّ وهو يصرف رأسه ؛ وجذبت ساره من جهتهـا ؛ فأخذ بابلو يبكي . وكان قطيع المشاة قد ابتعد ؛ وكان صنف السيارات قد عاد الى الظهور . وأحست ساره بأنها في وضع مضحك ، فجذبت الحقيبة بعنف ؛ وجـذب هو جذباً اقوى فانتزعها منهـا . ونظر الى ساره والى الحقيبة في دهشة ، لعلّه لم يرد قط ان يأخذها ، ولكن هذا اصبح الآن واقعاً : كانت الحقيبة في يده .

قالت ساره : — اعد لي هذه الحقيبة .

ولم يكن يجيب ، وكان يبـدو في هيئة بلاهة وعنـــاد . واستخفّ الغضب بساره وقذفها باتجاه السيارات فصاحت :

— السارق !

وكانت سيارة بويك طويلة سوداء تمرّ امامهم . وقال الرجل :

— هيا ، بلا مشاكل !

وقبض على كتفها ، ولكنها تخلّصت ؛ وكانت الكلمات والحركات تخرج منهـــا في يسر ودقة . وقفزت عـــلى مصعـــد البويك فتشبثت بمقبض الباب :

— السارق ! السارق !

وانبثقت من السيارة ذراع دفعتها :

— انزلي ، ستقتلين نفسك .

وكانت تحسّ انها تجن : وكان ذلك لذيذاً . وصاحت :

— قف ! السارق ! النجدة !

— ولكن آن لك ان تنزلي ! كيف تريدين ان اقف ؟ اذا وقفت تعرقل السير .

فانحسر غضب ساره ، وقفزت الى الأرض فتعثرت . ولكن صاحب المرأب تلقّاها وأوقفها . وكان بابلو يصرخ ويبكي . كانت الحفلة قد انتهت : وكانت ساره راغبة في الموت . وبحثت في محفظتها فأخرجت

مئة فرنك :

— خذ ! ستشعر بالخجل عما قليل !

واخذ الرجل الورقة المالية من غير ان يرفع عينيه وترك الحقيبة .

— والآن ، دعنا نمرّ .

فابتعد ؛ وكان بابلو ما يزال يبكي . وقالت ، في غير ما رقة :

— لا تبك يا بابلو . هيا ، لقد انتهينا ، ونحن ذاهبان .

وابتعدا . وتمتم الرجل خلفهما :

— من الذي كان سيدفع لي ثمن الوقود ؟

وكان النمل الطويل المعتم يغطي الطريق كلها ؛ وحاولت ساره لحظة ان تمشي بينها ، ولكن زعيق الزمامير عاد يلقي بها في الحفرة .

— إمش ورائي .

ولوت قدمها ، فتوقفت .

— إجلس .

وجلسا في العشب . وكانت الحشرات تزحف امامهما ، هائلة ، بطيئة ، عجيبة ؛ وكان هو يوليها ظهره ، وهو ما يزال يضغط بيده على المئة الفرنك اللامجدية ؛ وكانت السيارات تصرّ كأنها سرطان البحر ، وتغني كأنها صراصير . لقد بُدّل البشر حشرات . وكانت خائفة .

قال بابلو : — انه شرير ، شرير ، شرير !

قالت ساره بحماسة : — ليس ثمة من هو شرير .

— لماذا أخذ الحقيبة اذن ؟

قالت : — كان خائفاً .

وسأل بابلو : — ماذا ننتظر ؟

— ان تمرّ السيارات لنستطيع ان نسير على الطريق .

اربعة وعشرون كيلومتراً . إن الصغير يستطيع ان يمشي منها ثمانية

على الأكثر . وفجأة رقيت التلة ولوحت بيدها . وكانت السيارات تمر امامها ، فكانت تحس نفسها « مرئية » بعيون مختبئة ، بعيون ذبـاب ونمل غريبة .

— ماذا تفعلين يا ماما ؟

فقالت ساره بمرارة : — لا شيء . حماقات .

وعادت فهبطت الى الحفرة ، فأخذت يد بابلو وراحا ينظران الى الطريق في صمت . الطريق والظهور السلحفائية التي تجرجر نفسها فوقها . جيان ، اربعة وعشرون كيلومتراً . بعـد جيان ، نيفر ، ليموج ، بوردو ، هنداي ، في هنداي القنصليات والمساعي والانتظارات المذلة في المكاتب . ستكون محظوظة جـداً اذا وجدت قطـاراً الى لشبونة . وستكون معجزة اذا وجـدت في لشبونة باخرة الى نيويورك . وفي نيويورك ؟ إن غوميز لا يملك فلساً ؛ وربما كان يعيش مع امرأة ؛ سيكون ذلك مصيبة وعـاراً حتى النهـاية . سيفض البرقية ويقول : « تفه ! » ويلتفت نحو شقراء سمينة ذات شفتين وحشيتين تدخن سيكارة فيقول لها : « إن زوجتي عائا‌ة ، فما اقساهـا ضربة ! » إنه عـلى المحطة ، والآخرون يلوحون بمناديلهم ؛ امـ هو فلا يلوّح بمنديله ، واذا ... نظرة استياء .

ها ! لو كنت وحدي لما سمعتَ من اخباري ان أعيش لأربي الطفل الذي أولدتني اياه. »

تفت ، فظلت الطريق خالية . وفي الطرف قول صفراء وتلال . ومرّ رجل يركب قاً ؛ وكان يحرك رجليه في وحشية . من غير ان يقف :

قة .

ولكن كان قد لحق بسلسلة السيارات ، ورأته يتعلق بمؤخرة سيارة رينو . باريس تشتعل . ما جدوى العيش ؟ ولماذا تراني أحمي حياة هذا الصغير ؟ ألكي يتيه من بلد الى بلد ، مذعوراً يائساً ؟ ألكي يمضغ طوال نصف قرن اللعنة التي تثقل على بني جنسه ؟ ألكي يموت وهو في العشرين على طريق مقصوفة بالرشاشات ، وهو يمسك امعاءه بيديه ؟ بأبيك ستكون معتزاً ، شهوانياً وشريراً . اما بي ، فستكون يهودياً . وتناولت يده :

— هيا ، تعال ، لقد آن الاوان .

واكتسح الحشد الطريق والحقول ، كثيفاً ، عنيداً ، لا تمكن تهدئته : إنه طوفان . ليس من ضجة سوى احتكاك النعال الهامسة بالأرض . وغمرت ساره لحظة ضيق ، فارادت ان تهرب الى الحقول ، ولكنها تمالكت نفسها ، واخذت بابلو تجره مستسلمة . الرائحة . رائحة الرجال حارة ، آسنة ، مكبرتة ، حامزة ، معطرة . رائحة غير طبيعية لحيوانات تفكر . وبين رقبتين حمراوين كانتا تحتميان بطاقيتين ، رأت السيارات الأخيرة تنسل في البعيد ، الآمال الأخيرة . واخذ بابلو يضحك ، فانتفضت ساره ، وقالت وهي تحس الخجل :

— هس . يجب الا تضحك .

وكان ما يزال يضحك ، من غير ان يحدث صوتاً .

— لماذا تضحك ؟

فاجاب موضحاً : — إن ذلك يشبه الدفن .

وكانت ساره تحدس بوجوه وعيون ، الى يمينها والى يسارها ؛ ولكنها لم تكن تجرؤ على النظر اليها . كانوا يسيرون ؛ كانوا يصرون على السير كما كانت تصر هي على العيش : وكانت جدران من غبار ترتفع وتهوي عليهم ؛ وكانوا يسيرون ابداً . وكانت ساره مستقيمة مرفوعة الرأس ، تحدد نظرها بعيداً ، بين الرقاب ، وتردد

لنفسها : « لن أصبح مثلهم ! » ولكن بعد لحظة ، اخترقها هذا السير الجماعي ، وصعد من ساقيها الى بطنها . وأخذ يخفق فيها كقلب كبير مقسور ، قلب « الجميع » .

وسأل بابلو فجأة : — هل يقتلنا النازيون اذا أخذونا ؟

قالت ساره : — هس ! لا ادري .

— سيقتلون جميع الناس الموجودين هنا ؟

— ولكن اسكت ؛ اقول لك إني لا ادري .

— يجب إذن ان نركض .

وشدّت ساره على يده .

— لا تركض ، إبق هنا . إنهم لن يقتلونا .

والى يسارها ، كان ثمة نَفَس خشن . كانت تسمعه منذ خمس دقائق ، من غير ان تتنبه اليه . وقد انسلّ فيها ، وأقام في رئتيها ، وأصبح « نَفَسها » هي . وأدارت رأسها فرأت امرأة عجوزاً ذات خصلات رمادية كان العرق يدبقها . وكانت عجوزاً من المدن ، ذات خدين ابيضين وجيوب مائية تحت العينين ؛ وكانت تزفر . ولا بد انها قد عاشت ستين عاماً في باحة بـ « مونتروج » ، في بيت تابع لدكان بـ « كليشي » ؛ اما الآن ، فقد تركوها في الطرق ، وكانت تشدّ على خاصرتها حزمة مستطيلة الشكل ؛ وكانت كل خطوة تخطوها سقوطاً : كانت تسقط بقدم على الأخرى ، ورأسها يسقط في الوقت نفسه : « من الذي نصحها ان ترحل ، وهي في تلك السن ؟ أليس يكفي الناس ما يعانونه من شقاء حتى يذهبوا الى اختراع المزيد منه؟» كانت الطيبة تصعد في ثدييها كأنها الحليب : سوف اساعدها ، سآخذ منها حزمتها ، وتعبها ، وهمومها . وسألت في رقة :

— هل انت وحيدة ، يا سيدتي ؟

فلم تُدر العجوز حتى رأسها . فقالت ساره بصوت أعلى :

— يا سيدتي ! هل انت وحدك ؟

فنظرت اليها العجوز نظرة مغلقة . وقالت ساره :

— استطيع ان احمل حزمتك .

وانتظرت لحظة ، .وكانت تنظر الى الحزمة في شهوة . واضافت بصوت ملحّ :

— أعطيني اياها ، ارجوك : فسأحملها ما دام الصغير يستطيع المشي.

قالت العجوز : — انني لا أعطي حزمتي .

— ولكنك مرهقة ، ولن تستطيعي المضي حتى النهاية .

فقذفتها العجوز بنظرة حاقدة ، وحادت خطوة وأجابت :

— انني لا اعطي احداً حزمتي .

فتنهدت ساره وصمتت . وكانت طيبتها التي لم تنفقها تملأها كأنها غاز . انهم لا يريدون ان نحبهم . وكانت بضعة رؤوس استدارت اليها، فاحمرت خجلا . انهم لا يريدون ان نحبهم ، فهم لم يألفوا ذلك.

— الا يزال المكان بعيداً ، يا ماما ؟

فاجابت ساره منزعجة : — مثل ما كان تقريباً منذ حين .

— إحمليني يا ماما .

فهزت ساره كتفيها : « انه يمثل .. لقد غار لاني اردت ان احمل حزمة العجوز . »

—جرب ان تمشي قليلا بعد .

— لا استطيع بعد ، يا ماما . إحمليني .

فتركت يــده في غضب ، سوف يأخذ مني كل قواي ، ولــن استطيع بعد ان أساعد أحــداً . سوف تحمل الصغير ، كما تحمل العجوز حزمتها ، وستصبح شبيهة بهم .

وقال يفحص برجله الارض :

— إحمليني . إحمليني .

فهمست بقسوة : — انك لم تتعب بعد ، يا بابلو . فقد خرجت الساعة من السيارة .

فأخذ الصغير ينطنط ؛ وكانت سارة تمشي رافعة الرأس ، جاهدة ألا تفكر به بعد ، وبعد لحظة ، رمته بنظرة مواربة فرأت انه كان يبكي . كان يبكي بهدوء ، في غير ما صوت ، لنفسه وحدها ، وكان بين الفينة والفينة يرفع أصابعه الصغيرة ليسحق الدموع على وجنتيه . واستشعرت الخجل ، وفكرت : « انني مفرطة القسوة . طيّبة مع الجميع بدافع الفخر ، قاسية معه لانه لي . » كانت تعطي نفسها للجميع وتنسى نفسها ، تنسى انها كانت يهودية ، وانها كانت هي نفسها معذبة ، وكانت تهرب الى احسان عظيم غير ذاتي ، وفي تلك اللحظات ، كانت تحتقر بابلو لانه كان لحم لحمها وكان يعكس لها جنسها . ووضعت يدها الكبيرة على رأس الصغير ، وفكرت : « ليس الذنب ذنبك ان كان لك وجه ابيك وجنس امك . » وكانت حشرجة العجوز الصافرة تدخل رئتيها . « ليس لي الحق بان اكون كريمة الإحسان » ونقلت حقيبتها الى يدها اليسرى وجثت وهي تقول بمرح :

— ضع ذراعيك حول عنقي . وخفّف جسمك . هوب ؟ انني أرفعك .

وكان ثقيلا ، وكان يضحك بملء فمه ، وكانت الشمس تجفف دموعه ، لقد أصبحت شبيهة بالآخرين ، واحداً من القطيع ، وكانت السنة من نار تلحس رئتيها لدى كل زفرة؛ كان ألم حاد ينشر كتفها ، وكان تعب ليس هو بالسخيّ ولا بالمراد يخفق في صدرها كالطبل .تعب امرأة وتعب يهودية ، «تعبها» ، «قدَرها» وامحى الأمل. انها لن تصل ابداً الى « جيان » . لا هي ولا احد . لم يكن لأحد أمـل ، لا العجوز ، ولا الرقبتـان ذواتا القبعتين ، ولا الزوجان اللذان كانـا

يدفعان دراجة منفجرة العجلتين . ولكننا مأخوذون في الجمع ، والجمع يمشي ونحن نمشي . اننا لسنا بعد الا ارجل هذا القمل الذي لا ينفد . فما جدوى السير اذ يكون الامل ميتاً ؟ ما جدوى الحياة ؟

وحين بدأوا يصرخون ، لم تكد تدهش ؛ وتوقفت بينما كانوا يتبددون ويقفزون على التلال وينبطحون في الحفر . وتركت محفظتها تسقط ، وظلت في وسط الطريق ، مستقيمة ، وحيدة ، معتزة ؛ وكانت تسمع هدير السماء ، وكانت تنظر عند قدميها الى ظلها الذي أصبح طويلا ، وكانت تشدّ بابلو الى صدرها ، وامتلأت اذناها صخباً وضجيجاً ، وكانت ، للحظة ، كائناً ميتاً . ولكن الهدير تناقص ، ورأت شراغيف تجري في ماء السماء ، وخرج الناس من الحفر ، وكان لا بد من العودة الى الحياة ، والى السير .

قال ريتشي : — إنه بالاجمال لم يكن لئيماً : فقد دعانا للغداء وأعطاك مئة دولار مسبقاً .

فقال غوميز : — نعم ! صحيح ..

وكانا في الطابق الارضي من « متحف الفن الحديث » ، في قاعة « المعروضات الموقتة » . وكان غوميز يولي ريتشي واللوحات ظهره ، مسنداً جبينه الى الزجاج ، ينظر في الخارج الى الزفت والى عشب الجنينة الدقيق . وقال من غير ان يلتفت :

— ربما كان في استطاعتي الآن ان افكر بشيء آخر غير طعامي .

فقال ريتشي في طيبة :

ـ لا بد انك مسرور تماماً .

وكانت تلك دعوة خفية : لقد وجدت عملا ، فكل شيء على خير ما يرام ، في خير العوالم ؛ ويحسن بك ان تظهر حماسة بناءة .

ورمى غوميز من فوق كتفــه نظرة معتمة لريتشي : مسرور ؟ انك انت المسرور ، لأنك لن تحملني بعد على ظهرك .

وكان يحس أنه عاق الى ابعد الحدود الممكنة . وقال :

— مسرور ؟ سوف نرى .

فقسا وجه ريتشي قليلاً :

— ألست مسروراً؟

فردّد غوميز وهو يقهقه :

— سوف نرى .

وترك جبينه يتداعى ثانية على الزجاج ، ونظر الى العشب في مزيج من الطمع والنفور . كانت الألوان قد تركته حتى ذلك الحين هادئاً ، ولله الحمد : كان قد دفن ذكريات ذلك الزمن الذي كان يتيه فيــه عبر شوارع باريس ، موسوساً مأخوذاً ، ، مسعور الكبرياء امــام قدَره ، ومردداً مئة مرة في اليــوم : انني رسام . ولكن رامون كان قد أعطى المال ، وكان غوميز قد شرب خمرة « شيلي هوايت » وتحدث عن بيكاسو للمرة الاولى منذ ثلاثة أعوام . وكان رامون قد قال : « بعد بيكاسو ، لا ادري ما يمكن لرسام ان يفعل » فابتسم غوميز ، وقال : « اما انا ، فأدري . » ، وكانت شعلة جافة قــد انتعشت في قلبه . واذ خرج من المطعم : أحسّ كما لو انــه قد اجريت له عملية السادّة [١] : فان جميع الألوان كانت قد أضاءت في الوقت نفسه تدعوه للعيد ، كما في عام ٢٩ ، كان مهرجان «رودوت» الراقص ، والكارنفال ، والفانتازيا ؛ وكان الناس والاشياء قد احتقنت الوانهم ، فكان بنفسج ثوب ما يحول الى العقيق ، وباب دكان احمر يميل الى القرمز ، وكانت الألوان تخفق خفقاً شديداً في الأشياء ، كأنها نبضات مجنونة ؛ كانت انطلاقــات واهتزازات تتضخم حتى

(١) الماء الازرق في العين

لتنفجر ؛ وكانت الاشياء على وشك ان تتحطم او تسقط هامدة ، وكان ذلك كله يصيح ويشتم ، فكأنها السوق الحافلة . وكان غوميز قد رفع كتفيه : ان الالوان تعاد اليه وقد كفّ عن الايمان بقدره ؛ إن ما ينبغي ان يعمل ، أعرفه جيداً ، ولكن سيقوم به شخص آخر . وكان قد تعلق بذراع ريتشي ، وحث خطاه ، محدّد البصر ، ولكن الالوان كانت ترهقه من جانب ، وكانت تنفجر في عينيه ككرات من دم وصفراء . وكان ريتشي قد دفعه في المتحف ، وها هو الآن هنا ، وهناك تلك الخضرة ، من الجانب الآخر من الزجاج ، هذه الخضرة الطبيعية المبهمة التي لم تكتمل ، كأنها افراز عضوي شبيه بالعسل ، واللبن السميك . كان ثمة تلك الخضرة التي ينبغي ان تؤخذ: سوف اجتذبها وأحيلها الى حالة التأجج بالبياض ... وما عساني أفعل بها : لقد كففت عن الرسم . وتنهد : إن الناقد الفني لا يؤجر على عمله ليهتم بالعشب الطاغي ، وانما هو يفكر في افكار الآخرين . وخلفه كانت الوان الآخرين تتمدد على اللوحات : مقتطفات ، وجواهر ، وافكاراً . لقد حظيت تلك الألوان بأن تصل ؛ فقد نُفخت ودُفعت الى اقصى حدود نفسها وقد حققت قدرها ، فليس ثمة بعدُ إلا ان تحفظ في المتاحف . الوان الآخرين ، إنها الآن نصيبه . وقال :

— اسمع ، يجب ان اكسبها ، المئة دولار .

والتفت : كان ثمة خمسون لوحة « لمودريان » على جدران هذه العيادة البيضاء : رسم معقم في قاعة مكيفة ؛ ليس ثمة ما هو مريب ؛ إن المرء عنجى من الميكروبات والعواطف المهووسة . واقترب من لوحة فتأملها مطولا . وكان ريتشي يرقب وجه غوميز ويبتسم مقدّماً . وتمتم غوميز :

— انها لا توحي لي بشيء .

فكفّ ريتشي عن الابتسام ، ولكنه بدا متفهماً جداً ، فقال

في لباقة :

— طبعاً ؛ ليس من الممكن ان تستعيد حسك الفني على الفور ، بل ينبغي ان تمارسه من جديد .

فردد غوميز مغتاظاً :

— أمارسه من جديد ؟ لا بصدد «هذه» .

وأدار ريتشي رأسه نحو اللوحة . كان خط عمودي أسود يقطعه خطان افقيان ، يرتفع على أرضيـــة رمادية ؛ وكان الطرف الأيسر للخط الاعلى تكلله اسطوانة زرقاء .

— كنت أحسب انك تحبّ مودريان .

قال غوميز : — وانا ايضاً كنت احسب ذلك .

وتوقفا أمام لوحة اخرى ؛ وكان غوميز ينظر اليهـــا محاولا ان « يتذكر » وسأله ريتشي في قلق :

— أمن الضروري حقاً ان تكتب عنها ؟

— ليس ذلك ضرورياً . ولكن رامون يريد ان اكرّس له مقالي الاول . واعتقد انه يجد ان ذلك يوحي بالجدّ .

قال ريتشي : — كن حكيماً ، ولا تبدأ بنقد شديد .

فسأل غوميز منتفضاً : — ولِمَ لا ؟

وابتسم ريتشي في سخرية هادئة :

— واضح انك لا تعرف الجمهور الاميركي ، انه لا يريد خصوصاً ان يُذعر . ابدأ بتحقيق شهرة لنفسك : قل اشياء بسيطة ومعقولة ، وقلها بطريقة لذيذة . واذا أصررت على مهاجمة احد ، فلا تختر على كل حال مودريان : انه إلهنا .

قال غوميز : — عجباً . انه لا يثير قضية .

فهزّ ريتشي رأسه وطقطق بلسانه مرات ، علامة المعارضة وقال :

— بل هو يثير قضايا كثيرة .

– نعم ، ولكنها ليست قضايا مزعجة .

قال ريتشي : – آه ، تعني قضايا حول الجنسية او معنى الحياة او الفقر ؟ صحيح انك تلقيت دروسك في المانيا .

وأضاف وهو يربت على كتفه :

– « الغروندليشكايت » ؟ أليس كذلك ؟ الا ترى ان زمن ذلك قد تولّى ؟

فلم يجب غوميز .

وقال ريتشي :– رأيي هو ان الفن لم يجعل ليطرح قضايا مزعجة ، افرض أن أحداً جاء يسألني ان كنت قد اشتهيت أمي : انني اسارع بطرده ، إلا ان يكون محققاً علمياً . ففي هذه الظروف ، لا أفهم لماذا يسمح للرسامين ان يسألوني علناً عن عُقَدي . (وأضاف بلهجة مصالحة) انني كسائر البشر ، ولي مشكلتي ، غير انها اذا ارهقتني فلا اقصد المتحف ، بل أتصل بعالم نفسي . فلكل مهنته : ان العالم النفسي يوحي لي بالثقة لانه قد سبق له ان درس نفسيته بالذات . وما لم يفعل الرسامون مثل ذلك ، فسيظلون يتحدثون عن كل شيء خبط عشواء ، ولن اطلب منهم ان يضعوني تجاه نفسي .

وسأله غوميز في شرود :

– وماذا تطلب منهم ؟

وكان يرقب اللوحة في عناد شرس ، ويفكر : « انه ماء رائق . » وقال ريتشي :

– إنني اطلب منهم البراءة . فهذه اللوحة ...

– ما بها ؟

فقال في نشوة : – انها ساروفيمية . اننا ، نحن الاميركيين ، نريد رسماً للبشر السعداء او الذين يحاولون ان يكونوا سعداء .

قال غوميز : – انا لست سعيداً ، وسأكون قذراً جباناً إن حاولت ان اكونه حين يكون جميع رفاقي في السجن او اعدموا رمياً بالرصاص .

وطقطق لسان ريتشي من جديد وقال :

– انني يا عزيزي افهم جيداً همومك كانسان . الفاشية ، هزيمة الحلفاء ، اسبانيا ، زوجتك ، طفلك : بكل تأكيد ! ولكن يحسن احياناً الارتفاع فوق هذا .

قال غوميز : – لن افعل ذلك لحظة واحدة ! لحظة واحدة !

فاحمر ريتشي بعض الشيء ، وسأله :

– ما الذي كنت ترسم إذن ؟ اضرابات ؟ مجازر ؟ رأسماليين يرتدون قبعاتهم ؟ جنوداً يطلقون النار على الشعب ؟

فابتسم غوميز .

– انت تعلم انـي لم اؤمن قط ايماناً كبيراً بالفن الثوري . والآن ، كففت عن الايمان به تماماً .

قال ريتشي : – وإذن ؟ نحن على اتفاق .

– ربما . ولكني في الوقت نفسه أتساءل عما إذا لم اكفّ عن الايمان بالفنّ اطلاقاً .

فسأله ريتشي : – وبالثورة اطلاقاً ؟

فلم يجب غوميز ، واستعاد ريتشي بسمته :

– انتم المثقفين الاوروبيين ، تسلّونني : إنكم تشعرون بعقدة نقص تجاه «العمل» .

فالتفت غوميز فجأة وامسك بذراع ريتشي :

– تعال ! لقد رأيتهم بما فيه الكفاية . انني اعرف موندريان عن ظهر قلب ، فبوسعي ان اخربش مقالاً . فلنصعد .

– الى اين ؟

– الى الطابق الاول . اريد ان أرى الآخرين .

– أيّ آخرين ؟

وكانا يجتازان قاعات العرض الثلاث . وكان غوميز يدفع ريتشي أمامه من غير ان ينظر الى شيء . وردّد ريتشي في انزعاج :

– أيّ آخرين ؟

– جميع الآخرين . كلي ، روو ، بيكاسو : اولئك الذين يطرحون قضايا مزعجة .

وكانا عند اسفل السلم . وتوقف غوميز . فنظر الى ريتشي في تململ وقال بما يشبه الخجل :

– انها اللوحات الاولى التي اراها منذ عام ٣٦ .

فردّد ريتشي مشدوهاً : – منذ ٣٦ ؟

– انما سافرت الى اسبانيا في تلك السنة بالذات . وكنت في تلك الفترة أنقش الصور على النحاس . وهناك صور لم يتح لي ان أنجزها ، وهي باقية على طاولتي .

– منذ ٣٦ ؟ ولكن في مدريد ؟ لوحات « البرادو » ؟

– لقد نُهبت وأخفيت وبُعثرت .

فهزّ ريتشي رأسه :

– لا بدّ انك تألمت كثيراً .

فضحك غوميز ضحكاً خشناً وقال : – كلا .

فتلونت دهشة ريتشي بالعتاب :

– انا شخصيـاً لم ألمس قط فرشاة ، ولكن « يجب » ان اذهب الى جميع المعارض : فهـذه حاجة . فكيف يستطيع رسّام ان يبقى اربعة اعوام من غير ان يرى رسماً ؟

قال غوميز : – انتظر ، انتظر قليلاً ! فسأعرف بعد دقيقة ان كنت ما ازال رساماً .

ورقيا السلم فدلفا الى القاعة . وكانت عـلى الجدار الايسر لوحة لروو ، حمراء وزرقاء . وانزرع غوميز امامها ، فقال ريتشي :

– انه ملك مرزّبان !

فلم يجب غوميز ، وقال ريتشي :

– انا شخصياً لا أتذوّق كثيراً روو . اما انت ، فلا بد ان ذلك

يروق لك .

— ولكن اسكت لحظة !

ونظر فترة اخرى ، ثم خفض رأسه وقال :

— هيّا بنا .

قال ريتشي : — ان كنت تحب لوحات روو ، ففي الداخل لوحة أجدها اجمل كثيراً .

قال غوميز : — لا حاجة الى ذلك . فقد أصبحت أعمى .

فنظر اليه ريتشي فاغر الفم وصمت . وهزّ غوميز كتفيه قائلا :

— كان ينبغي ألا اطلق النار على الناس .

وهبط السلم ، وكان ريتشي متصلباً جداً ، متكلف الوقار . وفكر غوميز : « انه يجدني مشبوهاً » . اما ريتشي ، فقد كان ملاكاً ، بالطبع ؛ وكان بالامكان ان يقرأ الانسان في عينيه عناد الملائكة ؛ وقد سبق لأجداده ، الذين كانوا ملائكة كذلك ، ان أحرقوا بعض السحرة في ساحات بوسطن . « انني أعرق ، وانا مسكين . ولي افكار مشبوهة . افكار من اوروبا ؛ وسينتهي الأمر بملائكة اميركا الى احراقي . » هناك كانت المعسكرات ، أما هنا ، فالمحرقة : ولم يكن له الا حيرة الاختيار .

وكانا قد بلغا قاعة البيع ، بالقرب من المدخل . فقلّب غوميز في شرود مجموعة من صور اللوحات المنسوخة . إن الفنّ متفائل . وقال ريتشي :

— اننا ننجح في صنع صور رائعة . انظر هذه الألوان : انها اللوحة نفسها .

جندي ميت ، وامرأة تصيح : انعكاسات على قلب هادىء . إن الفن متفائل ؛ والآلام مبررة ما دامت تصلح لخلق الجمال . انني « لست » هادئاً ، ولا « اريد » ان أبرر الآلام التي رأيت . باريس.. والتفت فجأة الى ريتشي :

— اذا لم يكن الرسم « كل شيء » كان مزاحاً .

– ماذا تقول ؟

فأغلق غوميز المجموعة بعنف وقال :

– ليس بالامكان رسم « الشر » .

وكان الحذر قد ثلّج نظر ريتشي ، فكان يتأمل غوميز بطريقة بلدية . وضحك فجأة في طلاقة ، ودسّ إصبعه بين جنبيه :

– اني افهمك يا عزيزي ! اربعة اعوام من الحرب : انك بحاجة الى تربية جديدة كاملة .

فقال غوميز : – لا حاجة بي الى ذلك . فانا على وشك ان اصبح ناقداً .

وساد صمت ، ثم قال ريتشي على عجل :

– هل تعلم ان في الطابق الارضي قاعة سينما ؟

– اني لم اضع قدمي هنا قط .

– وهم يعرضون افلاماً كلاسيكية وافلام وثائق .

– أراغب إنت في الذهاب اليها ؟

قال ريتشي : – ينبغي ان ابقى في هذه الانحاء ، فعندي موعد في الساعة الخامسة ، على بعد سبع محطات .

واقتربا من عمود خشبي فقرأا البرنامج ؛ وقال ريتشي :

– « القافلة نحو الغرب » : رأيتها ثلاث مرات . ولكن استخراج اللآلىء من « الترانسفال » يمكن ان يكون مسلياً (وأضاف برخاوة) هل تأتي ؟

فقال غوميز : – لا أحبّ اللآلىء .

فبدا على ريتشي العزاء . وبسم له بسمة عريضة برزت معها شفتاه بروزاً ظاهراً ، وربت على كتفه ، وقال له بالانكليزية ، كما لو أنه يسترد في وقت واحد لغته الام وحريته :

الى اللقاء .

ففكر غوميز : « لقــد آن الاوان لشكره » ولكنه لم يستطع ان ينتزع كلمة ، فشدّ على يده في صمت .

وفي الخارج ، كان الاخطبوط ؛ وجذبه الف فم ، وكان المـاء يلتمع من مسامه ، فبلل قميصه دفعة واحدة ، وكانت تمر امام عينيه شفرة محمرّة . لا بأس ! لا بأس ! كان فرحاً لأنه غادر المتحف : كان الحر بلاء عظيماً ، ولكنه كـان حقيقيـاً . وكانت حقيقيةً تلك السماء الهندية التي كانت رؤوس ناطحات السحاب تدفعها فتعليها عـلى جميع سماوات اوروبا ؛ وكان غوميز يمشي بين بيوت قرميدية حقيقية هي من فرط البشاعة بحيث لا يفكر احد بدهنهـا ، وتلك البناية العالية البعيدة التي كانت تشبه ضربة فرشاة خفيفة على قماشة ، كسفن كلود لورين ، كـانت حقيقية ، ولم تكن سفن كلود لورين حقيقيـة : فاللوحات هي احلام . وفكر في تلك القرية من مقاطعة « سيارامادر » حيث جرى قتال دام من الصباح حتى المساء : لقد كان على الطريق حمرة حقيقية . وصمم في سرور مرير : لن ارسم بعد الآن ابداً . من هـذه الناحية من المرآة ، « هنا » بالذات ، « هنا » ، مسحوقاً في كثافة هـذا الأتون ، عـلى « هـذا » الرصيف المحرق ؛ كـانت « الحقيقة » تنصب حوله جدرانهـا العـالية ، فتسد جميـع منافـذ الأفق ؛ لم يكن ثمة شيء آخر في العـالم ، غير هـذا الحر وهـذه الحجـارة ، لولا الأحلام . وانعطف في الجـادة السابعـة ، ودحرجت الجموع مدّها عليه ، وكانت الامواج تحمل في قممهـا باقات من عيون ملتمعة وميتة ، وكان الرصيف يرتجف ، وكانت الألوان المحررة تلطخه ، وكانت الجموع ترسل بخاراً شبيهاً بالذي يرسله قماش رطب تحت حرارة الشمس ؛ بسمات وعيـون ، إلاّ ألاّ تبتسم ، عيون غائمة او واضحة ، عجلة او بطيئـة ، كلها ميتة . وحاول ان يتابع المهزلة : ناس حقيقيون ، ولكن لا :

مستحيل ! واصطفق كل شيء في يديه ، وانطفأت فرحته ؛ كانت لهم عيون كتلك التي في الصور . اتراهم يعلمون ان باريس قد سقطت ؟ اتراهم يفكرون في ذلك ؟ كانوا جميعاً يمشون مشية مستعجلة ، وكان زبد انظارهم الابيض يلامسه لدى المرور . وفكر : ليسوا هم الحقيقين ، وانما هم الأشباه . فاين هم الحقيقيون ؟ انهم في اي مكان، ولكنهم ليسوا هنا . ليس ثمة من هو هنا حقاً ، وانا والآخرون في ذلك سواء . كان شبه غوميز قد استقل الاوتوبيس ، وقرأ الجريدة وبسم لرامون ، وتحدث عن بيكاسو ، ونظر الى لوحات مودريان . كنت أجتاز باريس ، شارع رويال خال ، وساحة الكونكورد خالية ، وعلم ألماني يرفرف على مجلس النواب ، وفرقة من الجستابو تمر تحت قوس النصر ، والسماء منقّطة بالطائرات ، وانهارت جدران القرميد ، ودلفت الجموع تحت الارض ، وكان غوميز يمشي وحيداً في باريس. في باريس ، في الحقيقة ، « الحقيقة » الوحيـدة ؛ في الدم ، وفي الحقد ، في الهزيمة وفي الموت ، وتمتم وهو يحرّق الأرّم : « يـا للفرنسيين القذرين ! انهم لم يستطيعوا المقاومة ، بل فروا كالأرانب . كنت أعرف ذلك، كنت أعرف انهم هالكون ». وانعطف الى اليمين وسلك الشارع ٥٦ ، وتوقف امام حانة - مطعم فرنسية : « ألابيتيت كوكيت » ونظر الى الواجهة الحمراء والخضراء ، وتردد لحظة ، ثم دفع الباب : كان يريد ان يرى الهيئة التي يبـدو عليها الفرنسيون .

وفي الداخل ، كان الجو معتماً ورطبـاً تقريباً ؛ وكانت الستائر مسدلة ، والمصابيح مضاءة .

وسرّ غوميز للعودة الى النور الاصطناعي . وكانت القاعة الداخلية الغارقة في الظلام والصمت هي المطعم . وكان شاب قوى البنية مقصوص الشعر جالساً الى المشرب ، وعيناه ثابتتان خلف نظارته ؛ وكان رأسه يسقط الى الامام بين الفينة والفينة ، ولكن سرعان ما يرفعه في كثير

من الوقار . وجلس غوميز على مقعد مرتفع امام المشرب ، وكان يعرف الساقي بعض المعرفة ، فقال بالفرنسية :

— زجاجة ويسكي سكوتش مزدوجة . وهل لديك صحيفة من صحف اليوم ؟

فأخرج الساقي جريدة « النيويورك تايمس» من درج وأعطاه اياها . وكان فتى اشقر ذا هيئة حزينة ودقيقة ؛ ولو لم تكن لهجته بورجيّة ، لكان يُحسب من سكان « ليل » . وتظاهر غوميز بانه يقرأ التايمس ثم رفع رأسه فجأة . كان الساقي ينظر اليه نظرة متعبة .

قال غوميز : — الأخبار ، ليست سارة اليس كذلك ؟

فهزّ الساقي رأسه ، وقال غوميز :

— لقد سقطت باريس .

فأرسل الساقي صفرة كئيبة ، وملأ قدحاً صغيراً بالويسكي ثم أفرغ محتواه في قدح كبير ، وأعاد العملية ، ثم دفع القدح أمام غوميز . وأدار الاميركي ذو النظارة عينين زجاجيتين اليهما لمدة لحظة ، ثم انحنى رأسه بارتخاء ، كما لو انه كان يحييهما .

— سودا ؟

— نعم .

وأضاف غوميز من غير ان تثبط عزيمته :

— اعتقد ان فرنسا قد ضاعت .

فتنهد الساقي من غير ان يجيب ، وفكر غوميز في فرحة قاسية ، انه كان اشقى من ان يستطيع التكلم . فألحّ بما يشبه الحنان :

— ألا تظن ذلك ؟

وكان الساقي يسكب مـاء غازياً في قدح غوميز . ولم يكن غوميز يغادر بعينيه هذه السحنة القمرية التي تنزع الى البكاء . سيقول له في اللحظة المناسبة : « ماذا فعلتم من اجل اسبانيا ؟ حسناً ! لقد جـاء

دوركم في الرقص . »

ورفع الساقي عينيه واصبعه ؛ وتكلم فجأة بصوت هــادىء ، يخن بعض الشيء ، في لهجة « بورجية » فقال :

— إن لكل شيء ثمناً .

فقهقه غوميز وقال :

— أجل ، إن لكل شيء ثمناً .

واجال الساقي اصبعه في الهواء فوق رأس غوميز : نجم مذنب يعلن نهاية العالم . ولم يكن يبدو عليه انه شقي على الاطلاق ، وقال :

— ستعرف فرنسا ما يكلفها ان تتخلى عن حلفائها الطبيعيين .

ففكر غوميز مندهشاً : « مــا الذي يقول ؟ » ان النصر الوقح الحاقد الذي كان ينوي تفجيره على وجهه ، انما يفاجئه الآن في عيني الساقي . وبدأ يقول في حذر ، محاولا جسه :

— إن تشيكوسلوفاكيا حين ...

فهزّ الساقي كتفيه وقاطعه قائلا في ازدراء :

— تشيكوسلوفاكيا !

فقال غوميز : — ماذا ؟ لقد تخليتم عنها !

وكان الساقي يبتسم ، وقال :

— اسمع يا سيدي .. إن فرنسا حين كانت تحت سلطة « لويس » المحبوب ، لم يكن قد بقي لها غلطة لم ترتكبها .

قال غوميز : — آه انت كندي ؟

فقال الساقي : — انني من مونتريال .

— كان ينبغي ان تخبرني .

ووضع غوميز الجريدة على المشرب . وسأل بعد لحظة :

— الا يأتي الى هنا فرنسيون على الاطلاق ؟

فأومأ الساقي بسبابته الى نقطة تقــع خلف ظهر غوميز ، فالتفت

غوميز ، فاذا هو بعجوز جالس الى طاولة يغطيها خوان ابيض ، وهو يحلم امام صحيفة . فرنسي « حقيقي » ذو سحنة كثيفة ، مشققة ، محروثة ، وعينين براقتين قاسيتين ، وشارب رمادي . وكانت وجنتاه بالنسبة لوجنتي الاميركي الجميلتين ، تبدوان مقدودتين من مادة مسكينة على الأقل . فرنسي « حقيقي » ، في قلبه يأس حقيقي . وقال :

— عجباً : انني لم اتنبه لوجوده .

قال الساقي : — هذا السيد هو من «روان» . انه زبون .

وشرب غوميز قدحــــه جرعة واحدة وقفز الى الارض الخشبية . « ماذا فعلتم من أجل اسبانيا ؟ » ورآه العجوز قادماً من غير ان يظهر دهشة . وانزرع غوميز امام الطاولة وتأمل هذا الوجه المسن في شراهة :

— انت فرنسي ؟

قال العجوز : — نعم .

فقال غوميز : — انني ادعوك الى تناول قدح .

— شكراً ليس هذا يوماً مناسباً .

فسأله وهو يضع اصبعه على عنوان الجريدة :

— بسبب هذا ؟

— بسبب هذا .

قال غوميز : — انما ادعوك الى قدح ، بسبب هذا بالذات . لقد سكنت فرنسا عشر سنوات ، وما زالت زوجتي وابني فيها . ويسكي ؟

— ما دام الأمر كذلك ، فبلا سودا .

فطلب غوميز : — سكوتش بلا سودا ، وسكوتش بسودا .

وصمتا ، وكان الاميركي ذو النظارة قد استدار فوق كرسيه وأخذ ينظر اليهما صامتاً .

وفجأة سأل العجوز :

— اتراك لست ايطالياً ؟

فابتسم غوميز وقال :

ــ لا . لست ايطالياً .

فقال العجوز :

ــ إن الطليان قذرون .

« والفرنسيون ؟ » واستعاد غوميز صوته الرقيق ليسأل :

ــ هل لك هناك من احد ؟

ــ في باريس ، لا . ولكن احفادي في « مولين » .

ونظر الى غوميز في تنبّه :

ــ انني ألاحظ انك لست هنا منذ وقت طويل .

فسأله غوميز : ــ وانت ؟

ــ انني مقيم هنا منذ ٩٧ . لقد أصبح ديناً ثقيلا .

واضاف :

ــ انني لا احبهم .

ــ ولماذا انت باقٍ هنا ؟

فهزّ العجوز كتفيه وقال :

ــ انني اكسب المال .

ــ هل انت تاجر ؟

ــ بل حلاق . وحانوتي على بعد محطتين . وقد كنت اقضي شهرين في فرنسا ، كل ثلاثة اعوام . وكان المفروض ان اذهب اليها هذا العام ، ولكن ها نحن ذا .

قال غوميز : ــ أجل ، ها نحن ذا .

واستطرد العجوز :

ــ منذ هذا الصباح ، قصد حانوتي اربعون زبوناً . يحدث هذا في بعض الأيام . وقد كانوا يريدون كل شيء : حلاقة الذقن ، وقص الشعر ، وشامبوانغ ، وتدليك بالكهرباء . ربما ظننتَ انهم كانوا

يحدثوني عن بلدي ؟ على الاطلاق ! لقد كانوا يقرأون جرائدهم من غير ان ينبسوا بكلمة ، وكنت ارى العناوين بينما كنت أحاق ذقونهم . وكان بينهم زبائن في العشرين ، ولم يقولوا شيئاً . ولقد كان من حظهم اني لم اجرحهم ، كانت يدي ترتجف . واخيراً تركت عملي وجئت الى هنا .

قال غوميز : — انهم لا يبالون .

— ليست القضية انهم الى هذا الحدّ لا يبالون ، ولكنهم لا يجدون الكلمة التي ترضي . ان باريس كلمة تعني شيئاً في نظرهم . فهم لن يتحدثوا عنها : لأن ذلك يمسّهم بالذات هكذا ، هم .

وكان غوميز يتذكر جموع « الجادة السابعة » ، وقال :

— جميع هؤلاء الاشخاص في الشارع ، أتظنّ انهم يفكرون بباريس؟

— نعم ، على نحو ما . ولكنهم لو تعلم لا يفكرون كما نفكر نحن . فاذا اراد الاميركي ان يفكر في شيء يزعجه ، بذل كل ما في وسعه كيلا يفكر فيه .

وجاء الساقي بالقدحين ، فأخذ العجوز قدحه ونهض قائلاً :

— طيب ! نخبك .

قال غوميز : — نخبك !

وابتسم العجوز بحزن :

— اننا لا نعرف تماماً ما الذي ينبغي ان يتمناه احدنا للآخر ، أليس كذلك ؟

واستدرك ، بعد لحظة تفكير ، قائلاً :

— بلى : اني اشرب نخب فرنسا ، نخب فرنسا ، رغم كل شيء . ولم يكن غوميز يريد ان يشرب نخب فرنسا .

— نخب دخول الولايات المتحدة الحرب .

فضحك العجوز ضحكة قصيرة وقال :

— من اجل هذا ، تستطيع ايضاً ان تشرب .

وافرغ غوميز قدحه ، والتفت الى الساقي :

— قدحان آخران .

كانت به حاجة الى الشرب . كان منذ لحظة يحسب نفسه وحيداً للاهتمام بفرنسا ، وكان سقوط باريس « قضيته » : مصيبة بالنسبة لاسبانيا ، وفي الوقت نفسه عقاباً بالنسبة للفرنسيين . ولكنه يعلم الآن انها كانت تطوف حول المشرب ، وانها تدور وتدور بشكل مبهم ومجرد عبر ستة ملايين روح . وكان ذلك امراً لا يحتمل تقريباً : فقد قُطعت صلته الشخصية بباريس ، فليس هو بعد الا مهاجراً حديث العهد يستولي عليه ، ككثير غيره ، وسواس جماعي .

قال العجوز : — لا ادري ان كنتَ ستفهمني ، ولكن ها قد مر عليّ اكثر من اربعين عاماً وانا اعيش هنا ، ولكن منذ هذا الصباح فحسب وانا احسب نفسي في بلد اجنبي حقاً ، انني اعرفهم ولا اقع من ذلك في الاوهام ، اقسم لك . ولكني كنت اظنّ مع ذلك انني لا بدّ ان اجد شخصاً يمدّ لي يده او يقول كلمة .

واخذت شفتاه ترتعشان ؛ وردّد :

— زبائن في العشرين من العمر .

كان غوميز يقول في نفسه : « هذا فرنسي . واحد من الذين كانوا ينادوننا : **Frente Crapular** » ولكنه لم يكن ينجح في ان يبتهج ؛ وقرر اخيراً انه « عجوز اكثر مما ينبغي » وكان العجوز ينظر في الخلاء ، وقال من غير ان يؤمن كثيراً بما يقول :

— لاحظ : ربما كان ذلك بدافع التحفّظ .

فهمهم غوميز . وقال العجوز :

— هذا ممكن . هذا ممكن جداً . ان كل شيء ممكن معهم .

واضاف باللهجة نفسها :

— كان لي بيت في « روان » ، وكنت انوي ان اركن اليه . اما الآن ، فانا اقول في نفسي بأنني سأموت هنا : وهذا يغيّر وجهة النظر .

ففكر غوميز : « طبعاً ، طبعاً ، ستموت هنا . » ولوى رأسه ، وكانت به رغبة في الذهاب ، ولكنه استدرك نفسه ، واحمر فجأة ، فزرع نظره في عيني العجوز وسأل بصوت صافر :

— هل كنت من مؤيدي التدخل في اسبانيا ؟

فسأل العجوز مذعوراً : — ايّ تدخل ؟

وتأمل غوميز في اهتمام :

— هل انت اسباني ؟

— نعم .

— لقد لحق بكم انتم ايضاً كثير من المصائب .

فقال غوميز بصوت محايد :

— إن الفرنسيين لم يساعدونا كثيراً .

— أجل ، انظر الآن : إن الاميركيين لا يساعدوننا . إن البشر والبلاد متشابهون : كلٌّ لمصلحته .

قال غوميز : — نعم ، كل لمصلحته .

إنه لم يرفع اصبعه ليدافع عن برشلونة ؛ وها قد سقطت الآن برشلونة ؛ وسقطت باريس ، ونحن كلانا في المنفى ، كلانا متشابهان ، ووضع الخادم القدحين على الطاولة ، فأخذاهما في وقت واحد ، من غير ان يغادر احدهما الآخر بنظره .

وقال العجوز : — انني اشرب نخب اسبانيا .

فتردد غوميز ثم قال بين اسنانه :

— انني اشرب نخب تحرير فرنسا .

وصمتا . كان ذلك يدعو الى الرثاء : دميتان عجوزان مكسورتان ، داخل حانة نيويوركية ، يشربان نخب فرنسا واسبانيا . مصيبة ! وطوى

العجوز جريدته بعناية ثم نهض :
ــ يجب ان اعود الى الحانوت . ان الدورة الاخيرة على نفقتي .
قال غوميز : ــ كلا ، كلا ، كلا . ايها الساقي . الدورتان على نفقتي .
ــ اشكرك ، اذن .
وقصد العجوز الباب . ولاحظ غوميز انه كان يعرج ، ففكر : « يا للعجوز المسكين ! » وقال للساقي :
ــ قدح آخر .
ونزل الاميركي عن كرسيه العالي وتوجه اليه وهو يتهادى ، فقال :
ــ انني سكران .
قال غوميز : ــ هكذا ؟
ــ ألم تلاحظ ؟
ــ كلا .
فسأله : ــ وهل تعلم لماذا انا سكران ؟
قال غوميز : ــ طز في ذلك !
فأطلق الاميركي تجشؤة مرنة وتداعى ساقطاً على الكرسي الذي كان قد غادره العجوز .
ــ لأن الألمان قد اخذوا باريس .
واظلم وجهه واضاف :
ــ انه اسوأ نبأ منذ عام ١٩٢٧ .
ــ وفي عام ١٩٢٧ ، اي نبأ سيء كان هناك ؟
فوضع إصبعاً على فمه وقال :
ــ هس ! أمرٌ شخصيٌ .
ووضع رأسه على الطاولة ، وبدا انه يغرق في النوم . وغادر الساقي المشرب مقترباً من غوميز وقال :

ـ احتفظ لي به دقيقتين . فهذه ساعته : فيجب ان اذهب فآتي له بالتاكسي .

فسأله غوميز :

ـ ما هذا الزبون ؟

ـ انه يعمل في وول ستريت .

ـ أصحيح انه سكر لأن باريس قد سقطت ؟

ـ اذا قال ذلك ، فلا بدّ انه صحيح . غير انه سكر في الاسبوع الماضي بسبب حوادث الارجنتين ، وفي الاسبوع الذي سبقه بسبب كارثة « سالت ليك سيتي » . انه يسكر كل يوم سبت ، ولكن لا بدون سبب .

قال غوميز : ـ إنه مفرط الحساسية .

وخرج الساقي على عجل . فوضع غوميز رأسه بين يديه وراح ينظر الى الجدار ؛ وكان يرى مرة اخرى ، بوضوح ، النقش الذي تركه على الطاولة . كانت تنقصه كتلة داكنة الى اليسار لاقامة التوازن . ربما دغل . أجل دغل . واستعاد صورة النقش والطاولة ، والنافذة الكبيرة ، وأخذ يبكي .

الأحد ١٦ حزيران

ـ هناك .. هناك .. فوق الاشجار تماما .

كان ماتيو نائما ، وكانت الحرب قد خسرت . كانت قد خسرت حتى اعماق نومه ، وايقظه الصوت منتفضاً : كان مستلقياً على ظهره ، مغمض العينين ، وذراعاه لاصقتان بجسمه ، وكان قد خسر الحرب ، ولم يذكر جيداً ايان كان ، ولكن كان يعلم انه قد خسر الحرب .

قال شارلو بحيوية :

— الى اليمير ، قلت لك هناك فوق الاشجار تماماً . ترى ، اليس لك عينان في ثقبيك ؟.

وسمع ماتيو صوت نيبير الهادىء . وقال نيبير :

— آه .. آه .. هكذا .. هكذا !.

اين نحن ؟ في العشب . ثمانية مدنيين في الحقول ، ثمانية مدنيين باللباس العسكري تغطى كل اثنين منهم اغطية الجيش ، وكلهم نائمون على شراع خيمة وسط حديقة فاكهة ، لقد خسرنا الحرب ، استودعونا اياها فخسرناها . لقد تسللت من بين اصابعهم ، وانطلقت تخسر نفسها في ضجيج ، في مكان ما من الشمال .

— آه .. هكذا .. هكذا ..

وفتح ماتيو عينيه فرأى السماء ، وكانت رمادية متلألئة من غير سحاب ، ولا عمق ، لا شيء الا الغياب . وكان صباحٌ يتشكل فيها بهدوء ، قطرة نور تكاد تسقط على الأرض وتغمرها بالذهب . ان الألمان في باريس ، وقد خسرنا الحرب . بداءة ، صباح . صباح العالم الأول ، كجميع الاصبحة : كل شيء للصنع ، والمستقبل كله كان في السماء . واخرج يداً من تحت الغطاء فحك اذنه : انه مستقبل الآخرين . في باريس ، كان الالمان يرفعون عيونهم نحو هذه السماء ، فيقرأون فيها نصرهم ونتائجه . اما انا ، فليس لي بعد من مستقبل . وكان حرير الصبح يلامس وجهه ، ولكنه كان يشعر بازاء جنبه الايمن حرارة نيبير ، وبازاء فخذه اليسرى حرارة شارلو . سنوات اخرى للعيش : سنوات للقتل . هذا النهار المنتصر الذي يبزغ ريحَ صبح شقراء في شجر الحور ، وشمسَ ظهر على سنابل القمح، وعطرَ ارض ساخنة في المساء ، يجب قتله تفصيلا، دقيقة بعد الاخرى، فعندما يهبط الليل ، سوف يأسرنا الالمان . وتضخَّم صوت الازيز ، ورأى الطائرة في الشمس المشرقة ، وقال شارلو :

— انها ايطالية .

واطلقت اصوات نائمة شتـائم نحو السماء ، كانوا قـد الفوا قافلة الطائرات الالمانية اللامبـالية ، وحربـا وقحة ثرثارة غير مؤذية : تلك كانت (حربهم) . امـا الطليـان فلم يكونوا يلعبون اللعبة : كانوا يلقون قنابل . وقال لوبيرون :

— ايطالية ؟ آه .. انني اصدقك تمامـا .. فانت لا تسمع المحرك كيف يدور بانتظام . هذه طائرة مستر شميدت ، نعم ، طراز ٣٧ .

فحدث انفراج تحت الاغطية وابتسمت الوجوه المقلوبة للطائرة الالمانية. وسمع مـاتيو بضعـة انفجـارات مخنوقـة ، وتشكلت في السماء اربـع غيوم مستـديرة .

قال شارلو :

— يا للحمقى !. ها هم الآن يطلقون النار على الالمان ..

وقال لونجان مغتاظا :

— ان هذا عمل يقودنا الى المذبحة .

واضاف شوارتز في ازدراء :

— حمقى لم يفهموا بعد .

وحدث انفجاران آخران ، وظهرت غيمتان قطنيتان مظلمتان فوق شجر الحور .

وردد شارلو :

— يا للحمقى .. يا للحمقى .

وكان بينيت قد انتصب مستندا الى مرفقه . وكـان وجهه الباريسي الصغير الجميل مورداً نضراً ، وكان ينظر الى رفاقه في صلف ، وقال في جفاء :

— انهم يقومون بمهنتهم .

وهز شوارتز كتفيه :

– وما جدوى هذا ، الآن ؟

وكانت المدفعية المضادة للطائرات قد صمتت : وكانت الغيوم تتبدد ، ولم يكن يُسمع بعد الا ازيز منتصر ومنتظم . وقال نيبير :

– انني لا اراهم بعد .

– بلى ، بلى : هناك ، باتجاه طرف اصبعي .

وخرج عود ابيض من الارض مصوباً نحو الطائرة : كان شارلو ينام عارياً تحت الغطاء ، وقال الرقيب بيارنيه بصوت قلق :

– الزم الهدوء ، فسوف تهديهم الينا .

– اي كلام .. انه في هذه الساعة يظننا قرنبيطاً ..

ومع ذلك فقد ادخل ذراعه ، وحين مرت الطائرة فوق رأسه ، تابع الرفاق بعيونهم باسمين قطعة الشمس الصغيرة هذه ، حمراء لامعة : كانت تلك تسلية الصباح ، الحادثة الاولى ذلك النهار . وقال لوبيرون :

– انها تقوم بنزهتها الصغيرة المشهيّة .

كانوا ثمانية قد فقدوا الحرب ، خمسة امناء سر ، ومراقبين ، واخصائياً بالاحوال الجوية ، مضطجعين جنباً الى جنب وسط الكرّات والجزر ، لقد خسروا الحرب كما يخسر المرء وقته : من غير ان يشعر بذلك . ثمانية: شوارتز المرصص ، ونيبير موظف البنك، اونجان قاطع التذاكر ، ولوبيرون السمسار ، وشارلو روكلاو بائع المظلات ، وبينيت المراقب في المترو ، والاستاذان : ماتيو وبيارنيه . وكانوا قد قضوا تسعة اشهر في ضجر ، تارة بين الصنوبر ، وطوراً في كروم العنب ، وذات يوم ، ابلغهم صوت من بوردو هزيمتهم ، ففهموا انهم كانوا مذنبين . ولامست يد مرتبكة خد ماتيو ، فالتفت الى شارلو :

– ماذا تريد ، ايها العنيد ؟

وكان شارلو قد اضطجع على جنبه ، بحيث كان ماتيو يرى خديه الاحمرين وفمه الكبير ، وقال شارلو بصوت منخفض :

— اود ان اعرف . ترى ؟ هل نسافر اليوم ؟

وكان مظهرُ قلقٍ يدور على وجههالفرح من غير ان ينجح بالاستقرار في مكان ما .

— اليوم ؟ لا ادري .

وكانوا قد غادروا مورسبرون يوم ١٢ ، وكان قد حـــدث ذلك السباق المضطرب ، ثم هذا التوقف المفاجىء .

— ماذا نفعل هنا ؟ . اتستطيـع ان تخبرني ؟ .

— يقولون اننا ننتظر جيش المشاة .

— اذا لم يكن بوسع المشاة ان ينسحبوا ، فليس ذلك سبباً يكفي لان ننتن معهم .

واضاف في تواضع :

— انني يهودي كما تعلم . ولي اسم بولوني .

قال ماتيو بحزن : — اعرف ذلك .

قال شوارتز : — اسكتوا .. اسمعوا ..

وكان ذلك هديراً مخنوقاً متصلا . وكان قـــد استمر امس الاول وامس ، من الفجر حتى الليل ، ولم يكن احد يعرف من الذي يطلق وعلامَ يطلق .

وقال بينيت : — لا بد ان الساعة تقارب السادسة . فبالامس ، بدأوا في الخامسة وخمس واربعين دقيقة .

ورفع ماتيو معصمه فوق عينيه وقلبه ليستشير ساعته .

— انها السادسة وخمس دقائق . سيكون عجيباً ان نذهب اليـــوم (وتثاءب وقال) هيا . . ما يزال امامنا يوم نقضيه في هذا البلد .

وتثاءب الرقيب بيارنيه ايضاً وقال :

— حسناً .. لقد آن ان ننهض .

فلم يتحرك احد . وألمت بهم قطة باقصى سرعتها في خط متعرج

ثم كمنت فجأة ، وبدت مستعدة للوثوب ،ثم نسيت مشروعها فابتعدت بغير اكتراث وكان ماتيو قد نهض على مرفقه يتابعها بنظره . ورأى فجأة ساقين مقوستين في عصابتيها الجلدية الكاكية ، فرفع رأسه : كان الملازم الاول اولمان قد انزرع امامهم مشتبك الذراعين ، وهو يتأملهم مقطب الحاجبين ، ولاحظ ماتيو انه لم يكن حالقاً ذقنه : .

ـ ماذا تفعلون هنا ؟ ماذا تفعلون هنا ، اتكونون مجانين تماماً ؟ ولكن قولوا لي ماذا تفعلون هنا ؟

وانتظر ماتيو بضع لحظات ، واذ لم يجب احد ، قال من غير ان ينهض :

ـ لقد فضلنا ان ننام في الهواء الطلق ، يا سيدي الملازم .

ـ اسمعوا هذا .. مع الطائرات العدوة التي تحلق فوق المنطقة ؟ ان تفضيلكم يوشك ان يكلفنا غالياً : فجدير بهذا ان يسبب قصف الفرقة.

قال ماتيو بصبر :

ـ ان الالمان يعرفون جيداً اننا هنا ، ما دمنا قد قمنا بجميع تنقلاتنا في وضح النهار .

فلم يبد على الملازم انه سمع ، وقال :

ـ لقد سبق ان منعتكم من ذلك ، منعتكم من مغادرة العنبر . ثم ما هذه الطرق في ان تظلوا مضطجعين بحضرة رئيس لكم ؟

فحدثت حركة صغيرة متثاقلة على سطح الارض ، وجلس الرجال الثمانية على الاغطية ، ما تزال عيونهم تطرف من النعاس . ووضع شارلو ، الذي كان عارياً ، منديلا على عورته . وكان الطقس رطبا . وارتعش ماتيو فبحث عن سترته فيما حوله ليلقيها على كتفيه .

ـ وانت هنا ايضاً ، يا بيارنيه ؟ الا تشعر بالعار ، وانت صاحب درجة ؟ ينبغي ان تعطي الامثولة .

فقرص بيارنيه شفتيه من غير ان يجيب .

وقال الملازم :

ـ هذا لا يُصدَّق ... ولكن، هل تشرحون لي لماذا غادرتم العنبر ؟

كان يتكلم من غير اقتناع ، وبصوت عنيف ضجر ، وكان تحت عينيه دوائر مزرقة ، وكان لونه النضر مغتلماً .

ـ كنا نشعر بحرّ لا تطاق ، يا سيدي الملازم ، فلم نكن نستطيع النوم .

ـ حرّ لا يطاق ؟ إلامَ تحتاجون ؟ الى غرفة نوم مكيّفة؟ سأرسلكم هذه الليلة لتناموا في التـــدريب . مع الآخرين . اتراكم لا تعرفون اننا في حالة حرب ؟

فأشار لونجان اشارة بيده، وقال ببسمة غريبة :

ـ لقد انتهت الحرب ، يا سيدي الملازم .

ـ انها لم تنته ، ويجب ان تشعر بالعار ، اذ تقول انها انتهت ، حين يكون هناك شبان صغار يعرضون انفسهم للموت على بعد ثلاثين كيلو متراً من هنا ليغطّونا .

ـ يا للمساكين .. انهم يؤمرون بان يواجهوا الموت ويُقتلوا ، بينما يُوقَّع على الهدنة .

فاحمرّ الملازم احمراراً شديداً.

ـ على كل حال ، انتم ما تزالون جنوداً. فما لم تعادوا الى بيوتكم تظلون جنوداً وتطيعون رؤساءكم .

فسأل شوارتز : ـ وحتى في معسكرات الاعتقال ؟

فلم يجب الملازم . كان ينظر الى الجنود في خجل محتقر ، وكان الرجال يبادلونه نظرة في غير ما انزعاج ولا نفاد صبر : انهم يكادون يتمتعون باللذة الجديدة ان يحسوا انفسهم مخيفين . وبعد لحظـــة ، هز الملازم كتفيه واستدار على عقبيه ، وقال من فوق كتفه :

ـ تفضلوا بالنهوض سريعاً .

وابتعد مستقيماً ، بخطوة راقصة . وفكر ماتيو : « رقصته الاخيرة» فبعد ساعات يطردنا الرعاة الالمان جميعاً نحو الشرق ، في هوشة من

غير تمييز للرتبة . »

وتثاءب شوارتز وبكى ، واشعل لونجان سيجاراً ، وكان شارلو ينزع العشب ركاما من حوله . كانوا جميعاً يخافون ان ينهضوا . وقال لوبيرون :

– هل رأيتم ؟ لقد قال : سوف ارسلكم لتناموا في التدريب . هذا يعني اننا لن نذهب .

قال شارلو : – لقد قال ذلك هكذا. فهو ليس ادرى منا بالامر .

وانفجر الرقيب بيارنيه فجأة ، متسائلا :

– من الذي يدري اذن ؟ من الذي يدري ؟

فلم يجب احد ، وبعد لحظة ، قفز بينيت على قدميه ، وسأل :

– هل نغتسل ؟

فقال شارلو متثائبا : – انني شخصياً موافق .

ونهض ، وكذلك نهض ماتيو والرقيب بيارنيه . وصاح لونجان :

– الطفل كادوم ..

كان شارلو عارياً متورداً لا شعر في جسمه ، ذا خدين ازهرين ، تداعب بطنه الصغير البارز اشعة الصباح الشقراء فيشبه اجمل اطفال فرنسا . وجاء شوارتز خلفه بخطى خفية ، على عادته كل صباح ، وقال له وهو يدغدغه :

– انت مقشعر ، انت مقشعر ، ايها الطفل ..

فضحك شارلو وصاح وهو يتلوى ، كعادته ، ولكن بمرح اقل ، والتفت بينيت الى لونجان الذي كان يدخن بعناد :

– الا تأتي ؟

– لماذا ؟

– لتغتسل .

قال لونجان : – طز .. اغتسل ؟ ولمن ؟ للالمان ؟ سوف يأخذونني كما انا .

قال لونجان : — هيا ... هيا .. كفى !

قال بينيت : — يمكننا ان نفلت منهم .

— اتراك تؤمن ببابا نويل ؟

— حتى ولو كانوا سيأخذونك،فليس ذلك سبباً يكفي لكي تبقى قذراً متسخاً .

— لا اريد ان اغتسل من اجلهم .

قال بينيت : — ان ما تقوله سخيف ، سخيف جداً ..

فقهقه لونجان من غير ان يجيب ، وظل مسترخيا فوق الغطاء بهيئة تعال . ولم يكن لوبيرون قد تحرك هو ايضاً : كان يتظاهر بالنوم . واخذ ماتيو قربته واقترب من الحوض ، وكان الماء يسيل من انبوبين حديديين في الجرن الحجري ، وكان بارداً عارياً كانه بشره . وكان ماتيو قد سمع طوال الليل همسه المليء ، بالامل ، وتساؤله الطفولي ؛ وغطس رأسه في الحوض ، فاصبحت الاغنية البدائية تلك الطراوة البكماء النضرة في اذنيه ومنخريه ، ، وهذه الباقة من الورود المبتلة ، والزهور المائية في قلبه : الحمامات في نهر « اللوار » ، والخيزران ، والجزيرة الصغيرة الخضراء ، والطفولة . وحين نهض ، كان بينيت يغسل عنقه بالصابون في غضب ، فابتسم له ماتيو . كان يحب بينيت كثيراً . وقال بينيت :

— ان لونجان سخيف حقاً ، اذا جاء الالمان ، فيجب ان نكون نظيفين .

وادخل اصبعا في اذنه فاداره بقوة . وصاح به لونجان من مكانه :

— اذا كنت تحب النظافة الى هذا الحد ، فاغسل ايضاً قدميك .

فرماه بينيت بنظرة شفقة وقال :

— ان الاقدام لا تُرى .

وأخذ ماتيو يحلق ذقنه . وكانت الشفرة مستعملة ، فكانت تحرق

بشرته : « في الاسر ، سأترك لحيتي تنبت . » وكانت الشمس تنهض ، وكانت اشعتها الطويلة المائلة تحصد العشب ؛ وكان العشب تحت الشجر طرياً نضراً ، فجوة نعاس في جنبي الصباح . وكانت الارض والسماء ممتلئتين بالعلامات ، علامات الامل . وبين اوراق الحور أخذ رف من العصافير يغني ملء حناجره ، مستجيباً لداع غير مرئي، فكان ذلك أشبه بهبة طلقات نحاسية عنيفة جداً ، ثم صمت فجأة ، بصورة عجيبة . وكان القلق يطوف بالعشب والخضار الكثيفة كما كان يطوف على وجه شارلو ، من غير ان يحطّ في مكان . ومسح ماتيو شفرته بعناية وأعادها الى قربته . وكانت أعماق قلبه ضالعة مع الفجر والندى والظل ؛ وفي اعماق قلبه كان ينتظر عيداً . لقد نهض باكراً واغتسل كما يفعل يوم العيد . عيد في حديقة ، بمناسبة التناول الاول او بمناسبة عرس ، تدور فيه أثواب جميلة بين العرائش ، عند طاولة قائمة فوق العشب ، يتصاعد حولها طنين الزنابير الثملة بالسكّر. ونهض لوبيرون وذهب يبول عند السياج ؛ ودخل لونجان الى العنبر ، وتحت ذراعيه الاغطية ؛ وحين خرج اقترب من الحوض على غير اكتراث فغطّ إصبعه في الماء بهيئة لامبالاة وبطالة . ولم يكن ماتيو بحاجة الى ان ينظر طويلا الى وجهه المتقع ليحس بأنه لن يكون ثمة عيد ، الآن ، ولا في المستقبل ابـداً .

وكان المزارع الشيـخ قد خرج من بيته ، وكان ينظر اليهم وهو يدخن غليونه ، فقال شارلو :

— مرحباً يا بابا !

فقال المزارع وهو يهز رأسه : — مرحباً ! نعم ! مرحباً !

وخطا بضع خطوات ثم انزرع أمامهم :

— اراكم لم تذهبوا بعد ؟

فقال بينيت بجفاف : — كما ترى .

وقهقه الشيـخ ، ولم تكن تبدو عليه الطيبة .

ـ لقد سبق ان قلت لكم انكم لن ترجعوا .

ـ هذا ممكن .

وبصق بين قدميه ومسح شاربه :

ـ والألمان ؟ اتراهم يأتون اليوم ؟

فأخذوا يضحكون ، وقال لوبيرون :

ـ ربما أتوا وربما لم يأتوا . فنحن مثلك ننتظرهم ؛ ونحن نتجمل لنستقبلهم .

وكان الشيـخ ينظر اليهم بهيئة غريبة ، وقال :

ـ ولكنكم انتم لستم مثلي . فانكم ستعودون من الأسر .

وسحب نفَساً من غليونه وأضاف :

ـ اما انا ، فاني الزاسي .

قال شوارتز : ـ نعرف هذا يا بابا . فغيِّر الاسطوانة .

فهزّ الشيخ رأسه وقال :

ـ ما أعجب هذه الحرب ! ان المدنيين هم الذين يقتتلون الآن، بينما الجنود ينجون .

ـ كفى ، كفى ! انت تعلم جيداً انهم لن يقتلوك .

ـ اقول لك اني الزاسي .

قال شوارتز : ـ وانا ايضاً ألزاسي .

فقال الشيـخ ـ هذا ممكن ؛ ولكني حين تركت انا الالزاس ، كانت ما تزال لهم .

قال شوارتز : ـ انهم لن يؤذوك . فهم بشر مثلنا .

قال الشيـخ في غيظ مفاجيء :

ـ مثلنا ؟ خراء ! هل تستطيع انت ان تقطع يدي طفل ؟

فانفجر شوارتز ضاحكاً ، وقال وهو يغمز ماتيو :

ـ انه يروي لنا خزعبلات الحرب الماضية .

وأخذ منشفته فمسح بها ذراعيه الضخمتين البازرتي العضلات وقال موضحاً ، وهو يلتفت الى العجوز :

انهم ليسوا مجانين . سوف يعطونك سجاير ، وشوكولا ، نعم وهذا ما يسمى بالدعاية ، وليس لك الا ان تأخذها ، فهي لا تُلزمك بشيء .

واضاف وهو ما يزال يضحك :

— اؤكد لك يا بابا انه من الافضل في يومنا هذا ان تكون من مواليد ستراسبورغ على ان تكون من مواليد باريس .

فقال المزارع : — لا اريد ان أصبح ألمانياً وانا في هذه السن ! طز ! انني أفضل ان يقذفوني برصاص بنادقهم .

فصفق شوارتز مؤخرته بيده ، وقال مقلداً اياه :

— أتسمعونه ؟ طز ! اما انا ، فافضل ان اكون المانياً حياً على على ان اكون فرنسياً ميتاً :

ورفع ماتيو رأسه باهتمام ونظر اليه ؛ وكان بينيت وشارلو ينظران اليه ايضاً . وكف شوارتز عن الضحك ثم احمر وهزّ كتفيه. وصرف ماتيو عنه عينيه ؛ ولم يكن لديه ميل ليمثل دور القضاة ، ثم انه كان يحب هذا الشخص الكبير السمين ، الهادىء ، الذي يقاوم الشقاء ؛ ولم يكن يريد ان يزيده اضطراباً بأي ثمن . ولم يكن احد ينبس بكلمة ؛ وهزّ الشيخ رأسه وأجال فيها حوله نظراً حقوداً . ثم قال :

—آه ! كان ينبغي ألاّ تخسر هذه الحرب . كان ينبغي الا تخسر .

وصمتوا ! وسعل بينيت، واقترب من الحوض فأخذ يجس الصنبور جساً بليداً . وأفرغ الشيخ غليونه على الحصى ، ونكث الارض بعقبه ليدفن الرماد ، ثم أولاهم ظهره وعاد بخطى بطيئة الى منزله . وساد صمت طويل ؛ كان شوارتز واقفاً بصلابة ، متباعد الذراعين . وبعد لحظة بدا انه يستيقظ ، فضحك بمشقة :

– لقد قلت ذلك سخريةً به .

لا جواب : كان الجميع ينظرون اليه . ثم فجأة ، ومن غير ان يتغيّر شيء في الظاهر ، تطامن شيء ما ، فحدث انفراج ، نوعٌ من التبعثر الجامد ؛ فانهارت الجماعة الصغيرة الغاضبة التي كانت قد تشكّلت حوله ؛ لقد اخذ لونجان ينظّف اسنانه بمديته ، وتنحنح لوبيرون ، وأخذ شارلو يدمدم بنظرة بريئة : انهم لم يكونوا ينجحون في الاستمرار على غضب ، الا اذا كانت القضية قضية استئذان او طعام . وتنسّم ماتيو فجأة عطر نعناع وافستين : كانت الاعشاب والزهور تستيقظ ، بعد العصافير ، فتلقي عطورها كما ألقت تلك غناءها ؛ وفكر ماتيو : « هذا صحيح ، هنا ايضاً الروائح . » روائح خضراء مرحة ، ما تزال نافذة وحامزة : انها ستصبح مسكّرةً اكثر فأكثر ، وستزداد ثراءً وانوثة ، ما ازرقّت السماء واقتربت المركبات الالمانية . ونشق شوارتز بقوة،ونظر الى المقعد الخشبي الطويل الذي سبق لهم ان جرّوه في الليلة السابقة وأسندوه الى جدار البيت وقال :

– حسناً ، حسناً ، حسناً .

وذهب يجلس على المقعد . وترك يديه تتدليان بين ركبتيه ، وقوّس كتفيه ، ولكنه كان يحتفظ بارتفاع رأسه وينظر امامه باستقامة نظرةً قاسية . وتردد ماتيو لحظة،ثم لحق به وجلس الى جانبه . وبعد حين ، انفصل شارلو عن الجمع وانزرع امامهما . ورفع شوارتز رأسه ونظر الى شارلو في جدّ ، وقال :

– يجب ان اغسل ثيابي .

وساد صمت ، وكان شوارتز ما يزال ينظر الى شارلو .

– لست انا الذي خسرها ، هذه الحرب ...

وكان يبدو الانزعاج على شارلو ، واخذ يضحك . ولكن شوارتز كان يتابع فكرته :

– لو ان الجميع عملوا مثلي ، فلربما كنا ربحناهـا . فليس لي ما اؤاخذ به نفسي .

وحكّ خده بهيئة اندهاش وقال :

– إن هذا لطريف !

وفكر ماتيو : هذا طريف ، أجل ، طريف . انه ينظر في الفراغ ويفكر : « انا فرنسي » فيجد ذلك طريفاً للمرة الاولى في حياتـه . « هذا طريف » اننا لم نر « فرنسا » قط : وانما كنا في داخلها ، لقد كانت ضغطَ الهواء ، وجاذبيـة الارض ، والفضاء ، والرؤية واليقين الهادىء بأن العالم قد خُلق للانسان ؛ وقد كان طبيعياً جداً ان يكون فرنسياً ، فتلك هي ابسط الوسائل واوفرها ليُحسّ نفسه عالمياً . لم يكن ثمة شيء للشرح : فقد كان على الآخرين ، عـلى الالمان ، والانكليز ، والبلجيكيين ان يشرحوا سوء حظهم او غلطتهـم بأن لا يكونوا رجالاً تماماً . لقد انقلبت فرنسا الآن على قفاها،ونحن نراها ، نرى آلةً كبيرة معطلة ونفكر : هذا ما كان . « هـذا » : حادث ارضي ، حادث تاريخي . اننا ما نزال فرنسيين ، ولكن هـذا ليس طبيعياً بعد . فقد كان حادث واحد كافياً ليجعلنا نفهم اننا كنا عارضين . ان شوارتز يفكر بأنه عارض ، وهو لا يفهم نفسه بعد ، وهو مرتبك مع نفسه ؛ انه يفكر : كيف يمكن ان نكون فرنسيين ؟ هو يفكر : « لو كان لي بعض الحظ لُولدت المانياً . » واذ ذاك يتخـذ هيئـة القسوة ويرهف اذنه ليسمع وطنه البديل يتدحرج نحوه ؛ انـه ينتظـر الجيوش اللامعة التي ستقيم له العيد ، ينتظر اللحظة التي يستطيع فيها ان يستبدل بهزيمتنا نصرهم ، اللحظة التي يبدو له فيها « طبيعياً » ان يكون منتصراً والمانياً .

ونهض شوارتز وهو يتثاءب ، وقال :

– هيا ، سوف اغسل ثيابي .

فاستدار شارلو ولحق بلونجان الذي كان يتحدث مع بينيت . وظل ماتيو وحيداً على مقعده .

وتثاءب لوبيرون بدوره في صخب ، ثم قال :

— ما أشد ما ينزعج المرء هنا .

وتثاءب شارلو ولونجان . ونظر اليهما لوبيرون يتثاءبان ، فتثاءب من جديد ، وقال :

— إن ما ينقصنا هو ماخور .

فسأله شارلو في غيظ :

— هل تستطيع ان تضاجع في الساعة السادسة صباحاً ؟

— انا ؟ في اية ساعة أستطيع .

— امـــا انا ، فلا . ليست رغبتي في المضاجعة أشد منها في تلقي الركلات في المؤخرة .

وقهقه لوبيرون :

— لو كنتَ متزوجـــاً لتعلّمت ان تفعل ذلك بلا رغبة ! والأمر الحسن حين تضاجع هو انك لا تفكر بشيء .

وصمتوا . وكانت شجرات الحور ترتعش ، وكانت شمس قديمـــة ترتجف بين أوراقها ؛ وفي البعيد كان يسمع هـدير القصف الطيب ، ذلك الهدير الذي كان يوماً قوياً جيداً ومطمئناً جداً حتى ليُظن أنه ضجة للطبيعة . وانقلب شيء ما في الهواء ، فسقط بينهم زنبور سقطة طويلة مطّاطة . وقال لوبيرون :

— اسمعوا !

— ماذا ؟

كان قـــد ساد حولهم نوعٌ من الفراغ ، هدوء غريب . كانت العصافير تغرد ، وكان ديكٌ يصيح في القنّ ؛ وفي البعيد ، كان ثمة من يضرب ضربات منتظمة عـــلى قطعة من حديد ، ومع ذلك ، فقد

كان هذا السكون : كان القصف قد انقطع .
قال شارلو :
– هيه ! هيه ! ولكن اسمعوا !
– نعم .
وكانوا مرهفين آذانهم من غير ان يكفّوا عن تبادل النظر . وقال بيارنيه في لهجة محايدة :
– سيبدأ الأمر هكذا . وذات لحظة يشمل الصمت كل الجبهة .
– اية جبهة ؟ ليس هناك من جبهة .
– أقصد كل مكان .
وخطا شوارتز في خجل خطوةً نحوهم وقال :
– اظن انه لا بدّ اولاً من اطلاق صوت بوق .
قال نيبير : – طز ! ليس ثمة من اتصالات بعد : ربما يكونون قد وقّعوا الهدنة منذ اربع وعشرين ساعة ، بينما نحن لا نزال ننتظرها هنا!
فقال شارلو وهو يضحك املاً :
– لعل الحرب قد انتهت منذ منتصف الليل . إن « وقف اطلاق النار » يكون دائماً في منتصف الليل .
– او عند الظهر .
– ولكن لا ، ايهـا العنيد ، بل في منتصف الليل : في الساعة الصفر ، أتفهم ؟
قال بيارنيه : – ولكن اصمتوا قليلاً .
فصمتوا . وكان بيارنيه يرهف سمعه وعلى وجهه علامات عصبية ؛ وظل شارلو فاغر الفم ؛ كانوا يستمعون الى « السلام » ، عبر السكون الضاجّ . سلام بلا مجد ولا قرع أجراس ، بـلا طبول ولا أبواق ، سلام يشبه الموت .
قال لوبيرون : – خراء !

وكان الهـــدير قد عاد : ولكنه كان يبدو أقرب واكثر تهديداً .

وشبك لونجان يديه الطويلتين وفرقع أصابعه . وقال في مرارة :

ــ ولكن ، يا إلـهي ،ماذا ينتظرون .؟ اتراهم يجدون اننا لم نقاتل بما فيه الكفاية ؟ ولم نفقد من الرجال عدداً كافيــاً ؟ أينبغي ان تهلك فرنسا هلاكاً كاملاً حتى يصمّموا على وقف المذبحة ؟

كانوا موهونين وأعصابهم ثائرة ، مغتاظين في الضعف ، ذوي لون رصاصي هو الذي خلّفه سوء الهضم . كان حسبهم ان يسمعوا هدير طبل في الأفق لتسقط عليهم من جديد موجة الحرب الكبيرة . والتفت بينيت فجأة الى لونجان ، فأذا عيناه تقدحان العاصفة ، واذا يده متشنجة على حافة الحوض :

ــ أية « مذبحة » ، أليس كذلك ؟ أية مذبحـة ؟ أيّان كانوا ، القتلى والجرحى ؟ اذا كنت قد رأيتهم ، فذلك لأنك محظوظ . امـــا انا ، فأني لم أر إلا ضرّاطين مثلك يركضون في الطرق وهم يرتعشون ذعراً .

وسأل لونجان في تعطّف مسموم :

ــ ولكن ما بك ايها العنيد ؟ هل تشكو شيئاً ؟

ورمى نحو الآخرين بنظرة ضالعة :

ــ لقد كان صاحبنا بينيت فتى صغيراً طيباً ، وكنّا نحبّه لأنه كان مثلنا في المؤخرة ؛ ولم يكن هو الذي يتقدم الصف حين كانوا يطلبون متطوّعاً . فالمؤسف ان يبدأ بقدّ المراجل عند انتهاء الحرب .

وتطاير الشرر من عيني بينيت وقال :

ــ انني لا أقدّ المراجل ، ايها الفرج الأحمق !

ــ بلى ، تقدّ المراجل ! تريد ان تمثل دور الجندي الصغير .

ــ هذا أفضل من أن أخرأ مثلك في لباسي .

ــ انتم تسمعونه : انني اخرأ في لباسي لأنني اقول بأن الجيش الفرنسي

قد اسلم ساقيه للريح .

فسأله بينيت وهو يتمتم من الغضب :

ـ هل انت واثق من ان الجيش الفرنسي أسلم ساقيه للريح ؟ ايكون ويغان قد كشف لك أسراره ؟

فابتسم لونجان بسمة وقحة متعبة :

ـ لا حاجة الى اسرار ويغان : إن نصف القوات في حالة هزيمة، والنصف الآخر محاصر في مكانه : ألا يكفيك هذا ؟

فكنس بينيت الهواء بحركة قاطعة :

ـ سوف نتجمع ثانية على ضفاف اللوار ، فنلتقي بجيوش الشمال في « سومور » .

ـ أتعتقد بذلك انت ، ايها النابغة ؟

ـ بل قاله لي الكابتين . فليس لك الا ان تستخبر في « فونتينا » .

ـ اذا كان الامر كذلك ، فعلى جيوش الشمال ان تتدبّر امرها ، لأن الالمان في مؤخرتها كما تعلم . اما فيما يخصّنا ، فانه يدهشني ان نصل في الموعد المحدّد .

وكان بينيت ينظر الى لونجان من تحت ، منخفض الجبين ، وهو يصفر ويضرب الارض بقدمه . وهز كتفيه بعنف كما لو انه يريد ان يتخلص من حشد ثقيل . وانتهى به الامر الى القول ، وهو غاضب مذعور :

ـ حتّى ولو تراجعنا حتّى مارسيليا ، حتّى ولو اجتزنا فرنسا كلها، فتبقى امامنا افريقيا الشمالية .

وشبك لونجان ذراعيه وابتسم في ازدراء :

ـ ولماذا لا تقول جزيرة « سان ـ بيار ـ ايميكيلون » ايها الغبيّ ؟

قال بينيت وهو متجه اليه :

ـ أتحسب نفسك قوياً ؟ قل ، أتحسب نفسك قوياً ؟

فارتمى شارلو بينهما يقول :

– كفى ! كفى ! أظنكما لنا تتنازعا ؟ إن الجميع متفقون على ان الحرب لا تجدي شيئاً وانه يجب الانقطاع عن القتال (وأضاف بلهجة اقتناع حارة) يجب الانقطاع عن القتال الى الابد .

وكانوا جميعاً ينظرون اليه نظرة عميقة فيما كان يرتجف من الحماسة، حماسة ان يوفّق بين كل شيء : بين بينيت ولونجان ، وبين الالمان والفرنسيين . وما لبث ان اضاف بصوت يكاد يكون مبتهلاً :

– مهما يكن ، فينبغي ان نستطيع التفاهم معهم ، فهم على كل حال لا يريدون ان يلتهمونا .

فحوّل بينيت اليه غضبه قائلاً :

– لئن خسرنا الحرب ، فلأن امثالك مسؤولون عنها .

وكان لونجان يقهقه :

– هذا شخص آخر لم يفهم ، ذلك كل ما في الامر .

وساد صمت ، ثم التفتت الرؤوس جميعاً الى ماتيو على مهل . وكان يتوقع ذلك : فقد كانوا، اثر كل نقاش، يطلبونه للتحكيم لأنه كان ذا ثقافة . وسأله بينيت :

– ما رأيك في الامر ؟

فخفض ماتيو رأسه ولم يجب .

– هل انت أصمّ ؟ اننا نسألك رأيك ؟

قال ماتيو : – ليس لي من رأي .

واجتاز لونجان الممر وانزرع امامه :

– غير ممكن ! فالاستاذ شخص يفكر طوال الوقت .

– ولكنك ترى : ليس طوال الوقت .

– مهما يكن من امر ، فلست غبياً : انك تعلم جيداً ان المقاومة مستحيلة .

ــ كيف لي ان اعرف ذلك ؟

واقترب بينيت بدوره . فكانا يقفان الى جانبي ماتيو كملاكه وشيطانه . وقال بينيت :

ــ انت لست انهزامياً يائساً ، ولا يمكن ان ترغب بأن يضع الفرنسيون السلاح قبل ان يقاتلوا حتى النهاية !

فهزّ ماتيو كتفيه :

ــ لو كنت « انا » الذي يقاتل ، لأمكن ان يكون لي رأي . ولكن الواقع ان الآخرين هم الذين يتساقطون ، وسوف يقاتلون على اللوار : فليس بوسعي ان اقرّر بدلاً منهم .

قال لونجان وهو يتأمل بينيت بهيئة هازئة :

ــ اسمع جيداً : ان الانسان لا يقرر الحرب بدلاً من الآخرين .

وكان ماتيو ينظر اليهما في قلق :

ــ انني لم أقل هذا .

ــ كيف لم تقل ذلك ؟ لقد قلته منذ لحظة .

قال ماتيو : ــ اذا كان ثمة حظ ما ، ولو كان حظاً صغيراً جداً ...

ــ وإذن ؟

فهز ماتيو رأسه :

ــ ولكن انّى لنا ان نعرف ؟

فسأل بينيت : ــ ولكن ماذا يعني هذا ؟

فقال شارلو موضحاً :

ــ هذا يعني انه لن يبقى لنا الآن إلا أن ننتظر ، وألاّ نقلق بعد اكثر مما ينبغي .

فصاح ماتيو : ــ كلا ! كلا !

ونهض فجأة وهو يحرق الأرم :

ــ انني انتظر منذ طفولتي .

وكانا ينظران اليه من غير ان يفهما ؛ ونجح في ان يهدىء نفسه ، وقال لهما :

– ماذا يجدينا ان نقرّر او لا نقرّر ؟ فمنذا الذي يطلب رأينا ؟ اتراكما مدركين وضعنا ؟

فتراجعوا مذعورين ، وقال بينيت :

– كفى ، كفى ، اننا نعرفه .

– قال لونجان : – انت على حق ، فالعسكري البسيط لا رأي له.

فاستفظع ماتيو بسمته الباردة الدبقة ، وأجاب بجفاف :

– وأسوأ من ذلك وضع الأسير .

« كل شيء » يطلب منا رأينـا . « كل شيء » واستفهام كبير يحاصرنا : إن هذه دعاية . انهم يطرحون علينا السؤال كما يطرحونه على رجال ؛ انهم يريدون ان يقنعونا بأننا ما زلنا رجالاً . ولكن لا، لا ، لا ! أية دعاية ، ظلّ هذا السؤال يطرحه ظلّ حرب ، على مظاهر رجال .

– ماذا يجديك ان يكون لك رأي ؟ فلست انت الذي ستقرّر .

وصمت . وفكر فجأة : لا بدّ من العيش ، لا بد من ان يعيش وان يقطف يوماً فيوماً ثمار الهزيمة المتعفّنة ، وان يحوّل هذا الاختيار الكلي الذي يرفضه اليوم الى هزائم بالتفصيل . ولكني يا إلـهي ، لم اكن اريدها انا ، هذه الحرب ، ولا هذه الهزيمة ، فبأي تزوير يقسرونني على ان احتملها ؟ وشعر بغضب حيوان وقع في الشباك يملأ نفسه ، واذ رفع رأسه ، رأى هذا الغضب نفسه يلتمع في عيونهما . ليتهم يصرخون في وجه السماء جميعاً : « لا شأن لنا قط بهذه الحكايات كلها ! اننا ابرياء! » وتلاشى اندفاعه : كانت البراءة تشع بكل تأكيد في الشمس الصباحية ، وقد كان بالامكان لمسها على اوراق العشب ولكنها كانت تكذب : فالبراءة الحقيقية هي هذه الغلطة المشتركة التي

لا يمكن لمسها ، « غلطتنا » . شبح حرب، شبح هزيمة ، وشبح إثم . ونظر الى بينيت ولونجـــان وهو يفتح يديه : لم يكن يعرف اذا كان يريد ان يساعدهما ام يطلب منهما المساعدة . ونظرا اليه ايضاً ثم لفتـــا رأسيهما وابتعدا . وكان بينيت ينظر الى قدميه ؛ وكان لونجان يبتسم لنفسه بسمة مرتبكة صلبة ؛ وكان شوارتز في ركن مع نيبير يتحدثان بالالزاسية ، ويكتسبان هيئة المشاركين الضالعين ؛ اما بيارنيه فكان يفتح يده اليمنى ويغلقها بحركة تشنجيّة . وفكّر ماتيو : « هذا هو مـــا صرنا اليه وأصبحناه . »

مارسيليا ، الساعة ١٤

طبعاً ، كان يشجب الحزن « بقسوة » ، ولكن من يسقط فيـــه بحاجة الى الشيطان ليخرجه منه . وفكر « لا بد ان لي طبعاً شقياً . » كان له كثير من المبررات لكي يبتهج : وكان بوسعه خاصة ان يهنيء نفسه بأنه قضى على الصفاق وشُفي منه . ولكن بدلاً من ذلك كان يفكر : « ما زلت حيّاً » ويأخـــذه الاسى . اذا ما كان الانسان حزيناً ، فان اسباب الابتهاج هي التي تصبح حزينة ، فاذا هو يبتهج بحزن . وفكر : والواقع اني ميت . اذا كان الامر متعلقاً به ، فهو قد مات في « سيدان » في شهر ايار . والمصيبة هي كل هذه السنوات التي تبقى له ليعيشها . وتنهد من جديد ، وتابع بنظره ذبابة كبـــيرة خضراء كانت تمشي على السقف وانتهى الى التقرير : انني انسان قليل الذكاء . وكانت هذه الفكرة تزعجه بعمق . وكان بوريس حتى ذلك الحين قد اختطّ لنفسه ألاّ يتساءل قط عن ذاته ، وكان من ذلك في حالة رضى تام ؛ ومن جهة اخرى ، فما دامت القضية تقتصر على ان يعرّض نفسه للقتل ، فأنه ليس ذا أهمية كبيرة ان يكون قليل الذكاء،

بل على العكس ، إن ما يؤسف عليه كان أقلّ . اما الآن فقد تغيّر كل شيء : انه مرصود للحياة ، وقد كان مضطراً للاعتراف بأنه لم يكن يملك غايةً ولا موهبة ولا مالاً . وبالاجمال ، لم يكن يملك اي مزية مطلوبة ، ما عدا الصحة طبعاً . وفكر : ما أشدّ ما سأضجر ! واستشعر الخيبة . وطارت الذبابة وهي تطنّ ، وأمرّ بوريس يده تحت قميصه ولامس الجرح الذي كان يسطّر بطنه ، على مستوى الاربيّة ؛ وكان يحب ان يُحسّ تحت أصابعه بذلك المجرى اللحمي . وكان ينظر الى السقف ، ويلامس جرحه ، فيحس قلبه ثقيلاً . ودخل «فرانسيون» الى القاعة ، فاتجه الى بوريس على غير عجل ، بين الأسرّة الفارغة ، ثم توقف فجأة ، متظاهراً بالدهشة ، وقال :

— كنت ابحث عنك في الباحة .

فلم يجب بوريس ؛ وشبك فرانسيون ذراعيه في غيظ :

— انها الساعة الثانية بعد الظهر ، ولا تزال في السرير !

فقال بوريس :

— هل انت مهموم ؟

— لست مهموماً :

فقال فرانسيون : — لا تحزن ، لا بد ان يزول ذلك .

وجلس على سرير بوريس واخذ يلفّ سيجارة . وكان لفرانسيون عينان كبيرتان جاحظتان وأنف شبيه بمنقار نسر ؛ وكان يبدو مريعاً . غير أن بوريس كان يحبه كثيراً ،وكان حسبه احياناً ان يراه حتى يضحك ضحكاً جنونياً . وقال فرانسيون :

— بقي لنا قليل .

— كم ؟

— اربعة .

فعدّ بوريس على أصابعه :

– اي يوم ١٨ .

فهمهم فرانسيون علامة الاقرار ، ولحس الورقة المصمغة واشعل السيكارة ، ثم انحنى على بوريس يُسارُه :

– أليس ثمة احد هنا ؟

كانت جميع الأسرّة خالية : فقد كان الأشخاص في الباحة او في المدينة . قال بوريس :

– انت ترى .. الا ان يكون هناك جواسيس تحت الأسرّة .

فازداد فرانسيون انحناءً وأوضح قائلاً :

– في ليلة ١٨ ، يكون دور « بلين » في الخدمة . وستكون الطائرة على المدرج مستعدةً للاقلاع ، وهو يدخلنا عند منتصف الليل لنقلع في الساعة الثانية . وفي الساعة السابعة نكون في لندن . ما رأيك في ذلك!

ولم يكن بوريس ليقول شيئاً . كان يجسّ جرحه ويفكّر . انهم محظوظون . ثم يشعر بمزيد من الحزن . سوف يسألني عما صممت عليه.

– ماذا ؟ ماذا ؟ ما رأيك في ذلك ؟

قال بوريس : – رأيي انكم محظوظون .

– كيف ، محظوظون ؟ ما عليك إلا أن تأتي معنا . ولن تقول اننا لم نطلب منك ذلك .

قال بوريس : –لا ، لن اقول هذا .

– طيّب ، فماذا قررت ؟

فقال في أسى : – لم أقرر شيئاً .

– انك لن تبقى مع ذلك في فرنسا ؟

– لا ادري .

فقال فرانسيون بلهجة مصدومة :

– إن الحرب لم تنته ، والذين يقولون انها انتهت جبناء كذابون . يجب ان تكون حيث يجري القتال ؛ ولا يحق لك ان تبقى في فرنسا .

قال بوريس بمرارة : – تقول هذا لي انا !

– واذن ؟

– إذن ، لا شيء . انني انتظر رفيقة ، كما اخبرتك . وسأقرر بعد ان أراها .

– ليس ثمة من رفيقة هنا : فهذه قضية رجال .

قال بوريس بجفاف : – الامر كما ذكرت لك .

فبدا الخوف على فرانسيون وصمت . لعله سيظنّ اني خائف؟ وتأمله بوريس في عينيه ليتحقق ، ولكن فرانسيون وجّه له بسمة واثقة اعادت له اطمئنانه .

وسأل بوريس : – تصلون في الساعة السابعة ؟

– في الساعة السابعة .

– لا بد انها رائعة ، شواطيء انكلترا عنـــد الصباح . ان هناك جروفاً كبيرة بيضاء من جانب « الدوفر » .

قال فرانسيون : – آه !

قال بوريس : – لم يسبق لي قط ان ركبت الطائرة .

و سحب يده من تحت قميصه وأضاف :

– هل يتفق لك انت ان تحكّ جرحك ؟

– لا .

– انني أحكّه طوال الوقت : وهذا يزعجني .

قال فرانسيون : – بالنظر الى موضع الجرح عندي ، فمن الصعب ان أحكّه امام الناس .

وساد صمت ، ثم استطرد فرانسيون :

– متى تأتي رفيقتك ؟

– لا ادري ، كان المفروض ان تأتي من باريس ، فتأمل !

قال فرانسيون : – يجب ان تحرّك مؤخرتها ، لأننا نحن الآخرين

لا نستطيع الانتظار .

فتنهد بوريس وانقلب على بطنه . وتابع فرانسيون بلهجة مجردة :

– اما رفيقتي ، فلا أُطلعها على شيء ، ومع ذلك أراها كل يوم . وفي المساء الذي نسافر فيه ، سأترك لها كلمة،وحين تتسلّمها ، نكون قد اصبحنا في لندن .

فهزّ بوريس رأسه من غير ان يجيب . وقال فرانسيون :

– انك لتدهشني ! يا سرغين ، انك تدهشني !

قال بوريس : – انك لا تستطيع ان تفهم .

فصمت فرانسيون ومدّ يده فتناول كتاباً . سيمرّون فوق جروف الدوفر عند الصباح . ولم يكن ينبغي التفكير في ذلك : ان بوريس لم يكن يؤمن ببابا نويل ، فهو واثق من ان لولا ستقول لا . وقرأ فرانسيون :

– « الحرب والسلم » . ما هذا ؟

– رواية عن الحرب .

– حرب ١٤ ؟

– كلا . حرب اخرى . ولكن الامور متشابهة .

قال فرانسيون ضاحكاً : – نعم الامور متشابهة .

وكان قد فتح الكتاب على صفحة واخذ يقرأ مقطّباً حاجبيه في هيئة اهتمام مؤلم .

وتداعى بوريس للسقوط على سريره . كان يفكر : انني لا أستطيع ان « افعل » لها ذلك ، لا أستطيع ان اذهب للمرة الثانية من غير ان اسألها رأيها . وفكر : واذا كنت ابقى من أجلها ، فسيكون هذا دليل حب وفكر : آه ! كفى ! كفى ! دليل عجيب للحب . ولكن هل كان يحق للمرء البقاء من أجل امرأة ؟ لو سئل فرانسيون وغابيل لأجابا نفياً ، ولكنهما كانا صغيري السن اكثر مما ينبغي ، ولم يكونا

يعرفان ما عساه يكون الحب . وفكر بوريس : إن ما كنت اودّ ان يقال لي ، ليس ما عساه يكون الحب : فأنا يُدفع لي لأعرفه، ولكن كنت اود ان أعلم قيمة ذلك . هل يحق للمرء ان يبقى لكي يُسعد امرأة ؟ اذا عرضت القضية على هذا النحو ، كان جوابي نفياً . ولكن أيحق لنا ان نذهب ، اذا كان ذلك يشقي كائناً آخر ؟ وكان يتذكّر عبارة لماتيو : « انني لست جباناً بما فيه الكفاية حتى أخشى ان أعذّب اذا لزم الأمر . » نعم ، بكل تأكيد : ولكن ماتيو كان دائماً يفعل عكس ما كان يقول ؛ انه لم يكن يملك الجرأة قط على ايذاء الناس . وتوقف بوريس ، وقد انقطع نفَسه : واذا لم يكن الامر إلا ضرباً من العناد ؟ اذا كانت رغبتي في الذهاب قد أملتها الانانية الصرف والخوف من الانزعاج في الحياة المدنية ؟ ربما كنت شخصاً مغامراً ، وربما كان من الاسهل ان يعرّض الأنسان نفسه للقتل من ان يحيا . وماذا لو كنت أبقى بدافع من طلب الراحة ، او من الخوف ، او من الرغبة في ان تكون امرأةٌ تحت يدي ؟ والتفت : كان فرانسيون ينحني فوق الكتاب في اجتهاد مليء بالتحدي، ، كما لو انه أخذ على عاتقه ان يكتشف أكاذيب المؤلف . اذا استطعت ان اقول له : انني ذاهبٌ معكم ، اذا امكن للكلمة ان تخرج من فمي ، لقلتها . وتنحنح وفتح شفتيه وانتظر . ولكن الكلمة لم تأت ؛ انني لا استطيع ان اسبّب لها هذا الشقاء . وفهم بوريس انه لم يكن يريد ان يذهب من غير ان يستشير لولا . ستقول بكل تأكيد لا وينتهي الأمر . وفكّر مأخوذاً : واذا لم تصل في الموعد المحدّد ؟ اذا لم تصل قبل ١٨ ؟ هل ينبغي ان يقرر وحده ؟ لنفرض انني بقيت ، وانها وصلت يوم ٢٠ وانها قالت لي : كنت سأدعك تذهب . ستكون لي آنذاك سحنة لطيفة ! افتراض آخر : أذهب ، فتصل هي يوم ١٩ ، وتقتل نفسها . اوه خراء ! والتاث كل شيء في ذهنه ، فأغمض عينيه وتداعى للاستغراق

في النوم .

وصاح بيرجيه من وراء الباب :

– سرغين ، هناك انثى تنتظرك في الباحة .

فانتفض بوريس ورفع فرانسيون رأسه :

– انها رفيقتك .

واخرج بوريس ساقيه من السرير وحكّ جلدة رأسه . وقال وهو يتثاءب :

– سيكون هذا اروع مما انتظر . كلا : بل هو يوم زيارة اختي.

فردّد فرانسيون بهيئة بليدة :

– آه ، انه يوم زيارة اختك ؟ انها الصبية التي كانت معك ، في ذلك اليوم ؟

– نعم .

فقال فرانسيون من غير حماسة :

– لا بأس بها .

ولفّ بوريس طماقاته وارتدى سترته ، ثم حيّا فرانسيون بأصبعين من يده واجتاز القاعة فهبط السلّم وهو يصفر . وفي منتصف الدرج توقّف واخذ يضحك ، وفكّر : إنّ هـــذا لطريف ! طريف كم انا حزين . ولم يكن يسلّيه قط ان يرى ايفيش ؛ وفكر : « حين يكون المرء حزيناً ، فهي لا تُساعده ، بل تُرهقه . »

وكانت تنتظره في باحة المستشفى : كان ثمة جنود يطوفون المكان وهم يتطلعون اليها ، ولكنها لم تكن متنبهة لهم . وبسمت له من بعيد:

– مرحباً ، ايها الاخ الصغير .

وحين رأى الجنود بوريس قادماً ضحكوا وصاحوا : كانوا يحبونه كثيراً . وحيّاهم بوريس بيده ، ولكنه لاحظ بغير سرور ان احداً لم يقل له « ايهـا المحظوظ » او « افضل ان تكون في سريري على ان

يكون الرعد . » والواقع ان ايفيش كانت قد شاخت كثيراً وقبُحت منذ إجهاضها . وبالطبع كان بوريس ما يزال فخوراً بها ، ولكن على نحو آخر . وقال وهو يلامس عنق ايفيش بأطراف أصابعه :

— مرحباً ايتها العفريتة الصغيرة .

وكانت رائحة حمّى وعطر كولونيا تخفق حولها الآن بصورة دائمة . وتأملها في تجرّد ثم قال لها :

— انك سيئة المنظر .

— اعرف ذلك . فانا قبيحة .

— انك لا تضعين بعد الأحمر على شفتيك ابداً .

قالت بقسوة : — نعم .

وصمتا . وكانت ترتدي قميصاً احمر ذا ياقة مرتفعة ، من طراز روسي جداً ، يجعلها تبدو اكثر اصفراراً . ليتها على الأقل وافقت على ان تكشف قليلاً من كتفيها او صدرها : فقد كانت لها كتفان جميلتان جداً ! ولكنها كانت قد صممت على ارتداء القمصان المرتفعة والتنانير المفرطة في الطول : فكأنما كانت تخجل من جسمها . وسألته :

— هل نبقى هنا ؟

— استطيع ان اخرج ، ويحقّ لي ذلك .

قالت ايفيش : — إن السيارة تنتظرنا .

فسألها بوريس مذعوراً : — أليس هو هنا ؟

— من ؟

— العم .

— كلا .

واجتازا الباحة وخرجا من البوابة ، وحين رأى بوريس سيارة البويك الخضراء الضخمة التي تخص السيد « ستوريل » أحسّ بالانزعاج ، فقال :

ـ في المرة القادمة ، إجعليها تنتظر في زاوية الشارع .

وصعدا الى السيارة ، وكانت واسعة سعةً مضحكة بحيث كان المرء يضيع فيها .

وقال بوريس بين أسنانه :

ـ يمكن ان نلعب فيها لعبة « التخفّي » .

والتفت السائق فبسم لبوريس ، وكان رجلاً ضخماً مفرط المجاملة ذا شاربين رماديين . وسأل :

ـ الى اين امضي بالسيدة ؟

فسألها بوريس : ـ ما هو مشروعك ؟

ففكرت ايفيش :

ـ اريد ان ارى بشراً .

ـ اذن ، جادة الكانوبيير ؟

ـ الكانوبيير ، اوه كلا ! نعم ، نعم ، اذا شئت .

قال بوريس : ـ الى المرفأ عند زاوية الكانوبيير .

ـ طيب ، يا سيد سرغين .

وفكر بوريس : « تنبل ! » واقلعت السيارة فأخذ بوريس ينظر عبر الزجاج : ولم تكن له رغبة في الكلام ، لأن السائق كان يمكن ان يسمعهما . وسألته ايفيش :

ـ ولولا ، ما اخبارها ؟

فالتفت اليها : كانت تبدو في وضع مطمئن كل الاطمئنان ؛ فوضع اصبعاً على فمه ، ولكنها ردّدت بصوت ممتلىء قوي ، كما لو ان السائق لم يكن في نظرها اكثر من قطعة لفت مطبوخة :

ـ هل لديك اخبار عن لولا ؟

فهز كتفيه من غير ان يجيب . فقالت :

ـ ماذا ؟

قال : ليس لديّ اخبار .

حين كان بوريس يتـداوى في « تور » ، جاءت لولا فأقـامت بالقرب منه . وفي مطلع حزيران نُقـل الى مرسيليـا ، فمرت هي في باريس ، تنبؤاً بالاسوأ ، لتسحب مالاً من المصرف قبل ان تلحق به . وفي تلك الاثناء ، وقعت « الاحداث » وبات لا يعرف عنها شيئاً . ودفعته رجّة الى لصق ايفيش ؛ وكانـا يحتلان مكانـاً صغيراً جداً في مقعد البويك حتى ان ذلك ذكره يوم هبطا باريس : كانـا يتسليان باعتبار نفسيهما يتيمين ضائعين في العاصمة ، وغالباً ما كان احدهما يلتصق هكذا بالآخر ، على مقعد من مقاعـد « الدوم » او « الكوبول » . ورفع رأسه ليحـدث ايفيش في هـذا ، ولكنه رأى مظهرهـا المظلم فاجتزأ بالقول :

– لقد سقطت باريس ، أرأيت ؟

قالت ايفيش بلامبالاة :

– نعم ، رأيت .

– وزوجك ؟

– لا انباء عنه كذلك .

وانحنت نحوه وقالت بصوت سريع منخفض :

– اودّ لو انه يموت .

فألقى بوريس نظرة الى السائق ورأى انه كان ينظر اليهما في المرآة العاكسة ، فلكز ايفيش في مرفقها فصمتت ، ولكنها ظلت محتفظة على شفتيها ببسمة خبيثة جادة . وتوقفت السيارة في اسفل جادة الكانوبيير ، فقفزت ايفيش الى الرصيف وقالت للسائق في سهولة آمرة :

– عُد لتأخذني من مقهى « ريش » في الساعة الخامسة .

فقال السائق بصوت رقيق :

– الى اللقاء ، يا سيد سرغين .

قال بوريس منزعجاً : — مع السلامة .

وفكر : سأعود في الترام . وتناول ذراع ايفيش وعادا يصعدان الكانوبيير . ومر ضبّاط ، فلم يحيّهم بوريس ولم يبد عليهم الاهتمام بذلك . وكان بوريس منزعجاً لالتفات النساء اليه لدى مروره .

وسألته ايفيش :

— الا تحيي الضباط ؟

— ولماذا ؟

فقالت : — إن النساء ينظرن اليك .

فلم يجب بوريس ، وبسمت له سمراء ، فالتفتت ايفيش باهتمام وقالت موجهة اليها الكلام :

— نعم ، نعم ، انه جميل .

فقال بوريس مبتهلا :

— ايفيش ، لا تجذبي الينا الانظار .

كانت تلك هي اللازمة الجديدة . فقد حدث ان قال له احدهم ذات صباح انه كان جميلا ، ومنذ ذلك الحين والناس يرددون له ذلك ، وكان فرانسيون وغابيل يدعوانه « وجه الحب » . وبالطبع ، لم يكن بوريس ليغتر ، ولكن ذلك كان مزعجاً ، لأن الجمال ليس ميزة في الرجال . وقد كان يؤثر لو ان جميع هاتيك الاناث ينشغلن بمؤخراتهن ، ويؤثر لو ان الذكور يعمدون في الطريق الى بعض المغازلة لايفيش بقدر كاف لإشعارها بأنها جميلة .

وعلى سطيحة مقهى « ريش » كانت جميع الطاولات مشغولة تقريباً ، فجلسا وسط نساء سمراوات وضباط وجنود انيقين ورجال مسنين ذوي ايد سمينة ؛ جمع وديع هادىء ، أشخاص يستحقون القتل ولكن من غير ايذاء . وكانت ايفيش قد بدأت تشدّ على خصلات شعرها فسألها بوريس :

— هل تشكين شيئاً ؟

فهزت كتفيها . ومدّ بوريس ساقيه فلاحظ انه كان منزعجاً . وسألها :

— ماذا تريدين ان تشربي ؟

— هل قهوتهم جيدة ؟

— هكذا .

— انني اموت شوقاً الى شرب قهوة جيدة. إنهم هناك يصنعون قهوة منتنة .

قال بوريس للخادم :

— فنجانا قهوة (والتفت الى ايفيش فسألها) كيف الحال مع عمك وامرأة عمك ؟

فانطفأت الحماسة على وجه ايفيش وقالت :

— لا بأس . انني أصبح شبيهة بها (واضافت بضحكة صغيرة) ان امرأة عمي تقول إنني اشبهها.

— وماذا تفعلين طوال النهار ؟

— اوه ، بالامس مثلا ، نهضت في العاشرة ، فقمت بزينتي بأبطأ ما أستطيع ، حتى صارت الساعة الحادية عشرة والنصف ؛ وقرأت الصحف ...

فقال بوريس بقسوة : — انك لا تحسنين قراءة الصحف .

— نعم ، لا احسن ذلك . وعند الغداء ، تحدثنا عن الحرب ، وذرفت الأم ستوريل دمعـــة وهي تفكر بابنها العزيز ؛ وحين تبكي ترتفع شفتاها حتى لأظن دائماً بأنها موشكة على الضحك . وبعد ذلك اشتغلنا بالصوف ، فأطلعتني على بعضٍ أسرارها : لقد كان جورج ذا صحة رقيقة حين كان صغيراً ، فتصوّري انه اصيب بالتهاب الامعاء في الثامنة من عمره ؛ فاذا كان لا بدّ لها من الاختيار بين ابنها وزوجها فسيكون ذلك فظيعاً ، ولكنهـا تؤثر ان يموت زوجهـا لأنها كانت امـاً

اكثر منها زوجة . ثم حدثتني عن امراضها ، عن الرحــم والامعاء والمثانة ، ويبدو ان الامور عندها سيئة جداً .

وكانت على شفتي بوريس « دعابة » عظيمة ، جاءته بسرعة كبيرة، حتى شكّ في ان لا يكون قد قرأها في صحيفة ما . ولكن لا . « إن النساءيتحدثن فيما بينهن عنداخل بيوتهن او عن داخل اجسامهن.» وكانت العبارة لا تخلو من التصنّع والحذلقة،وتشبه مثلاً من امثال لاروشفوكو.. وتساءل عما اذا كان سيطلع ايفيش عليها ، ولكن ايفيش كانت تزداد عدم فهم للدعابات . واكتفى بالقول :

ــ نعم . وبعد ذلك ؟

ــ بعد ذلك ، عدت الى الغرفة ومكثت فيها حتى العشاء .

ــ وماذا فعلت فيها ؟

ــ لا شيء . وبعد العشاء استمعنا الى اخبار الراديو وعلّقنا عليها . يبدو اننا لم نخسر شيئــاً ، وان علينا ان نحتفظ برباطة جأشنا ، وان فرنسا شاهدت ما هو اسوأ من ذلك . وبعد ذلك عدت الى غرفتي ثانية فأعددت فنجان شاي على موقدي الكهربائي الذي أخفيه ، لأنه يعطّل الكهرباء مرةً على كل ثلاث مرات أستعمله فيها . وقــد جلست في اريكة وانتظرت حتى يناموا .

ــ وبعد ذلك ؟

ــ تنفّست .

قال بوريس : ــ يحسن بك ان تأخذي اشتراكاً للمطالعة .

قالت : ــ حين اقرأ تتراقص الأحرف امام عيني ، فأفكر طوال الوقت في جورج . انني لا أستطيع الامتناع عن التــأميل بأن نتلقى نبأ موته .

ولم يكن بوريس يحب زوج اخته ، وهو لم يكن يفهم قط مــاذا حدا بأيفيش في ايلول ٣٨ الى الفرار من البيت لترتمي على رأس تلك

الهليونة . ولكن كان يلذّه الاقرار بأنه لم يكن الحصان الرديء ؛ حتى ان جورج حين علم بأنها حامل ، سلك سلوكاً طيباً : فهو الذي ألحّ على ان يتزوجها . ولكن كان ذلك بعد فوات الاوان : كانت ايفيش تكرهه لأنه جعلهـا تحمل . كانت تقول بأنها تستفظع نفسها ، وقد اختبأت في القرية ولم تشأ حتى ان ترى أخاها مرة اخرى . ولا ريب في انها كانت تقتل نفسها لو لم تكن تخاف خوفاً شديداً من ان تموت .

– اية قذارة !

فانتفض بوريس :

– ماذا ؟

فقالت وهي تومىء الى فنجان القهوة :

– هذا .

وذاق بوريس القهوة وقال بهدوء :

– صحيح انها ليست عظيمة (وفكر لحظـة ثم أضاف) ولكنها ستزداد سوءً مع الايام ، كما أتصوّر .

قالت ايفيش :

– يا لبلاد المهزومين !

ونظر بوريس في حذرٍ فيما حوله . ولكن لم يكن ثمـة من يتنبه لها : كان الناس يتحدثون عن الحرب في احترام وندم . فكأنهم كانوا عائدين من دفن عزيز . ومرّ الخادم وهو حاملٌ وعاءً فارغاً ، فأدارت له ايفيش عينين حبريتين وقذفته بقولها :

– انها منتنة !

فنظر اليها الخادم في دهشة . وكان له شارب رمادي ؛ وقد كان يمكن لايفيش ان تكون في سن ابنته . وقالت ايفيش :

– هذه القهوة منتنة ، وتستطيع أن تأخذها .

وكان الخادم يحدجها في فضول : لقد كانت اصغـر سنّاً من ان

يستطيع إخافتها . وحين ادرك من يكونان ، راودته بسمة قاسية :

– كنت تنتظرين قهوة يمنية ؟ لعلك لا تعرفين اننا في حرب ؟

فأجابت بحيوية :

– ربما كنت لا أعرف ذلك ، ولكن اخي الذي جُرح يعرفها خيراً منك بالتأكيد .

وصرف بوريس عينيه وقد احمر من فرط الاضطراب . لقد اصبحت أشدّ نباهة ولم تكن تفتقر الى سرعة البداهة ، ولكنه كان يتأسف على العهد الذي كانت تمضغ فيه غضبها بصمت،وشعرها منتثر في وجهها : لقد كانت أقلّ مشاكل .

وتمتم الخادم مغتاظاً :

– لن ارسل الشكوى من اجل فنجان قهوة ، في اليوم الذي يدخل فيه الالمان باريس !

ومضى ، فضربت ايفيش بقدمها الارض :

– ليس في فمهم الا الحرب ، انهم لا يكفّون عن دعوى القتال وكأنهم فخورون بذلك . فليخسروها، حربهم ، ليخسروها مرة والى الابد ، ولنكفّ عن الكلام فيها .

وخنق بوريس تثاؤبة : إن انفجارات ايفيش لا تسلّيه بعد . حين كانت فتاة ، كان يروقه ان يراها تشدّ شعرها وهي تخبط وتُحول عينيها ، وقد كان هذا يجعلك مرحاً طوال النهار . اما الآن ، فإن عينيها تظلان كئيبتين ، فكأنها تركن الى الهدوء ، فتشبه امها في تلك الحالات . وفكر مندهشاً : « انها امرأة متزوجة ، امرأة متزوجة لها عم وامرأة عم ، وزوج في الجبهة وسيارة عائلية . » ونظر اليها في تبرم ، ثم صرف عينيه لأنه كان يشعر بأنها سترعبه . « سوف أذهب ! » وانتصب فجأة : إن قراره قد اتُخذ . « سأذهب . سأذهب معهم . اني لا استطيع ان ابقى بعد في فرنسا . » وكانت ايفيش

تتكلم . فسألها :

ـ ماذا ؟

ـ الوالدان .

ـ ماذا تقصدين ؟

ـ أقول انهما كان عليهما ان يبقيا في روسيا ؛ يبدو انك لا تسمعني.

ـ لو بقيا فيها ، لدخلا السجن .

ـ على اي حال ، ما كان ينبغي لهما ان يجنّسانا بالجنسية الفرنسية، والا لكان بوسعنا ان نعود الى بلادنا .

قال بوريس : ـ بلادنا هي فرنسا .

ـ كلا ، بل هي روسيا .

ـ هي فرنسا ، ما داما قد جنّسانا .

قالت ايفيش : ـ تماماً ، من أجل هذا ما كان ينبغي لهما ان يفعلا ذلك .

ـ نعم ، ولكنهما فعلاه .

ـ الامر عندي سواء . ما دام ان عليهما الا يفعلا ذلك ، فكأنهما لم يفعلا شيئاً على الاطلاق .

قال بوريس : ـ لو كنت في روسيا ، لبصقت عليها .

ـ سيكون الأمر عندي سواء ، لأنها بلاد عظيمة لا بد ان أشعر فيها بالاعتزاز . اما هنا ، فاني أقضي وقتي وانا أشعر بالعار .

وصمتت لحظة ، وكان يبدو انها مترددة . وكان بوريس ينظر اليها في حنان ؛ ولم تكن لديه أية رغبة في معاكستها ، وفكّر في تفاؤل : « ستضطر حتماً الى التوقف . فأنا لا أدري ما عسى تستطيع ان تضيفه» ولكن ايفيش كانت تتمتع بالاختراع : فقد رفعت يداً في الهواء،ورسمت بها غطسةً صغيرة ، كما لو أنها كانت تقذف نفسها في الماء ، وقالت:

ـ اني أحتقر الفرنسيين ..

ورفع رجل رأسه عن صحيفة كان يقرأها الى جانبها وتأملها بهيئة حالمة . ونظر اليه بوريس مواجهة في عينيه ؛ ولكن ما لبث الرجل ان نهض ليستقبل امرأة كانت متجهة نحوه ، فانحنى لها وجلست،ويدها في يده وهما يبتسمان . واطمأن بوريس فعاد الى ايفيش . وبدأ النزاع الكبير : كانت تدمدم بين أسنانها :

– احتقرهم ، احتقرهم !

– تحتقرينهم لأنهم يصنعون قهوة رديئة ؟

– أحتقرهم لكل شيء .

وكان بوريس قد أمّل ان تهدأ العاصفة من تلقاء نفسها ؛ ولكنه يدرك الآن انه كان مخطئاً ، وانه لا بدّ من مواجهتها بشجاعة . وقال :

– اما انا ، فأحبهم كثيراً . إن الجميع سيسقطون فوقهم ، الآن وقد خسروا الحرب ؛ ولكني رأيتهم في الخط الاول ، وأؤكد لك أنهم فعلوا كل ما في طاقتهم .

قالت ايفيش :

– أترى ؟ أترى ؟

– ماذا أرى ؟

– لماذا تقول : « انهم » فعلوا كل ما في طاقتهم ؟ لو كنت تشعر بأنك فرنسي لقلت « نحن » .

وانما لم يقل بوريس « نحن » بدافع التواضع . وهز رأسه وقطّب حاجبيه وقال :

– انا لا أحسّني فرنسياً ولا روسياً . ولكن حين كنت هناك ، مع سائر العساكر ، كان ذلك يلذّ لي .

قالت : – انهم أرانب .

فتظاهر بوريس بأنه أخطأ فقال وكأنه يستدرك :

– نعم ، ارانب مدهشة .

– كلا ، كلا ، بل ارانب تهرب . هكذا (وأركضت يدها على الطاولة) .

قال بوريس : – انك كجميع النساء . فأنت لا تقدّرين الا البطولة العسكرية .

– ليس الأمر كذلك . ولكن ما داموا يريدون ان يخوضوا هـذه الحرب ، فما كان عليهم الا ان يخوضوها حتى النهاية .

فرفع بوريس يده بحركة موهونة . « ما داموا يريدون ان يخوضوها ، فما كان عليهم إلا ان يخوضوها حتى النهاية . » بكل تأكيد . هذا ما كان يردّده أمس مع غـابيل وفرانسيون . ولكن ... وسقطت يده باسترخاء : إن الشخص الذي لا يفكر مثلك ، عسيرٌ ومتعبٌ ان تبرهن له أنه عـلى خطأ . غير انه حين يكون من رأيك ، ثم يترتب عليك ان تشرح له انه مخطيء ، فانك تضيع . قال :

– دعيني !

قالت ايفيش وهي تبتسم من فرط الغضب :

– ارانب !

قال بوريس : – ان الذين كانوا معي لم يكونوا ارانب . بل كان فيهم شجعان الى حد بعيد .

– لقد قلت لي انهم كانوا يخافون الموت .

– انت ؟ الا تخافين الموت ؟

– انا ، انني امرأة .

قال بوريس : – حسناً ، انهم هم يخافون الموت ، وهم مع ذلك رجال . وهـذا ما يسمى بالشجاعة . كانوا يعرفون ما يعرّضون له أنفسهم .

فنظرت اليه ايفيش نظرة ارتياب :

– لن تزعم لي انك « انت » كنت خائفاً ؟

– لم أكن أخشى الموت لأني كنت مؤمناً بأني انما كنت هناك لهذه الغـاية .

ونظر الى اظافره وأضاف بلهجة متجردة :

– الطريف في الأمر اني مع ذلك غوّطت في ثيابي .

فارتعدت ايفيش :

– ولكن لأي سبب ؟

– لا ادري . ربما كان بسبب الضجة .

والواقع ان ذلك لم يدم اكثر من عشر دقائق – ربمـا عشرين ، في بدء الهجوم تماماً . ولكنه لم يغضب ان تعتبره ايفيش خافاً [1] : فقد كان ذلك يدعم رأيه . وكانت تنظر اليه نظرة متّرددة ، مذعورة من ان يشعر بالخوف من كان روسياً ، ان يشعر به سرغين ، أخوها بالذات . وأحسّ أخيراً بالخجل فسارع يضيف :

– الحقيقة انني لم أخف طوال الوقت .

فابتسمت له وقد شعرت بالعزاء ، وفكر بحزن : « لسنا بعد متفقين على شيء . » وساد صمت : وشرب بوريس جرعـة من قهوة فكاد يلفظها : كانت كما لو انهم وضعوا له حزنه كله في فمه . ولكنه فكر بأنه سيذهب ، فاستشعر بعض العزاء . وسألته ايفيش :

– ماذا تنوي ان تفعل الآن ؟

قال بوريس : – أعتقد انهم سيسرّحونني . والواقع اننا قد شفينا جميعاً تقريباً ، ولكنهم يحتفظون بنا هنا لأنهم لا يدرون ما يفعلون بنا .

– وبعد ذلك ؟

– سوف ... أطلب وظيفة استاذ .

– ولكنك لست « اغريجيه » ؟

– صحيح . غير أني أستطيع ان اكون استاذاً في كلية .

– وهل يلذّك ان تلقي محاضرات ؟

---

[1] الخاف هو الشديد الخوف .

فقال باندفاع : — آه ، كلا (واحمر وجهه فأضاف) انــني لم أخلق لهذا .

— ولأي شيء خُلقت ، يا اخي الصغير ؟

— هذا ما أتساءل عنه .

والتمعت عينا ايفيش :

— أتريد ان أقول لك لأيّ شيء خُلقنا ؟ خُلقنا لنكون اغنياء .

فقال منزعجاً : — ليس الامر كذلك .

ونظر اليها لحظة وهو يردد : « ليس الامــر كذلك ! » فيما كان يضغط فنجانه بين أصابعه .

— كيف هو اذن ؟

فقال : — كنت منفوخاً حتى الانفجار ، ثم سرقوا مني موتي . انني لا اعرف شيئاً ، ولست موهوباً لشيء ، وليس لي بعد رغبةٌ في شيء .

وتنهّد وصمت ، مستشعراً الخجل ان يكون قد تحدث عن نفسه : ان القضية هي اني لا أستطيع ان اعزم على ان اعيش عيشة وسطاً . وهذا في حقيقته هو ما قالته تقريباً .

وكانت ايفيش تتابع فكرتها ، فسألته :

— ولولا ، ألا تملك مالاً ؟

فقفز بوريس وضرب الطاولة : لقد اوتيتْ موهبة ان تقرأ فكرته وتترجمها بعبارات غير مقبولة :

— انني لا اريد مال لولا .

— لماذا ؟ كانت تعطيك منه ، قبل الحرب .

— لم تعد تعطيني منه .

فقالت في حرارة : — اذن ، لننتحر كلانا .

وتنهّد ، وفكر : ها هي ذي تعود سيرتها . إن هــذا لا يناسب

سنّها بعد . وكانت ايفيش تنظر اليه وهي تبتسم :

– لنستأجر غرفة في الميناء القديم ولنفتح انبوب الغاز .

فاكتفى بوريس بأن يحرّك سبابة يده اليمنى علامـــة الرفض . ولم تلحّ ايفيش : بل خفضت رأسها وأخذت تشدّ على خصلاتها : وفهم بوريس أنه كان لديها ما تطلبه منه . وقالت بعد لحظة ، من غير ان تنظر اليه :

– كنت قد ظننت ...

– ماذا ؟

– كنت ظننت انك ستأخذني معك ونعيش نحن الثلاثة على مال لولا.

واستطاع بوريس ان يبلع ريقه من غير ان يختنق ، وقال :

– آه ! لقد فكرت بذلك .

وقالت ايفيش في حماسة مفاجئة :

– اسمع يا بوريس . ليس باستطاعتي بعد ان أعيش مـــع هؤلاء الناس .

– هل يسيئون معاملتك ؟

– على العكس : فهم يعيشونني في الحرير : زوجـــة ابنهم ، لو تعلم ! ولكني أحتقرهم ، أحتقر جورج ، احتقر خدمهم ...

فقال بوريس : – لاحظي انك تحتقرين لولا ايضاً .

– لولا ، ليس الامر متشابهاً .

– ليس الامر متشابهاً لأنها بعيدة وانك لم ترها منذ عامين .

– إن لولا تغني ، ثم هي تشرب ، ثم انها جميلة ... يا بوريس! (وصاحت) اما هم ، فقبيحون ؛ فاذا تركتني بين ايديهـم ، قتلت نفسي ، كلا ، لن اقتل نفسي بل سيكون الامر أسوأ من ذلك . ليتك تعـرف كم أحسني عجوزاً وشريرة بعض الاحيان .

« طق ! » فكر بوريس.. وشرب بعض القهوة ليزلق لعابـه في

حلقومه ؛ وكان يفكر : لا يستطيع المرء ان يسيء الى شخصين . وكانت ايفيش قد كفّت عن الشدّ على شعرها ، وكانت سحنتها العريضة الممتقعة قد تلوّنت ، وكانت تنظر اليه نظرة ثابتة قلقة ، فتشبه قليلاً ايفيش الماضية . لربما تستعيد شبابها ؟ وربما تستعيد جمالها ؟ وقال :

ـ شرط ان تطبخي لنا ، ايتها العفريتة الصغيرة .

فأخذت يده وشدّتها بكل قواها :

ـ هل توافق اذن ؟ اوه ، بوريس ! أتوافق إذن ؟

سأكون استاذاً في « غيريه » . كلا ، ليس في غيريه ، فهناك ليسيه . بل في كاستلنوداري . وسأتزوج اولا : فان استاذاً في كلية لا يستطيع ان يعيش مع خليلة ؛ وسأبدأ منذ الغد في اعداد محاضراتي . وأمرّ يده خلل شعره ، وشدّ برفق على خصلة ليتحقق من متانتها ، ثم فكر : سأكون أصلع ؛ إن هذا مؤكّد الآن : سيسقط شعري قبل ان اموت .

ـ طبعاً ، اوافق .

وكان يرى طائرة تدور عند الصباح الباكر ، وكان يردد : الجروف ، الجروف الجميلة البيضاء ، جروف دوفر .

الساعة الثالثة في بادو

كان ماتيو جالساً فوق العشب ؛ وكان يتابع بعينيه الدوامات السود فوق البحر . وبين الفينة والفينة كان قلب من نار يصعد في الدخان فيصبغه بدمه وينفجر : واذ ذاك تثب شرارات في السماء كأنها البراغيث.

قال شارلو : ـ سوف يشعلون النار .

وكانت فراشات من السناج تتطاير حولهم ؛ فالتقط بينيت احداها

وسحقها بين يديه بتفكر وقال وهو يبرز ابهامه المسودّ :

ـــ هذا كل ما يبقى من خـــارطة اذا احيلت الى جزء من عشرة آلاف .

ورفع لونجان الباب ذا الشقوق ودخل الحديقة : وكان يبكي . وقال شارلو :

ـــ إن لونجان يبكي !

فمسح لونجان عينيه .

ـــ الحيوانات ! لقد حسبت انهم سيسلخون جلدي .

وتداعى للسقوط على العشب ؛ وكان يحمل كتاباً ذا غلاف ممزّق .

ـــ كان عليّ ان أؤرث النار بواسطة منفخ بينما كانوا يقذفون اوراقهم فيها . وكنت اتلقى الدخان كله في فمي .

ـــ وهل انتهوا ؟

ـــ لا يهمّني . لقد اخلونا لأنهم سيحرقون الوثائق السرية . يتحدثون عن الاسرار : الاوامر التي ضربتها بنفسي على الآلة الكاتبة .

قال شارلو : ـــ هناك رائحة رديئة .

ـــ رائحة شواء .

ـــ كلا ، اني اقول : اذا أحرقوا الوثائق ، انبعثت رائحة رديئة.

ـــ نعم ، رائحة رديئة ، رائحة شواء . هذا ما أقوله .

وضحكوا ، وأشار ماتيو الى الكتاب وسأل :

ـــ أين وجدته ؟

فقال لونجان بغموض : ـــ هناك .

ـــ اين ، هناك ؟ المدرسة ؟

قال : ـــ نعم .

وشدّ الكتاب اليه في حذر ، وسأله ماتيو :

ـــ هل هناك سواه ؟

– كانت هناك كتب اخرى ، ولكن رجال « الوكالة » استعملوها .
– وما هو هذا الكتاب ؟
– كتاب تاريخ .
– ولكن ما هو ؟
– لا أعرف عنوانه .
وألقى نظرة على الغلاف ، ثم اضاف في استياء :
– « تاريخ عودة الملكيتين » .
وسأل شارلو : – ومن المؤلف ؟
فتهجأ لونجان : – فو – لا – بيل .
– فولابيل ، من هذا ؟
– وما يدريني ؟
وسأله ماتيو : – هل تعيرني إيّاه ؟
– بعد ان اقرأه .
وتسلّل شارلو في العشب فأخذ الكتاب من يديه :
– ولكن اسمع . انه الجزء الثالث .
فانتزعه منه لونجان :
– وماذا يهم ؟ المقصود ان اركز انتباهي .
وفتح الكتاب بالاتفاق وتظاهر بأنه يقرأ ليزيد استملاكه إياه . وبعد ان أنهى المهمة ، رفع رأسه وقال :
– لقد أحرق الكابيتن رسائل زوجته .
وكان ينظر اليهم مرفوع الحاجبين ، بسيط الهيئة ، مقلّداً سلفاً ، بعينيه وشفتيه ، الدهشة التي كان يتوقّع إثارتها فيهم . وخرج بينيت من حلمه العابس والتفت اليه باهتمام :
– صحيح ؟
– نعم ، وقد احرق أيضاً صورها ، فرأيتها في اللهب . انها

جميلة ؟

– صحيح ؟

– اؤكد لك ذلك .

– وماذا كان يقول ؟

– لم يكن يقول شيئاً ، بل كان ينظر اليها تحترق .

– والآخرون ؟

– لم يكونوا يقولون شيئاً كذلك . سوى ان اوليريش اخرج رسائل من محفظة نقوده والقاها في النار .

فتمتم ماتيو : – فكرة عجيبة .

والتفت اليه بينيت يسأله :

– أتراك لن تحرق صور امرأتك ؟

– ليس لي من امرأة .

– آه ! من أجل هذا .

فسأله ماتيو : – وهل أحرقت انت صور امرأتك ؟

– أنتظر حتى يظهر الالمان .

وصمتوا . وكان لونجان قد اخذ يقرأ في جدّ ، فرمى اليه ماتيو بنظرة حسد ونهض . ووضع شارلو يده على كتف بينيت .

– هل نلعب الثأر ؟

– اذا شئت .

فسألهما ماتيو : – وبمَ تلعبان ؟

– لعبة « الموربيون » .

– وهل يمكن ان يلعبها ثلاثة ؟

– لا .

وجلس بينيت وشارلو منفرجي الساقين على المقعد الخشبي ، فأفسح لهما الرقيب بيارنيه الذي كان يكتب على ركبته .

– هل تكتب مذكراتك ؟

قال بيارنيه : – كلا ، وانما أحلّ عملية فيزيائية .

وأخذا يلعبان . وكان نيبير نائماً وهو مستلقٍ على ظهره ، متصالب الذراعين . وكان هواء السماء يُفرغ في فمه الفاغر بقرقرة تشبـــه خرير البلوعة . وكان شوارتز منتحياً ركناً آخر يحلم . لم يكن ثمة من يتكلم ، لقد ماتت فرنسا . وتثاءب ماتيو ، ونظـــر الى الوثائق السرية تتلاشى دخاناً في السماء ، ونظر الى الارض الكثيفة السوداء بين الخضار ، ففرغ رأسه : لقد كان ميتاً ، وهذا الاصيل الابيض الميت ، كان قبراً .

ودخل لوبيرون الى الحديقة . وكان يأكل ، وجفونـــه تخفق تحت عينيه الكبيرتين المغربتين ، وكانت اذناه تتحركان على حركة فكّيه .

وسأله شارلو :

– ماذا تأكل ؟

– كسرة خبز .

– ومن اين اتيت بها ؟

فأومأ الى الخارج من غير ان يجيب ، واستمر يمضـــغ . وصمت شارلو فجأة وتأمله في شيء من الذعر : وكان الرقيب بيارنيه يتأمله هو ايضاً ، مقلوب الرأس ، مرتفع القلم . وظل لوبيرون يمضغ ، في غير ما عجلة : ولاحظ ماتيو هيئته الجادّة ، فأدرك انه كان يحمـل انباء ؛ واذ ذاك أحسّ بالخوف كالآخرين ، وتراجع خطوة الى الوراء.

وانتهى لوبيرون من المضغ في هدوء ، ومسح يديه بثوبه، ففكر ماتيو : « لم يكن ما يأكله خبزاً . » واقـــترب شوارتز وجعلوا ينتظرون صامتين .

وقال لوبيرون : – ماذا ؟ انتهى الامر ؟

فسأل بيارنيه بقسوة : – ماذا ؟ ماذا ؟ ما الذي انتهى ؟

– انتهى الامر .

– الـ ...

– نعم .

برق نحاسي ، ثم ساد الصمت ؛ وكان لحم هذا النهار الأزرق الطري قد تلقى الخلود كضربة منجل . لم يكن ثمة ضجة ، ولا نفخة هواء ، كان الزمن قد تجمد ، وانسحبت الحرب : وقد كانوا منذ لحظة فيها ، بمنجى ، وكان بوسعهم بعدُ ان يؤمنوا بالمعجزات ، بفرنسا الخالدة ، بالمساعدة الاميركية ، بالدفاع المطاط ، بدخول روسيا الحرب ؛ اما الآن فقد كانت الحرب وراءهم ، منغلقة ، ناجزة ، خاسرة . وأصبحت آمال ماتيو الأخيرة ذكريات أمل .

وكان لونجان أول من استرد وعيه ، فمد يديه الطويلتين كما لو انه يريد ان يجس النبأ بحذر ؛ وسأل في خجل :

– وإذن ... هل وُقع ؟

– منذ هذا الصباح .

وكان بيارنيه قد تمنى الصلح طوال تسعة أشهر . الصلح بأي ثمن . وها هو الآن هنا ، ممتقع يسيل منه العرق . وكان الانفعال المفاجيء قد اثار جنونه ، فصاح :

– وكيف عرفت ذلك ؟

– لقد أخبرني به غيكيولي .

– وكيف عرف هو ؟

– من الراديو . لقد التقطوا الساعة هذا النبأ .

وكان يتكلم بلهجة مذيع صابرة محايدة ؛ وكان يتسلى بالتظاهر بمظهر القسوة .

– ولكن صوت المدافع ؟

– إن وقف اطلاق النار سيتم في منتصف الليل .

وكان شارلو محمر الوجه ايضاً ، ولكن عينيه كانتا تلتمعان :

– هذا مزاح !

ونهض بيارنيه وسأل :

– هل من تفاصيل ؟

قال لوبيرون : – لا .

وتنحنح شارلو :

– ونحن ؟

– ماذا ، نحن ؟

– متى نعود الى بيوتنا ؟

– أقول لك ان ليس هناك من تفاصيل .

وصمتوا . وضرب بينيت بقدمه حصاة تدحرجت وسط الجَزَر ، وقال هادراً في غضب :

– الهدنة ! الهدنة !

فهزّ بيارنيه رأسه ؛ وكان جفنه الأيسر قد أخذ يخفق في وجهه الرمادي كمصراع في يوم عاصف . وقال في قهقهة راضية :

– ستكون الشروط قاسية .

فأخذوا جميعاً يقهقهون .

وكان شوارتز يقهقه ايضاً ، فالتفت اليه شارلو وتطلّع اليه في دهشة . وكفّ شوارتز عن الضحك واحمرّ وجهه بعنف . وظل شارلو ينظر اليه : فكأنه يراه للمرة الاولى . وقال له بهدوء :

– ها انت ذا الماني ، في هذه الساعة .

فأتى شوارتز بحركة عنيفة غامضة ، واستدار على عقبيه فغادر الحديقة : وأحسّ ماتيو نفسه مسحوقاً بالتعب . فتداعى للسقوط على المقعد الخشبي ، وهو يقول :

– ما أشد الحرّ !

« انهم ينظرون الينا » . وكان الجمهور الذي يتزايد رويداً رويداً

ينظر اليهم وهم يبتلعون هذا القرص التاريخي ، وكان يشيخ ويتراجع القهقرى وهو يهمس : « مهزومو ٤٠ ، جنود الهزيمة ، انما نحن في القيود – بسببهم . » وكانوا باقـين هناك ، لا يتغيّرون تحت تلك الانظار المتغيّرة ، محكوماً عليهم ، معيّرين ، مبرّرين ، متّهمين ، معذورين ، مُدانين ، مسجونـين في هذا النهار الذي لا يمّحـي ، مكفّنين في هدير الذباب والمدفع ، في رائحـة الخضرة الدافئة ، في الهواء الذي كان يرتعش فوق الجَزَر ، مذنبين الى ما لا نهاية في عيون اولادهم واحفادهم وأحفاد أحفادهم، مهزومي ٤٠ الى الابد . وتثاءب ، ورآه ملايين الناس يتثاءب : « انه يتثاءب ، وهذا جميل ، احـد مهزومي ٤٠ يجرؤ على التثاؤب ! » وقطع ماتيو هذه التثاؤبـة التي لا تنتهي ، وفكر : لسنا وحدنا .

ونظر الى رفاقه ، فالتقى نظره عليهم بنظر التاريخ الخالد المحجِّر : للمرة الاولى كانت العظمة قد هبطت على رؤوسهم ؛ « كانوا » الجنود الاسطوريين لحرب خاسرة . لقد حُجِّروا ! يا إلـهي ، لقـد قرأت وتثاءبت ، وكنت احرّك جـرس مشكلاتي ، ولم أكن اعزم عـلى الاختيـار ، ولكني كنت قد اخترت حقاً ، كنت قد اخترت هذه الحرب ، وهذه الهزيمة ، وكنتُ منتظراً في قلب هذا النهار . ان كل شيء ينبغي عمله مرة اخرى ، وليس بعد ما يُعمل : وتداخلت الفكرتان وانهدمتا معاً ؛ وبقي سطح « العدم » الهادىء .

ونفض شارلو الكتفين والرأس ؛ واخذ يضحك ، وعاد الزمن الى جريه . كان شارلو يضحك ، كان يضحك في وجه التاريخ ، وكان يدافع عن نفسه بالضحك في وجـه التحجّر ؛ وكان ينظـر اليهم في خبث ويقول :

– إن لنا وجهاً مشرقاً ، يا جماعة . نعم ، إن وجهنا مشرق !

والتفتوا اليه مشدوهين ، ثم انحـاز لوبيرون الى الضحك . وكان

يغضّن أنفه في مشقّة ، فتخرج الضحكة من منخريه :

– تستطيع ان تقول ذلك ! كيف انهم تغلبوا علينا !

وقال شارلو في لهجة سكرى :

– إن هذا هو العقاب ، هو الضرب ، هو الفلَق !

فضحك لونجان بدوره وقال :

– جنود ٤٠ او ملوك الركض !

– عمالقة الطريق !

– الابطال الاولمبيون للركض على القدمين !

قال لوبيرون :

– لا تحزنوا : فسوف يُحسنون استقبالنا لدى عودتنا ، وسيزفون لنا التهاني !

فصرخ لونجان صرخة سعيدة :

– بل سيأتون لاستقبالنا على المحطة مع الموسيقى والجمعيات الرياضية.

وقال شارلو وهو يضحك حتّى كاد يسيل دمعه :

– وانا اليهودي ، ما رأيكم ؟ هل تتصورون الأشخاص المناهضين للسامية في الحيّ الذي أسكنه !

واستسلم ماتيو لعدوى هذا الضحك المزعج ، وحدثت لحظة شديدة القسوة . فلقد رموه وهو يرتجف من الحمّى على فراش مثلج ، ثم تحطّم خلوده الصنمي ، فتطاير شعاعاً من الضحك . كانوا يضحكون، وكانوا يرفضون واجبات العظمة باسم الرعاع ؛ لا حاجة لأن نحزن ما دمنا نتمتع بالصحة والشراب والطعام ، انني أخرأ على نصف الدنيا وأشخّ على النصف الآخر ، كانوا يرفضون تعزيات العظماء بدافع من التبصّر الزاهد ، بل انهم يرفضون لأنفسهم حق الألم ؛ نحن «فاجعيون» حتى ولا هذا ، « تاريخيون » حتى ولا هذا ، بل نحن ممثلون هزليون من طراز رخيص ، لا نساوي دمعة ؛ نحن « مرصودون » مسبقاً :

حتى ولا هذا ، فالعالم هو مصادفة واتفاق . كانوا يضحكون ، وكانوا يصطدمون بجدران « العبث » و « القدر » اللذين كانــا يتداولانهم فيما بينهما ؛ كانوا يضحكون ليعاقبوا أنفسهم ، ليتطهّروا ، ليثأروا : انهم لا بشر مفرطون في البشرية ، مقذوفون فيما وراء اليأس: انهم بشر .

وفترة اخرى ، فتحت الافواه نحو الأفق شكوى جروحها السود ؛ كان نيبير ما يزال يشخر ، وكان فمه الفاغر هو ايضــاً شكوى . ثم ثقُل الضحك وجرجر نفسه وتوقف بعـــد بضع انتفاضات : كانت الحفلة منتهية ، والمدنة مكرّسة ؛ لقد كانوا رسمياً « البَعد » . وكان الزمن يجري على مهل ، ماءً صحيّاً مغلياً بالشمس : كان لا بدّ من العودة الى الحياة ثانية .

قال شارلو : ـ هكذا !

فقال ماتيو : ـ هكذا !

وأخرج لوبيرون،على خفية،يده من جيبه ، فأطبقها على شفتيه وأخذ يمضغ ؛ وكان فمه يثب تحت عينيه الأرنبيتين . وقال :

ـ هكذا ! هكذا ! ها نحن ذا !

واتخذ بيارنيه هيئة التنطّس والانتصار :

ـ ما الذي قلته لكم ؟

ـ ما الذي قلته لنا ؟

ـ لا تتظاهروا بالبلاهة . اتذكر يا دولارو ما قلته بعد عملية فنلندا؟ وبعد نارفيك ، هل تتذكر ؟ كنت تنعتني بطير الشؤم ، ولمــا كنت ابرع مني ، فقد كنت دائماً تُربكني .

وكان قد تورّد : كانت عيناه خلف نظارتيه تلتمعان بالحقد والمجد.

ـ ما كان ينبغي خوضها ، هذه الحرب ؛ لقد قلت دائماً اننـــا ينبغي الاّ نخوضها ؛ ولو حدث هذا لما كنا قد بلغنا هذا المبلغ .

قال بينيت : ـ لو لم نخضها لكان الوضع اسوأ .

– لا يمكن ان يكون الوضع اسوأ من هذا : ليس اسوأ من الحرب.

وكان يفرك يديه بعذوبة ، ووجهه يلتمع براءة : كان يفرك يديه، كان يغسل يديه من هذه الحرب ، فهو لم يخضها ، بل هو لم يعشها؛ كان قد عبس عشرة أشهر ، رافضاً ان يرى ، وان يتكلم ، وان يشعر ، محتجاً على جميع الاوامر بالحماسة الهوساء التي كان ينفذها بها ، وهو شارد ، ثائر الأعصاب ، غائب الروح . وها هو الآن يجازى على ما عاني . كانت يداه نظيفتين ، وقد تحققت تنبؤاته : كان المهزومون هم « الآخرين » ، امثال بينيت ، ولوبيرون، ودولارو، والآخرين . وليس هو . وأخذت شفتا بينيت ترتجفان . وسأل في صوت متقطع :

– واذن ، كل شيء على ما يرام ؟ هل انت مسرور ؟

– مسرور ؟

– هل حصلت عليها ، هزيمتك ؟

– « هزيمتي » ؟ ولكنها لك بالمقدار نفسه .

– كنت تتمناها : فهي لك . واما نحن الذين لم نكن نتمناها ، فلا نريد ان نحرمك منها .

وبسم بيارنيه بسمة من يعتقد انه لم يُفهم . وسأله في صبر :

– من قال لك اني كنت أتمناها ؟

– انت بالذات ، منذ لحظة غير بعيدة .

– قلت اني كنت أتنبأ بها . فالتنبؤ بها وتمنّيها ، شيئان ، أليس كذلك ؟

وكان بينيت ينظر اليه من غير ان يجيب،ووجهه قد تلكّد برمّته ، وشفتاه قد برزتا كأنهما خطم ؛ وكان يدير في محجريه عينين كبيرتين مهانتين . وتابع بيارنيه :

– ولماذا تراني كنت أتمنّاها ؟ أتشرح لي ذلك ؟ ربما كنت من

الطابور الخامس ؟

فأجاب بينيت في مشقة :

ـ انك من دعاة السلام .

ـ وما معنى ذلك ؟

ـ الامران سواء .

فهزّ بيارنيه كتفيه وهو يباعد يديه في إرهاق . وهرع شارلو الى بينيت ووضع ذراعه حول عنقه ، وقال في طيبة :

ـ ارجوكما ، لا تختصما ، فما جدوى الخصام ؟ لقد خسرنا ، وليست هذه غلطة احد ، وليس لأحد ما يؤاخذ به نفسه عليه . كل ما في الامر اننا وقعنا في مصيبة .

فبسم لونجان بسمة سياسية :

ـ أهذه مصيبة ؟

فقال شارلو بصوتٍ مصالح :

ـ أجل ، يجب انّ نكون منصفين : انها مصيبة ، بل مصيبة كبيرة . ولكن ما حيلتنا ؟ انني انا اقول : لكلٍ دوره . لقد ربحنا في المرة الماضية ، اما هذه المعركة ، فلهم ، والمعركة القادمة لنا .

قال لونجان : ـ لن يكون ثمة معركة قادمة .

ورفع اصبعه ، واضاف بلهجة متناقضة :

ـ لقد قمنا بآخر حرب لآخر محاربين ، تلك هي الحقيقة . فالوضع سواء ، أكنا منتصرين ام مهزومين : لقد نجح فتية ٤٠ الصغار بما اخفق به آباؤهم انتهت الامم،وانتهت الحرب . نحن اليوم راكعون ؛ وغداً يأتي دور الانكليز : فالالمان يأخذون كل شيء وينظّمون في كل مكان ، والى الامام من اجل تكوين ولايات اوروبا المتحدة .

قال بينيت :

ـ ولايات إستي المتحدة . سنكون خدّام هتلر .

فسأل لونجان بروعة :

– هتلر ؟ ما هذا ، هتلر ؟ بالطبع كان لا بد من واحد . فكيف تريد ان تتفاهم البلاد اذا تركتها حرة ؟ انهم كالبشر : كلٌّ يجذبه من ناحيته . ولكن منذا الذي سيتحدث عن هتلرك بعد مئة عام ؟ سيكون ميتاً ، والنازية معه .

فصاح بينيت :

– ايّ فرج أحمق انت ؟ ولكن منذا الذي سيعيشها ، هذه الاعوام المئة ؟

فبدت على لونجان الدهشة الاستنكارية :

– ينبغي ألا تفكر على هذا النحو ، ايها الرأس الصغير : بل يجب ان ترى الى ابعد من انفك قليلاً ؛ يجب ان تفكر بأوروبا ما بعد الغد.

– وهل تكون اوروبا ما بعد الغد هي التي تقدّم لي طعامي ؟

فرفع لونجان يداً مسالمة وأرجحها في الشمس وقال :

– يعني ! يعني ! إن الاذكياء يستطيعون ان يتدبروا امرهم دائماً.

فانخفضت اليد الاسقفية ، ولامست شعر شارلو المجعّد .

– أليس هذا هو رأيك ؟

قال شارلو : – ان رأيي لا يخرج عما يلي : ما دام علينا ان نوقّعها ، هذه الهدنة ، فالخير ان توقّع على الفور : فيكون عدد الموتى اقل ، ولا يتاح للألمان ان يغضبوا .

وكان ماتيو ينظر اليه في ذهول . كلهم ! كلهم ! كانوا يفرّون : شوارتز يغيّر جلده ، ونيبير يتشبث بالنوم ، وبينيت غاضب ، وبيارنيه بريء . اما لوبيرون ، فقد اختبأ في اللحظة ، يأكل ويسدّ كل منافذه بالطعام . وكان لونجان قد ترك العصر . كان كل منهم قد كوّن لنفسه ، بسرعة ، الوضع الذي يمكّنه من ان يعيش . وانتصب ماتيو فجأة وقال بصوت قوي :

– انكم تثيرون اشمئزازي .

فتأملوه بلا دهشة ، وبابتسامات مسكينة : وكان هو اكثر دهشة منهم ؛ وكانت العبارة ما تزال تصدي في اذنه ، وتساءل كيف تأتّى له ان ينطق بها . وتردد لحظة بين التأثـر والغضب ، ثم انحاز الى الغضب : فأولاهم ظهره ودفع الباب الصغير واجتاز الطريق . وكانت باهرة خالية ؛ وقفز ماتيو في العوسج الذي خدش طاقاته وهبط منحدر الغاب الصغير حتى بلغ الساقية ، وقال بصوت مرتفع : « خراء ! ». ونظر الى الساقية وردّد : « خراء ! خراء ! » من غير ان يعرف لماذا . وعلى بعد مئة متر منه ، كان جنديّ عارٍ حتى النطاق ، تخططه أشعة الشمس ، يغسل ثيابه ؛ انه هناك يصفّر ، ويعجن ذلك الطحين الرطب ، لقد خسر الحرب وهو لا يدري ذلك . وجلس ماتيو ؛وكان يشعر بالخجل : من الذي اعطاني الحق بأن أكون قاسياً الى هذا الحد؟ لقد علموا انهم قد خسروا ، فهم يتدبرون امرهم كما يطيقون لأنهم لم يعتادوا ذلك . اما انا فقد اعتدت ، ولكن هذا لا يجعلني افضل منهم. ثم انني بعد هذا كله قد اخترت الفرار ، انا ايضاً . والغضب . وسمع طقطقة خفيفة ، واقبل بينيت يجلس على حافة الماء . وبسم لماتيو، فبسم له ماتيو ، وظلا لحظة طويلة من غير ان يتكلما .

وقال بينيت : — انظر الفتى هناك ، انه يجهل الحقيقة .

وكان الجندي منحنيـاً فوق الماء يغسل ثيابه بعناد غـير مألوف ؛ وكانت طائرة ضالّة تهدر فوقهم . ورفع الجندي رأسه الى السماء عـبر الأغصان في كراهية اثارت ضحكهما : فقد كان هذا المشهد كله يحمل طابع تجديد الوقائع التاريخية .

— هل نخبره ؟

قال ماتيو : — اوه ! كفى ! دعه يشخّ !

وصمتا . وغطّس ماتيو يده في الماء وحرّك أصابعه . كانت يـده ممتقعة ملتمعة وحولها هالةٌ زرقاء . وصعدت فقاقيع الى السطح . وأتت

قشّة حملتها دوّامة محلّية فالتصقت بمعصمه وهي تدور ثم قفزت واصطدمت مرة اخرى . وسحب ماتيو يده وقال :

ـ الطقس حارّ .

قال بينيت :

ـ نعم ، وهو يغري بالنوم .

ـ هل انت راغب في النوم ؟

ـ لا . ولكني مع ذلك سأحاول .

وتمدّد على ظهره ، عاقداً يديه خلف رقبته ، وأغمض عينيه . وغطّس ماتيو غصناً ميتاً في الماء وحرّكه . وبعد لحظة ، فتح بينيت عينيه :

ـ خراء !

وانتصب وأخذ يخلّل أصابعه في شعره .

ـ لا أستطيع ان انام .

ـ لماذا ؟

ـ انني ثائر الأعصاب .

قال ماتيو : ـ لا بأس في هذا ، فهو صحيّ .

قال بينيت : ـ حين اكون كذلك ، فلا بدّ لي من ان أضرب؛ وإلاّ اختنقت .

ونظر الى ماتيو في فضول :

ـ الا يثور غضبك انت ؟

ـ بلى .

وانحنى بينيت على حذائه وأخذ يفكّه ، وقال في مرارة :

ـ لو كنت اعرف هذا ، لما أطلقت رصاصة واحدة .

ونزع جوربيه ، وكانت له قدمان صغيرتان ناعمتان كقدمي طفل ، تخططهما خطوط من الوسخ .

ـ سآخذ حمّام أقدام .
وبلّل قدمه اليمنى في الماء ، ثم أخذها بيده وانشأ يدلكها ؛ وكان الوسخ يسقط عنها في كرّيات . وفجأة نظر الى ماتيو من تحت :
ـ سوف يجمعوننا ، أليس كذلك ؟
فأومأ ماتيو برأسه .
ـ وسينقلوننا الى بلادهم ؟
ـ على الأرجح .
وفرك بينيت قدمه في غضب :
ـ لولا هذه الهدنة ، ما كانوا ليقبضوا عليّ بهذه السهولة .
ـ وماذا كنت ستعمل ؟
ـ كنت سأقاوم .
قال ماتيو : ـ يا لك من ثور صغير !
وتبادلا البسمة ، ولكن وجه بينيت ما لبث ان أظلم وبدا في عينيه التحدي :
ـ لقد قلت اننا نثير اشمئزازك .
ـ لم اقصدك انت .
ـ لقد قلتها للجميع .
وكان ماتيو ما يزال يبتسم .
ـ اتريد ان تضربني أنا ؟
فخفض بينيت رأسه من غير ان يجيب .
وقال ماتيو : ـ اضرب . وسوف أضرب انا ايضاً ، فربما هدّأنا ذلك .
فقال بينيت : ـ لا اجرؤ على ان اؤذيك .
ـ خسارة !
وكانت قدم بينيت اليسرى تقطر ماءً وشمساً . فنظر اليها كلاهما

وحرّك بينيت اصابعه ، فقال ماتيو :

– إن قدميك طريفتان !

– انهما صغيرتان جداً ، اليس كذلك ؟ انني أستطيع ان آخذ علبة ثقاب وأفتحها .

– بأصابع قدميك .

– نعم .

وكان يبتسم ، ولكن الغضب نفضه فجأة ، فقبض على كعب قدميه في وحشية :

– بل لم اكن لأقتل ألمانياً ! انهم قادمون ، ولن يكون عليهم إلاّ ان يقطفوني !

قال ماتيو : – هذا صحيح .

– إن هذا غير عادل .

– ليس هو عادلاً ولا غير عادل . وانما هو هكذا .

– ليس هذا عدلاً : اننا ندفع عن الآخرين ، عن جنود جيش كوراب وعن غاملان .

– لو كنا في جيش كوراب لفعلنا كما فعل الرفاق .

– تحدّثْ عن نفسك .

وفتح ذراعيه وتنشّق بقوة ، وشدّ قبضتيه وهو ينفخ صدره ،ونظر الى ماتيو في تعجرف :

– هل املك وجهاً يلوذ بالفرار امام العدو ؟

فابتسم له ماتيو :

– لا .

وابرز بينيت العضلات الطويلة لذراعيه الشقراوين ، وتمتّع لحظة ، لنفسه ، بشبابه ، وبقوته ، وبشجاعته . كان يبتسم ، ولكن عينيه ظلتا عاصفتين وحاجبيه منخفضين :

– بل كنت أظلّ في مكاني حتى أُقتل .
– إن المرء يقول ذلك .
فابتسم بينيت ومات : كأن رصاصة تخترق صـدره . والتفت الى ماتيو ، ميتاً ومنتصراً . وردّد تمثال بينيت ، الذي مات من اجل الوطن :
– كنت أظلّ في مكاني حتى أُقتل .
ثم عاد الغضب والحياة ينعشان هذا الجسم المحجّر .
– لست مذنباً . لقد فعلت كل ما طلب مني ان افعل . وليست هي غلطتي اذا لم يُحسنوا استعمالي .
وكان ماتيو ينظر اليه نظرة حنان ؛ وكان بينيت شفّافاً في الشمس، وكانت الحياة تصعد وتهبط وتدور بسرعة شديدة في شجرة عروقـه الزرقاء ، وكان يشعر ولا بد بأنه هزيل جداً ، وسليم جداً ، وخفيف جداً : فكيف كان له ان يصدّق ذلك المرض غير المؤلم الذي كان قد بدأ يتأكله ، والذي سيُحني جسمه الشاب الجديد فوق حقول البطاطا في سيليزيا او على شوارع بوميرانيا،والذي سيملأه وهناً وحزناً وثقلاً . إن الهزيمة شيء يُتعلم .
قال بينيت :
– لم اكن اطلب من احد شيئاً ، وانما كنت اقوم بعملي في هدوء. الالمان : لم أكن ضـدهم ، فانه لم يسبق لي ان رأيت قفـا أحد منهم . النازية ، الفاشستية ، انني لا اعرف حتى ما هما . ودانزيغ : المرة الاولى التي رأيت فيها هذا البلد الصغير على خارطة ، كنت قد جُنّدت : طيّب : وهنا نجد انفسنا امام دالادييه الذي يعلن الحرب وغاملان الذي يخسرها . فما هو شأني انا في هذا ؟ اين هي غلطتي ؟ ألعلك تظن انهم استشاروني ؟
فهزّ ماتيو كتفيه :

— ها قد مضت خمس عشرة سنة ونحن نراها قادمة . فقد كان ينبغي مواجهتها في حينها . إما لتفاديها او لربحها .

— انني لست نائباً .

— ولكنك كنت تصوِّت .

فقال بينيت من غير ثقة :

— طبعاً .

— لمن ؟

فظلّ بينيت صامتاً . وقال ماتيو :

— انت ترى اذن .

فقال بينيت في ضجر : — كان لا بدّ من ان اقوم بالخدمة العسكرية . وبعد ذلك كنت مريضاً : فلم يكن بامكاني ان اصوِّت اكثر من مرة واحدة .

— وهل صوَّتّ في تلك المرة ؟

فلم يجب بينيت ، وابتسم ماتيو ، وقال على مهل :

— وانا ايضاً لم أكن أصوِّت .

وكان الجندي يعصر قمصانه ويضعها في منشفة حمراء ، ثم صعد الى الطريق وهو يصفر :

— أتعرف اللحن الذي يصفره ؟

فقال ماتيو : — لا .

— « سوف نجفّف غسيلنا على خط سيغفريد . »

وضحكا . وبدا على بينيت بعض الانفراج ، وقال :

— لقد عملت بقسوة ، ولم آكل دائماً حتى الشبع . ثم وجدت ذلك العمل في السكك الحديدية وتزوجت امرأتي : وكان ينبغي أن أطعمها ، أليس كذلك ؟ انها من عائلة طيبة ، لو تعلم . بالرغم من ان الامور لم تكن على ما يرام فيما بيننا باديء ذي بدء . (واضاف

بحيوية) ولكن الحال مشى فيما بعد : اقول ذلك لأفهمك اننا لا يمكن ان نهتمّ بكل شيء في الوقت نفسه .

قال ماتيو : — طبعاً .

— وما كان عساي ان افعل غير ذلك؟

— لا شيء .

— لم يكن لدي الوقت لأهتمّ بالسياسة . كنت أعود الى بيتي مرهقاً، ثم كانت تحدث المنازعات ، ولكن اذا كنتَ قد تزوجت فلكي تضاجع زوجتك كل مساء ، أليس كذلك ؟

— أفترض .

— وإذن ؟

— اذن لا شيء . هكذا تُخسر الحروب .

فأصيب بينيت بوثبة غضب جديدة .

— انك تضجرني تماماً ! حتى ولو اهتممت بالسياسة ، حتى ولو لم أهتمّ الا بالسياسة ، فماذا كان ذلك سيغيّر ؟

- كان بامكانك ان تفعل ما في وسعك .

— وهل فعلته انت ؟

— كلا .

— حتى ولو كنتَ قد فعلته ، تستطيع ان تقول لنفسك انك لست انت الذي خسرت الحرب ؟

— نعم .

— إذن ؟

فلم يجب ماتيو ، وسمع طنين بعوضة راعشاً فحرّك يده على مستوى جبهته ، فكفّ الطنين . هذه الحرب ، كنت انا ايضاً اعتقـد اول الأمر أنها كانت مرضاً . فأية بلاهة ! انها انا ، وهي بينيت ، وهي لونجان . انها بالنسبة لكلٍ منّا ذاته ؛ انهـا مصنوعة على صورتنـا ،

ونحن نصاب بالحرب التي نستحقها . ونشق بينيت طويلاً من غير ان يغادر ماتيو بنظره ؛ ووجد ماتيو هيئته بليدة ، فامتلأ فمه وعيناه بمد من الغضب : كفى ! كفى ! حسبي ان اكون الشخص الذي يرى بتبصر ! وكانت البعوضة ترتعش حول جبينه ، كأنها تاج مجد مضحك . لو انني حاربت ، لو ضغطت على الزناد ، اسقط رجل مكان ما ... ورفع يده فجأة وصفع صدغه صفعة شديدة ؛ وأخفض أصابعه فرأى على سبابته تطريزاً دموياً دقيقاً ، انساناً ينزف حياته على الحصى ، صفعة على الصدغ ، ضغطة سبابة على الزناد ، وستتوقف زجاجات صندوق الدنيا الملونة ، ويطرز الدم عشب الساقية ، كفاني ، كفاني ! ليتني أغرق في عملٍ مجهول كأنه الغابة . عمل . عملٍ ملزم لا يُفهم قط تماماً . وقال بهوس :

– لو كان ثمة « ما » يُعمل ...

فنظر اليه بينيت باهتمام :

– ماذا ؟

فهز ماتيو كتفيه وقال :

– لا شيء . لا شيء لهذه اللحظة .

وكان بينيت يلبس جوربيه ؛ وكان حاجباه المتقعان يقطبان في أعلى جبينه . وسأل فجأة :

– هل أريتك صورة امرأتي ؟

قال ماتيو : – لا .

فنهض بينيت وفتش في جيب سترته وأخرج صورة من محفظة . ورأى ماتيو امرأة جميلة ذات هيئة قاسية ، مع ظل من زغب في زوايتي فمها . وكانت قد كتبت على ظهرها : « من دنيز الى لعبتها ، ١٢ كانون الثاني ١٩٣٩ . » وتورد خد بينيت :

– هكذا تسميني ، ولا استطيع ان أغير لها هذه العادة .

— لا بدّ لها من ان تسمّيك باسم .
قال بينيت بجدارة : — ذلك لأنها تكبرني بخمسة أعوام .
وأعاد له ماتيو الصورة :
— انها جميلة .
قالت بينيت : — انهضا ، في السرير ، هائلة . بل انك لا تكاد تتصوّر .
وكان قد زاد احمراراً . وأضاف بلهجة َبرمة :
— هي من عائلة طيبة .
— لقد سبق ان قلت لي ذلك .
فقال بينيت مندهشاً : — آه ، هل قلتها لك ؟ هل قلت لك ان اباها كان استاذاً للرسم ؟
— نعم .
وأعاد بينيت الصورة الى المحفظة بعناية .
— إن الأمر يبعصني .
— ما الذي يبعصك ؟
— ان اعود هكذا .
وكان قد شبك كفيه على ركبتيه . وقال ماتيو :
— يعني .
قال بينيت : — إن اباها بطل من ابطال ١٤ ، ثلاثة أوسمة ، صليب الحرب . وهو يتحدث بذلك طوال الوقت .
— واذن ؟
— سوف يبعصه ان نعود هكذا .
قال ماتيو : — يا لك من رأس مسكين ! إنك لن تعود باكراً كما تظن .
وكان غضب بينيت قد انحسر ، فهزّ رأسه بحزن وقال :

— انني افضل ذلك . فليست لديّ رغبة في العودة .
فردّد ماتيو : — يا لك من رأس مسكين !
قال بينيت : — انها تحبني ، ولكن اخلاقها صعبة . وهي تعترّ بذلك . وهناك امها ايضاً ، وهي تُدفع من ياقتها دفعاً . المرأة ، يجب ان تحترمك ، أليس كذلك ؟ وإلا حلّ الشيطان في بيتك .
ونهض فجأة وقال :
— ضجرت من هذا المكان . هل تأتي ؟
فقال ماتيو : — الى اين ؟
— لا ادري . الى حيث الآخرون .
فقال ماتيو بلا حماسة : — اذا شئت .
ونهض بدوره ، فصعدا الى الطريق ، وقال بينيت :
— عجباً ! هذا غيكيولي .
وكان غيكيولي واقفاً ، مباعداً ما بين ساقيه ، حامياً حاجبيه بيده ، وهو ينظر اليهما مقهقهاً . وقال :
— كانت لطيفة !
— ما هي ؟
— كانت لطيفة . لقد انطلت عليكم كالطبول .
— ولكن ماذا ؟
قال غيكيولي وهو ما يزال يضحك :
— الهدنة .
فأشرق وجه بينيت :
— وهل كانت دعابة ؟
قال غيكيولي : — قليلاً . لقد اتى « ليكيه » يضايقنا بطلبه الانباء ، فأعطيناه إياها !
فقال بينيت في اندفاع :

ــ إذن ، ليس هناك هدنة ؟

ــ ليس هناك من هدنة ، اكثر مما هناك من زبدة بين الفخذين .

ونظر ماتيو الى بينيت من زاوية العين :

ــ وماذا يغيِّر هذا ؟

قال بينيت : ــ هذا يغيِّر كل شيء . سترى ! سترى كم سيتغير الوضع .

الساعة الرابعة

لا أحد في جادة سان جرمان ؛ ولا أحد في شارع دانتون . حتى الستائر الحديدية لم تكن مسدلة ، وكانت الواجهات تلتمع : كل ما في الأمر أنهم قد نزعوا مزلاج الباب حين ذهبوا . كان اليوم يوم أحد . منذ ثلاثة ايام كان اليوم يوم أحد تماماً ، ايّ أحد ، أصلب قليلاً من المألوف ، واكثر كيمائية ، مفرط في الصمت ، ممتلىء بالانتانات الخفية . واقترب دانيال من حانوت كبير لبيع الأصواف والأقمشة ؛ وكانت اللفائف المتعدّدة الألوان المصفوفة بشكل أهرام قد بدأت تصفرّ وتبعث رائحة القدَم ؛ وفي الحوانيت المجاورة ، كانت الأقمطة والقمصان تذبل ، وكان غبار طحيني يتراكم فوق الرفوف ، وكانت خطوط طويلة بيضاء توسِّخ الزجاج . وفكر دانيال : « إن الزجاج يبكي » . وخلف الزجاج ، كان العيد قاتماً : كان الذباب يطنّ بالملايين . يوم أحد . حين يعود الباريسيون ، سيجدون أحداً عفناً مسترخياً فوق مدينتهم الميتة .. اذا عادوا ! وأطلق دانيال العنان لتلك الرغبة الهائلة في الضحك التي كان ينزّهها عبر الشوارع منذ الصباح ، اذا عادوا !

وكانت ساحة سانت ــ اندريه ــ ديزار الصغيرة تستسلم جامدة

للشمس ، كان الجو اسود قاتماً في وضح النور . كانت الشمس شيئاً صناعياً : برق مانييزيوم يخفي الليل ، وسوف ينطفيء بعد جزء على عشرين من الثانية ، وهو مع ذلك لا ينطفيء ، وألصق جبينه بواجهة « البراسوري الزاسيين » ، لقد تناولت فيها الغداء مع ماتيو : وكان ذلك في شباط ، اثناء مأذونيته ، وكانت ملأى بالابطال والملائكة . وميّز في الظلّ لطخات مترددة تشبه قُطر الأقبية : وكانت خوانات من ورق . اين هم الأبطال ؟ وكانت كرسيان حديديتان متروكتين على السطيحة ، فتناول دانيال احداهما من مسندها ، وحملها الى حافة الرصيف وجلس كصاحب الدخل الوفير تحت السماء العسكرية ، في ذلك الحرّ الأبيض الذي كان يغلي بذكريات الطفولة . وكان يستشعر في ظهره ضغط الصمت الممغنط ، وينظر الى الجسر الخالي ، وعلب الأرصفة المقفلة ، والساعة التي لا عقرب لها . وفكّر : « لا بدّ أنهم ضربوا هذا كله بعض الضرب . بضع قنابل ، ليجعلونا نرى . » وانسرب شبح ازاء مفوضية الشرطة ، في الجهة المقابلة من السين ، كانما يحمله رصيف متدحرج . إن باريس لم تكن خالية بكل معنى الكلمة : فقد كانت مسكونة بصوى صغيرة كانت تنبع في جميع الاتجاهات وما تلبث ان تتلاشى تحت هذا النور السرمدي . وفكر دانيال : « المدينة جوفاء » وكان يُحسّ تحت قدميه ممرات المترو ، ويحسّ خلفه وامامه وفوقه جروفاً مثقوبة : فبين السماء والأرض كانت آلاف الصالونات من طراز لويس فيليب ، وغرف الطعام من طراز « امبير » وزوايا الدواوين تنقصف تحت الهجر ، فتثير الضحاك حتى الموت . والتفت فجأة : لقد طرق احدهم على الزجاج . ونظر دانيال فترة طويلة الى الواجهة الكبيرة ، ولكنه لم ير انعكاس صورته بالذات . ونهض ، وحلقه منقبض بضيق غريب ، ولكنه لم يكن مستاءً جداً : كان طريفاً ان يشعر بمخاوف ليلية في وضح النهار . واقترب من

نبع سان ميشال ونظر الى التنّين المخضرّ . وكان يفكّر : كل شيء مباح . كان بوسعه ان يُنزل بنطاله تحت نظر هذه النوافذ السوداء ، وان ينزع بلاطة ويقذف بها في اتجاه واجهة المطعم ، وكان بوسعه ان يصرخ : « لتعش المانيا » فلا يحدث شيء . على الأكثر ستلتصق سحنة مذعورة بزجاج احدى النوافذ ، في طابق سادس من بناية ، ولكن لن تكون لذلك عاقبة : انهم لا يملكون بعدُ الطاقة على ان يغتاظوا : سيلتفت رجل الحبر ، هناك في الطابق الأعلى ، الى زوجته ليقول لها بلهجة متجردة جداً : « إن في الساحة رجلاً قد نزع لباسه التحتي » فتجيبه من جوف غرفتها : « لا تقف اذن على النافذة ، فاننا لا ندري ما يمكن ان يحدث . » وتثاءب دانيال . هل يكسر الزجاج ؟ عجباً ! ستتضح الامور كثيراً حين يبدأون النهب . وفكر : « ارجو كثيراً ان يخربوا ويسلبوا كل شيء . . » وتثاءب مرة اخرى : كان يُحسّ في نفسه حرية هائلةً وبلا جدوى . وكان فرحه احياناً يفري قلبه .

واذ كان يبتعد ، أطلت قافلة من شارع « لاهوشيت » . « انهم الآن يتنقلون في قوافل » . وكانت هي القافلة العاشرة التي يلتقيها منذ الصباح . وأحصى دانيال تسعة أشخاص : عجوزين تحملان سلالا وطفلتين وثلاثة رجال أشداء جدد ذوي شوارب ؛ وكانت خلفهم امرأتان صبيتان ، اولاهما جميلة وممتقعة ، والأخرى حامل تطوف على شفتيها بسمة . وكانوا يسيرون على مهل ، من غير ان يتكلموا . وسعل دانيال ، فالتفتوا اليه جميعاً : ولم يكن في عيونهم ود ولا توبيخ ، لم يكن الا دهشة غير مصدقة . ومالت احدى الطفلتين على الاخرى من غير ان تنقطع عن النظر الى دانيال ، فتمتمت بضع كلمات وضحكت كلتاهما ضحكة اعجاب وافتتان : وكان دانيال يحس انه ليس أقل غرابة من شمواة تحدّد في المتسلقين على الجبال نظرَها

الهادىء البكر . ومرّوا خياليين ، اسطوريين ، غارقين في وحدتهم ، واجتاز دانيال الطريق ليذهب فيرتفق الحاجز الحجري لمدخـــل جسر سان ميشال . وكان السين يلتمع ؛ وفي البعيد البعيد ، باتجاه الشمال الغربي ، كان الدخان يرتفع فوق البيوت . وفجأة بدا له المشهد سيئاً لا يطاق ، فانفتل وعاد على عقبيه وأخذ يصعد الجادة مرة أخرى .

وكانت القافلة قد تلاشت ، وحل الصمت والفراغ على مدى النظر هاوية افقية . وكان دانيال متعباً : ان الشوارع لم تكن تفضي الى اى مكان ؛ وكانت لفراغها من الناس متشابهة ، فاذا بجادّة سان‌ميشال التي كانت بالامس دفقة طويلة من الذهب نحو الجنوب ، تصبح هذا الحوت الميت ، المنتثر البطن في الهواء . وخفق دانيال خطواته على هذا البطن الاجوف المنتفخ ، وجهد في ان يرتعش من السرور ، وقال بصوت مرتفع : « كنت احتقر باريس . » عبثاً : لم يكن ثمة ما هو حيّ إلا الخضرة ، إلا اذرعة شجر الكستناء الكبيرة الخضراء ؛ وكان يحسّ احساساً مائعاً بأنه يمشي في نبت الحراج . وكان جنـــاح الملل القذر قد بدأ يلامسه حين لاحظ لحسن الحظ اعلانـــاً ابيض وأحمر ملصوقاً على حباك ، فاقترب وقـــرأ : « سننتصر لأننا الاقوى . » ففتح ذراعيه وابتسم في تلذّذ ، متحرراً : انهم يركضون ويركضون ولا ينفكون يركضون . وكان قد رفع رأسه وأدار بسمته نحو السماء وهو يتنفس بقوة : دعوى قائمة منذ عشرين سنة ، جواسيس حتى الى ما تحت سريره ؛ إن كل مار كان شاهد اثبات او قاضياً او الاثنين ؛ وكل ما كان يقوله كان يمكن ان يدينـــه . ثم فجأة يأتي التشتت . انهـــم يركضون ، الشهود والقضاة ورجال الخير ، يركضون تحت الشمس ، فيبيض الافق طائرات فـــوق رؤوسهم . وكانت اسوار باريس ما تزال تتحدث عن كبريائهم ومزاياهم : اننا الأقوى ، والاوفر فضيلة ، اننا صليبيو الديموقراطية ، المدافعون عن

بولونيا ، وعن الجدارة الانسانية ، وعن الفوارق الجنسية ، وستظل طريق الحديد مسدودة ، وسوف نجفف ثيابنـــا على خط سيغفريد . وكانت الاعلانات في شوارع باريس ما تزال ترسل انشودة صغيرة للمجد أصابها البرد والوهن ، «هم» ، فقد كانوا يركضون ، وقــد جُنّوا من الخوف ، وكانوايتمددون في الحفر ، ويطلبون الصفح . بشرف ، طبعاً ، لقد فُقِد كل شيء ما عدا الشرف ، خذوا كل شيء في الشرف : هذا قفاي ، فاركلوه في الشرف ، وسوف ألحس قفاكم اذا تركتم لي الحياة . انهم يركضون ، يزحفون . وانا، المذنب أحكم مدينتهم .

كان يمشي خافض العينين ، متلذذاً ، وكان يسمع السيارات تنسل بقربه في الشارع ويفكر : « ان مارسيل تنشف طفلها في داكس : ولا بد ان يكون ماتيو أسيراً ، والأرجح ان يكون برونيه قد قتل ، فجميع شهودي قد ماتوا او شردوا ؛ لقد استعدت نفسي .. » وقال في نفسه فجأة : « اية سيارات ؟ » ورفع رأسه ، فأخذ قلبه يخفق حتى يبلغ خفقه صدغيه ، ثم « رآهم » . كانوا واقفين بصفـــاء ورصانة ، كل خمسة عشر او عشرين ، في سيارات طويلة مطليـــة للتضليل تسير ببطء نحـــو السين ، كانوا ينسلّون محمولين ، واقفين ، منسيين ، كانوا يلامسونه بنظرهم الذي لا يعبر عن شيء ، وكان آخرون يأتون في أعقابهم ، ملائكة اخرى متشابهة تنظر اليـــه نظرة واحدة . وسمع دانيال في البعيد موسيقى عسكرية ، وكان يخيل اليه ان السماء تمتليء بالاعلام ، فكان عليه ان يستند الى شجرة كستناء . كان « وحيداً » في هذه الجادة الطويلة ، الفرنسي الوحيد ، المدني الوحيد ، والجيش العدو برمته ينظر اليه . ولم يكن خائفاً ، بل كان يستسلم بثقة الى الوف العيون هـــذه ، ويفكر : « قاهرونا » فتغمره اللذة . وبادلهم نظرتهم بشجاعة، وتملى من هذا الشعر الأشقر ، ومن

هذه الوجوه الملفوحة التي تشبه فيها العيون بحيرات الجليد ، ومن هذه القامات الضيقة ، وهذه الافخاذ التي لا يصدق طولها واكتنازهـــا بالعضلات . وتمتم : « ما اجملهم ! » ولم يكن يلمس الارض بعد. كانوا قد رفعوه الى أذرعتهم ، وكانوا يضمونه الى صدورهم وبطونهم المسطحة . وتدحرج شيء من السماء : إنه القانون القديم ، لقد انهار مجتمع القضاة ، وامحى الحكم ، وكان الجنود الصغار لابسو الكاكي وابطال حقوق الأنسان والمواطن ، مهزومين . وفكر : « اية حرية » وكانت عينياه مبللتين . كان الحي الوحيد الذي خلفتـــه الكارثة ، « الانسان » الوحيد تجاه ملائكة الحقد والغضب هؤلاء، هؤلاء الملائكة المبيدين الذين كانت نظراتهم تردّ له طفولته ، وفـــكر : « ها هم القضاة الجدد ، وهذا هو القانون الجديد ! » وكم كانت تبدو هزيلة مضحكة فوق رؤوسهم عجائب السماء العذبة، وبراءة الغيوم الصغيرة : كان ذلك انتصار الاحتقار والعنف والنية السيئة، كان انتصار «الارض». ومرت دبابة ، متعجرفة بطيئة ، تغطيها الاغصان ، ولا يكاد صوتها يُسمع وكان واقفاً في مؤخرتها شاب نضر قد القى سترته على كتفيه ورفع كمي قميصه الى ما فوق المرفقين ، وشباك ذراعيه الجميلتين العاريتين . وابتسم له دانيال ، فنظر اليه الشاب طويلا ، بهيئة قاسية، ملتمع العينين ، ثم أخذ فجأة يبتسم ، فيما كانت الدبابة تبتعد . وفتش سريعاً في جيب بنطاله ثم رمى شيئاً صغيراً التقطه دانيال من الهواء : كان علبة من السكاير الانكليزية . وكان دانيال يشد العلبة شداً قوياً حتى انه كان يحس السكاير تنفجر تحت أصابعه . وكان ما يزال يبتسم . وصعد اغتلام لذيذ لا يطاق من فخذيه الى صدغيه . ولم يكن يرى بعد بوضوح ، وكان يردد وهو يلهث قليلا : « كما في زبدة — انهم يدخلون في باريس ، كما يدخلون في زبدة . » ومرت وجوه اخرى امام نظره الغائم ، واخرى وغيرهـــا ، وهي كلها جميلة ؛ سوف

يحدثون لنا « شراً » . إن هذا هو « عهـــد الشر » الذي يبدأ ، يا للعذوبة ! كان يود لو كان امرأة حتى يرميهم بالزهور .

طيران صارخ ، خراء ، خراء ، عجلوا في السير ، وخلا الشارع فملأه ضجيج آنية على مستوى الحوافي ، وحرث السماء لمع فولاذ ، انها تمر بين البيوت ، وصاح شارلو بماتيو ، في ظلال العنبر ، وكان ملتصقاً به : انها تطير وهي تكاد تلامس الارض . ودارت القبرات النهمة المتثاقلة قليلا فوق القرية ، باحثة عن قوتها ، ثم مضت وهي تجر خلفها آنيتها التي كانت تقفز من سقف الى سقف ، وبدت رؤوس حذرة ، وخرج أشخـــاص من العنبر والبيوت ، وقفز آخرون من النوافذ ، فكأنهـــا السوق الصاخبة . صمت . كانوا جميعاً هناك الصمت ، زهاء مئة ، هندسة ، راديو ، محطة سبر الغور ، عمـــال تلفون ، امناء سر ، جميعاً ، ما عدا السائقين الذين كانوا منذ العشية ينتظرون وراء مقاودهم ؛ وأخذوا اماكنهم لمشاهدة « اي » حفلة ؟ وجلسوا وسط الشارع ، لأن الطريق كان خالياً ولأن السيارات كفت عن المرور ، جلسوا على حافة الرصيف ، وعلى خشب النوافذ ، بينما ظل آخرون وقوفاً ، مستندين الى واجهات البيوت . وكان ماتيو قد جلس على مقعد صغير ، امام حانوت البقالة ، ولحق به شارلو وبيارنيه ، ولم يكن ثمة من يتكلم ، لقد كانوا هناك ليكونوا معاً ولينظر بعضهم الى بعض ، وكانوا يرون أنفسهم على حقيقتهم ، السوق الكبيرة ، الجمهور المفرط في الهدوء ذو المئة وجه رمادي ؛ وكان الشارع يتكلس تحت الشمس ، ويتلوى تحت السماء المبقورة ويحرق الاقدام والافخاذ ، وكانوا يستسلمون للحرق؛ وكان الجنرال يسكن في بيت الطبيب : النافذة الثالثة في الطابق الاول ، وكانت تلك عينه ، ولكنهم كانوا يستخفون بالجنرال : كانوا ينظرون بعضهم الى بعضهم، فيخيف بعضهم بعضاً . كانوا يعانون من رحيل مكبوت لا يتحدث عنه احد ، ولكنه

كان يضرب في صدورهم ضرباً كبيراً ؛ وكانوا يحسونه في أذرعتهم وأفخاذهم ، مؤلماً كأنه تشنج ؛ لقد كان خذروفاً يدور في القلوب . وتنفس شخص كما يتنفس كلب يحلم ؛ وقال في الحلم : « ان في « الادارة » علباً للقرود . » وفكر ماتيو : « نعم ، ولكنهم وضعوا الدرك على الباب للحراسة » وأجاب غيكيولي : « اسمع ايها الاحمق ، لقد وضعوا الدرك على الباب للحراسة . » وحلم شخص — بدوره — بصوت ابيض مستنيم : « ان ذلك كالخباز ، عنده خبز ، اؤكد لك ، فلقد رأيت الأرغفة ، ولكنه سد حانوته بحواجز . » وتابع ماتيو الحلم ، ولكن من غير ان يتكلم ، ورأى شريحة لحم ، فامتلأ فمه باللعاب ، وتحامل غريمو قليلا مشيراً الى المصاريع المغلقة وقال : « ما بالهم في هذا البلد ؟ كانوا بالأمس يحدثوننا ، وهم اليوم يختبئون ! » كانت البيوت بالأمس تتثاءب كالمحار ، اما الآن ، فقد انغلقت على نفسها ؛ وفي داخلها كان رجال ونساء يظهرون بمظهر الموتى ويعرقون في الظلام ؛ وقال نيبير : « انما نحن موبوءون لأننا مهزومون » وغنت معدة شارلو ، فقال ماتيو : « ان معدتك تغني » فأجاب شارلو : « انها لا تغني ، بل تصرخ » وسقطت في وسطهم كرة من المطاط ، فالتقطها لاتيكس ، وبرزت فتاة صغيرة في الخامسة او السادسة ونظرت اليه في خجل وسألها لاتيكس : « أهي كرتك ؟ تعالي خذيها . » وكان الجميع ينظرون اليها . وكانت لدى ماتيو رغبة بأن يأخذها على ركبتيه ؛ وكان لاتيكس يحاول ان يرقق صوته الخشن : « هيا ! تعالي ! تعالي ! تعالي الى ركبتي . » وانطلقت همسات كل مكان ! تعالي ! تعالي ! تعالي ! ولم تكن الصغيرة تتحرك ؛ تعالي ، فرختي ، تعالي ، تعالي يا دجاجتي ، تعالي ! وقال لاتيكس : « يا إلهي ! اننا في هذه الساعة نخيف الاطفال » وكان الآخرون يضحكون ، وقالوا له : « انت الذي تخيفها بسحنتك

هـذه ! » وكان ماتيو يضحك ، ولاتيكس يردد بصوت مغن : « تعالي يا طيبتي ! » ثم أخذه الغضب فجأة فصاح : « اذا لم تأتي أحتفظ بها ! » ورفع الكرة فوق رأسه ليريها اياها ، وتظاهر بأنه يضعهـا في جيبه ، فصرخت الصغيرة ، ونهض الجميع ، وأخذوا يصرخون : « أعدها لها ؛ إنك تُبكي طفلة، انها القذر ، لا، لا ، ضعها في جيبك ، اقذفها على السطح . » وكان ماتيو يحرك ذراعيه وهو واقف ، فابعده غيكيولي وعيناه تبرقان غضباً ، وراح ينتزع امام لاتيكس : « أعدها لها ، بالله عليك ، اننا لسنا متوحشين ! » وضرب ماتيو بقدمه وقد أثمله الغضب ، وكان لاتيكس اول الهادئين فخفض عينيه وقال : « لا تغضبوا ، فستعاد اليها . » وقذف الكرة بارتباك ، فصدمت جداراً ، وقفزت ، فارتمت الطفلة فوقها ولاذت بالفرار . الهدوء . وعاد الجميع الى الجلوس، وعاد ماتيو الى الجلوس حزيناً ساكناً ؛ وكان يفكر : « اننا لسنا موبوئين . » لا شيء غير ذلك ، لا شيء غير افكار الجميع . لم يكن احياناً الا فراغاً قلقاً ، وكان يصبح احياناً اخرى جميع الناس ، فكان ضيقه يهدأ ، وتضج افكار الجميع نقاطاً ثقيلة في رأسه وتتدحرج خارج فمه، لسنا موبوئين . ومـد لاتيكس يديه وتأملها بحزن . « ان لي ستة ، انا الذي احدثكم ، وكبيرهم في السابعة ولم أرفع يدي عليهم قط . »

وكانوا قد عادوا للجلوس موبوئين ، جائعين ، كمدين تحت السماء المسكونة ، ازاء هذه البيوت الكبيرة العمياء التي كانت ترشح حقـداً . كانوا صامتين : ولم يكن لها الا ان تصمت ، تلك الهوام الكريهة التي كانت تلطخ هذا اليوم الجميل من ايام حزيران . صبراً ! إن المبيدآت ، وسنجتاز جميع الطرق الى فليتوكس . وأشار لونجان الى المصاريع وقال : « انهم ينتظرون ان يأتي الالمان ليخلصّوهم منا » وقال نيبير : « تستطيع ان تراهن انهم سيكونون مع الألمان اوفر لطفـاً . » وقال

غيكيولي : « انهم يفضلون ان ينشغلوا مع المنتصرين؛ هذا أشد مرحاً ، ثم ان التجارة سائرة . اما نحن ، فنحمل النحس . » وقال لاتيكس: « ستة اولاد ، كبيرهم في السابعة . ولم أُخف احداً منهـــم قط . » وقال غريمو : « اننا محتقَرون . »

وارتفعت جميع الرؤوس لصوت أقدام ، ولكنها ما لبثت ان انخفضت، واجتاز القائد «برات» الشارع بين الرؤوس، فلم يُحيِّه أحد؛ وتوقف امام بيت الطبيب ، فعادت الرؤوس الى الانتصاب وحدّقت الانظار بكتفيه المحشوتين فيما كان يرفع مطرقة الباب الحديدية ويطرق ثلاث طرقات . وانشق الباب فانسل من الفتحة الصغيرة الى البيت . ومن الساعة الخامسة والخامسة والاربعين الى الخامسة والسادسة والخمسين ، مرّ جميع ضباط اركان الحرب ، منزعجين متصلبين ، بين الجنود الصامتين : وكانت الرؤوس تضطجع لدى مرورهم ، ثم ترتفع بعد ذلك مباشرة . وقال باين : « إن عنـــد الجنرال عيداً . » فالتفت شارلو الى ماتيو وقال: « ما عساهم يفبركون ؟ » فأجاب ماتيو : « بوزك ! » فنظر اليـه شارلو وصمت . ومنذ مرّ الضباط ، زاد الناس رمادية وكمداً وتثاقلاً؛ وكان بيارنيه ينظر الى ماتيو في مفاجأة قلقة : انما هو يلقى على خدّي امتقاعه هو بالذات .

وسُمع صوت غناء ، فانتفض ماتيو ، واقترب الغناء :

ما دام في الوعاء خراء

فالجو منتن في الغرفـــة

وانعطف في زاوية الشارع زهاء ثلاثين فتى ، سكارى ، بلا بنادق ولا سترة ولا قبعات . وكانوا يجتازون الشارع بخطى واسعة وهم يغنّون ويبدو عليهم الغيظ والفرح ، وكانت وجوههم حمراء من الشمس والخمر . وحين لمحوا هذه الدودة الرماديـــة التي كانت تتحرك على مهل فوق سطح الارض وترسل نحوهم رؤوسها المتعددة ، توقفوا فجـــأة وكفّوا

عن الغناء . وخطا ملتحٍ ضخمٌ خطوة الى الامام ؛ وكان عارياً حتى النطاق وأسود ذا عضلات مستديرة وسلسلة ذهبية حول عنقه . وسأل :

– هل هذا يعني انكم أموات ؟

فلم يجب أحد ؛ فصرف رأسه وبصق ؛ وكان يجد مشقّة في الاحتفاظ بتوازنه .

ونظر اليهم شارلو نظرة حسيرة وهو يطرف بعينيه . وسأل :

– ألست من عندنا ؟

فسأله الملتحي وهو يربت على فرجه :

– وهذا ، هل هو من عندكم ؟ لا يا سيدي . لست من عندكم ، ولو كنت من عندكم لكان هذا يؤذيني .

– من اين انت قادم ؟

فقام بحركة مبهمة :

– من فوق .

– وهل حدثت معارك ، فوق ؟

– خراء ! كلا ، لم تحدث معارك ، الا ان قائدنا انسحب حين بدأت الرائحة الكريهة تتصاعد ، وفعلنا نحن مثله ، ولكن لا من الجهة نفسها ، حتى لا نلتقي به .

فضحك الافراد خلف الملتحي ، واخذ شابان طويلان يغنّيان في تحدٍّ :

جرجر بيضاتك على الارض
وخُذْ عضوك في يدك ايها الرفيق
فنحن ذاهبون الى الحرب
الى صيد القحبات .

والتفتت جميع الرؤوس نحو عين الجنرال ؛ وحرّك شارلو يده بهيئة مذعورة :

– اسكتوا .

فسكت المغنّون ، وظلّوا فاغري الأفواه ، متهادين ؛ وبدا عليهم الارهاق فجأة .

وقال شارلو موضحاً ، وهو يشير الى البيت :

— إن ضباطنا هناك .

فقال صاحب اللحية بصوت قوي :

— انني أشخّ على ضباطكم .

وكانت سلسلته الذهبية تلتمع في الشمس ؛ وخفض بصره نحو الافراد الجالسين في الشارع واضاف :

— واذا كان الفتيان يزعجونكم ، فليس لكم الآ ان تأتوا معنا ، وهكذا يكفّون عن ازعاجكم .

فكان الآخرون يقولون خلفه مردّدين :

— معنا ! معنا ! معنا ! معنا !

وساد صمت . وكان نظر الملتحي قد توقّف عند ماتيو . وصرف ماتيو عينيه :

— وإذن ؟ من يأتي ؟ مرة ، مرتين ، ثلاث مرات .

فلم يتحرك أحد ، فانتهى الملتحي الى القول بلهجة ازدراء :

— ان هؤلاء ليسوا رجالاً ، وانما هم ضرّاطون . تعالوا يا رفاقي، فاني لا اريد ان اعفن هنا : سوف يجعلونني أغضب .

واستعادوا سيرهم ، وكان الأفراد يبتعدون ليدَعوهم يمرون، وأدخل ماتيو قدميه تحت المقعد .

جرجر بيضاتك على الأرض

كان الافراد ينظرون الى عين الجنرال : كانت وجوه قد التصقت بالزجاج ، ولكن الضباط لم يظهروا .

فنحن ذاهبون الى الحرب ...

واختفوا : ولم ينبس أحد بكلمة ، وتلاشت الاغنية آخر الأمر .

واذ ذاك فقط ، تنفّس ماتيو . وقال نيبير من غير ان ينظر الى رفاقه:
– اولاً ، ليس هناك دليل على اننا لن نرحل .
قال لونجان : – بلى ، هناك دليل .
– وما هو ؟
– لقد نفد الوقود .
فقال غيكيولي :
– يبقى دائماً للضباط وقود . إن المستودعات ملآى .
– ولكن شاحناتنا تفتقده .
فضحك غيكيولي ضحكة جافة :
– طبعاً .
وصاح لونجان وهو يضخّم صوته الدقيق :
– اقول لك انهم قد خانونا . خانونا ، وسلمّونا للألمان !
قال مينار في لهجة ضجر :
– دعنا !
فردد ماتيو : – دعنا ! دعنا !
وقال احد عمال التلفون : – ثم خراء ! لا تتحدثوا طوال الوقت عن الرحيل ، فسنرى . إن هذا يبعص في آخر الأمر .
وكان ماتيو يتصورهم ، سائرين منشدين على الطريق،وربما يقطفون الزهور . كان يستشعر الخجل ، ولكنه كان الخجل الكبير المشترك . ولم يكن يجد ذلك رديئاً الى حد بعيد .
قال لاتيكس : – ضرّاطون ! لقـد وصفنا بالضراطين ، ذلك الصبي . نحن آباء العائلات . وهل رأيت السلسلة التي يحملها في عنقه؟ يا له من لوطيّ !
قال شارلو : – اسمعوا ! اسمعوا !
وسُمع هدير ، فتمتم صوتٌ متعب :

– اختبئوا ايها الرفاق . انهم يؤجّلون ذلك .
قال نيبير : – انها المرة العاشرة منذ هذا الصباح .
– هل عددت ؟ اما انا ، فقد كففتِ حتى عن العدّ .
ونهضوا على غير عجل ، فركنوا الى الابواب ، ولاذوا بالممرات .
ولامست طائرةٌ السطوح ، ثم خفّت الضجة ، فخرجوا وهم يرقبون السماء ، وعادوا الى الجلوس .
قال ماتيو : – انها مطاردة .
فقال لوبيرون : – طز ! طز !
وسُمع في البعيد صوت رشاش .
– مدفعية مضادة للطائرات ؟
– مدفعية مضادة للطائرات في قفـــاي ! ان الطائرة هي التي تطلق نارها !
وتبادلوا النظر . وقال غريمو :
– لا يحسن التنزه في الطرقات اليوم :
فلم يجيبوا ، ولكن العيون كانت تبرق ، وبسمة صغيرة تجول على الافواه . وبعد لحظة ، اكتفى لونجان بالقول :
– ذلك دليل على انهم غير بعيدين .
ونهض غيكيولي واضعاً يديه في جيبيه ، وطوى ركبتيه ثلاث مرات ليزيل خدَرهما ؛ ثم رفع الى السماء وجهاً فارغاً مع ثنية استياء حول فمه .
– الى اين انت ذاهب ؟
– اقوم بدورة صغيرة .
– اين ؟
– هناك . اريد ان أرى ما حدث لهم .
– إحذر الطليان .
– لا تخف .

وابتعد في كسل . وكان الجميع راغبين في مرافقته ، ولكن ماتيو لم يجرؤ على النهوض ، وساد صمت طويل ؛ وكانت الوجوه قد استردّت بعض ألوانها واخذت تلتفت بعضها الى بعض في انتعاش .

– ما اجمل ان نستطيع القيام بنزهاتنا الصغيرة على الطرق ، كما في زمن السلم .

– ماذا كانوا يحسبون ؟ انهم سيصلون حتّى بانام ؟ ان هناك اشخاصاً لا يشكّون في شيء .

– لو ان ذلك قابل للتطبيق ، لما انتظرناهم حتى يقوموا به .

وصمتوا متوترين ، ثائري الأعصاب ؛ كانوا ينتظرون ؛ وكان ثمة شخص طويل هزيل ، مستند الى ستار حانوت البقالة الحديدي ، ويداه ترتجفان . وعاد غيكيولي بعد لحظة،وهو ما يزال يمشي مشية اللامبالاة . وصاح ماتيو :

– ماذا إذن ؟

فهز غيكيولي كتفيه : وكان الافراد قد تحاملوا على مرافقهم يديرون نحوه عيوناً بارقة .

قال : – لقد تلاشوا .

– جميعاً ؟

– كيف تريدني ان اعرف ؟ انني لم أعدّ .

وكان ممتقعاً ، وكانت تجشّؤات صامتة تنفخ شفتيه .

– واين كانوا ؟ على الطريق ؟

– خراء ! اذا كنت فضولياً الى هذا الحد ، فليس لك إلا ان تذهب لترى .

وعاد الى الجلوس ؛ وأخذت سلسلة ذهبية صغيرة تلتمع في عنقه : فحمل اليها يده ، وبرمها بين اصابعه ، ثم تركها فجأة . وقال ، كأنما يتحدث على مضض :

– لقد اخبرت ناقلي الجرحى .

يا للمساكين ! وكانت السلسلة تلتمع وتبهر . ترى ، ايكون هناك من يقول : « يا للمساكين ! » ؟ كانت العبارة على جميع الأفواه، ولكن هل ثمة من يراني فيقول : يا للمساكين ! ايكون ذلك رياءً حقاً ؟ كانت السلسلة الذهبية تلتمع على العنق الاسمر ؛ الوحشية ، الفظاعة، الشفقة ، الحقد ، كل ذلك كان يطوف هناك ، وكان ذلك قاسياً ومريحاً ، اننا حُلم الهوام ، ان افكارنا تتكاثف ، فتصبح أقلّ بشرية، افكارٌ ذات شعر وارجل تركض في كل مكان ، وتقفز من رأس الى آخر : ان الهوام على وشك ان تستيقظ .

– دولارو ؟ هل انت أصم ؟

دولارو ، هو انا . والتفت فجأة . كان بينيت يبسم له من بعيد : « انه يرى دولارو » .

– هيه !

– تعال .

فارتعش ، وقد أحسّ فجأة انه وحيد وعارٍ ، انه رجل . «انا» . وقام بحركة ليطرد بينيت ، ولكن الجمع كان قد تشكّل ثانية ضدّه ، وكانت عيونهم الهوامية تنفيه ، وكانوا ينظرون اليه برصانة مندهشة ، كما لو انهم لم يروه من قبل قط ، كما لو انهم كانوا يرونه عبر اعماق آنية . انني لا اسوى اكثر منهم ، ولا يحق لي ان اخونهم .

– تعال .

ونهض دولارو ، دولارو الهائل ، دولارو الرقيق ، الاستاذ دولارو ذهب بخطى بطيئة للقاء بينيت . وكان خلفه المستنقع ، الحيوان ذو المثني رجل . خلفه ، مثنا عين : وكان خائفاً في ظهره . وجاء الضيق من جديد . بدأ على حذر ، كأنه تربيتة ، ثم اقام متواضعاً مألوفاً ، في جوف معدته . ولم يكن هو شيئاً : لم يكن اكثر من خواء . خواء في

نفسه ، وحولها . وكان يتنزّه في غازٍ مخفّف . ورفع الجندي الشجاع دولارو قبعته ، وأمرّ الجندي الشجاع دولارو يده في شعره ، وادار الجندي الشجاع دولارو الى بينيت بسمة متعبة ، فسأله :

ــ ماذا هناك ايها العنيد ؟

ــ هل انت مسرور معهم ؟

ــ كلا .

ــ فلماذا انت باقٍ معهم ؟

قال ماتيو : ــ اننّا متشابهون .

ــ مَنْ ، المتشابهون ؟

ــ هم ونحن .

ــ وإذن؟

ــ إذن ، الأفضل ان نبقى معاً .

فاشتعلت عينا بينيت ، وقال وهو يرتدّ برأسه الى الخلف :

ــ اما انا فلست متشابهاً معهم .

وصمت ماتيو . قال بينيت :

ــ تعال .

ــ الى أين ؟

ــ الى البريد .

ــ الى البريد ؟ وهل هناك بريد ؟

ــ نعم . هناك فرع في اسفل القرية .

ــ وماذا تريد ان تفعل في البريد ؟

ــ لا تهتمّ بذلك .

ــ انه مغلق بكل تأكيد .

قال بينيت : ــ سيكون مفتوحاً بالنسبة لي .

وأمرّ ذراعه تحت ذراع ماتيو وجرّه وهو يضيف :

– لقد وجدت انثى .

وكانت عيناه تلتمعان بمرح محموم ، وكان يبتسم بسمة متعالية :

– اريد ان أعرّفك عليها .

– ولماذا ؟

فنظر اليه بينيت بقسوة :

– انك صديقي ، أليس كذلك ؟

قال ماتيو : – بكل تأكيد (وسأله) أهي موظفة البريد ؟

– نعم ، انها آنسة البريد .

– كنت أظنّ انك لم تكن راغباً في قصص النساء ؟

فضحك بينيت ضحكة مغتصبة :

– ما دمنا لا نقاتل ، فيجب ان نقضي الوقت .

والتفت اليه ماتيو فوجد هيئته مزهوة ، وقال :

– انك لم تعد تشبه نفسك ، يا رفيقي الصغير . ايكون الحب هو الذي غيّرك ؟

قال بينيت : – هيه ! هيه ! كان بالامكان ان اسقط اسوأ من هذه السقطة . سوف ترى نهديها : يأخذان العقل . وهي مثقفة : انها في الجغرافية او الحساب تضاهيك .

وسأله ماتيو : – وامرأتك ؟

فبدّل بينيت سحنته ، وقال بقسوة :

– على قفاي !

وكانا قد وصلا الى بيت صغير بطابق واحد ، وكانت المصاريع مغلقة ، وكان مزلاج الباب مرفوعاً . وطرق بينيت ثلاث طرقات وصاح :

– هذا انا .

والتفت الى ماتيو وهو يبتسم :

– انها تخشى ان يغتصبوها .

وسمع ماتيو صوت مفتاح ، وقال صوت امرأة :

— ادخل بسرعة .

وغطسا في رائحة حبر وصمغ وورق . وكان مقعد طويل يعلوه حاجز يقسم الحجرة الى قسمين . ولمح ماتيو في الداخل باباً مفتوحاً . وتراجعت المرأة حتى ذلك الباب ، واغلقته دونها ، وسُمعت وهي تدير المفتاح في القفل ، وظلا لحظات في الممر الضيق المخصص للجمهور ، ثم بدت عاملة البريد مرة اخرى وراء نافذتها . وانحنى بينيت فأسند جبينه الى الحاجز :

— انك تضعيننا في القصاص ؟ هذا غير لطيف .

قالت : — آه ! يجب ان يكون الانسان عاقلاً .

وكان لها صوت جميل ، حار ومعتم . ورأى ماتيو عينيها السوداوين تبرقان .

وقال بينيت : — إنك إذن خائفة منا ؟

فضحكت :

— لست خائفة ، ولكني لست واثقة كذلك .

— ايكون هذا بسبب صديقي ؟ ولكنه في الواقع مثلك : فهو موظف : وهذا قاسم مشترك للتعارف ، وينبغي لذلك ان يطمئنك .

وكان يتكلم بصوت انيق وهو يبتسم بدماثة ، وقال :

— هيا ، أخرجي على الأقل اصبعاً من خلال الحاجز ، اصبعاً واحداً فقط .

فأخرجت اصبعاً طويلا هزيلا من خلال الحاجز ، فوضع بينيت على ظفره قبلة . وقالت :

— كف عن هذا ، وإلا سحبته .

قال : — لن يكون ذلك مؤدباً . يجب ان يشد صديقي على اصبعك .

والتفت الى ماتيو :

— اسمح لي ان اقدم لك الآنسة التي — لا — تريد — ان — تقول اسمها . انها فرنسية صغيرة شجاعة : كان بوسعها ان تطلب نقلها ، ولكنها لم ترد ان تترك وظيفتها ، فربما كانوا بحاجة اليها .

وكان يهزّ كتفيه ويبتسم ، كان لا ينفك يبتسم . وكان صوته مائعاً ومغنياً ، ذا لكنه انكليزية خفيفة .

قال ماتيو : — مرحباً ايتها الآنسة .

فحركت اصبعها عبر الحاجز . فشد عليه بين أصابعه . وسألته :

— انت موظف ؟

— انني استاذ .

- وانا عاملة بريد .

— ارى ذلك .

وكان يشكو الحرّ والضجر ؛ كان يفكر بالوجوه الرمادية البطيئة التي خلفها وراءه .

قال بينيت : — ان الآنسة هي المسؤولة عن جميع رسائل القرية الغرامية .

قالت بلهجة متواضعة : — اوه! تعرف ان الرسائل الغرامية هنا...

قال بينيت : — لو كنت اسكن هذا البلد ، لكنت ارسل رسائل غرامية لجميع الفتيات هنا حتى تمرّ بين يديك . وبذلك تكونين « ساعية الغرام » .

وكان يضحك في شيء من الشرود :

— ساعية الغرام ! ساعية الغرام !

قالت : — سيكون هذا عظيما ، لأنه يضاعف عملي !

وساد صمت طويل ، وكان بينيت قد احتفظ ببسمته اللامبالية ، ولكنه كان متوتر المزاج ، وكان نظره يبحث في كل مكان . وكانت

حاملة ريشة معلقة الى الحاجز بخيط ؛ فتناولها بينيت ، وغطها بالحبر ، وسطر بضع كلمات على بطاقة بريدية مدّها لها وهو يقول :

ــ ها هي ذي .

فسألته من غير ان تأخذها :

ــ ولكن خذيها ! انت موظفة بريد : فقومي بمهنتك .

وأخذتها آخر الأمر وقرأت :

ــ ادفعوا الف قبلة الى الآنسة « بلا اسم » ... (وقالت وهي متوزعة بين الغضب والضحك الشديد) ها أنه قد عطل لي بطاقة بريدية.

وبلغ الضجر من ماتيو منتهاه فقال :

ــ حسناً . انني اترككما .

فبدا على بينيت الامتعاض :

ــ ألا تبقى ؟

ــ يجب ان ارجع الى هناك .

قال بينيت على عجل :

ــ اني ارافقك .

والتفت الى موظفة البريد :

ــ سأعود بعد خمس دقائق : فهل تفتحين لي الباب ثانية ؟

فقالت في انين :

ــ اوه ! كم هو مزعج! انه يقضي وقته كله في الدخول والخروج : لقد آن لك ان تقرر !

قال : حسناً ، حسناً . اني باق . ولكنك ستتذكرين : فانت التي طلبت مني ان أبقى .

ــ لم اطلب شيئاً على الاطلاق .

ــ بلى !

ــ لا !

وتمتم ماتيو بين اسنانه :

– اوه ! خراء !

والتفت الى الصغيرة وقال :

– وداعاً ، يا آنسة .

فقالت موظفة البريد في برودة :

– وداعاً .

وخرج ماتيو ومشى فــارغ الرأس . وكان الليل يهبط ، وكان الجنود ما يزالون جالسين كما تركهم . ومرّ في وسطهم فارتفعت من الأرض أصوات :

– ما هي الاخبار ؟

قال ماتيو : – ليس ثمة من اخبار .

وعاد الى مقعده وجلس بين شارلو وبيارنيه وسأل :

– الا يزال الضباط عند الجنرال ؟

– لا يزالون .

وتثاءب ، كان ينظر بأسى الى الافراد الغارقين في الظلّ ؛ وتمتم « نحن » . ولكن ذلك لم يكن مقنعاً بعد : لقد كان وحيداً . وقلب رأسه الى الوراء ونظر الى النجوم الاولى . كانت السماء رقيقة كامرأة ؛ وكان حب الارض كله قد صعد ثانية الى السماء. وطرف ماتيو بعينيه :

– نجم مذنّب ، يا جماعة . تمنّوا شيئاً .

فضرط لوبيرون وقـال :

– هذه هي امنيّتي !

وتثاءب ماتيو من جديـد ، وقال :

– حسناً ، انني ذاهب لأنام . هل تأتي يا شارلو ؟

– أشكّ : فقد نرحل هذه الليلة ، وأفضل ان اكون مستعداً .

فضحك ماتيو ضحكة خشنة وقال :

— يا لك من رأس فرج !

قال شارلو بسرعة :

— كفى ، كفى . انني آت معك .

ودخل ماتيو الى العنبر فارتمى في التبن مرتدياً كـل ثيابه . وكان يموت من شدة النعاس : كان دائماً يُحسّ بالنعاس حين يكون شقياً . وأخذت كرة حمراء تدور ، واطلت وجوه نسائية من الشرفة وأخذت تدور هي ايضاً ، وكان ماتيو يحلم بأنه السماء ؛ وكان يطلّ من الشرفة وينظر الى الأرض . وكـانت الأرض خضراء ذات بطن أبيض ، وكانت تقفز البراغيث . وفكر ماتيو : يجب ألا تمسّني ، ولكنها رفعت خمسة اصابع هائلة وقبضت على ماتيو من كتفيه .

— انهض ! بسرعة !

فسأل ماتيو : — كم هي الساعة ؟

وكان يُحس نفساً حارّاً على وجهه ، فقال صوت غيكيولي :

— الساعة العاشرة والثلث . انهض على مهل ، وتوجه الى الباب ، ثم انظر من غير ان تُرى .

فجلس ماتيو وتثاءب :

— ماذا هناك ؟

— إن سيارات الضباط تنتظر في الطريق ، على بعد مئة متر من هنا .

— واذن ؟

— افعل ما أقوله لك وسترى .

واختفى غيكيولي ؛ وفرك ماتيو عينيه ، ونادى بصوت منخفض :

— شارلو ! شارلو ! لونجان ! لونجان !

ليس من جواب . فنهض ومشى متهادياً من النعاس حتى البـاب . وكان مفتوحاً على سعته . وكان رجل مختبئاً في الظلّ .

— مَن هنا ؟

قال بينيت : — انا .

— كنت احسبك تضاجع .

— انها تداور وتماطل ، ولن أحصـل عليهـا قبل الغد (وتنهّد واضاف) يا إلهي ! إن شفتيّ تؤلمانني من فرط ما ابتسمت .

— اين بيارنيه ؟

فأشار بينيت الى ركن مظلم ، في الزاوية الاخرى من الشارع :

— هناك ، مع شارلو ولونجان .

— وماذا يفعلون هناك ؟

— لا ادري .

وانتظرا في صمت . وكان الليل بارداً ومشرقـاً تحت ضوء القمر . وكانت حزمة من ظلال تتحرك تجاهها ، تحت المدخل . وادار ماتيو رأسه نحو بيت الطبيب : كانت عين الجنرال مغلقـة ، ولكن ضوءاً أصفر كان يتسلل من تحت الباب . انني « انا » هنا . وانهار «الزمن» ، مع مستقبل — فزّاعة كبير . ولم يبق غير مدّة محلية ، صغيرة نائسة . لم يكن ثمة سلم ولا حرب ، ولا المانيا ولا فرنسا : لم يكن الا هـذا الشعاع المتقع تحت باب ربما كان عـلى وشك ان ينفتح . فهل تراه ينفتح ؟ لم يكن ثمة ما هو هامّ غير هذا ، ولم يكن لماتيو بعد غـير هذا المستقبل الصغير . أينفتح الباب ؟ وأضاء قلبه الذابل فرحٌ شبيـه بفرح المغامرات . أينفتح الباب ؟ كان ذلك هاماً : كان يخيل اليه ان الباب اذ ينفتح يقدّم أخيراً جواباً على جميع الاسئلة التي طرحها على نفسه طوال حيـاته . وأحسّ ماتيو بأن رعشة فرح ستولد في جوف كليته ؛ وشعر بالخجل ، وقال لنفسه في جهد : لقد خسرنا الحرب . وفي تلك اللحظة ، رُدّ له « الزمن » وذابت لؤلؤة المستقبل الصغيرة في مستقبل ضخم مشؤوم . الماضي ، المستقبل على مدى النظر ، منذ الفراعنة حتى ولايات اوروبا المتحدة . وانطفأ فرحه ، وانطفـأ النور

تحت الباب ، وصرّ الباب ، ودار على مهل ، وانفتح علـى ظلام ؛ وخفق الظلّ تحت المدخل ، وطقطق الشارع كأنه غابة ، ثم سقط في الصمت . لقد فات الاوان : فليس ثمة من مغامرة .

وبعد لحظة ، برزت اشباح على الدربزين ؛ وهبط الضباط الدرج واحـداً اثر الآخر ؛ وتوقف أول الهابطين في وسط الطريق بانتظار الآخرين ، فتبدلت الطريق: ١٩١٢ ، طريقُ حاميةٍ تحت الثلج،والوقت متأخر ، وكانت حفلة الليل لدى الجنرال قد انتهت ؛ وكان الملازمان سوتان وكادين متشابكي الذراعين ، جميلين كصورتين ؛ وكان القائد برات قد وضع يـده على كتف الكابتن مورون ، وكانوا ينحنون ويبتسمون ويقفون تحت مانيزيوم القمر ، صورة اخرى ، الأخيرة ، اني اصوّر الفريق كله ، انتهى . واستدار القائد برات على عقبيه ، فنظر الى السماء ورفع اصبعين في الهواء ، كما ليبارك القرية . وخرج الجنرال بدوره ، فأغلق الكولونيل الباب خلفه بهدوء : كـان اركان حرب الفرقة بكامل عـدده ، عشرين ضابطاً ، في امسية مثلوجة ، ذات سماء صافيـة ، وكانوا قد رقصوا حتى منتصف الليل ، أجمل ذكرى للحامية . وأخذ الجمع الصغير يسير بخطىّ ذئبية ؛ وكانت نافذة في الطابق الاول قد انفتحت بغير ضجة ، وكان شكل ابيض يطلّ منها وينظر اليهم ذاهبين .

وتمتم بينيت :

— ايّ مزاح !

كانوا يسيرون بهدوء ، في كبرياء رقيقة ؛ وكان على وجوههـم الصنمية التي تقطر بنور القمر وحدة وصمت شديدان،حتى ان النظر اليها كان تدنيساً . وكان ماتيو يستشعر الذنب والتطهّر :

— ايّ مزاح ! اي مزاح !

وتردّد الكابيتين مورون . أيكون قد سمع ؟ وناس جسمه الكبير

الرائع والتفت نحو العنبر ؛ وكان ماتيو يرى عينيه تلتمعان . وهــدر بينيت وقام بحركة ليقذف بنفسه الى الخـارج . ولكن ماتيو قبض على معصمه وأمسكه بقوة . وبحث الكابتين بنظره في اعماق الظلمات فـترةً اخرى ثم استدار وتثاءب بغير اكتراث وهو يربت على شفتيه بأطراف اصابعه اللابسة القفاز . ومرّ الجنرال ، ولم يكن قد سبق لماتيو ان رآه على هذا القرب . وكان رجلاً ضخماً يفرض شخصيته ، ذا وجـه منضّد ، وكان يستند بتثاقل الى ذراع الكولونيل ؛ وكانت تتبعهـا حاشية تحمل الحقائب ؛ وكان فريق هامس ضاحك من الملازمين يُنهي الموكب .

وقال بينيت بصوت مرتفع تقريباً :

— ضباط !

ففكر ماتيو : « الاحرى انهم آلهة . آلهة يعودون الى جبال الاولمب بعد مكوث قصير على الارض ». وغرق الموكب الاولمبي في الليـل ؛ ورمم مصباح كهربائي دائرةً راقصة على الطريق وانطفـأ . والتفت بينيت الى ماتيو ؛ وكان القمر يضيء وجهه الجميل اليائس .

— ضباط ؟

— اي نعم .

واخذت شفتا بينيت ترتجفان ؛ وكان ماتيو يخشى ان ينفجر باكياً، فقال :

— كفى ! كفى ! هيّا ايها العنيد الصغير ، استعد رباطتك .

قال بينيت : — يجب ان نراه حتّى نصدقه . انه العالم مقلوباً .

واخذ يد ماتيو يشدّها ويتشبث بها ، كما لو كان يحتفظ بأمل اخـير :

— لعل السائقين يرفضون الرحيل ؟

فهزّ ماتيو كتفيه : كانت المحركات قد بدأت تهدر، فيؤلّف ذلك

انشودة زيزان عذبة ، بعيداً ، في اعماق الليل . وبعد لحظة ، اقلعت السيارات وضاع صوت المحركات . وشبك بينيت ذراعيه :

— ضباط ! بدأت الآن اصدق ان فرنسا قد هلكت .

والتفت ماتيو : كانت ثمة اشباح تنفصل عن الجدار عناقيد عناقيد ، وكان جنودٌ يخرجون في صمت من الأزقة والبوابات والعنابر . جنود حقيقيون من الصف الثاني ، ذوو اجسام ضعيفة وثياب رثة ، ينسلّون ازاء بياض الواجهات المعتّم ؛ وفي لحظة ، امتلأ الشارع . وكانت لهم وجوه حزينة جداً انقبض لها قلب ماتيو ، فقال لبينيت :

— تعال .

— الى اين ؟

— الى الخارج مع الرفاق .

قال بينيت : — اوه ! خراء ! انني ناعس ، ولا رغبة لي في التحدث .

وتردّد ماتيو : كان يشعر بالنعاس ، وكانت اوجاع عنقه تثقب له رأسه ؛ وكان يود لو ينام ولا يفكر في شيء بعد . ولكن هيئتهم كانت حزينة ، وكان يرى ظهورهم تلتمع تحت القمر فيشعر بأنه أحدهم . وقال :

— اما انا ، فاني راغب في التحدث . مساء الخير.

واجتاز الشارع وضاع في الجمع . وكان ضوء القمر الطبشوري ينير سحنات متحجرة ، ولم يكن ثمة من يتكلم . وفجأة ، سُمع صوت المحركات واضحاً . فقال شارلو .

— لقد عادوا ، لقد عادوا !

— ولكن لا ، ايها الابله ! لقد سلكوا طريق المقاطعات .

ومع ذلك ، فقد ارهفوا آذانهم ، يداخلهم امل غامض . وخفّ الهدير وتلاشى . وتنهد لاتيكس :

ـ انتهى الأمر .

قال غريمو : ـ ها نحن اخيراً وحدنا .

فلم يضحك أحد . وسأل أحدهم بصوت منخفض قلق :

ـ وماذا سيكون من أمرنا ؟

فلم يكن ثمة جواب ، كان الافراد لا يأبهون لما سيصيرون اليه ، فقد كان لديهم هم آخر، هم غامض ، كانوا يائسين من التعبير عنه .

وتثاءب لوبيرون ، وقال بعد صمت طويل :

ـ لا يجدينا شيئاً ان نسهر . الى النوم ، يا جماعة ، الى النوم .

فقام شارلو بحركة يأس كبيرة ، وقال :

ـ طيّب ، انا ذاهب لأنام ، ولكن على مضض .

وكان الافراد يتبادلون نظرات قلقة ، فلم تكن لديهم اية رغبة في الافتراق ، ولا اي مبرّر للبقاء معاً . وفجأة ارتفع صوت ، صوت مرير .

ـ انهم لم يحبّونا قط .

وكان هذا يتكلم عن الجميع ، وأخذ الجميع يتكلمون :

ـ نعم ! نعم ! نعم ! بوسعك ان تقول هذا ، انت على حق . وما تقوله صحيح . انهم لم يحبونا قط ، ابداً ، ابداً ، ابداً . ولم يكن الألمان اعداءهم ، بل كنا نحن ؛ لقد قمنا بالحرب كلها معاً ، ومع ذلك فقد تخلّوا عنا .

وكان ماتيو يردّد مع الآخرين :

ـ انهم لم يحبونا قط .

قال شارلو : ـ حين رأيتهم يمرون ، كنت من شدة الخيبة اوشكت ان اسقط ميتاً .

وغطّى صوته ضجيج حائر : لم يكن هذا بعد ما ينبغي ان يقوله تماماً . كان ينبغي الآن فقء الدمّل ، ولم يكن ثمة سبيل للتوقف بعد ،

كان ينبغي القول : ليس هناك من يحبنا . لا احد يحبنا : إن المدنيين يأخذون علينا اننا لم نحسن الدفاع عنهم ، ونساؤنا غير فخورات بنا ، وضباطنا تخلوا عنا ، والقرويون يحقدون علينـا والألمـان يتقدمون في الليل ، كان ينبغي القول : اننا كبش المحرقة ، اننـا المهزومون ، الجبناء ، الهوام ، حثالة الأرض ، لقد خسرنا الحرب ، اننا بشعون ، مذنبون ، وليس هناك احد يحبنا ، لا أحد في الدنيا ، لا أحد . ولم يجرؤ ماتيو ، ولكن لاتيكس قال خلفه ، بلهجة متجردة :

— اننا منبوذون !

وصمتت الأصوات . وكان ماتيو ينظر الى لونجان ، بلا سبب معيّن ، هكذا ، لأنه كان تجاهه ، وكان لونجـان ينظر اليه . وكـان شارلو ولاتيكس يتبادلان النظر ؛ كان الجميع يتبادلون النظر ، وكان الجميع وكأنهم ينتظرون ، كما لو كان باقياً شيء ما يُقال . ولم يكن ثمة بعد ما يقال ، ولكن فجأة ابتسم لونجان لماتيو ، فبـادله ماتيو بسمته ؛ وابتسم شارلو ، وابتسم لاتيكس ؛ وعلى جميع الأفواه ، فتّح القمر زهوراً صفراء .

الاثنين ، ١٧ حزيران .

قال بينيت : — تعال ، هيا ، تعال .

— كلا .

— هيا ، هيا ، تعال .

وكان ينظر الى ماتيو بهيئة رجاء واغراء . وقال ماتيو :

— حُلّ عن ظهري .

وكانا معاً تحت الأشجار ، وسط الساحة ، والكنيسة تجـاههما ، ودار البلدية الى اليمين . وكان شارلو يحلم امام دار البلدية ، جالس

على الدرجة الاولى من السلم . وكان على ركبتيه كتاب . وكان جنود يتنزهون بخطىً بطيئة ، زرافات ووحداناً : وكانوا لا يدرون ما يفعلون بحريتهم . وكان رأس ماتيو ثقيلاً موجعاً كما لو انه قد شرب.

وقال بينيت :

ــ تبدو عليك السآمة .

قال ماتيو : ــ أجلِ ، انني في سأم .

كانت قد حدث ذلك السكر المضني للصدقة : كان الافراد ملتهبين تحت القمر ، وكان هذا يستحق جهد ان يحيا الانسان . ثم ان المصابيح كانت قد اطفئت ، فذهبوا ينامون ، لأنه لم يكن لديهم شيء آخر يفعلونه ، ولأنهم لم يكتسبوا بعد عادة تبادل المحبة ، ان الوقت الآن يشبه اليوم التالي لعيد ، فان المرء يحس الرغبة في الانتحار.

وسأل بينيت : ــ كم الساعة ؟

ــ الخامسة وعشر دقائق .

ــ خراء ! لقد تأخرت .

ــ إذن ، عجل بالذهاب .

ــ لا اريد ان اذهب وحدي .

ــ أتخاف بأن تلتهمك ؟

قال بينيت : ــ ليس الامر كذلك ، ليس الامر كذلك .

وألمّ بهما نيبير من غير ان يراهما ، وهو مستغرق ، وعيناه في داخله .

قال ماتيو : ــ اصحب نيبير .

ــ نيبير ؟ هل انت مجنون ؟

وتابعا بعينيهما نيبير ؛ مندهشين بهيئته العمياء وخطوته الراقصة .

وسأل بينيت ــ علامَ تراهن بأنه داخل الى الكنيسة ؟

وانتظر لحظة ثم صفع بيده قفاه :

ـــ انه يدخل اليها ، يدخل اليها ! لقد ربحت .

وكان نيبير قد اختفى؛ والتفت بينيت الى ماتيو فتأمله بهيئة برمة :

ـــ يبدو انهم اكثر من خمسين في الداخل ، منذ هذا الصباح . وبين الفينة والفينة يخرج احدهم ليبول ثم يعود على الفور . فماذا تظن انهم يفبركون ؟

فلم يجب ماتيو . وحك بينيت رأسه :

ـــ لدي رغبة بان القي نظرة عليهم .

قال ماتيو : ـــ ولكنك متأخر عن موعدك .

قال بينيت : ـــ طز في الموعد !

وابتعد بلا اكتراث ، واقترب ماتيو من شجرة كستناء . حزمة ضخمة متروكة على الطريق : هذا ما خلفه اركان حرب الفرقة ؛ وكان ثمة مثلها في جميع القرى ؛ سوف يلتقيها الالمان لدى مرورهم. « ما عساهم ينتظرون ، يا آلهي ؟ ماذا ينتظرون ؟ » كانت الهزيمة قد أصبحت يومية : كانت هي الشمس والشجر وهيئة الزمن وهذه الرغبة الخفية بان يموت ؛ ولكن العشية كانت قد خلفت في فمه مذاق أخوة قد برد . وكان ضابط البريد يقترب ، وحوله الطبّاخان ؛ ونظر اليهم ماتيو : لقد سبق لهذه الافواه ان بسمت له في الليل ، تحت ضوء القمر . اما الآن ، فلم يبق شيء ، وكانت وجوههم القاسية المغلقة تنادي بانه ينبغي الحذر من ضربات القمر ومن نشوات منتصف الليل : كل لنفسه والله للجميع ، لسنا على الارض لننزعج ، لقد كانوا هم ايضاً في يوم تال لعيد . وسحب ماتيو مديته من جيبه وشرع يقص لحاء شجرة الكستناء . كان راغباً ان يحفر اسمه في مكان ما من العالم .

ـــ انك تكتب اسمك ؟

ـــ نعم .

— ها ! ها !

وضحكوا ومضوا . وكان جنود آخرون يتبعونهم عن كثب : افراد لم يسبق لماتيو ان رآهم قط . كانت ذقونهم طويلة وعيونهم لامعة وهيئتهم غريبة ؛ وكان بينهم شخص يعرج . وقد اجتازوا الساحة ليذهبوا فيقتعدوا الرصيف ، امام الفرن المغلق . ثم جاء آخرون وآخرون لم يكن يعرفهم ماتيو كذلك ، بلا بنادق ولا طاقات ، ذوو وجوه رمادية ووحل جاف على أحذيتهم . هؤلاء كان بالامكان ان يحبهم المرء . وحين لحق بينيت بماتيو ، حدجهم بنظرة استياء ، فسأله ماتيو :

— ماذا رأيت ؟

— الكنيسة ملآى . (وأضاف بلهجة خائفة) انهم ينشدون .

وأخذ ماتيو مديته ، فسأله بينيت :

— انك تكتب اسمك ؟

فأجاب ماتيو وهو يضع مديته في جيبه :

— كنت اريد ، ولكن ذلك يستغرق وقتاً اطول مما ينبغي .

وتوقف بالقرب منهما شاب طويل ذو وجه متعب ضائع الملامح ، فكأنه ضباب فوق ياقته المفتوحة . وقال من غير ان يبتسم :

— مرحباً بالرفاق .

فتأمله بينيت ، وقال ماتيو :

— مرحباً .

— هل في هذه الانحاء ضباط ؟

فأخذ بينيت يضحك ، وسأل ماتيو :

— أتسمعه ؟ (والتفت الى الرجل فأضاف) لا ، يا عزيزي ، لا ليس من ضباط هنا ، فنحن في جمهورية .

قال الرجل : — ارى ذلك .

— من اية فرقة أنت ؟
— من الثانية والاربعين .
فدمدم بينيت : — الثانية والاربعين ؟ لم اسمع بها قط . واين انتم؟
— في « الابينال » ؟
— وماذا تفعل هنا ؟
فهزّ الجندي كتفيه ، وسأل بينيت فجأة ، بلهجة قلقة :
— اتراها ستأتي الى هنا ، فرقتك ؟ مع جميع الضباط وباقي الماخور؟
فضحك الجندي بدوره ، واومـأ الى اربعة افراد جالسين عـلى الرصيف ، قائلاً :
— هذه هي الفرقة .
فالتمعت عينا بينيت :
— هل الوضع شديـد في الابيبال ؟
— كان شديداً . اما الآن ، فلا بد انه هادىء جداً .
وأدار عقبيه ومضى الى رفاقه . وكان بينيت يتابعه بعينيه :
— الثانية والاربعون ، تأمل ! هل تعرفها انت ، الثانية والاربعين؟ انني لم اسمع بها حتى الآن .
قال ماتيو : — لم يكن ذلك سبباً كافياً لتهاجمه !
فهزّ بينيت كتفيه وقال في ازدراء :
— لا يكاد ينقطع سيل الافراد الذين يأتون لا تدري حتى من اين . فانت تشعر انك لست بعد في بيتك .
فلم يجب ماتيو : كان ينظر الى الجروح في جذع شجرة الكستناء . وقال بينيت :
— هيا ! تعال ! سنذهب الى الحقول ، نحن الثلاثة ؛ ولن نرى بعد احداً ، وسنكون مرتاحين .
— ولكن ماذا تريد ان افعـل بينك وبين صاحبتك ؟ إنك لست

بحاجة الي لتفعل ما تريد ان تفعله .

قال بينيت بلهجة مسكينة :

— ولكننا لن نفعله على التو ، فيجب ان نتحدث .

وقطع كلامه فجأة :

— انظر هناك ! انظر هناك ! أجنبي آخر !

وكان جندي قصير سمين متجهاً اليهما باستقامة . وكان ضماد ملطخ بالدم يخفي عينه اليمنى . وقال بينيت بصوت مرتعش بالأمل :

— لعلنا في قلب معركة كبيرة . ولعل القتال سينشب .

فلم يجب ماتيو . ونادى بينيت الجندي ذا الضماد .

— اسمع !

فتوقف الرجل ونظر اليه بعينه الوحيدة .

— هل حدثت هناك معارك ؟

وكان الرجل ينظر اليه من غير ان يجيب . والتفت الى ماتيو :

— لا يمكن للمرء ان يسحب منهم شيئاً .

واستعاد الرجل سيره . ولكنه توقف بعد بضعة أمتار ، فأسند ظهره الى شجرة كستناء وتداعى للسقوط علي الأرض ، فاذا هو جالس وركبتاه عند ذقنه . قال بينيت :

— لعله يشكو شيئاً .

قال ماتيو : — تعال .

واقتربا . فسأله بينيت :

— أبك شيء ؟

فلم يجب الجندي .

— هيه ! أبك شيء ؟

وقال ماتيو للجندي : — سوف نساعدك .

وانحنى بينيت ليأخذه من ابطيه ، ولكنه ما لبث ان استقام .

ـ لا فائدة .

وكان الرجل ما يزال جالساً ، مفتوح العين ، فاغر الفم . وكانت هيئته رقيقة باسمة .

ـ لا فائدة .

ـ أجل ! انظر اليه .

فانحنى ماتيو ووضع رأسه على صدر الجندي ، ثم قال :

ـ انت على حق .

قال بينيت : ـ يجب ان نغلق له عينيه .

وفعل ذلك بطرف أصابعه ، وقد غرق رأسه في عنقه وتدلت شفته السفلى . وكان ماتيو ينظر اليه ، ولا ينظر الى الميت : إن الميت ليس بعد ذا أهمية . وقال :

ـ لكأنك ألفت ذلك طوال حياتك .

قال بينيت : ـ اما اني رأيت امواتاً ، فقد رأيت . ولكن هذا هو الاول منذ دخلنا الحرب .

وكان الميت يبتسم لأفكاره ، مغمض العين . وكان يبدو سهلا ان يموت المرء ، سهلا ومرحاً تقريباً . « ولكن ، لماذا العيش ؟ » واخذ كل شيء يخفق في السماء . الأحياء والاموات والكنيسة والشجرة . وانتفض ماتيو . كانت يد قد لامست كتفه ، وكان هو ذلك الشاب الطويل ذا الوجه الضبابي ؛ وكان ينظر الى الميت بعينيه الحائلتين .

ـ ماذا هناك ؟

ـ لقد مات .

فأوضح قائلا : ـ انه غارين .

والتفت الى الشرق .

ـ هيه ، يا جماعة ، عجلوا بالمجيء !

فنهض الجنود الأربعة وأخذوا يركضون ؛ وصاح بهم :

ـ لقد مات غارين .

ـ خراء !

وكانوا يحيطون بالميت وينظرون اليه في حذر :

ـ عجيب الا يكون قد سقط على الأرض .

ـ هذا يحدث احياناً . هناك من يبقى واقفاً .

ـ هل انت متأكد من انه مات ؟

ـ هما اللذان يقولان ذلك .

فانحنوا جميعهم معاً على الميت . وكان احدهم يمسك بمعصمه ، وآخر يستمع الى قلبه ، وأخرج الثالث مرآة جيب فألصقها بفمه ، كما يحدث في الروايات البوليسية . ثم نهضوا مسرورين ؛ وقال الرجل الطويل وهو يهزّ رأسه :

ـ يا لذلك الأحمق !

وهزوا رؤوسهم الأربعة ورددوا معاً :

ـ يا لذلك الأحمق !

والتفت قصير سمين الى ماتيو يقول :

ـ لقد مشى عشرين كيلو متراً . ولو بقي ساكناً . لظلّ حياً .

قال ماتيو وكأنه يعتذر عنه : ـ انــه لم يكن يريد ان يأخذه الألمان .

ـ وبعد ذلك ؟ إن عند الالمان سيارات اسعاف . وقد حدثته انا في الطريق . كان دمه يسيل كالخنزير ، ولكنك لم تكن تستطيـع ان تقول له شيئاً . فحضرته لم يكن يفعل الا ما في رأسه . كان يقول انه يريد ان يعود الى بيته !

ـ في كاهور . إنه خباز هناك .

فهز بينيت كتفيه :

ـ على كل حال ، ليس هذا هو الطريق .

ـ نعم .
وصمتوا ونظروا الى الميت في ارتباك :
ـ ماذا نفعل به ؟ هل ندفنه ؟
ـ لا نستطيع ان نفعل غير هذا .
وحملوه من إبطيه وركبتيه ؛ وكان ما يزال يبسم لهم ، ولكنه كان يبدو اكثر موتاً بين الفينة والفينة .
ـ سوف نساعدكم .
ـ لا حاجة الى ذلك .
قال بينيت بحيوية : ـ بلى ، بلى . فليس لدينا ما نعمله ، وهذا ما يلهينا .
فنظر اليه الجندي الطويل بجدّ وقال :
ـ كلا ، يجب ان يبقى ذلك فيما بيننا . انه من بلدنا ، فعلينا نحن ان ندفنه .
ـ واين ستضعونه ؟
فأشار القصير السمين برأسه الى الشمال .
ـ هناك .
وأخذوا يمشون حاملين الجثة : وكانوا يبدون موتى اكثر منه .
وسأل بينيت : ـ ربما كان له دين ، هذا الرفيق ؟
فنظروا اليه في ذهول . واومأ بينيت الى الكنيسة :
ـ انها ملآى بالخوارنة الصغار .
فرفع الجندي الطويل يده بصورة استعلاء وقسوة .
ـ لا . لا . لا . يجب ان يظل ذلك فيما بيننا .
واستدار على عقبيه وتبع الآخرين ، فعبروا الساحة واختفوا .
وصاح شارلو :
ـ ما كان به ، يا جماعة!

فالتفت ماتيو : كان شارلو قد رفع رأسه ووضع كتابه الى مقربة منه ، على الدرجة .

ــ كان به أنه كان ميتاً !

قال شارلو : ــ هذه بلاهة ، انني لم افكر في ان أنظر ، وانما رأيته حين كانوا يحملونه . انه ليس منّا ، على الأقل ؟

ــ كلا .

قال ــ آه حسناً .

واقتربوا . ومن نوافذ دار البلدية ، كانت تخرج اناشيد وصيحات لا إنسانية ، فسأل ماتيو :

ــ ماذا يحدث في الداخل ؟

فابتسم شارلو : ــ انه الماخور .

ــ وتستطيع ان تقرأ ؟

فقال شارلو في ذل : ــ لم اكن اقرأ تماماً .

ــ وما هو الكتاب ؟

ــ انه الـ « فولابيل » .

ــ كنت احسب ان لونجان هو الذي كان يقرأه .

قال شارلو في سخرية :

ــ لونجان ! هكذا ! إن لونجان ليس بعد في حالةٍ تسمح له بالقراءة .

وأشار بابهامه الى البناء ، من فوق كتفه :

ــ إنه هناك في الداخل ، محشو كأنه خنزير .

ــ لونجان ؟ انه لا يشرب غير الماء .

ــ إذهب لترى إن لم يكن محشواً .

وسأل بينيت : ــ كم الساعة ؟

ــ الساعة الخامسة وخمس وثلاثون .

والتفت بينيت الى ماتيو :

ـ الا تأتي ؟
ـ لن آتي .
فوجه الى شارلو عينيه الجميلتين الحسيرتين :
ـ كم يبعصني هذا .
ـ ما الذي يبعصك ، ايها العنيد الصغير ؟
قال ماتيو : ـ لقد وجد سمكة .
ـ اذا كانت تبعصك ، فما عليك إلا ان تحولها لي .
قال بينيت : ـ لا أستطيع . إنها تعبدني .
ـ اذن ، تدبر أمرك .

فقام بينيت بحركة تستنزل عليها اللعنة ، وأولاها ظهره ومضى . وتبعه شارلو بعينيه وهو يبتسم :
ـ انه يروق للنساء .
قال ماتيو : ـ صحيح .
فقال شارلو : ـ انا لا أحسده .. فيكفي مجرد التفكير بان اقفز ، في هذه اللحظة ، علي امرأة ..
ونظر ماتيو في فضول :
ـ يقال بان الخوف يوتّر .
ـ يعني ؟
ـ ان هذا ليس حالي : فهو قد التوى .
ـ وهل انت خائف ؟
ـ خائف ، كلا . ولكن شيئاً يثقل علي معدتي .
ـ فهمت .
وأمسك شارلو فجأة بكمّ ماتيو . وقال له بصوت منخفض :
ـ أجلس . عندي ما اقوله لك .
فجلس ماتيو ؛ وقال شارلو بصوت منخفض :

ــ هنالك من يروى حماقات ضخمة مثلهم .
ــ اية حماقات ؟
قال شارلو منزعجاً :
ــ لو تعلم ، انها « حقاً » حماقات .
ــ تكلم لنرى .
ــ اسمع إذن : إن الكابورال كابيل يقول إن الالمان سيخصوننا .
وضحك من غير ان يغادر ماتيو بنظره . وقال ماتيو :
ــ نعم ، انها حماقات .
وكان شارلو ما يزال يضحك :
ــ ولكن لاحظ : انني لا أصدق ذلك . فان هذا يعطيهم عملاً مجهداً .
وصمتا . وكان ماتيو قد تناول كتاب « الفولابيل » ؛ وكان يأمل بغموض ان يدع له شارلو ان يأخذه . وقال شارلو باهمال :
ــ وهل يخصون اليهود عندهم ؟
ــ كلا .
فقال شارلو باللهجة نفسها :
ــ لقد حدثوني عن ذلك .
وفجأة أخذ ماتيو من كتفيه ، فلم يستطع ماتيو ان يحتمل رؤية هذا الوجه المذعور ، وخفض نظره على ركبتيه . وسأل شارلو :
ــ ما عساهم يفعلون بي ؟
ــ لن يفعلوا غير ما يفعلونه بالآخرين .
وساد صمت ، ثم أضاف ماتيو :
ــ مزق دفترك العسكري واقذف صفيحتك في الهواء .
ــ لقد فعلت هذا منذ زمن طويل .
ــ وإذن ؟

قال شارلو : ـ انظر اليّ .
ولم يكن ماتيو يستطيع ان يصمّم على ان يرفع عينيه :
ـ اقول لك ان تنظر إليّ !
قال ماتيو : ـ انني انظر اليك ، فماذا ؟
ـ هل يبدو عليّ انني يهودي ؟
قال ماتيو : ـ كلا ، ليست عليك هيئة اليهود .

فتنهد شارلو ؛ وخرج جنديّ من دار البلدية وهو يتهاوى ، فنزل ثلاث درجات ، ولكنه اخطأ الرابعة فتدحرج بين ماتيو وشارلو ليمضي فينسحق في وسط الشارع .

قال ماتيو : ـ انه شديد البأس !

ونهض الرجل على مرفقيه وتقيأ ، ثم سقط رأسه من جديد وكفّ عن الحراك .

وقال شارلو موضحاً :

ـ لقد غلوا خمراً في « الادارة » . ليتك رأيتهم يمرون وهم يحملون أباريق لا ادري اين وجدوها وقدراً كبيرة مليئة بالخمر ! كان ذلك يثير الاشمئزاز .

وظهر لونجان على احدى نوافذ الطابق السفلي وتجشأ . وكانت عيناه حمراوين وأحد خدّيه أسود برمته . فصاح به شارلو بقسوة :

ـ لقد تدبّرت امرك جيداً !

فنظر اليهما لونجان وهو يطرف بعينيه ؛ وحين عرفهما ، رفع يديه في الهواء بصورة مأساوية وصاح :

ـ دولارو ؟
ـ ماذا ؟
ـ انني أضيع اعتباري .
ـ ليس عليك إلا ان تذهب .

– لا أستطيع ان اذهب وحدي .

قال ماتيو : – انني قادم معك .

ونهض وهو يضمّ كتاب الفولابيل الى صدره . وقال شارلو :

– انك طيّب في الحقيقة .

– يجب ان نمضي الوقت .

وصعد درجتين ، فصاح شارلو من خلفه :

– هيه ! أعد لي كتابي .

فقال ماتيو مغتاظاً : – طيّب ، لا تصرخ هكذا .

وقذف له بالكتاب . ثم دفع الباب ، فولج ممراً ذا جدران بيضاء وتوقّف وقد شعر بضيق : كان صوت مرتفع متناوم ينشد انشودة « مدفعيّ متز » . وذكّره ذلك بمصحّ روان ، عام ٢٤ ، حين كان يذهب ليرى عمته الأرمل التي جُنّت من الحزن ، فيسمع بعض المجانين يغنّون وراء النوافذ . وعلى الجدار الأيسر ، كان قد عُلّق إعلان تحت حاجز . فاقترب وقرأ : « تعبئة عامة . » وفكر : لقد كنت مدنياً. وكان الصوت يغفو احياناً ، فيسقط على نفسه ويفرغ وهو يحشرج، ثم يستيقظ في صيحة . لقد كنت مدنياً ، وهذا بعيد العهد . وكان ينظر في الاعلان ، الى العلمين الصغيرين المتصالبين ، ويتمثل نفسه مرتدياً سترة ألبكة وياقة منشاة . وكان لم يسبق له ان ارتدى الاولى ولا الثانية، ولكنه كان يتمثل المدنيين هكذا . وفكر: « سيكون فظيعاً ان اعود مدنياً . والحق ان هذا جنس يتلاشى . » وسمع لونجان يصيح «دولارو» ورأى باباً مفتوحاً الى يساره فولجه . وكانت الشمس قد انخفضت ، وكانت أشعتها الطويلة المغبرة تقسم الحجرة قسمين من غير ان تنيرها ، وأخذت بخناق ماتيو رائحة خمر قوية ، فطرف بعينيه ولم يميّز اولاً سوى خارطة جدارية كانت تبدو لطخة في بياض الحائط ، ثم رأى مينار جالساً ، متدلّي الساقين ، فوق خزانة صغيرة ، يحرّك حذائيه

في ارجوان الشمس الغاربة . وكان هو الذي يغني ، وكانت عيناه المرحتان حتى الجنون تدوران فوق فمه الناغر ، وكان صوته ينسحب منه من تلقاء نفسه ، فيعيش منه كنبتة طفيلية ضخمة تمتص امعاءه ودمه لتحيلها الى اغنيات ؛ وكان جامداً متدلّي الذراعين ينظر في ذهول الى هذه الهامة التي تخرج من فمه . لم يكن ثمة من أثاث : فلا بد انهم قد استولوا على الطاولات والكراسي . وصعدت صيحة ترحيب في القاعة .

– دولارو ! مرحباً ، دولارو !

فخفض ماتيو عينيه ورأى رجالاً. وكان ثمة رجل قد استرخى في قيئه ، وكان آخر يشخر ، متمدّداً على طوله ؛ وكان ثالث مستنداً الى الجدار ، فاغر الفم كما كان مينار ، ولكنه لم يكن يغني : وكانت له لحية رمادية تمتد من اذنه الى اذنه الاخرى ، وكانت عيناه مغمضتين خلف نظارتيه :

– مرحباً ، دولارو ، دولارو ، مرحباً !

والى يمينه ، كان ثمة اشخاص آخرون ذوو اوضاع ارصن . كان غيكيولي جالساً على الارض ، وبين ساقيه المنفرجتين قصعة مليئة بالعرق. وكان لاتيكس وغريمو مقرفصين على الطريقة التركية : وكان غريمو يمسك قدحه من عروته ويضربه بالأرض لينغّم اغاني مينار ؛ اما لاتيكس ، فقد كانت يده مختفية حتى المعصم في فتحة بنطاله . وقال غيكيولي بضع كلمات غطّاها صوت المغنّي ، فسأله ماتيو وهو يكوّر يده حول اذنه :

– ماذا تقول ؟

فرفع غيكيولي عينين غاضبتين الى مينار :

– ولكن اخرس لحظة ، بالله عليك ! انك تحطّم آذاننا .

فكفّ مينار عن الغناء ، وقال وهو يكاد ينتحب :

– لا استطيع التوقف .

وما لبث ان بدأ اغنية « فتيات الكاماريه » وكأنه ضحية صوته . وقال غيكيولي :

– اصبحنا في وضع جميل !

ولم يكن شديد الاستياء ؛ ونظر الى ماتيو في اعتزاز وقال :

– الواقع انه جذلان . اننا كلنا هنــا جذالى : فنحن سوقة فاقدو الاعتبار ؛ عصابة محطّمي الصحون !

ووافق غريمو برأسه وضحك . وقال في جهد ، كما لو انـه كان يتكلم لغة اجنبية :

– اننا لا نصاهر الكآبة .

قال ماتيو : – ارى ذلك .

وسأل غيكيولي : – أتريد ان تشرب قدحاً ؟

وفي وسط القاعة ، كانت تقوم قدرٌ نحاسية مليئة بخمر احمـر من خمر « الادارة » وكانت تعوم فيها اشياء .

قال ماتيو : – انها قدرٌ للمربّيات . فمن اين اخذتموها ؟

فقال غيكيولي : – لا تهتمّ بذلك . فهل تشرب ، نعم ام خراء؟

وكان يتكلم بمشقة ، وكان يجهد في إبقاء عينيه مفتوحتين ، ولكنه كان يحافظ على لهجة الهجوم . قال ماتيو :

– لا ، فأنا قادم لأصحب لونجان .

– تصحبه الى اين ؟

– نشمّ الهواء .

فأخذ غيكيولي قصعته بكلتا يديه وشرب ثم قال :

– لن امنعك من اخذه ، فهو لا ينفك يتحدث عن اخيه ، فيزعج الجميع . تذكّر ان هذه هي هنا عصابة المزّاحين : فمن كان خمـــره حزيناً ، فنحن لا نريده بيننا .

واخذ ماتيو بذراع لونجان :

ـ هيّا ، تعال !

فتخلّص لونجان بغيظ :

ـ دقيقة ! دعْ لي وقتاً لأتعوّد !

قال ماتيو : ـ ان امامك الوقت كله .

وأدار عقبيه ليذهب فيلقي نظرة على الخزانة . ومن خلال الزجاج رأى مجلدات ضخمة يغطّيها قماش . شيء للقراءة . انه مستعد لقراءة اي شيء : وحتّى القانون المدني . وكانت الخزانة مقفلة بالمفتاح ، وحاول عبثاً ان يفتحها . وقال غيكيولي :

ـ اكسر الزجاج .

فقال ماتيو منزعجاً : ـ كلا .

ـ لماذا لا تكسره ؟ انتظر لحظة لترى اذا كان الالمان سينزعجون لكسره .

والتفت الى الآخرين :

ـ إن الالمان سيحرقون كل شيء ، ودولارو لا يريد ان يكسر الخزانة .

فأخذ الافراد يضحكون ويمزحون ، وقال غريمو في احتقار :

ـ بورجوازي !

وكان لاتيكس يشدّ ماتيو من سترته :

ـ هيه ! تعال دولارو فانظر !

فالتفت ماتيو :

ـ انظر ماذا ؟

فأخرج لاتيكس عضوه من فتحة بنطاله وقال :

ـ انظر ، وارفع قبعتك : لقد صنعت به ستة .

ـ ستة ماذا ؟

— ستة اولاد . وهم جميلون لو تعلم ، وكان كل منهم يزن في كل ضربة عشرين ليبرة تقريباً ؛ ولا ادري من الذي سيطعمهم الآن ، ولكنك (وانحنى بحنان على عضوه) ستصنع لنا آخرين بالدزينة ، ايها الفاجر !

وصرف ماتيو عينيه ، فصاح لاتيكس في غضب :

— ارفع قبعتك ، ايها التلميذ !

قال ماتيو : — ليس لي قبعة .

فرمى لاتيكس نظرة دائرية :

— ستة في ثمانية اعوام . من يفعل افضل ؟

وعاد ماتيو الى لونجان :

— وإذن ، هل تأتي ؟

فنظر اليه لونجان نظرة غائمة :

— لا احب ان أُباغت .

— انني لا اباغتك ، فأنت الذي ناداني .

فوضع لونجان اصبعه تحت انفه :

— انني لا احبك كثيراً ، يا دولارو ، ولم يسبق لي ان احببتك كثيراً .

قال ماتيو : — هذا متبادل .

فقال لونجان مسروراً : — حسناً ، من الممكن هكـذا ان نتفاهم (وسأل ماتيو وهو ينظر اليه في حذر) لماذا اولاً لا اشرب ؟ اية فائدة لي في ألاّ أشرب ؟

فقال غيكيولي : — ان خمرك حزين .

— اذا لم اشرب ، كان ذاك اسوأ .

وغنّى مينار :

اذا متّ . فأريد ان يدفنوني

في القبو الذي فيه خمر

ونظر ماتيو الى لونجان وقال له :

— بوسعك ان تشرب ما تشاء .

فدمدم لونجان خائباً : — ماذا ؟

فصاح ماتيو : — اقول إن بوسعك ان تشرب ما تشاء . فأنا أهزأ بذلك .

وكان يفكر : « لم يبق لي إلا ان أذهب . » ولكنه لم يكن يستطيع التصميم على ذلك . كان ينحني فوقهم ، وكان يشمّ رائحة سكرهم الغنية المسكّرة ورائحة شقائهم ؛ كان يفكر : « واين اذهب ؟ » ثم يشعر بالدوار . انهم لم يكونوا يثيرون اشمئزازه ، هؤلاء المهزومون الذين كانوا يشربون الهزيمة حتى الثمالة ، ولئن كان يشمئز من أحد ، فمن ذاته هو . وانحنى لونجان ليتناول قدحه ، فسقط على ركبتيه .

— خراء !

وزحف حتى القدر ، وغطّس ذراعه في الخمر حتى المرفق ، وأخرج القدح الذي كان يقطر ، ثم انحنى ليشرب . ومن زاويتي فمه المرتعش ، كان السائل يقطر في القدر .

وقال : — لست في حالة جيدة .

فنصحه غيكيولي : — تقيأ .

فسأله لونجان ، وكان ممتقعاً وهو يتنفّس بمشقة :

— وكيف تفعل ؟

فأدخل غيكيولي اصبعين في فمه ، ومال الى جانب ، فحشرج قليلاً وتقيأ بعض البلاغم . وقال وهو يمسح فمه بظاهر يده :

— هكذا .

وكان لونجان ما يزال على ركبتيه ، فنقل قدحه الى يده اليسرى وأدخل اليمنى في حلقه ، فصاح لاتيكس :

ـ ايه ! انك ستقيء في الخمر !

وصاح غيكيولي : ـ ادفعه يا دولارو ، ادفعه بسرعة .

فدفع ماتيو لونجان الذي سقط جالساً من غير ان يخرج يده من فمه. وكان الجميع ينظرون اليه نظرة تشجيع . وسحب لونجان يده وتجشّأ . وقال غيكيولي :

ـ لا تغيّر يدك . إن القيء يجيء .

فسعل لونجان وأصبح قرمزي اللون ، فقال محتجاً :

ـ إنه لا يجيء ابداً .

فصاح غيكيولي غاضباً :

ـ ذلك انك ضرّاط . إن من لا يعرف ان يقيء ، لا يشرب .

وبحث لونجان في جيبه ، وعاد يركع على ركبتيه ؛ ثم قرفص بالقرب من القِدرْ ، فصاح غريمو :

ـ ماذا تفعل ؟

قال لونجان وهو يُخرج من القدر منديله الذي يقطر خمراً :

ـ انني أصنع لنفسي رفادة رطبة .

وألصقها على جبينه وقال بصوت طفولي :

ـ دولارو ، ارجوك ، هل تستطيع ان تعقدها لي من الخلف ؟

فأخذ ماتيو طرفي المنديل وعقدهما على رقبة لونجان ، فقال لونجان :

ـ آه ، لقد تحسّن الحال .

وكان المنديل يخفي عينه اليسرى ؛ وكانت خطوط من الخمر الأحمر تسيل على وجنتيه وعنقه .. وقال غيكيولي وهو يضحك :

ـ انك تشبه المسيح !

قال لونجان : ـ معك حق ، فأنا شخص من نوع المسيح ..

ومدّ قدحه الى ماتيو ليملأه له ، فقال ماتيو :

ـ آه ! كلا ، كفى ما شربته حتى الآن .

فصاح لونجان : — افعل ما أقوله لك ، افعل ما أقوله لك ، بالله عليك (وأضاف بصوت شاك) ان السويداء تتملكني .

قال غيكيولي : — بالله عليك ، أعطه ليشرب بسرعة ، وإلا عاد يحدثنا عن أخيه .

فنظر اليه لونجان بتعال :

— ولماذا لا أتكلم عن أخي اذا كنت راغباً في ذلك ؟ أتكون انت الذي يمنعني ؟

قال غيكيولي : — اوه ! دعنا منك .

فالتفت لونجان الى ماتيو وقال موضحاً :

— إن أخي في « هوسيغور » .

— هو إذن ايس جندياً ؟

— كلا : إنه معتوق . وهو يتنزّه في الصنوبر مع امرأته الصغيرة ، ويقولان بينهما : يا لبول المسكين ، انه غير محظوظ ، ثم يحتكّان فيما بينهما وهما يفكران بي . ولكنهما في الحقيقة لا يكترثان ببول المسكين .

وصمت لحظة متأملاً ، ثم انتهى الى القول :

— انني لا احب أخي .

وكان غريمو يضحك حتى تسيل دموعه . فسأله لونجان مغتاظاً :

— ما الذي يجعلك تضحك ؟

فسأله غيكيولي في غضب :

— لعلك ستمنعه من الضحك ؟ (وقال لغريمو بلهجة أبوية) استمر يا صغيري ، إضحك وقهقه ما حلا لك ، فنحن هنا لنتسلّى .

قال غريمو : — انني اضحك بسبب زوجتي .

قال لونجان : — لا تهمني امرأتك .

— انت تتكلم عن اخيك ، فأستطيع ان أتكلم عن زوجتي .

— وما بالها زوجتك ؟

فوضع غريمو إصبعاً على شفتيه وقال :

— هس ! (وانحنى على غيكيولي وقال في مسارّاة) إن لي امرأة قبيحة كالقفا .

واراد غيكيولي ان يتكلم ، فقال غريمو بتسلّط :

— ولا كلمة . كالقفا ، ولا مجال للمناقشة . (واضاف وهو يتحامل قليلاً ويمرّ يده اليسرى على مؤخرته ليبلغ جيب مسدسه) انتظر ، سأريك اياها ، وسوف تضحك !

وبعد جهود غير مثمرة ، تداعى للسقوط .

— مهما يكن ، فهي قبيحة كالقفا . صدّقني . وانا لا اكذب عليك في هذا ، فليست لي مصلحة .

فبدا لونجان مهتماً ، وسأله :

— أهي « حقاً » قبيحة ؟

— أقول لك : كالقفا .

— ولكن ما هو القبيح فيها ؟

— كل شيء . ان ثدييها يبلغان ركبتيها ، ومؤخرتها تبلغ كعبها ، واذا رأيت ساقيها ، جنازة ! وهي تبول بين هلالين .

فقال لونجان ضاحكاً :

— يجب اذن ان تحوّلها لي ، فهي امرأة تناسبني . انني لم أتمتع قط الا بالبشعات . اما الجميلات ، فمن نصيب اخي .

فطرف غريمو بعينه في خبث :

— اوه ، كلا ، لن احوّلها لك يا صديقي ؛ لأنني اذا حولتها لك ، فليس مضموناً ان اجد غيرها ، نظراً الى اني لست جميلاً ايضاً (وانهى كلامه متنهداً) انها الحياة ، ويجب ان نكتفي بما نملك .

وغنّى مينار :

— « وهكذا ، الحياة الحياة »

« التي يعيشها الرهبان الطيّبون »
قال لونجان : — انها الحياة ! انها الحياة ! نحن اموات يتذكرون حياتهم . واقسم انها لم تكن حياة جميلة !
فقذفه غيكيولي بقصعته ، فلامست خدّه وسقطت في القدر . وقال غيكيولي في غضب :
— غيِّر الاسطوانة . انّ لي أنا ايضاً هومي ، ولكني لا أُخرّي الناس بها . اننا هنا للمزاح ، أتفهم ؟
فأدار لونجان الى ماتيو عينين يائستين ، وقال بصوت منخفض :
— خذني من هنا ، خذني من هنا !
فانحنى ماتيو ليلتقطه من إبطيه ، فتلوّى لونجـــان كالحنش وافلته منه . وفقد ماتيو صبره فقال :
— لقد ضجرت منك . فهل تأتي ام لا ؟
وكان لونجان قد اضطجع على ظهره ينظر اليه بمكر :
— أتريد حقاً ان آتي ؟ أتريد حقاً ؟
— لا يهمني . كل ما اريده ان تصمّم في هذا الاتجاه او ذاك .
قال لونجان :
— حسناً ! إشرب جرعة . إن لديك الوقت لتشرب جرعة ، بينما انا افكر .
فلم يجب ماتيو ، ومدّ له غريمو قدحه :
— خذ !
فرفضه ماتيو بحركة وقال : — شكراً .
فسأله غيكيولي مندهشاً :
— لماذا لا تشرب ؟ إن هناك خمراً للجميع : فلا تنزعج !
— لست عطشاً .
فأخذ غيكيولي يضحك وقال :

— يقول انه ليس عطشاً ! ألا تعلم اذن ايها الشقي اننا عصبة الشاربين
— بلا — عطش ؟
— لا رغبة لي في الشرب .
فقطّب غيكيولي حاجبيه :
— لماذا لا تكون لك الرغبة كالآخرين ؟ لماذا ؟
ونظر الى ماتيو بقسوة :
— كنت أحسبك قد تهذّبت . انك تخيّب ظني يا دولارو .
وانتصب لونجان على مرفقيه :
— الا ترى انه يحتقرنا ؟
وساد صمت . ورفع غيكيولي على ماتيو عينين مستفهمتين ، ثم استرخى فجأة وانغلق جفناه . وابتسم بطريقة بائسة ، وقال وهو يحتفظ بعينيه مغلقتين :
— إن هؤلاء الذين يحتقروننا ، ليس لهم الا ان يذهبوا . فنحن لا نمسك أحداً ، ونحن فيما بيننا .
قال ماتيو : — انا لا أحتقر أحداً .
وتوقّف : « انهم سكارى ، وانا لم أشرب » وكان ذلك يضفي عليه بالرغم منه تفوقاً كان يخجله . كان خجلاً من الصوت الصابر الذي كان مضطراً الى اتخاذه معهم . « لقد ثملوا لأنهم لا يطيقون بعدُ وضعهم ! » ولكن لم يكن ثمة من يستطيع ان يشاطرهم بؤسهم ، إلاّ ان يكون ثملاً مثلهم . وفكر : « ما كان ينبغي لي ان آتي قط . »
وردد لونجان في غضب لمفاوي :
— انه يحتقرنا . فهو هنا كأنه في السينما ، ويزعجه ان يرى أشخاصاً سكارى يفلتون .
قال لاتيكس : — تحدّث عن نفسك ، فأنا لا افلت .
قال غيكيولي في ضجر :

ـ اوه ، دعنا من هذا .

وكان غريمو ينظر بتفكّر الى ماتيو :

ـ اذا كان يحتقرنا ، فأني أشخّ على رأسه .

فأخذ غيكيولي يضحك ، ويردّد :

ـ انهم يشخّون على رأسك . انهم يشخون على رأسك .

وكان مينار قد كفّ عن الغناء ؛ وتداعى للتراخي ازاء الخزانة ، ونظر حوله نظرة رعب ، ثم بدأ يسترد اطمئنانه ، وارسل زفرة تحرّر ثم سقط على الارض مغمىً عليه . ولم يتنبّه له احد : كانوا ينظرون امامهم باستقامة ، وكانوا بين الفينة والفينة يلقون على ماتيو نظرة استياء ؛ ولم يكن ماتيو ليعرف بعد ما يصنع بنفسه : كان قد دخل من غير ان يفكر بالأذى ، لينجد لونجان . ولكن كان عليه ان يتنبأ بأن العار والفضيحة سيدخلان معه . ولقد وعى هؤلاء الافراد انفسهم بسببه ؛ انه لم يكن يتحدث بعد بلغتهم ، ومع ذلك فقد اصبح على غير ارادة منه قاضيهم وشاهدهم . وكان يشمئز من هذه القدر المليئة بالخمر والأقذار ، وفي الوقت نفسه يستنكر هذا الاشمئزاز : « من اكون حتى ارفض الشرب حين يكون رفاقي سكارى ؟ »

وكان لاتيكس يربّت بتفكّر على اسفل بطنه . وفجأة ، التفت نحو ماتيو ، وفي عينيه بريق تحدّ ؛ ثم جذب قصعته الى ما بين ساقيه ، وجعل يغطس عضوه في الخمر وهو يقول :

ـ اني اعمل له حمّاماً ، لأن ذلك منعش .

فخنق غيكيولي ضحكة ؛ وأدار ماتيو رأسه فالتقى بنظر غريمو الساخر ، فقال غريمو :

ـ انك تتساءل اين وقعت ؟ آه ، انت لا تعرفنا ، يا صديقي الصغير : فمعنا ، يجب ان تتوقع كل شيء .

وانحنى الى امام وصاح وهو يغمز غمزة مشاركة :

ـ ايه ؟ اتحدّاك يا لاتيكس ان تشرب خمرك ؟

فردّ له لاتيكس غمزته :

ـ لن انزعج أبداً .

ورفع القصعة وشرب بصخب وهو يراقب ماتيو . وكان لونجان يقهقه ، والجميع يبتسمون . كل ذلك بسبي . ووضع لاتيكس قصعته وطقطق لسانه :

ـ ان له مذاقاً طيباً .

قال غيكيولي : ـ وإذن ، ما رأيك ؟ ألسنا مزّاحين ؟ ألسنا ماجنين صغاراً ؟

وقال غريمو : ـ ولم تَرَ شيئاً بعد . لم تر شيئاً بعد .

وأخذ يفكّ بيديه المرتجفتين ازرار فتحة بنطاله . وانحنى ماتيو على غيكيولي ، وقال على مهل :

ـ أعطني قصعتك . اريد ان اشارككم المزاح .

فقال غيكيولي : ـ لقــد سقطت في القدر . وليس عليك الا ان تُخرجها .

فغطّس ماتيو يده في القدر ، وحرّك اصابعه في الخمر ، متلمّساً القعر ، ثم اخرج القصعة ملآى . وتجمّدت يدا غريمو ؛ فنظر اليهما ، ثم اعادهما الى جيبه ونظر الى ماتيو . وقال لاتيكس وقد رقّت لهجته :

ـ آه ! كنت واثقاً من انك لن تستطيع ان تمنع نفسك .

وشرب ماتيو . وكان في الخمر كرات من مادة رخوة لا لون لها ، فلفظها وملأ القصعة من جديد . وكان غريمو يضحك بطيبة وقال :

ـ إن من يرانا يُسقط في يده : فيجب ان يشرب ، آه ! إننا نثير رغبته .

فقال غيكيولي مقهقهاً :

ـ الافضل ان نثير الرغبة لا الشفقة .

وتريّث ماتيو حتى ينقذ ذبابة كانت تتخبّط في الخمر ، ثم شرب. وكان لاتيكس ينظر اليه نظرة معرفة وقال :

– ليس هذا سُكراً ، وانما هو انتحار .

وكانت القصعة فارغة ، وقال ماتيو :

– اني اعاني مشقة كبيرة حتى اسكر .

وملأ القصعة مرة ثالثة . وكان الخمر ثقيلاً ، ذا طعمٍ مسكّر غريب . وسأل ماتيو وقد خامره شك :

– أتراكم قد بُلْتُم فيه ؟

فسأله غيكيولي غاضباً :

– أتكون لئيماً ؟ أتظنّ اننا نريد ان نفسد الخمر ؟

قال ماتيو :

– اوه ! لا يهمني !

وجرع القصعة كلها ثم صفر ، فسأله غيكيولي باهتمام :

– ماذا ؟ هل تحسّ نفسك في حالة أفضل ؟

فهزّ ماتيو رأسه :

– لم ابلغ هذا بعد .

وأخذ القصعة ، وكان منحنياً فوق القدر ، منقبض الاسنان ، حين سمع خلف ظهره صوت لونجان المقهقه :

– يريد ان يثبت لنا انه يقاوم الخمرة خيراً منا .

فالتفت ماتيو :

– هذا غير صحيح ! فأنا أشرب لأستطيع المزاح .

وكان لونجان قد عاد للجلوس متصلباً . وكانت العصابة قد سقطت على انفــه ، وكان ماتيو يرى فوق العصابة عينيه الثابتتين المستديرتين اللتين تشبهان عيني دجاجة عجوز . وقال لونجان :

– اني لا احبك كثيراً ، يا دولارو !

– لقد سبق ان قلتها .

قال لونجان : – والرفاق ايضاً لا يحبونك كثيراً . انك ترهبهم لأن لك ثقافة ، ولكن لا يجب ان تظنّ انهم يحبّونك .

وسأل ماتيو بين اسنانه :

– وعلامَ تريدهم ان يحبوني ؟

فتابع لونجان : – انك لا تفعل اي شيء كالجميع . حتى حين تسكر ؛ فانك لا تسكر مثلنا .

فنظر ماتيو الى لونجان في تبرّم ، ثم التفت ورمى قصعته على زجاج الخزانة ، وقال بصوت قوي :

– انني لا استطيع ان اسكر . لا استطيع . ترون جيداً اني لا استطيع .

فلم ينبس احد بكلمة ؛ ووضع غيكيولي على الارض الخشبية شظية زجاج كبيرة سقطت على ركبتيه . واقترب ماتيو من لونجان ، فأخذه بقوة من ذراعه ، وانهضه على قدميه . فصاح لونجان :

– ما هذا ؟ ما دخلي في الموضوع ؟ إهتم بمؤخرتك ، ايها الارستقراطي !

قال ماتيو : – لقد جئت لأصحبك ، وسأذهب معك .

وكان لونجان يتخبّط في غضب :

– حُلّ عن ظهري ، اقول لك ، حلّ عن ظهري ، وإلاّ آذيتك .

وشرع ماتيو يعمل لإخراجه من القاعة . ورفع لونجان يده محاولاً ان يُدخل اصابعه في عينيه . فقال ماتيو :

– ايها القذر !

وترك لونجان ، وارسل له ضربتين غير قويتين تحت ذقنه . فأصبح لونجان خَرِعاً واستدار على نفسه ، فأدركه ماتيو وحمله على كتفيه

كالكيس ، وقال :

ـ انتم ترون ، فأنا ايضاً استطيع ان أمزح وأمجن، حين اريد ذلك.

كان يحقد عليهم . وخرج فهبط درجات السلّم مع عبئه . وانفجر شارلو ضاحكاً حين ألمّ به :

ـ ما أشدّ تماسك الأخ !

وعبر ماتيو الطريق فأسند لونجان الى جذع شجرة كستناء . وفتح لونجان احدى عينيه ، واراد ان يتكلم ، فتقيأ . فسأله ماتيو :

ـ هل ارتحت قليلاً ؟

فتقيأ لونجان من جديد ، وقال بين شهقتين :

ـ إنّ هذا يريح .

قال ماتيو : ـ انني اتركك . حتى اذا انتهيت ، حاول ان تنام نومة طيبة .

وكان يلهث حين وصل الى مكتب البريد . فطرق ، وفتح له بينيت ، وتأمله بهيئة مسحورة قائلاً :

ـ آه ! لقد قررتَ اخيراً !

قال ماتيو : ـ اخيراً ، نعم .

وبدت موظفة البريد في الظلام ، خلف بينيت . وقال بينيت :

ـ ليست الآنسة خائفة اليوم . وسنقوم بنزهة صغيرة عبر الحقول .

فرمته الصغيرة بنظرة غامضة . وابتسم لها ماتيو ، وكان يفكر : « انها لا تطيقني » ولكنه كان لا يهتم بذلك إطلاقاً . وقال بينيت :

ـ إن رائحة الخمر تنبعث منك .

فضحك ماتيو من غير ان يجيب . وارتدت عاملة البريد قفازيها الاسودين وأقفلت الباب بالمفتاح ، ثم اخذوا يسيرون . وكانت قد وضعت يدها على ذراع بينيت ، وكان بينيت يعطي ذراعه لماتيو . وحيّاهم جنود ألمّوا بهم في الطريق ، فصاح بهم بينيت :

ـ اننا نقوم بنزهة يوم الأحد .

فقالوا :

ـ آه ، إن كل الايام يوم أحد ، ما دام الضباط غائبين ؟

صمتٌ قمريٌ تحت الشمس ؛ تماثيل ضخمة من الجبس ، مصفوفة في دائرة بالصحراء ، « سوف تذكّر الانواع القادمة ، بما كان عليه الجنس البشري » . وكانت خرائب طويلة بيضاء تبكي رشحها الأسود جداول جداول . في الشمال الغربي ، قوس نصر ، وفي الشمال معبد روماني ؛ وفي الجنوب جسر يفضي الى معبد آخر ؛ وماء يأسن في حوض ، ومدية من حجر تنفذ نحو السماء. حجر ، حجر مربب في سُكّر التاريخ ؛ روما ، مصر ، العصر الحجري : ذلك ما كان باقياً من ساحة شهيرة . وردّد : « كل ما كان باقياً » ، ولكن اللذة كانت قد ضعفت قليلا ، ليس ثمة ما هو رتيب كالكارثة ؛ وكان قد بدأ يألفها . واستند الى الحاجز ، ما يزال سعيداً ، ولكنه متعب ، وفي جوف فمه مذاق صيف محموم : كان قد تنزه طوال النهار ؛ وكانت ساقاه الآن تعانيان في حمله ، ومع ذلك ، فلم يكن بد من السير . لا بد من السير ، في مدينة ميتة . وقال في نفسه : « انني استحق حظاً صغيراً غير متوقع . » اي شيء ، شيء ما يزدهر له وحده في زاوية شارع . ولكن لم يكن ثمة شيء . كانت الصحراء في كل مكان : وكانت تقفز فيها شظايا قصور ، بيضاء وسوداء ، حمام وطيور لا تاريخ لها وقد أصبحت حجارة من فرط ما تغذت بالتماثيل . وكانت العلامة الوحيدة المرحة بعض الشيء في هذا المنظر المعدني ، العلم النازي على فندق « كريون » .

« اوه ! يا لراية اللحم تنزف على حرير البحار والزهور القطبية. »

وفي وسط خرقة الدم ، كانت الدائرة بيضاء ، كدائرة الفوانيس السحرية على اغطية طفولتي ، وفي وسط الدائرة ، عقـدة الافاعي السود ؛ « رمز الشر » ، رمزي . ونقطة حمراء تتشكل كل لحظة في ثنايا العلم ، ثم تنفصل وتسقط عـلى الأرض : « الفضيلة » تنزف . وتمتم : « الفضيلة تنزف ! » ولكن ذلك لم يكن يسليه بعد كما كان يسليه عشية الأمس . وطوال ثلاثة ايام ، لم يكن قـد وجه الحديث الى احد ، وكان فرحه قد قسا ؛ وذات لحظة غشي التعب نظره ، فتساءل عما اذا كان لن يعود . كلا . لم يكن يستطيع العودة : إن حضوري مطلوب « في كل مكان » فيجب ان امشي . وتلقّى في عزاء تمزّق السماء المصدي : كانت الطائرة تلمع تحت الشمس ؛ وذلك كان هو التبديل ، فقد كان للمدينة الميتة شاهد آخر ، وكانت ترفع نحو عيون اخرى رؤوسها الالف الميتة . وكان دانيال يبتسم : انما كانت الطائرة تبحث بين القبور عنه ، هو بالذات . انما هي هناك من أجلي أنا وحدي . وكانت به رغبة لأن يقذف بنفسه في وسط الساحة ويلوّح بمنديله . ليتها تلقي قنابلها ! سيكون ذلك بعثاً ، وستصدي المدينة بضجيج الحـديد ، كما انها لو كانت تعمل ، وستلتصق بالواجهات ازهار طفيلية جميلة . ومرت الطائرة ؛ فعاد صمت كوني يتشكل حول دانيال . يجب ان يسير ، ان يسير بلا انقطاع على سطح هذا الكوكب الذي تبرّد .

واستعاد مشيه وهو يجرجر قدميه ؛ وكان الغبار يبيّض حذاءه . وانتفض : كان ثمة جنرال عاطل ومنتصر ، ملصقاً جبينه بزجاج ما ، ويداه خلف ظهره ، يراقب هذا الضائع في متحف الاثريات الباريسية . وأصبحت جميع النوافذ عيوناً ألمانية ؛ وانتصب وعـاود سيره في مرونة ، وهو يتهادى قليلاً ، على سبيل المرح : انني حارس المقبرة . التويلري ، رصيف التويلري ؛ وقبل ان يجتاز الطريق ، أدار رأسه

الى اليسار واليمين ، بداعي العادة ، ولكن من غير ان يرى الا نفقاً طويلاً من اوراق الشجر . وكان علي وشك ان يبلغ جسر سولفرينو حين توقف خافق القلب : ذلك هو الحظّ غير المتوقع . وسرت في جسمه رعشة من ساقيه حتى رقبته ؛ وبردت يداه ورجلاه ، فتجمد وأمسك نفَسه . وكمنت حياتــه كلها في عينيه : كان يأكل بعينيه الفتى الدقيق الذي كان يوليه ظهره ببراءة ، منحنياً فوق الماء . « يا للقاء الرائع ! » وما كان دانيال ليكون أشد تأثراً وانفعالا لو أن ريـح المساء تحولت صوتاً لتناديه ، او لو ان الغيوم قد كتبت اسمه في السماء البنفسجية ، فقد كان واضحاً جداً ان هذا الفتى قد وُضع هناك من أجله هو ، وأن يديه الطويلتين العريضتين ، في نهاية اكمام الحرير ، كانتا كلاماً من لغته السرية : لقد وُهبته ، وكان الفتى طويلاً رقيقاً ، ذا شعر أشعث وكتفين مستديرتين ؛ تكادان تكونان نسويتين ؛ وخاصرتين ضيقتين ، وردفين صلبين ، واذنين صغيرتين لذيــذتين ؛ وكان في حوالي التاسعة عشرة او العشرين . وكان دانيــال ينظر الى اذنيه ويفكر : « يا للقاء الرائع ! » وكان ينتابه ما يشبه الخوف . وكان جسمه كله « يتكلف الموت » كالحشرات التي يتهددها خطر ؛ إن شرّ الاخطار بالنسبة لي ، هو الجمال . وكانت يداه تزدادان برودة ، وكانت أصابع من حديد تغرز في عنقه . كان الجمال ، أخفى الاشراك ، يتقدم ببسمة مشاركة ويسر ، يومىء اليه ، ويبدو وكأنه ينتظره . اية كذبة : إن تلك الرقبة المبذولة لم تكن تنتظر شيئاً ولا أحداً ؛ كانت تداعب ياقة تلك السترة وتتمتع بنفسها ، وكانتا تتمتعان بنفسهما وبحرارتهما ، تانك الفخذان الحارتان الشقراوان المختبئتان في الفلانيل الرمادي . انه يعيش وينظر الى النهر ، ويفكر ، وحيداً ، غير قابل للفهم ، كأنه نخلة ؛ إنه لي ، وهو يجهلني . وأحسّ دانيال بغثيان ضيق ، واهتزّ كل شيء للحظة واحدة : كان الفتى الدقيق ، البعيد ، يناديه من جوف

الهاوية ؛ كان الجهال يناديه ؛ « الجهال » ، قدّري ؛ وفكر : سيبدأ كل شيء من جديد . كل شيء : الأمل ، الشقاء ، العار ، الحماقات . ثم تذكر فجأة بان فرنسا كانت مهزومة : « إن كل شيء مباح ! » فشعّت الحرارة من بطنه الى اطراف أصـــابعه ، وامحى تعبه ، وتدفق الدم الى صدغيه : « اننا كلينا الممثلان الوحيدان المرئيـــان للجنس البشري ، الحيان الوحيدان الباقيان من امة قد زالت ، فلا مفر لنا من ان نتبادل الحديث : أهناك ما هو اشد طبعية من ذلك ؟ » وخطـــا خطوة الى الأمام باتجاه الذي كان قد عمّـده بأنه « المعجزة » ، وكان يحس نفسه شاباً وطيباً ، مثقلا بالرسالة الممجدة التي كان يحملها له . وما لبث ان توقف : فقد لاحظ ان « المعجزة » كان يرتجف بجميع أعضائه ؛ وكانت حركة تشنجية تقذف بجسمه الى الوراء تارة ، وطوراً تلصق بطنه بالدربزين وهي تلوي له رقبته فوق الماء . وفكر دانيـــال مغتاظاً « يا للأبله الصغير ! » إن الفتى لم يكن جديراً بهـــذه الدقيقة المدهشة ، لم يكن حاضراً تماماً في الموعد المحدد ، بـــل كانت هموم طفولية تشرّد هذه النفس التي كان ينبغي ان تظلّ على استعداد لتلقّي النبأ الطيب . « يا للأبله الصغير ! » وفجـــأة ، رفع المعجزة رجله اليمنى بحركة غريبة مقتسرة ، كما لو انه كان يريد ان يجتاز الحاجز . وكان دانيال يتهيأ للقفز حين التفت الفتى قلقـــاً ، وساقه في الهواء ، ولمح دانيال ، فرأى دانيال عينين عاصفتين في وجه طبشوري ؛ وتردد الفتى لحظة ، وسقطت قدمه وهي تصدم الحجر ، ثم شرع يمشي بلا اكتراث ، وهو يجرجر يده على حافة الحاجز . انت ، تريـــد ان تقتل نفسك !

وتحوّل افتتان دانيال فجـــأة الى جليد ، إنه لم يكن الا كذلك : صبياً قذراً مستطار اللب ، غير جدير بأن يتحمـــل عواقب حماقاته . ونفخت عضوه دفقة شهوة ؛ فأخذ يسير خلف الفتى بفرحة الصيـــاد

المثلوجة . كان يبتهج على البارد ؛ وكان يحس نفسه متحرراً ، نظيفاً ، خبيثاً الى أبعد حد ممكن . وكان في أعماقه يؤثر ذلك ، ولكنه كان يتسلى بأن يحفظ ضغينة للفتى : أتريد ان تقتل نفسك ايها الأبله الصغير ؟ لعلك تظن ان هــذا يسير ! إن من كانوا ادهى منك أخفقوا في ذلك . وكان الفتى يستشعر حضوراً في ظهره ؛ فكان الآن يخطو خطوات واسعة تشبه خطوات حصان مفرطة الارتفاع والصلابة . وفي وسط الجسر ، أحسّ فجأة بوجود يده اليمنى التي كانت تلامس الحاجز : وارتفعت يده في طرف ذراعه ، متصلبة ، قدَرية ؛ فأخفضها قسراً ودسّها في جيبه ، وواصل سيره وهو يُدخل عنقه في كتفيه ؛ وفكر دانيال : انه ذو هيئة « مريبة » ، هكذا أحبهم . وحث الفتى خطاه ، فحذا دانيال حذوه . وكانت ضحكة قاسية تصعد الى شفتيه : انه يتألم ، وهو مستعجل لينتهي من ذلك ، ولكن لا يستطيع لأنني خلفه . هيا ، هيا ، فاني أتركك . وفي نهاية الجسر ، تردّد الفتى ، ثم سلك رصيف « دورسيه » وبلغ سلماً يفضي الى الضفة ، فتوقف والتفت الى دانيال في نفاد صبر ، وجعل ينتظر . ورأى دانيال في لمحة خاطفة وجهاً ساحراً ممتقعاً ذا أنف قصير وفم صغير مسترخ ، وعينين فخورين . فأسبل جفنيه في تقيّ زائف ، واقترب على مهل ، فتجاوز الفتى من غير ان ينظر اليه ، ثم ألقى بعد بضع خطوات نظرة سريعة من فوق كتفه : فاذا الفتى قد اختفى . وانحنى دانيال من غير عجل فوق الحاجز فلمحه على الضفة ، مطرقاً، غارقاً في تأمل حلقة قلس كان يركلها بقدمه في تفكر ؛ كان يجب ان يهبط بأقصى سرعة ومن غير ان يدَعه يتنبه اليه . ومن الحظ انه كان ثمة على بعد عشرين متراً سلّم آخر ، درج ضيق من الحديد كان يخفيه نتوء من جدار . وهبط دانيال على مهل ، ومن غير ضجة : كان يجد تسلية عظيمة في ذلك . واذ بلغ أسفل الدرج ، التصق بالجدار ، وكان الفتى ، عند

طرف الضفة الاقصى ، ينظر الى الماء . وكان « السين » مخضوضراً ذا إشعاعات كبريتية يجحف بمجراه أشياء غريبة رخوة ومعتمة ؛ ولم يكن مغرياً جداً ان يغطس المرء في هذا النهر المريض . وانحنى الفتى فالتقط حصاة وألقى بها في الماء ، ثم عاد الى تأمله المهووس ، هيّا ، هيّا ، لن يتم ذلك اليوم : بعد خمس دقائق ، سيصاب بالخوف . فهل ينبغي انأدع له الفرصة لذلك ؟ هل يجب ان أظلّ مختبئاً . وانتظر حتى يتملى جيداً من حقارته . وحين يبتعد ، أطلق ضحكة كبيرة ! ان هذا لا يخلو من مخاطرة : فربما دفعني ذلك الى احتقار نفسي الى الابد . فاذا ارتميت عليه فوراً ، كما لو اني اريد ان أمنعه من الغرق، فسيكون مسروراً ان اكون قد حسبته جديراً بذلك ، حتى ولو احتج على الشكل ، وان أجنّبه لقاء فردياً مع نفسه . وأمرّ دانيال لسانه على شفتيه ، وتنفس نفساً عميقاً ، وخرج من مخبأه. فالتفتالفتى مذعوراً وكان يوشك ان يقع لو لم يمسك به دانيال من ذراعه ، وقال :

— اني ...

ولكنه عرف دانيال فبدا وكأنما عاوده اطمئنانه ، فحلّ الغضب في عينيه محل الذعر . انما كان يخشى « شخصاً آخر » . وسأل في تعالٍ :

— ما هذا ؟

ولم يستطع دانيال ان يجيبه على الفور : فقد كانت الشهوة تقطع نفَسه . وقال بمشقة :

— ايها الفتى النرجسي ! ايها الفتى النرجسي !

وأضاف بعد لحظة :

— لقد بالغ نرجس في الانحناء ، ايها الفتى ، فسقط .

قال الفتى : — لست بنرجس . ولديّ حسّ التوازن ، وأستطيع ان استغني عن خدماتك .

وفكر دانيال : انه طالب . وسأله بقسوة :

— كنت تريد ان تنتحر ؟

— هل انت مجنون ؟

فأخذ دانيال يضحك ، واحمرّ الفتى ، وقال بلهجة كئيبة :

— حلّ عني !

فقال دانيال وهو يشد ضمته :

— حين يحلو لي ذلك !

فخفض الفتى عينيه الجميلتين ، وأتيح لدانيال الوقت الكافي للارتداد إلى خلف حتى يتفادى ضربة من كعبه . وفكر دانيال وهو يستعيد توازنه : ركلات ! ركلات كيفما جاءت ، حتى من غير ان ينظر إليّ . كان مفتوناً . ولبثا في صمت : كان الفتى مطرق الرأس ما يزال، وكان بوسع دانيال ان يتأمل شعره الرقيق رقة مدهشة .

— وإذن ؟ أراك ترسل ركلات بقرية ، كأنك امرأة !

فحرك الفتى رأسه من اليمين الى اليسار ، كما لو انه كان يحاول عبئاً رفعه . وبعد لحظة ، قال بفظاظة جاهدة :

— إذهب فانبعص !

وكان في صوته عناد اكثر مما كان فيه ثقة ، ولكنه كان قد رفع رأسه ينظر الى دانيال مواجهة في جرأة مذعورة من نفسها . واخيراً ، انزلقت عيناه الى جانب ، فتمكن دانيال من ان يتأمل على هواه هذا الرأس الكئيب الذي كان كأنه مبذول . وفكر « فخر وضعف ، ونية سيئة . بورجوازي صغير يزرع الاضطرابَ فيه شرودٌ مجرد ؛ ملامح فاتنة ، ولكن بلا سماح . » وفي تلك اللحظة ، تلقى ركلةً في ساقه ، فلم يستطع ان يخفي كزازة ألم في وجهه .

— ايها الابله الصغير اللعين ! انني لا ادري ماذا يمسكني عن أن أدفيء لك مؤخرتك بجلدة طيبة .

فبرقت عينا الفتى وقال :

ـ حاول !

فأخذ دانيال يهزّه :

ـ واذا حاولت ؟ اذا أخذتني الرغبة في ان انزع سروالك على الفور ، أتظن انك انت الذي ستمنعني من ذلك ؟

فاحمرّ الفتى بعنف وأخذ يضحك .

ـ انك لا تخيفني .

قال دانيال :ـ عجباً !

وقبض عليه من رقبته وحاول ان يثنيه الى امام ، فصاح الفتى بصوت يائس :

ـ لا ! لا ! لا !

ـ هل تحاول مرة اخرى ان تركلني ؟

ـ لا ، ولكن دعني .

فتركه دانيال يستقيم . وظل الفتى فاغر الفم -، وكان يبدو وكأنه مطارَد . « لقد سبق لك ، ايها الحصانالصغير ، أن عرفت الشكيمة؛ وقد ادّى لي احدهم خدمةً ان ابدأ الترويض . أب ؟ عم ؟ عشيق ؟ كلا ، ليس عشيقاً : فيما بعد ، سنعيد هذا ، اما الآن فنحن ابكار »

وقال من غير ان يتركه :

ـ وإذن ، كنت تريد ان تنتحر ، فلماذا ؟

وكان الفتى يلزم صمتاً عنيداً . وقال دانيال :

ـ اصمت ما حلا لك ، فماذا يهمني في ذلك : لقد فشلت على كل حال في تحقيق غايتك .

فوجه الفتى لنفسه بسمة إقرار صفراء . وفكر دانيال منزعجاً : « اننا غارقـــان في الرمل . يجب ان نخرج من الطريق المسدود . »

وعاد يهزّه :

ـ لماذا تبتسم ؟ اتريد ان تقول لي السبب ؟

فنظر اليه الفتى في عينيه :
– لا بد ان ينتهي بك الامر الى تركي وشأني .
قال دانيال : – هذا صحيح . بل اني سأتركك على التو .
وحلّ ضمته ووضع يديه في جيبه ، وسأله :
– وبعد ذلك ؟
فلم يتحرك الفتى ؛ وكان ما يزال يبتسم . « انه يسخر مني » .
– اسمع جيداً . انني سبّاح ماهر . وقد سبق لي ان انقذت شخصين ، أحدهما في بحر عاصف .
فضحك الفتى ضحكة فتاة هازئة :
– هذا هوى مهووس !
قال دانيال : – ربما كان ذلك . ربما كان هوى مهووساً . (وأضاف وهو يباعد ما بين ذراعيه) اغطس ! اغطس اذا شئت . فسأدعك تشرب كمية من الماء ، وسترى ما أعذب ذلك . ثم أنزع ثيابي واقفز الى الماء ، فأضربك على أمّ رأسك واعود بك نصف ميت .
واخذ يضحك .
– لا بد انك تعرف ان من النادر ان يكرر المرء عملية انتحار فاشلة ! فحين اكون قد أعدت لك حواسك ، فلن تفكر في ذلك بعد ابداً .
وخطا الفتى خطوة نحوه كما لو انه سيضربه :
– ما الذي يمنحك الحق بان تحدثني بهذه اللهجة ؟ ما الذي يمنحك الحق في ذلك ؟
وكان دانيال ما يزال يضحك :
– ها ! ها ! ما الذي يمنحني الحق ؟ ابحث ، ابحث جيداً !
وشدّ على معصمه فجأة :
– ما دمت هنا ، فلن تستطيع ان تقتل نفسك ، حتى ولو كنت

تموت رغبة في ذلك . انني سيد حياتك وموتك .

فقال الفتى بهيئة غريبة :

– لن تكون هنا دائماً .

قال دانيال : – هذا ما يجعلك تخطيء . سأكون « دائماً » هنا .

وارتعش لذة : فقد فاجأ في العينين الجميلتين اللوزيتين بريق فضول .

– حتى ولو كان صحيحاً اني اريد ان أقتل نفسي ، فماذا يعنيك من ذلك ؟ انك لا تعرفني حتى اية معرفة .

فأجاب دانيال بمرح :

– لقد قلتها : هذا هوس . اني مهووس بمنع النـــاس من ان يفعلوا ما يريدون .

ونظر اليه في طيبة :

– ايكون الامر خطيراً الى هذا الحد ؟

فلم يجب الفتى . وكان يبذل كل ما في وسعه حتى لا يبكي . وكان من فرط تأثر دانيال ان أحسّ الدموع تطفر في عينيه .. ومن حسن الحظ ان الفتى كان من شدة الاستغراق بحيث لم يلاحظ ذلك . وتمكن دانيال ، في لحظات اخرى ، من ان يتمالك رغبته في ملامسة شعره ؛ ثم تركت يده اليمنى جيبه من تلقاء نفسها وأقبلت تحط بحركة متلمسة عمياء على رأسه الأشقر . وسرعان ما سحبها كما لو انه احترق: « قبل الاوان ! هذه غلطة ... » ونفض الفتى رأسه بعنف ، وخطا بضع خطوات على الضفة : وكان دانيال ينتظر وهو يمسك أنفاسه : « قبل الاوان ، ايها الاحمق ، كان ذلك مبكراً جداً . » وانتهى الى القول في غضب ، ليعاقب نفسه : « اذا ذهب ، فسأتركه يذهب من غير ان آتي حركة » ولكنه ما كاد يسمع الشهقات الاولى حتى هرع اليه واحاطه بذراعيه . فاستسلم الفتى الى صدره . وقال دانيال مضطرباً :

– يا للفتى المسكين ! يا للفتى المسكين !

وكان مستعداً لمنح يده اليمنى ليستطيع ان يواسيه او يبكي معه . وبعد لحظة ، رفع الفتى رأسه ، وقد كفّ عن البكاء ، ولكن دمعتين كانتا تتدحرجان على وجهه اللذيذ ؛ وقد ودّ دانيال لو يلتقطهما بضربتين من لسانه ويشربهما ليحس في جوف حلقه بمذاق هذا الألم المالح . وكان الفتى ينظر اليه في تحدّ :

— وكيف حدث انك كنت موجوداً هناك ؟

قال دانيال : — كنت مارّاً .

— ألست اذن جندياً ؟

سمع دانيال السؤال بغير رضى :

— ان حربهم لا تهمني .

وسارع يضيف :

— سأقدّم لك اقتراحاً ، الا تزال مصمماً على الانتحار ؟

فلم يجب الفتى ، ولكنه بدا بمظهر معتّم عازم . وقال دانيال :

— حسناً جداً . اسمع إذن . لقد تسليت في إخافتك ، ولكني لست ضد الانتحار اذا فكر فيه المرء بنضج ، ولا ارى في موتك الا حظاً سيئاً ما دمت لا اعرفك . ولهذا لا افهم لماذا امنعك من الانتحار، اذا كانت لك اسباب وجيهة .

ورأى في فرح خدي الفتى يمتقعان ، وفكر : «كنت تحسب انك سوّيت الأمر » وتابع وهو يريه فص خاتمه :

— انظر . إن في داخله سمّاً صاعقاً . وانا ألبس دائماً هذا الخاتم، حتى في الليل ، حتى اذا ألفيتني في وضع لا تستطيع كبريائي احتماله...

وكفّ عن الكلام وفتح الفصّ . فنظر الفتى الى القرصين الأسمرين في حذر مليء بالنفور .

— ستشرح لي قضيتك . فاذا حكمت بوجاهة دوافعك ، فسيكون احد هذين القرصين لك : وهو على كل حال ألذّ من حمام بارد .

وسأله ، كما لو انه غيَّر رأيه فجأة :

ــ أتريده على التوّ ؟

فأمرّ الفتى لسانه على شفتيه من غير ان يجيب .

ــ هل تريده ؟ انني اعطيك إياه ، وسوف تبتلعه تحت انظاري ، ولن أتركك .

واخذ يده وقال :

ــ سأمسك بيدك ، وسأغمض عينيك .

فنفض الفتى رأسه ، وسأل في مشقة :

ــ وما الذي يثبت لي أنّ هذا سمّ ؟

فانفجر دانيال بضحكة خفيفة نضرة :

ــ أتخشى ان يكون مسهّلا ؟ ابتلعه ، وسترى جيداً .

فلم يجب الفتى : وكان خداه ما يزالان ممتقعين وحدقتاه متمددتين ، ولكنه بسم بسمة خفية مدللة وهو يرمق دانيال .

ــ إنك اذن لا تريده ؟

ــ ليس على التوّ .

فأغلق دانيال فصّ خاتمه ، وقال ببرودة :

ــ كما تشاء . ما هو اسمك ؟

ــ أمن الضروري ان اقول لك اسمي ؟

ــ اسمك الاول ، نعم .

ــ طيب ، اذا كان ضرورياً ... فيليب .

قال دانيال وهو يمرّ ذراعه تحت ذراع الفتى :

ــ اسمع يا فيليب ، ما دمت حريصاً على ان توضح موقفك ، فلنصعد الى بيتي .

ودفعه الى السلم وجعله يصعد الدرجات بخفة ؛ ثم حاذيا الأرصفة ، متشابكي الذراعين . وكان فيليب يخفض رأسه بعناد ، وقد عاودته

الرجفة ، ولكنه كان مستسلماً لدانيال يلامسه بخاصرته في كل خطوة . حذاء بيكاري جميل يكاد يكون جديداً ولا يرجع عهده الى اكثر من عام ، وبذلة من الفلانيل جميلة التفصيل ، وربطة عنق بيضاء ، فوق قميص من الحرير الازرق . وكان ذلك شائعاً عام ٣٨ في مونبارناس .

وتسريحة شعر مهملة بعناية : ولم يكن في هذا كله نصيب قليل من النرجسية . ترى ، لماذا لم يكن جندياً ؟ لا شكّ في انه اصغر سناً من ان يكون كذلك ؛ ولكن كان ممكناً ان يكون اكبر سناً مما يبدو ؛ إن الحداثة تطول لدى الصبية المضطهدين . ومهما يكن من أمر ، فايس البؤس هو الذي يدفعه للانتحار . وسأله فجأة اذ ألمّا بجسر هنري الرابع :

– أبسبب الألمان كنت تريد ان تُغرق نفسك !

فبدت على فيليب الدهشة ، ولوى رأسه . كان جميلاً كملاك . وفكر دانيال في حماسة : سأساعدك ، سأساعدك . كان يريد ان ينقذ فيليب ، ويجعل منه رجلا ، سوف أعطيك كل ما أملك ، وستعرف كل ما أعرف . وكانت سوق « الهال » خالية وسوداء ، ولم تكن تنبعث منها الروائح بعد . ولكن المدينة كانت قد تغيّرت مظهراً . فقبل ساعة ، كانت نهاية العالم ، وكان دانيال يُحسّ انه تاريخي . اما الآن ، فقد كانت الشوارع تعود ببطء الى نفسها ، وكان دانيال يتنزه في جوف أحد من آحاد ما قبل الحرب ، في تلك الساعة الداثرة التي يبزع فيها يوم اثنين جميل جديد ، في احتضار الاسبوع والشمس . كان شيء ما سيبدأ : اسبوع جديد ، قصة حب جديدة . ورفع رأسه وابتسم : كان زجاج واجهة مشعة يعكس له المغرب كله ، وكانت تلك علامة ؛ وافعمت منخريه فجأة رائحة لذيذة لفريز مسحوق ، وكانت تلك علامة اخرى ؛ وفي البعيد عبر شارع مونبارس شبح يعدو ، علامة ثالثة . كلما كان الحظ يضع في طريقه الجمال المشعّ لفتى – إلّه ،

كانت السماء والأرض ترسلان له غمزات خبيثة . وكان يخـور من الشهوة ، وكان نفسه ينقطع لدى كل خطوة ، ولكنه كان من فرط الألفة للمشي الصامت بالقرب من الحيوات الفتيّة التي لا تثير الريب بحيث انه أصبح يحبّ الصبر اللواطي الطويل لذاته . انني ارصدك ، فانت عار في جوف نظري ، وانا امتلكك على البعد ، من غير ان اعطي شيئاً من نفسي ، بالشمّ والنظر ؛ وقد أصبحت اعرف خاصرتيه الجوفاوين ، وألامسها بيديّ الجامدتين ، وأدخل فيك فلا تشعر بذلك ولو شعوراً . وانحنى ليشمّ عطر هذه الرقبة المحنية ، فأدركته فجأة رائحة نفتلين قوية . وسرعان ما عاد الى استقامته ، وقد برد حسّه وشعر بالتسلية : وكان مغرماً بهذه التنقلات بين الاغتلام والجفاف ، وكان يعبد ثورة الأعصاب . وقال في نفسه بمرح : لنرَ اذا كنت رجل تحرّ ناجحاً . هوذا شاعر شاب يريد ان يلقي بنفسه في الماء ، في اليوم الذي يدخل فيه الألمان باريس ؛ لماذا؟ دلالة فريدة ، ولكنها رئيسية : ان رائحة النفتلين تنبعث من بذلته ، وهذا يعني انه لم يكن يرتديها بعد . لماذا تراه يغير ثوبه يوم انتحاره ؟ لانه لم يكن يستطيع بعد ان يرتدي ما كان يرتديه أمس فقط .. انه اذن جندي ، ولكن ماذا يفعل هنا ؟ فلو كان مجنداً في فندق كونتيننتال او في خدمات وزارة الطيران ، لكان قد فرّ منذ وقت طويـل الى « تور » مع الآخرين . واذن ، فالامر واضح تماماً . وتوقف ليشير الى البوابة :

– هنا :

فقال فيليب فجأة – : لا اريد .

– ماذا ؟

– لا اريـد الصعود .

– أتفضل ان يلتقطك الألمان ؟

فردد فيليب وهو ينظر الى قدميه :

– لا اريد . ليس لديَّ ما اقوله لك ، ولست أعرفك .

قال دانيال : – هكذا اذن . هكذا إذن !

وأخذ له رأسه بكلتا يديه فرفعه قسراً ، وقال له :

– انت لا تعرفني ، ولكني أعرفك . واستطيع ان ارويها لك ، حكايتك .

واستطرد وهو يُغرق نظره في عيني فيليب :

– كنتَ في جيش الشمال ، ووقع الذعر في الصفوف فهربت . وبعد ذلك ، لم تجد وسيلة للعودة الى فرقتك ، على ما افترض . فعدت الى بيتك ، وكانت اسرتك قد اختبأت ، ولبست انت الثياب المدنية ، وذهبت تواً لتلقي بنفسك في السين . وليس مرد ذلك انك وطني بصورة استثنائية ، ولكنك لا تستطيع ان تحتمل التفكير بأنك جبان . أتراني قد اخطأت ؟

ولم يكن الفتى ليتحرك ، ولكن عينيه كانتا قد زادتا اتساعاً ؛ وكان دانيال جافَّ الفم، وكان يشعر بالضيق يصعد في داخله كالمدّ ، فردَّد بصوت اميل الى العنف منه الى الوثوق :

– أتراني قد اخطأت ؟

فأرسل فيليب همدرة خفيفة واسترخى جسمه ؛ وتراجع الضيق ، وقطع الفرح نفس دانيال ، وجُن قلبه وخفق في صدره كالأصم ، فتمتم :

– إصعد . إنني اعرف العلاج .

– علاج أي شيء ؟

– علاج هذا كله . عندي أشياء كثيرة أعلمك إياها .

وكان يبدو على فيليب التعب والتأسي ؛ ودفعه دانيال تحت المظلة . ولم يكن قد جرؤ بعد قط على ان يأتي الى بيته بالصبية الجميلين اللذين كان يصطادهم في مونمارتر او مونبارناس . ولكن البوابة ومعظم المستأجرين كانوا اليوم يركضون في الطرق ، بين مونتارجي وجيان ،

فاليوم كان يوم عيد . وصعدا في صمت . ووضع دانيال المفتاح في القفل من غير ان يترك ذراع فيليب . وفتح الباب وامحّى :

ـ ادخل .

فدخل فيليب بخطوة ناعسة .

ـ الباب المواجه : هناك الصالون .

وأولاه ظهره ، فأقفل الباب بالمفتاح ، ووضع المفتاح في جيبه . وحين عاد الى فيليب ، كان هذا قد انزرع امام الرفوف ينظر الى التماثيل الصغيرة نظرة منتعشة .

ـ انها عظيمة .

قال دانيال : ـ لا بأس بها ، لا بأس بها . وهي خصوصاً « حقيقية » . لقد اشتريتها بنفسي من الهنود .

وسأل فيليب : ـ وهذه ؟

ـ هذه صورة صبي ميت . ففي المكسيك ، حين يموت شخص ما ، يستقدمون رسام الموتى ، فيقيم هناك ويرسم الجثة تحت ملامح رجل حي . فينتج مثل هذا .

فسأل فيليب في شيء من الاعتبار :

ـ وهل سبق ان كنت في المكسيك ؟

ـ بقيت فيها عامين .

وكان فيليب ينظر في نشوة الى صورة هذا الصبي الجميل الكابي الذي كان يردّ له نظره عن صدر الموت برصانة ممتهن عارف واكتفائه . وفكر دانيال : انهما متشابهان . كلاهما أشقر ، وكلاهما شامخ ممتقع ، احدهما من هذا الجانب من اللوحة ، والآخر من الجانب الآخر ، الصبي الذي اراد ان يموت ، والصبي الذي مات حقاً : كانا يتبادلان النظر ، وكان الموت هو ما يفصل بينهما : لا شيء ، سطح القماشة المنبسط . وردّد فيليب :

– عظيم .
وفجأة سحق دانيال تعبٌ هائل . فتنفس وتداعى للسقوط في اريكة .
وقفزت ملفينا على ركبتيه ، فقال وهو يداعبها :
– لا لا ! كوني عاقلة : يا ملفينا ، كوني جميلة .
والتفت الى فيليب وقال بصوت ضعيف :
– وهناك ويسكي في خزانة المشروب : كلا ، إلى اليمين ، الخزانة الصينية الصغيرة ؛ هناك . وتجد ايضاً اقداحاً ، فتقدّمها لنا ، وتقوم بدور فتاة المنزل .
وملأ فيليب قدحين فناول دانيال أحدهما وبقي واقفاً امامه . وكرع دانيال قدحه بجرعة واحدة فاستشعر النشاط ، وقال له فجأة بلهجة احترام :
– لو كنت شاعراً ، لشعرت بما في لقائنا من شيء خارق للعادة .
فضحك الفتى ضحكة صغيرة مثيرة :
– ومن قال لك اني لست شاعراً ؟
وكان ينظر الى دانيال مواجهة : فمنذ دخل البيت ، تغيّر مظهراً وحركات . وفكر دانيـــال منزعجاً : إن ارباب العائلة هم الذين يخيفونه : وهو ليس خائفاً مني بعد ، لأنه ادرك اني لست منهم . وتظاهر بالتردّد ، وقال بتفكر :
– اني أتساءل عما اذا كنت ستثير اهتمامي .
فقال فيليب : – كان خيراً لك ان تتساءل عن ذلك قبل هـــذا بقليل .
وابتسم دانيال :
– لم يفت الاوان . فاذا اضجرتني ، أخرجتك .
قال فيليب : – لا تتحمل هذا الهمّ .
وكان يتجه نحو الباب . فقال دانيال :

– إبقَ . انت تعلم انك بحاجة إليّ

فابتسم فيليب بهدوء وعاد يجلس على كرسي . وكانت بوبيه تمرّ بقربه ، فقبض عليها ووضعها على ركبتيه من غير ان تحتج . وكان يداعبها برقة ، وشهوة ، فقال دانيال مندهشاً :

– نقطة طيبة لك . فهذه هي المرة الاولى التي تستسلم فيها لأحد .

فبسم فيليب بسمة طوياة متعرجة مزهوة ، وسأله خافض العينين :

– كم قطة عندك ؟

– ثلاث .

– نقطة طيبة لك .

وكان يحك رأس بوبيه التي أخذت تهمهم . وفكر دانيال : هذا العفريت ، يبدو اكثر سروراً مني ، فهو يعرف انه يروق لي . وسأله فجأة ، ليشوّشه :

– وإذن ؟ كيف حدث ذلك ؟

فترك فيليب بوبيه وهو يباعد ما بين ركبتيه ، فقفزت القطة الى الارض وفرّت .

وقال : – حدث كما تصوّرته . وليس لديّ ما أضيفه .

– واين كنت ؟

– في الشمال . ببلدة صغيرة تدعى « باني » .

– وماذا حدث ؟

– لا شيء . كان قد مضى على مقاومتنـــا يومان حين جاءت الدبابات والطائرات .

– معاً ؟

– نعم .

وهل خفت ؟

– حتى هذا لا: الا ان يكون الخوف شيئاً آخر غير ما نفكر به .

وكان وجهه قد قسا وشاخ . كان ينظر في الفراغ نظرة متعبة :

– وكان الافراد يركضون ، فركضت معهم .

– وبعد ذلك ؟

– مشيت ، ثم وجدت شاحنة ، ثم مشيت من جديد ، فوصلت الى هنا امس الاول .

وبمَ كنت تفكر وانت تسير ؟

– لم اكن افكر .

– ولماذا انتظرت حتى اليوم لتقتل نفسك ؟

قال فيليب : – كنت اريد ان ارى امي ثانية .

– ألم تكن هنا ؟

– كلا . لم تكن هنا .

ورفع رأسه وتأمل دانيال بعينين تبرقان ، وقال بصوت واضح قاطع :

– ستكون على خطأ اذا اعتبرتني جباناً .

– صحيح ؟ اذن لماذا فررت ؟

– ركضت لان الآخرين كانوا يركضون .

– ومع ذلك ، فقد كنت تريد ان تنتحر ؟

– صحيح كنت افكر بذلك .

– لماذا ؟

– يحتاج شرح ذلك الى وقت اطول مما ينبغي .

قال دانيال :– وهل ثمة ما يدعوك الى العجلة ؟ خذ فصبّ لك قدح ويسكي.

وصب فيليب لنفسه وكان خداه قد توردا . وضحك ضحكة صغيرة ، وقال :

– لو لم يكن هناك سواي ، لكان سواء عندي ان اكون جباناً او لا أكون . انني من دعاة السلام . فما هي الفضيلة العسكرية ؟ انها قصور في الخيال . لقد كان الافراد الشجعان هناك فلاحين ، وحوشاً

حقيقيين . كل ما هنالك ان المصيبة قد ارادت ان اولد في اسرة أبطال.

قال دانيال : — فهمت . إن اباك ضابط .

فقال فيليب : — ضابط احتياط . ولكنه مات عام ٢٧ من نتائج الحرب : لقد اختنق بالغاز ، قبل الهدنة بشهر واحد . وهذه الميتة المجيدة جعلت امي تستذوق: فتزوجت مرة اخرى عام ١٩٣٣ بجنرال .

قال دانيال : — سوف تصاب بخيبة . ان الجنراليـــة يموتون في أسرّتهم .

فقال فيليب بكراهية : — ليس هذا شأنه ، فهو من اسرة بايار : انه يضاجع ويقتل ويصلي وهو لا يفكر .

— وهل هو في الجبهة ؟

— واين تريده ان يكون ؟ لا بد انه هو نفسه وراء رشاش او انه يزحف نحو العدو على رأس فرقة، فبوسعك ان تعتمد عليه ليضحي برجاله حتى آخرهم .

— أتصوره اسود ذا شعر كثيف وشاربين .

قال فيليب : — تماماً . إن النساء يعبدنه لان له رائحة التيس .

وضحكا وهما ينظران فيما بينهما . وقال دانيال :

— لا يبدو عليك انك تحبه كثيراً .

قال فيليب : — انني أحتقره .

وتورّد ، ونظر الى دانيال باحداد ، وقال :

— اني اعاني عقدة اوديب . الحالة النموذجية .

فسأله دانيال بعدم تصديق .

— أأنت عاشق امك ؟

فلم يجب فيليب : كان يبدو بمظهر جـدّي وقدَري . وانحنى دانيال الى امام ، وسأله في رقة :

— الست بالأحرى عاشق زوج امك !

فانتفض فيليب واصبح قرمزي اللون ، ثم انفجر ضاحكاً وهو ينظر الى دانيال في عينيه وقال :

ــ ما اوسع خيالك !

فقال دانيال وهو يضحك كذلك :

ــ اسمع إذن ! فانما بسببه هو كنت تريد ان تنتحر !

وكان فيليب ما يزال يضحك :

ــ ولكن على الاطلاق ! اطلاقاً !

ــ بسبب من اذن ؟ انك تركض الى السين لأنك جبنت ، وتعلن مع ذلك انك تحتقر الشجاعة . انك تخاف ان يحتقرك .

قال فيليب : ــ بل أخاف ان تحتقرني امي .

ــ امك ؟ انني متأكد انها تتحلى بكل الرحمات .

فعض فيليب على شفتيه من غير ان يجيب . وقال دانيال :

ــ حين وضعت يدي على كتفك ، أصبتَ بالذعر . كنت تظن انه هو ، اليس كذلك ؟

فنهض فيليب ، وعيناه تبرقان :

ــ لقد .. لقد رفع يده عليّ .

ــ متى ؟

ــ منذ اقل من عامين . ومنذ ذلك الحين ، وانا أحس به ورائي .

ــ ألم تحلم قط بأنك عارٍ بين ذراعيه ؟

فقال فيليب وقد أخذه غيظ صادق :

ــ انت مجنون .

ــ على كل حال ، ان ما هو مؤكد ، هو أنه يمتلكك . انت تمشي على أربع ، فيركب الجنرال على ظهرك ، ويجعلك تنطنط كالفرس . لست ابداً انتَ نفسك : فتارة تفكر مثله ، وتارة ضدّه . دعوة السلام ، يعلم الله انك لا تكترث لها ، بل لم تكن لتفكر بها لو لم

يكن زوج املك جندياً .

ونهض فأخذ فيليب من كتفيه :

– اتريد ان احرِّرك ؟

فتخلص منه فيليب ، وقد عاوده الحذر :

– وكيف تستطيع ذلك ؟

– قلت لك ان عندي اشياء كثيرة أعلّمك اياها .

– أأنت طبيب نفساني ؟

– شيء من هذا القبيل .

فهزّ فيليب رأسه وسأل :

– اذا افترضنا هذا صحيحاً ، فلأيّ سببٍ تهتمّ بي ؟

فقال دانيال مبتسماً :

– انني هاوي ارواح . (واضاف بانفعال) ولا بد ان روحك لذيذة ، بمجرد ان تحرَّر من كل ما يزعجها .

فلم يجب فيليب ، ولكنه بدا مفتوناً ؛ وخطا دانيال بضع خطوات وهو يفرك يديه ، وقال في استثارة فرحة :

– ينبغي البدء بتصفية جميع القيم . انت طالب ؟

قال فيليب : – كنت طالباً .

– حقوق ؟

– ادب .

– حسناً . انك اذن تفهم ما اعني : الشك المنهجي ، نعم ؟ اختلال رامبو النظامي . اننا نهدم كل شيء . ولكن لا بالكلمات : بل بالاعمال . إن كل ما استعرته سيتلاشى دخاناً . وما يبقى ، هو انت . اتفقنا ؟

وكان فيليب ينظر اليه في فضول . واستطرد دانيال :

– بِمَ عساك تخاطر ، وقد بلغت النقطة التي انت فيها الآن ؟

فهز فيليب كتفيه :

ـ بلا شيء .

قال دانيال ـ عظيم ، انني أتبنّاك . ونحن نبدأ على التو الهبوط الى الجحيم (واضاف وهو يقذفه بنظرة حادة) ولكن على الأخص ، لا تقم بـ « تحويل » علي .

قال فيليب وهو يباداله نظرته : ـ لست احمق الى هذا الحد .

فقال دانيال من غير ان ينزع عنه بصره :

ـ سوف تشفى حين تطرحني كقشرة عفنة .

قال فيليب : ـ لا تخف .

فقال دانيال ضاحكاً : ـ كقشرة عفنة .

فردد فيليب : ـ كقشرة عفنة .

وكانا يضحكان كلاهما ؛ وملأ دانيال كأس فيليب .

قالت الفتاة فجأة : ـ لنجلس هنا .

ـ لماذا هنا ؟

ـ انه مكان أعذب .

قال بينيت : ـ انظر الى هذا . انهن يحببن ما هو عذب ، آنسات البريد هؤلاء !

ونزع سترته وألقى بها الى الأرض ، وقال :

ـ تفضلي . ضعي عذوبتك على سترتي .

وتداعوا للسقوط على العشب عند حافة سهل للقمح . وأغلق بينيت قبضته اليسرى ، وهو يراقب الفتاة بطرف عينه ، ثم ادخل ابهامه في فمه وتظاهر بأنه ينفخ : فبرزت عضلته ، كما لو ان منفاخاً نفخها ؛ وضحكت الفتاة قليلا .

ـ تستطيعين ان تلمسيها .

فوضعت إصبعاً حيّاً على ذراع بينيت : وفي اللحظة نفسها اختفت العضلة وقلد بينيت صوت كرةٍ تنفّس . وصرخت الفتاة :

ــ اوه !

والتفت بينيت الى ماتيو :

ــ هل تتصوَّر هذا ؟ ان « مورون » اذا رآني بلا سترتي ، جالساً على حافة الطريق ، فكم تراه سيسعل !

قال ماتيو : ــ إن مورون ما يزال يركض .

ــ انه يركض بسرعة شديدة ، كما لو اني أبعصه !

وانحنى نحو موظفة البريد وقال موضحاً :

ــ إن مورون هو الكابيتن . انه في الطبيعة .

فرددت : ــ في الطبيعة ؟

ــ هو يظن ان ذلك أفضل لصحته (وقهقه) اننا أسياد أنفسنا ؛ فليس ثمة بعد من يأمر ، وبوسعنا ان نفعل ما نشاء ؛ فاذا شئت ، صعدنا الى المدرسة ونمنا في سرير الكابيتن ؛ إن القرية لنا .

قال ماتيو : ــ لا لفترة طويلة .

ــ سبب إضافي للافادة من الوقت .

قالت الفتاة : ــ افضّل ان ابقى هنا .

ــ ولكن لماذا ؟ اقول لك ان ليس هناك من يستطيع ان يقول شيئاً .

ــ ما زال في القرية بعض الافراد .

فرمقها بينيت باغراء وقال :

ــ صحيح ، انت موظفة . فيجب الا ترتكبي خطأ ، بالنسبة للادارة . اما نحن (والتفت الى ماتيو ضاحكاً بهيئة مشاركة) فليس لنا من نراعيه . اننا بلا مكان ولا زمان . بلا ايمان ولا قانون . اننا عابرون : اما انتم فباقون ، ونحن نمضي ، نحن طيور عابرة ، نورَ . أليس كذلك ؟ اننا ذئاب ، حيوانات قتال ، اننا ذئاب كبيرة

خبيثة ، ها !

وكان قد انتزع قشة عشب وراح يدغدغ بها ذقن الفتاة ؛ وغنى ، وهو ينظر اليها بعمق ، ومن غير ان يبتسم :

— « من الذي يخشى الذئب الكبير الخبيث ؟ » .

فاحمرّ وجه الفتاة وابتسمت وغنّت :

— « لسنا نحن ، لسنا نحن » .

فقال بينيت مبتهجاً :

— ها ؟ يا لعبة (وتابع بشرود) ها يا لعبة صغيرة ، يا لعبة صغيرة ، يا آنسة لعبة !

وصمت فجأة . كانت السماء حمراء ؛ وعلى الارض ، كان الجو رطباً أزرق . وكان ماتيو يُحس حياة العشب المتشابك ، تحت يديه وتحت فخذيه؛ حياة الحشرات والارض، كأنها شعر كثيف خشن ومبتل ، مليء بالقمل ؛ وكان ضيقاً عارياً لصق راحتيه . محاصرون ! ملايين الرجال محاصرون ، ملايين الرجال محاصرون ، بين جبال الفوج ونهر الرين . محاصرون باستحالة ان يكونوا رجالا : وتلك الغابة المسطحة ستعيش بعدهم ، كما لو اننا لا يمكن ان نبقى في العالم ، إلا ان نكون منظراً طبيعياً او مرجاً او اي حضور كلي غير شخصي . وتحت الايدي ، كان العشب مغرياً كالانتحار ؛ العشب والليل الذي يسحقه على الارض ، والافكار الاسيرة التي كانت تعدو على الارض في هذا الليل ، وهذا العنكبوت الذي كان يتأرجح بالقرب من حذائه ، والذي تشرّم فجأة من جميع أرجله الهائلة واختفى . وتنهّدت الفتاة ، فسألها بينيت :

— ما بك يا صغيرتي !

فلم تجب . كان لها وجه صغير محتشم ومحموم ذو أنف طويل وفم دقيق تبرز شفته السفلى قليلا الى الأمام .

— ما بك ؟ ماذا هناك ؟ قولي لي ما بك ؟

فظلت على صمتها . وعلى مئة متر منهم ، بين الشمس والحقل ، كان اربعة جنود يمرون معتمين في بخـــار مذهب . وتوقف أحدهم والتفت نحو الشرق ، ممحواً بالنور ، غير اسود ، بل هو بنفسجي بالنسبة لاحمرارات المغرب ؛ وكان عاري الرأس . وأقبل التالي يصطدم به ويدفعه فيتسلل شبحاهما فوق القمح كأنهما سفينتان ؛ وانزلق ثالث خلفهما ، مرفوع الذراعين ؛ وكان الرابع المتخلف يصفع السنابل بعصا رقيقة .

قال بينيت : – ايضاً !

وكان قد أخذ الفتاة من ذقنها ينظر اليها : كانت عيناها مليئتين بالدمع .

– ولكن ما هذا ؟ انك غير لطيفة .

وكان يجهد في ان يحدثها بقسوة عسكرية ، ولكن كانت تعوزه الثقة : فلقد كانت الكلمات ، اذ تمر بفمه الطفولي ؛ تمتلىء ضجراً . وقالت :

– ان هذا اقوى مني .

فجذبها اليه .

– يجب الا تبكي . (وأضاف ضاحكاً) هل نبكي نحن الآخرين؟

فتركت رأسها يميل على كتف بينيت ، ولامست شعره ؛ وكان يبدو فخوراً .

قالت : – سوف يأخذونكم .

– ما هذا الكلام !

فرددت وهي تبكي : – سوف يأخذونكم .

فقست ملامح بينيت :

– لا حاجة بي الى من يرثي لي .

ـ لا اريد ان يأخذوكم .

ـ من قال لك انهم سيأخذوننا ؟ سترين كيف يقاتل الفرنسيون ؛ وسوف تكونين في وضع طيب .

فرفعت نحوه عينيها الكبيرتين وقد اتسعتا ؛ كانت من شدة الخوف بحيث انها كفت عن البكاء .

ـ يجب ألاّ تقاتلوا .

ـ تا ، تا ، تا .

ـ يجب الا تقاتلوا ؛ فقد انتهت الحرب .

فتأملها بوجه ماتع ، وقال :

ـ ها ! ها ! ها !

والتفت ماتيو ؛ كان راغباً في الذهاب . وعادت الصغيرة تقول :

ـ تعارفنا منذ الأمس فقط .

وكانت شفتها السفلى ترتجف ، وكانت تميل بوجهها الطويل ، فتبدو نبيلة المظهر ، جافلة حزينة ، كالحصان .

وقالت : ـ غداً ...

قال بينيت : ـ اوه ؛ من الآن حتى الغد ..

ـمن الآن حتى الغد ليس ثمة الا ليلة واحدة .

قال وهو يغمز بعينيه :

ـ تماماً : ليلة ، كافية لنتسلّى قليلا .

ـ لا رغبة عندي في التسلية .

ـ لا رغبة عندك في التسلية ؟ أصحيح انك غير راغبة في التسلية؟

كانت تنظر اليه من غير ان تجيب . قال :

ـ هل انت مهمومة ؟

فظلت تنظر اليه ، فاغرة الفم . وسألها :

ـ من أجلي ؟

ومال عليها في حنو لا يخلو من شرود ، ولكنه سرعان ما استقام وهو يلوي شفتيه ، وكان سيء المظهر ، فقال :

– هيـــا ! يجب ألاّ تهتمي بذلك ، يا صغيرتي : فسوف يأتي آخرون . . يُفقد واحد ، فيوجد عشرة .

– إن الآخرين لا يهمونني .

– لن تقولي ذلك بعد ان تريهم. انهم فتيان طريفون ، لو تعلمين، وأشدّاء ! اكتاف هكذا ، وأجناب هكذا !

– من تعني ؟

– الألمان طبعاً !

– انهم ليسوا رجالا .

– إلى من تحتاجين ؟

– انهم في نظري وحوش .

فبسم بينيت بسمة متجردة وقال بهدوء :

– انت مخطئة . انهم فتيان جميلون ، وجنود اقوياء . صحيح انهم لا يساوون الفرنسيين ، ولكنهم جنود اقوياء .

فردت : – انهم في نظري وحوش .

قال لها : – لا ترددي ذلك ، لأنك ستنزعجين جداً لانك قلتهـــا اذ تغيرين رأيك . انهم منتصرون ، فافهمي ذلك . انك لا تستطيعين ان تقاومي انساناً شديداً قد ربح الحرب ، فيجب ان تنحني امامه ، وسوف تشعرين هنـــاك بالتأكل . اذهبي فأسألي الباريسيات ! إنهن يتسلّين الأن كثيراً ، الباريسيات !إنهن يقمن بتمرينات للسيقان في الهواء.

فتخلصت الفتاة فجأة وقالت :

– انك تبعث لدي الاشمئزاز .

فسأل بينيت : – ماذا دهاك ، ايتها الصغيرة ؟

قالت الفتاة : – انني فرنسية .

ـ الباريسيات ايضاً فرنسيات . هذا لا يمنع .

قالت ـ دعني ؛ اريد ان اذهب .

فاصفر بينيت وأخذ يقهقه . وقال ماتيو :

ـ لا تغضبي . لقد قال ذلك ليثيرك .

قالت : ـ انه يبالغ ! فمن تراه يعتبرني ؟

فقال ماتيو على مهل :

ـ ليس سهلا ان يكون المرء مهزوماً . انه محتاج الى الوقت ليتعود ذلك : انت لا تعرفين كم هو لطيف عادة . انه حمل .

قال بينيت : ـ ها ! ها ! ها !

قال ماتيو : ـ انه يغار .

فسألت الصغيرة وقد عادت اليها رقتها :

ـ يغار عليّ ؟

ـ بكل تأكيـــد . فهو يفكر بجميع الافراد الذين سيحاولون ان يغازلوك فيما هو يكسر الحصى .

وقال بينيت الذي كان ما يزال يقهقه :

ـ او فيما هو يأكل الهندباء البرية من جذورها .

وصاحت : ـ انني امنعكم من ان تعرّضوا انفسكم للقتل !

فابتسم وقال :

ـ تتحدثين كامرأة . كفتاة صغيرة (واضاف وهو يدغدغهـــا) كفتاة صغيرة جداً .

فقالت وهي تتلوى تحت دغدغاته :

ـ خبيث ! خبيث ! خبيث !

فقال ماتيو منزعجاً :

ـ لا تهتمي بأمره كثيراً . سينجلي عنه هذا بكل بساطة ، ثم اننا لا نملك ذخيرة .

فالتفتا اليه في وقت واحد ، وقذفاه بالنظرة الحاقدة المستيقظة نفسها، كما لو انه قد منعهما من ان يناما معــاً للمضاجعة . ونظر ماتيو الى بينيت في قسوة ؛ وبعد لحظة ، خفض بينيت رأسه ونزع ضمة عشب من بين ركبته ، ووجهه متجهم . وعــلى الطريق ، كان ثمة جنود يتسكعون . وكان بينهم واحد يحمل بندقية ؛ وكان يمسك بها كأنهـا شمعة طويلة ، وهو يضحك .

وقال رجل قصير أسمر ، سمين وأقفد :

— هيا !

فأخذ الجندي البندقية بكلتا يديه من انبوبها ، وأرجحها كعصـا الغولف ، ثم ضرب بعقبها حصاة قفزت عشرين خطوة . وكان بينيت ينظر اليهما مقطب الحاجبين فقال :

— هناك من يسيء استعمالها على التو .

فلم يجب ماتيو . وكانت الفتاة قد أخذت يد بينيت على ركبتيهـا تداعبها ، وقالت :

— ارى معك خاتماً .

فسألها وهو يقبض يده قليلا : — ألم تريه قبل الآن ؟

— بلى ، رأيته ، هل انت متزوج ؟

— ما دام معي خاتم .

قالت بأسى : — نعم .

— انظري ما افعل بخاتمي .

وشد على اصبعه بكزازة ، فنزع خاتمه ورماه في القمح ، فقالت الفتاة مندهشة :

— اوه ! مع ذلك ...

« أخذ السكين من على الطاولة ، وكانت ايفيش تنزف ، فطعن بها راحته .. » حركات ، حركات ، تهديمات صغيرة ، ماذا يجديك

ذلك ، أخذت هذا من اجل الحرية ، وتثاءب ،

— كان من ذهب ؟

— نعم .

فتحاملت وقبلته في شفتيه قبلة خفيفة . واستقام ماتيو ثم جلس قائلا :

— انني انسحب .

فنظر اليه بينيت في قلق :

— إبق بعد قليلا .

— لستَ بحاجة إلي .

قال بينيت : — بل إبق ، من اجل ما ستعمله ...

فابتسم ماتيو واومأ الى الفتاة :

— ليست لها رغبة كبيرة بأن أبقى .

— هي ؟ بلى بكل تأكيد ، فهي تحبك كثيراً (وانحنى عليها وقال بصوت ملح) انه صديق . اليس صحيحاً انك تحبينه كثيراً ؟

قالت الصغيرة : — بلى .

وفكر ماتيو : انها تحتقرني ؛ ولكنه بقي ، ولم يكن الوقت ليتقدم : لقد كان يرتجف ، مسترخياً على هذا الحقل الأحمر . حركة مفاجئة وسيحسه ماتيو من جديد في عظمه ، كوجع روماتيزم قديم العهد . وتمدّد على ظهره . السماء ، السماء وردية ومعدومة ؛ ليت بوسع الانسان ان يسقط في السماء ! ولكن عبثاً ، اننا مخلوقات تنتمي الى تحت ، والشر كله صادر من هناك .

وكان الجنود الاربعة الذين رآهم ينسلون بين القمح قد استداروا حول الحقل ليبلغوا الطريق ، وافضوا الى المرج ، في صف هندي . وكانوا من قسم الهندسة لا يعرفهم ماتيو ؛ كان العريف الذي يمشي على رأسهم يشبه بينيت ، وكان يرتدي قميصاً قصير الأكمام ، مثله ، وكان قد فتح قميصه على صدره المشعر ؛ وكان الثاني ، وهو اسمر

ملفوح ، قد ألقى سترته على كتفيه من غير ان يرتديها ، وكان يمسك في يده اليسرى سنبلة ، ويتلقى بيده اليمنى حباتهـا ؛ وقلب يده ، فحملها الى فمه ، واخرج لسانه فولغ في هذه الحبات المذهبة وهو يحرك رأسه . اما الثالث ، وهو اطولهم قامة واكبرهم سناً ، فهو يسرح شعره الأشقر بأصابعه . كانوا يمشون على مهل ، حالمين ، في مرونة المدنيين . وخفض الأشقر يديه اللتين كانتا تتخللان شعره ، فأمرّهما بعذوبة على كتفيه وعنقه ، كما لو انه يود ان يستمتع بزوايا هذا الجسم الذي انبثق اخيراً تحت الشمس ، خارج الغلاف العسكري الذي لا شكـل له . وتوقفوا الواحد خلف الآخر ، في وقت واحـد تقريباً ، ونظروا الى ماتيو . وتحت هذه العيون المنتمية الى عصر آخر ، احس ماتيو نفسه يذوب حشيشاً ، فكان مرجاً تنظر اليه الدواب . وقال الأسمر :

– لقد فقدت حمالتي .

ولم يزعج الصوت هذا العالم اللاإنساني الرقيق : فانه لم يكن كلمة وانما كان واحداً من هذا الهمس الذي يسهم في خلق الصمت . ومن شفتي الأشقر ، أفلت همس مشابه :

– لا تحزن ، فلا بد ان الألمان قد أخذوه .

ووصل الرابع بلا ضجة . فتوقف ورفع انفه ، فعكس وجهه خلاء السماء . وقال :

– هيه !

وجلس القرفصاء ، فقطف زهرة منثور ، ووضعها في فمه . وحين نهض ، رأي بينيت وهو يضم الفتاة الى صدره ، فأخذ يضحك :

– الامور صعبة .

فأقرّه بينيت : – صعبة كفاية .

– ولكن الطقس يترطّب ، اليس كذلك ؟

– لكأنّه .

- هذا ما لا يؤسف له .

فاهتزت الرؤوس الأربعة في هيئة ذكاء ذات طابع فرنسي ؛ وامّحى الذكاء ، فلم يبق الا فراغ هائل ، واستمرت الرؤوس في اهتزازها . وفكر ماتيو : « انهم للمرة الاولى في حياتهم يرتاحون .»

كانوا يرتاحون من السير القسري ، ومن استعراضات الثياب ، ومن التمرين ، ومن المأذونيات ، ومن انتظاراتهم ، ومن آمالهم ؛ كانوا يرتاحون من الحرب ومن تعب أقدم عهداً : من السلام . وفي وسط القمح ، وعلى تخوم الغابة ، وعند مخرج القرية ، كان ثمة آخرون في زرافات صغيرة يرتاحون كذلك : كانت قوافل من الناقهين تعبر الريف . وصاح العريف :

- هو بيرار .

فالتفت ماتيو . كان بيرار ، مرافق الكابتين مورون ، قد توقف عند حافة الطريق ليبول : لقد كان فلاحاً من مقاطعة بريتاني ، متوحشاً وأبرص . وقد نظر اليه ماتيو في اندهاش : كان المغيب يحمر سحنته الموحلة، وكانت عيناه قد اتسعتا ، وفقد هيئته المتحدية الماكرة؛ كان ينظر ، ربما للمرة الاولى ، العلامات المرسومة في السماء ورقم الشمس السري . وكان دفق فاتح ينبع من يديه اللتين كانتا تبدوان وكأنهما نُسيتا عند فتحة بنطاله .

- هو بيرار !

فانتفض بيرار . وسأله الكابورال :

- ماذا تفعل ؟

فقال بيرار : - انني أشم الهواء العليل .

- بل انت تبول ايها الخنزير ! إن هناك أوانس .

فخفض بيرار عينيه على يديه ، وبدا مندهشاً ، فسارع يزرر بنطاله ، وقال :

– فعلت ذلك من غير تفكير .

قالت الفتاة : – ليس في ذلك اذى .

وقبعت ملتصقةً بصدر بينيت وابتسمت للكابورال . وكان ثوبها قد انحسر ، فلم تفكر في رده : كانت تعيش في البراءة . ونظروا الى فخذيها ، ولكن بلطف ، وبافتتانٍ حزين . لقد كانوا ملائكة، وكانت لهم نظرات مسطحة .

وقال الأسمر : – حسناً . تحية . اننا نتابعها ، نزهتنا .

فقال الأشقر الطويل ضاحكاً :

– النزهة المشهية .

قال ماتيو : – شهيّة طيبة .

وضحكوا : كان الجميع يعلمون أنه لم يكن ثمة ما يؤكل بعدُ في القرية ؛ وكانت جميع محفوظات « الادارة » قد نُهبت في الساعات الاولى من الصباح .

– ليست الشهية هي التي تنقصنا .

ولم يكونوا يتحركون ؛ وكفوا عن الضحك ، وبان بعض الضيق في عيني العزيف ؛ فكأنهم كانوا يخشون ان يذهبوا . وكاد ماتيو يدعوهم الى الجلوس . وقال العريف بصوت مفرط في الهدوء :

– هيا بنا !

فاستعادوا سيرهم في اتجاه الطريق ؛ وأحدث ذهابهم شقاً سريعاً في رطوبة المساء ؛ وقد سال بعض الوقت من خلال التصدع ، فقام الألمان بقفزة الى الأمام ، وتشنجت خمس أصابع من حديد على قلب ماتيو : ثم كف النزف ، وتجمد الزمن من جديد ، فلم يكن ثمة الا مرج يتنزه فيه ملائكة . وفكر ماتيو : « ما أهول هذا الفراغ ! » وكان شخص هائل قد انسحب فجأة ، تاركاً « الطبيعة » في حراسة جنود من الصف الثاني . « صوت يعدو تحت شمس قديمة : لقد مات «بان»

فاستشعروا الغياب نفسه . » فمن الذي مات ، هذه المرة ؟ فرنسا ؟ المسيحية ؟ الأمل ؟ لقد كانت الارض والحقول تعود على مهل الى لاجدواها الاولى ؛ وكان هؤلاء الرجال يصبحون مجانين ، وسط هذه الحقول التي لم يكونوا يستطيعون حرثها ولا حمايتها . كان كل شيء يبدو جديداً ، ومع ذلك فقد كان المساء مطرزاً بنجوم الليل الاسود القادم ؛ وفي وسط هذا الليل ، سترتمى على الارض نجمة مذنبة . اتراهم سيقصفون ؟ كانت الحفاة منتظرة عما قليل . اتراه كان يوم العالم الاول ام يومه الاخير ؟ كان القمح والمنثور اللذان يسودّان تحت العين يبدوان وكأنهما يولدان ويموتان في الوقت نفسه . واجتاز ماتيو بنظره هذا الالتباس الهادىء وفكر : تلك هي جنة اليأس .

قال بينيت : — ان شفتيك باردتان .

وكان قد انحنى على الفتاة يقبلها . وسألها :

— هل تحسين البرد !

— لا .

— أتحبين إن أقبلك ؟

— نعم . كثيراً .

— لماذا إذن شفتاك باردتان ؟.

فسألت : — أصحيح انهم يغتصبون النساء ؟

— انت مجنونة .

فقالت بهوس : — قبّلني . لا اريد ان افكر بعد بشيء .

وأخذت رأسه بين يديها وجذبته اليها وهي تتقاب . وقال :

— يا صغيرتي ، يا لعبتي !

ونام عليها ، ولم يرَ ماتيو بعد الا شعراً في العشب . ولكن سرعان ما ارتفع الرأس ، وقد سقط عنه القناع المتجهم الرائع ؛ وكانت العينان ، في عُري رقيق أملس ، تنظران الى ماتيو من غير

ان ترياه ؛ وكانتا تطفحان بالوحدة .

وتنهّدت الفتاة : — يا حبيبي ، تعال ، تعال .

ولكن الرأس كان صلباً ، ابيض ، اعمى ، لا ينحني . وفكر ماتيو وهو ينظر الى هاتين العينين المظلمتين : انه يفعل مهنته كرجل . وكان بينيت قد أضجع هذه المرأة تحته ، وكان يسحقها في الارض ، كان يذيبها بالارض ، وبالعشب المتردد . كان يمسك المرجة مستلقية تحت بطنه ، وكانت تناديه ، وسوف يوصل فيها جذوره بالبطن ، وكانت هي ماءً ، امرأة ، مرآة ؛ فكانت تعكس على كل سطحها البطل البكر للمعارك القادمة ، الذكَر ، الجندي المجيد المنتصر ، كانت « الطبيعة » لاهثة مقلوبة ، تبرئه من جميع الهزائم ، وتتمتم : يا حبيبي ، تعال . ولكنه كان يريد ان يمثل دور الرجل حتى النهاية ، فكان يستند براحتيه على الأرض ، فتبدو ذراعاه المتقلصتان طرفي جناح ، وكان ينصب رأسه فوق هذه الوداعة المتلبدة ، فقد كان يريد ان يكون موضع اعجاب ، وان يكون مشتهى من تحت ، في الظل ، على غير علم منه ، وان يهمل هذا المجد الذي كان ينتقل من الأرض الى جسده ، كأنه حرارة بشرية ، وان يطفو في الفراغ ، في الضيق والقلق ، ليفكر : « وماذا بعد ؟ » وعقدت الفتاة ذراعها حول عنقه وشدت على رقبته . وغرق الرأس في المجد والحب ، وانغلق المرج . ونهض ماتيو بلا ضجة فمضى ؛ واجتاز الحقل ، فأصبح احد اولئك الملائكة الذين كانوا يتسكعون في الطريق المضيئة ، بين ظلال الحور . وكانا هما قد اختفيا في العشب الاسود ، ومر جنود يحملون الباقات ؛ ورفع احدهم ، فيما هو سائر ، باقته نحو وجهه ، فأغرق انفه في الزهور ، وتشمم وسط الزهور بطالته وهمه ومجانيته التي لا مبرر لها . وكان الليل يتأكل اوراق الشجر والوجوه : فكان الجميع متشابهين ؛ وفكر ماتيو : انني اشبههم . ومشى بعد قليلا ، ورأى نجماً يضيء

ولامس متنزهاً غامضاً كان يصفر . والتفت المتنزه ، فرأى ماتيو عينيه ، وتبادلا بسمة من بسمات عشية الأمس ، بسمة صداقة .

قال الرجل : — الطقس رطب .

قال ماتيو : — نعم ، بدأ الطقس يبرد .

ولم يكن لديهما شيء آخر يقولانه ، ومضى المتنزه ، فتبعه ماتيو بنظره ؛ اينبغي ان يكون الناس قد فقدوا كل شيء ، وحتى الأمل ، لنقرأ في عيونهم ان بوسع الانسان ان يربح ؟ كان بينيت يضاجع ، وكان غيكيولي ولاتيكس قد تدحرجا ثملين حتى الموت على ارض البلدية ؛ وكان ملائكة متوحدون ينزهون في الدروب ضيقهم : لا حاجة لأحد بي . وتداعى للسقوط على الأرض ، على حافة الطريق ، لأنه لم يكن يعرف بعد الى اين يذهب . ودخل الليل في رأسه من فمه ، وعينيه ، ومنخريه ، واذنيه : فلم يكن بعد احداً ، ولا شيئاً . لا شيء الا الشقاء والليل . وفكر : شارلو ! ثم قفز على قدميه : كان يفكر بشارلو ، وحيداً مع خوفه ، وكان يشعر بالعار ؛ لقد تصرفت تصرفاً سيئاً مع هؤلاء الخنازير السكارى ، وفي تلك الفترة ، كان هو وحده ، وكان خائفاً ، بتواضع ، وكان بوسعي ان اساعده .

وكان شارلو جالساً في المكان نفسه ؛ وكان منحنياً فوق كتابه ، فاقترب ماتيو وأمرّ يده في شعره :

— انك ستقتلع عينيك .

قال شارلو : — اني لا اقرأ . بل افكر .

وكان قد رفع رأسه ، وكانت شفتاه الغليظتان ترسمان بسمة .

— بمَ تفكر ؟

— بحانوتي ، اتساءل عما اذا كانوا قد نهبوه .

قال ماتيو : — هذا غير مرجح .

واشار الى نوافذ دار البلدية :

— ماذا يفعلون في الداخل ؟

قال شارلو : — لا ادري . مضت فترة من غير ان اسمع شيئاً .

فجلس ماتيو على درجة :

— الامور ليست على ما يرام ، أليس كذلك ؟

فابتسم شارلو بحزن ، وسأله :

— أتكون قد عدت من اجلي ؟

— انني ضجر . وقد فكرت بانك ربما كنت في حاجة الى رفيق . وهذا بالأحرى في صالحي .

فهز شارلو رأسه من غير ان يجيب . وسأله ماتيو :

— اتريد ان اذهب ؟

قال شارلو : — لا ، فانك لا تزعجني . ولكنك لا تستطيع ان تساعدني . ما عساك تقول لي : ان الألمان ليسوا متوحشين ؟ ان علينا ان نكون شجعاناً ؟ انني اعرف هذا كله .

وتنهد ووضع الكتاب الى جانبه ، في حيطة ، وقال :

— يجب ان تكون يهودياً ، وإلا لم تستطع ان تفهم .

ووضع يده على ركبة ماتيو وقال له بلهجة اعتذار :

— لست انا الخائف ، وانما هو جنسي في داخلي . ولا حيلة لأحد في ذلك .

وصمت ماتيو ، وظلا جنباً الى جنب ، صامتين ، احدهما ممزق ، والآخر لا جدوى منه على الاطلاق ، منتظرين ان يلفهما الظلام .

كانت تلك هي الساعة التي تفيض فيها الاشياء عن نطاقها وتذوب في ضباب المساء القطني ؛ كانت النوافذ تنزلق في ظل حركة طويلة جامدة ، وكانت الغرفة زورقاً شراعياً تائهاً ؛ اما زجاجة الويسكي

فكانت إلهاً ازتيكياً ؛ وكان فيليب تلك النبتة الرمادية الطويلة التي لا تخيف ؛ والحب ، كان اكثر كثيراً من الحب ، ولم تكن الصداقة هي الصداقة تماماً . وكان دانيال يتحدث ، مختبئاً ، عن الحب ، فلم يكن بعد الا صوتاً هادئاً حاراً . واسترد نفسه ، فانتهزها فيليب فرصة ليقول :

— ما أشدّ الظلام هنا ! الا تظنّ أن بوسعنا ان نضيء النور ؟

قال دانيال بجفاف : — اذا لم تكن الكهرباء مقطوعة .

ونهض على مضض : كانت اللحظة قد آنت لتقبّل امتحان الضوء. وفتح النافذة ، وأطلّ فوق الفراغ وشمّ رائحة بنفسج الصمت : كم من مرة ، في هذا المكان نفسه ، اردت ان أهرب ، وكنت اسمع صوت خطى يتنامى ؛ كانوا يمشون على افكاري . كان الليل عذباً ووحشياً ، وكان لحم الليل الذي تمزّق مرات قد التأمت جراحه . ليلة ريّا وعذراء ، ليلة جميلة بلا رجال ، برتقالة حمراء بلا بزور . وأغلق المصاريع على مضض ، فأدار المفتاح ، فارتمت الغرفة خارج الظل ودخلت الاشياء في نفسها من جديد . واندفع وجه فيليب بازاء عيني دانيال ، وكان دانيال يُحسّ هذا الرأس الكبير الدقيق يتحرك في نظره ، وهو حديث عهد بقصّ الشعر ، مرتدّ الى خلف ، بتينك العينين الطافحتين بالذهول واللتين كانتا تسحرانه كما لو انهما تريانه للمرة الاولى . « يجب ان أتصرّف بدقة وحكمة . » ورفع يده ، منزعجاً ، ليضع حداً لتمثيلية الأشباح ، فقرص ظاهر سترته بين اصابعه ، وابتسم ؛ كان خائفاً من ان يُكتشف .

— ما بالك تنظر إليّ ؟ هل تجدني جميلاً ؟

فقال فيليب بصوت محايد :

— جميلاً جداً .

وانفتل دانيال فوجد في المرآة ، من غير استياء ، وجهه الجميل

الغامض . وكان فيليب قد أسبل جفنيه ، وخنق ضحكة وراء يده .

— انت تضحك كطالبة داخلية .

فكفّ فيليب عن الضحك . وألح دانيال :

— لماذا تضحك ؟

— هكذا .

وكان نصف ثمل ، من الخمر ، وعدم الثقة ، والتعب . وفكر دانيال : إنه في الحالة المناسبة . شريطة ان يفعل كل شيء «بالضحك» كمزاح مدرسي ؛ فسيدع الفتى نفسه ينقلب على الديوان ، ويلامس ، ويقبّل وراء الاذن : ولن يدافع عن نفسه إلا بالضحكة المجنونـــة . وأولاه دانيال ظهره فجأة ، وخطا بضع خطوات في الغرفة : إن هذا مبكر جداً ، مبكر اكثر مما ينبغي ، فحذار من الحماقات ! سوف يذهب غداً فينتحر ، او انني سأقتله . وقبل ان يعود باتجاه فيليب ، زرّر سترته وشدها على فخذيه ليخفي بداهة اضطرابه .

وقال : — واخيراً هكذا !

قال فيليب : — هكذا !

— انظر إليّ .

وغطس نظره في عينيه وهزّ رأسه في رضى ؛ وقال على مهل :

— لستَ بالجبان . وقد كنت متأكداً من ذلك .

ومدّ سبابته وضرب صدره :

— انت تهرب خوفاً ؟ كفى ، كفى ! إن هذا لا يناسبك : كل ما هنالك انك ذهبت ؛ تركت هذه القضية تُسوّى بدونك . ولماذا تُراك تقتل نفسك من أجل فرنسا ؟ لماذا ؟ ان فرنسا لا تهمك ، اليس كذلك ؟ انها لا تهمك ، انها المكار الصغير !

فأومأ فيليب برأسه ، واستعاد دانيال مشيته عبر الغرفة ، وقال في

انفعال مليء بالمرح :

– لقد انتهى هذا كله . انتهى وُصفِّي . إن لك حظاً لم يكن لي في عمرك . لا ، لا (قالها في حيوية بحركة من يده) لا ، لا ، لا أقصد بذلك لقاءنا . إن حظك هو الاتفاق « التاريخي » : أتريد ان تهدم الاخلاقية البورجوازية ؟ حسناً : إن الألمان هنا لمساعدتك . ها ! سترى ضربة المكنسة هذه ؛ سترى آباء الأسر يزحفون ، ستراهم يلحسون الأحذية ، ويمدون أقفيتهم الضخمة لركلات الأرجل ؛ سترى زوج امك مقلوباً على بطنه ؛ إنه هو المهزوم الأكبر في هذه الحرب ، وكم ستستطيع ان تحتقره !

وضحك حتى سالت دموعه : « اية ضربة مكنسة ! » ثم التفت فجأة نحو فيليب :

– يجب ان تحبهم .

فسأله فيليب مذعوراً : – من ؟

– الألمان ، انهم حلفاؤنا .

فردد فيليب : – أن احبّ الألمان ؟ ولكني ... لا اعرفهم .

– لا تخف ، فسنعرف بعضهم : سنتعشى لدى قادة المقاطعات ، ولدى الفيلدمرشالات : وسوف يأخذوننـــا للتنزه معهم في سياراتهم المرسيدس السوداء الضخمة ، بينما يتنزه الباريسيون على اقدامهم .

وخنق فيليب تثاؤبة ، فهزّه دانيال من كتفيه وقال له بلهجة كثيفة :

– يجب ان تحب الألمان . ستكون تلك تجربتك الروحية الاولى .

فلم يبد على الفتى انفعال خاص ؛ فتركه دانيـــال ، وفتح ذراعيه على سعتهما وقال :

– ها هو زمن القتلة يجيء .

وتثاءب فيليب للمرة الثانية : فرأى دانيال لسانه المروّس . وقال فيليب بلهجة اعتذار :

– انني ناعس . ها هما ليلتان لم اغمض فيهما عينيّ .

فبدا لدانيال ان يغضب ، ولكنه كان مرهقاً ، هو ايضاً ، كما يحدث له على اثر كل لقاء جديد . ولفرط ما اشتهى فيليب ، فقد أحسّ بنهك ثقيل في أربيّته . وأحسّ فجأة بتعجّل ليجد نفسه وحيداً ، فقال :

– حسناً ، انني اتركك . وستجد منامة في درج الخزانة .

فقال الفتى برخاوة : – لا حاجة بي الى ذلك ، فيجب ان اعود الى البيت .

فنظر اليه دانيال باسماً :

– ستفعل ما تشاء ؛ ولكنك توشك ان تقع على دورية ، والله وحده يعلم ما سيصنعون بك : انت جميل كفتاة ، والألمان جميعاً لوطيون . وحتى لو فرضنا انك بلغت منزلك ، فانك ستجد فيه ما تريد ان تهرب منه . إن على الجدران صوراً لزوج امك ، اليس كذلك ؟ وعطر امك يطفو في غرفتها ؟

فلم يبد على فيليب انه كان يسمعه . وبذل جهداً لينهض ، ولكنه تداعى على الديوان وقال بصوت نائم :

– هاههه ...

ونظر الى دانيال فبسم له بهيئة حائرة :

– اظن ان من الأفضل لي ان ابقى هنا .

– إذن ، تصبح على خير .

فقال فيليب متثائباً : – تصبح على خير .

واجتاز دانيال القاعة ؛ وإذ ألمّ بالمدخنة ، كبس على مربّع ناتيء ، فاستدار رفّ من المكتبة على نفسه ، كاشفاً صفاً من الكتب ذات الغلاف الاصفر . وقال :

– هذا هو «الجحيم» . ستقرأ هذا كله فيما بعد : فهو يتحدث عنك .

فردد فيليب من غير ان يفهم :

– عني ؟

– نعم ، اقصد عن حالتك .

ودفع الرف الى مكانه ثم فتح الباب . وكان المفتاح قد بقي في الخارج ، فأخذه دانيال ورمى به الى فيليب وهو يقول ساخراً :

– اذا خفت من الأشباح او من اللصوص ، فبوسعك ان تقفل على نفسك .

واغلق الباب عليه ، ودلف في الظلام الى جوف الغرفة ، فأضاء المصباح وجلس على سريره . ها انا وحدي اخيراً ! ست ساعات من المشي ، وطوال اربع ساعات ، هذا الدور أمثله مرتدياً مشد امير الشر : انني مرهق . وتنهد ، رغبة منه في ان يحس وحدته ؛ ورغبة في الا يُسمع ، أنّ بنعومة : « إن بيضتيّ تؤلمانني كثيراً . » ورغبة منه في ألا يُرى ، حرّك وجهه حركة بكائية ، ثم ابتسم وتداعى للسقوط الى خلف كما لو انه في حمّام دافيء : وكان قد تعود هذه الرغبات التجريدية ، وهذه التورمات الخفية اللامجدية ؛ وكانت التجربة قد علمته ان ألمه يخف اذا ظل متمدداً . وكان المصباح يعكس دائرة نور عـلى السقف ، وكانت الوسائد رطبة ، كان دانيال يرتاح ، ساكناً ، ميتاً ، مبتسماً . « هاديء ، هاديء : لقد اقفلت باب الدخول بالمفتاح ، والمفتاح في جيبي ، والواقع انه من جهة اخرى ، سوف ينهار تعباً ، وسينام حتى الظهر ، من دعاة السلام : فتأمل ! بالاجمال ، لم تسر الأمور جيداً . ولا شك في انه كان ثمة خيوط للشدّ ، ولكني لم اعرف ان اعثر عليها . » كان دانيال يجعل من امثال « ناتانايل » و « رامبو » قضيته ؛ ولكن الجيل الجديد كان يحيّره : « اي مزيج غريب : نرجسية ، وافكار اشتراكية . إن هذا لا يجاري المعقول . » ومع ذلك ، فان الامور بالاجمال لم تسر سيراً

رديئاً : كان الفتى هنا ، مقفلا عليه . ففي حالة الشك ، لن يكون سيئاً ان يلعب المرء ورقة الاختلال النظامي . فلقد كان ذلك ينجح دائماً بعض الشيء . كان يثير الغرور . وفكر : « سأحصل عليك ، وسأغسل مبادئك ، يا ملاكي . افكار اشتراكية ! سترى ما سوف تنتهي اليه ! » وكانت هذه الحميّا التي بردت تثقل على معدته ، وكان بحاجة الى كمية طيبة من الوقاحة ليكنسها : « اذا استطعت ان احتفظ به وقتاً طويلا ، كانت مسألة طيبة : فانا بحاجة الى التخفف ، وافتقر الى شخص في البيت . » حفلات الكرميس ، غراف وتوتو ، العمّة دونفلور ، ماريوس ، « الحسّ » الممنوع : كل ذلك قد انتهى . وانتهت الانتظارات عند حواشي محطة « غارديست » وابتذال المأذونين الذين تنبعث من اقدامهم الروائح الكريهة : انني اصلح سيرتي . (انتهى الارهاب !) وجلس على السرير وبدأ ينزع ثيابه ، وصمم : ستكون علاقة جدية رصينة . وكان يحس النعاس ، وكان هادئاً ، ونهض ليأخذ حوائجه ، فلاحظ انه كان هادئاً ، وفكر : عجيب ألا اكون في ضيق وقلق . وفي تلك اللحظة ، كان خلف ظهره احد ، فالتفت ، فلم ير احداً ، فشقه الضيق شقين . « مرة اخرى بعد ! مرة اخرى بعد ! » وكان كل شيء يبدأ من جديد ، وكان يعرف كل شيء ، وكان بوسعه ان يتنبأ بكل شيء ، كان يستطيع ان يروي دقيقة فدقيقة سنوات الشقاء التي ستلي ، السنوات الطويلة الطويلة ، اليومية ، المملة التي لا أمل فيها ، ثم النهاية القذرة الأليمة: كل شيء كان هنا . ونظر الى الباب المغلق ، وكان يلهث ، وكان يفكر : « هذه المرة ، سأموت بذلك » وكان في فمه مرارة الآلام القادمة .

قال عجوز : — انها تحترق جيداً .

وكان الجميع في الطريق ، جنوداً وعجائز وفتيات . وكان المدرس يصوّب عصاه نحو الأفق ؛ وفي اقصى العصا ، كانت شمس زائفة تدور ، كرة من نار تخفي فجراً ممتقعاً : كانت تلك « روبيرفيل » التي تحترق .

— انها تحترق جيداً .

— اجل ! اجل !

وكان المسنّون يتراقصون قليلا ، وايديهم خلف ظهورهم ، وكانوا يقولون : اجل ! اجل ! باصواتهم العميقة الهادئة وترك شارلو ذراع ماتيو ، وقال :

— إن هذه مصيبة !

فأجابه عجوز :

— انه قَدَر الفلاح . فحين لا تكون الحرب ، يكون الثلج او الجليد : فليس ثمة سلام على الأرض ، بالنسبة للفلاح .

وكانت ايدي الجنود تجس الفتيات في الظلام فتثير الضحكات ؛ وكان ماتيو يسمع خلف ظهره صرخات الصبية الذين كانوا يلعبون في ازقة القرية المهجورة . وتقدمت امرأة ، وكانت تحمل صبياً بين ذراعيها ، فسألت :

— ايكون الفرنسيون هم الذين اشعلوا النار ؟

فقال لوبيرون : — هل انت مجنونة ، ايتها الأم الصغيرة ؟ انهم الألمان ، نعم .

فهزّ عجوز رأسه وقال غير مصدّق :

— لقد سبق للألمان ان جاءوا ، في الحرب الماضية ، ولم يفعلوا شراً كبيراً : انهم لم يكونوا رجالاً مؤذين .

فسأل لوبيرون مغتاظاً :

– ولماذا ترانا نشعل نحن النار ؟ اننا لسنا متوحشين .
– ولماذا تراهم يشعلونها ، هم ؟ أين سيقيمون ؟
ورفع جندي ملتحٍ يده فقال :
– لا بدّ ان بعض اللؤماء عندنا ارادوا ان يتخابثوا : فأطلقوا النار . فاذا سقط قتيل واحد من الألمان ، أحرقوا القرية .
فالتفتت اليه المرأة قلقة ، وسألت :
– وانتم ؟
– ماذا ، نحن ؟
– ألن تفعلوا حماقات ؟
فأخذ الجنود يضحكون ، وقال أحدهم في أقتناع :
– آه ! تستطيعين ان تنامي قريرة العين، معنا . اننا نعرف الحياة.
وكانوا يتبادلون النظر ويضحكون بهيئة مشاركة :
– نعرف الحياة ، نعرف الحياة .
– اتظنّين ، اننا سنختلق اسباب الخصام مع الألمان ، عشية توقيع السلام ؟
وكانت المرأة تداعب رأس صغيرها ؛ وسألت بصوت متردّد :
– أهو السلام ؟
فقال المدرّس في قوة :
– نعم ، هو السلام . هو السلام . هذا ما ينبغي ان نقوله :
فحدثت رعشة في الجمع ، وسمع ماتيو خلف ظهره نسمةً صغيرة من كلام فرح :
– انه السلام ، انه السلام .
كانوا ينظرون الى روبيرفيل تحترق ويرددون فيما بينهم : لقد انتهت الحرب ، انه السلام ؛ وكان ماتيو ينظر الى الطريق : كانت تفلت من الليل ، على بعد مئتي متر ، وتسيل بياضاً متردداً حتى قدميه

ثم تمضي خلفه فتغسل البيوت ذوات المصاريع المغلقة . طريق جميلة تغري بالمغامرة والموت ، طريق جميلة ذات اتجاه واحد . كانت قد وجدت وحشية الانهار القديمة : وهي ستحمل غداً حتى المدينة سفناً محمّلة بالقتلة . وتنهّد شارلو ، فشدّ ماتيو على ذراعـــه من غير ان يقول شيئاً .

وقال صوت : — ها هم اولاء !

— ماذا ؟

— الالمان ، اقول لك : ها هم أولاء !

وكان الظلام قد تحرّك ، وكان جنود في وضع استكشاف ، يخرجون واحداً اثر واحد من ماء الليل الأسود، وبنادقهم تحت اذرعهم . كانوا يتقدمون على مهل ، وحذر ، مستعدّين للإطلاق .

— ها هم اولاء ! ها هم اولاء !

وصُدم ماتيو ودُفع : كان اهتزاز واسع مبهم ينفض الجمع حوله . وصاح لوبيرون :

— لنهرب ايها الرفاق !

— هل انت مجنون ؟ لقد رأونا ، فلم يبق الا ان ننتظرهم .

— ننتظرهم ؟ سوف يطلقون النار علينا ، نعم .

وأطلق الجمع زفرة هائلة مرهقة ؛ وثقب الليلَ صوت المدرّس الحاد :

— النساء الى الوراء . والرجال : اتركوا بنادقكم اذا كان لديكم بنادق ، وارفعوا ايديكم في الهواء .

وصاح ماتيو مجروحاً :

— يا لكم من فروج حمقى ! انكم ترون جيداً انهم فرنسيون .

— فرنسيون ...

وسادت لحظة توقّف ، ووطءٍ مُراوِح ، ثم قال واحد بلهجة تحدٍّ :

— فرنسيون ؟ ومن أين يخرجون ؟

كانوا فرنسيين ، زهاء خمسة عشر رجلا يقودهم ملازم : وكانت لهم وجوه قاسية سوداء . واصطفّ أهالي القرية على حافتي الطريق ينظرون اليهم قادمين ، بلا صداقة . فرنسيون ، أجل ، ولكنهم كانوا قادمين من مقاطعة اجنبية وخطرة . ومعهم بنادق . عنـــد الليل الهابط . فرنسيون يخرجون من الظلام والحرب ، ويعودون بالحرب الى هـذه القرية التي سبق للسلام ان قام فيها . فرنسيون . باريسيون ، ربما ، او من سكان بوردو ؛ ليسوا ألماناً تماماً ؛ ومرّوا بين سياجين من العداء الرخو ، من غير ان ينظروا الى أحـــد ؛ وكان يبدو عليهم الفخر . وأطلق الملازم امراً فتوقفوا .

وسأل : — أية فرقة هنا ؟

ولم يكن يوجّه كلامه الى احد معين. وساد صمت ، فكرّر سؤاله، فقال رجل بلهجة مستاءة :

— الواحدة والستون .

— واين هم رؤساؤكم ؟

— مشطوبون .

— ماذا ؟

فكرر الجندي في اعتزاز واضح :

— مشطوبون .

ولوى الملازم حنكه ولم يجب .

— اين دار البلدية ؟

فتقدم شارلو وقال بملاطفة :

— الى اليسار ، في آخر الطريق . امامك مئة متر تمشيها .

فانفتل الضابط فجأة على نفسه ورمقه قائلاً :

— ما هذه الطريقة في التحدث الى رئيس ؟ الا يمكنك ان تقوّم الوضع ؟ وهل يخنقك ان تقول لي : يا سيدي الملازم ؟

ومرّت لحظات صمت . وكان الضابط ينظر الى شارلو في عينيه ؛ وحول ماتيو ، كان الافراد ينظرون الى الضابط . وأدى شارلو التحية العسكرية .

ـ سمعاً وطاعة ، يا سيدي الملازم .

ـ حسناً .

والقى الضابط نظرة احتقار دائرية ، وقام بحركة ، فعاود الفريق سيره . وتطلع اليهم الافراد ينغمسون في الليل دون ان ينسبوا بكلمة .

وسأل لوبيرون بمشقة :

ـ ألم ننته من الضباط بعد ؟

فردّد صوت عصبي بمرارة :

ـ الضباط ؟ انك لا تعرفهم . سيظلون يبعصوننا حتى النهاية .

وصاحت امرأة فجأة :

ـ انهم لن يقاتلوا هنا ، على الاقل ؟

فندت ضحكات من الجمع ، وقال شارلو بصوت مفرط الحلم :

ـ لا تخافي يا ماما ، فليسوا مجانين .

وعاد الصمت من جديد . وكانت جميع الرؤوس قد التفتت نحو الشمال . كانت روبيرفيل المعزولة التي أصبحت خارج نطاق الادراك ، وباتت اسطورية ، تحترق من نكد الطالع في بلدٍ أجنبي ، من الجهة الاخرى من الحدود. ان الصدام والقتال والحريق أمور تناسب روبيرفيل، وليست اموراً يمكن ان تحدث لنا نحن . وعلى مهل ، وبلا اكتراث ، أنفصل افراد عن الجمع وتوجهوا نحو القرية . كانوا عائدين ليناموا نومتهم القصيرة ، حتى يكونوا على استعدادٍ ، حين يصل الألمان عند الفجر . وفكر ماتيو : « اية قذارة ! » .

قال شارلو : ـ انني إذن انسحب .

ـ انت ذاهب للنوم ؟

ـ يقولون .

ـ اتريد ان أصحبك ؟

قال شارلو وهو يتثاءب :

ـ لا تزعج نفسك .

وابتعد ، وبقي ماتيـــو وحده . وفكر : « اننا عبيد ، نعم ، عبيد . » ولكنه لم يكن عاتباً على الرفاق ، فلم تكن تلك غلطتهم : لقد قضوا عشرة أشهر في الأشغال الشاقة ، وكان ثمة الآن نقل السلطة، فهم ينتقلون الى ايدي الضباط الألمان ، وسوف يحيّون « الفيلدووبل » و « الاوبرلوتنان » . ولم يكن الفرق كبيراً ، فان طبقة الضباط عالمية؛ كل ما في الأمر ، أن الأشغال الشاقة مستمرة . وفكر : انما أعتب على نفسي . ولكن كان يعتب على نفسه انه عتب على نفسه ، لأن تلك كانت طريقة في التعالي على الآخرين . كان رحيماً مع الجميع ، قاسياً مع نفسه : حيلة اخرى من جيل الكبرياء . بريء ومذنب ، مفرط القسوة ومفرط الرحمة ، عاجز ومسؤول ، متضامن مع الجميع ، ومرفوض من كل انسان ، متبصّر غاية التبصّر ، ومخدوع غاية الخداع ، عبدٌ وسيّد : الواقع اني كجميع الناس . وأحس بيدٍ على ذراعه . وكانت يد موظفة البريد . كانت عيناها تحرقان وجهها .

ـ إمنعه ، إن كنت صديقه .

ـ ماذا ؟

ـ انه يريد ان يقاتل : فامنعه .

وبدا بينيت خلفها ، ممتقعاً ، ميت العينين ، وعلى شفتيه بسمة رديئة .

فسأله ماتيو :

ـ ماذا تريد ان تفعل إذن ، ايها العنيد الصغير ؟

– أقول لك انه يريد ان يقاتل ، لقد سمعته : فهو قد ذهب يلقى الكابيتن ويقول له انه يريد ان يقاتل .

– اي كابيتن ؟

– الذي مر مع رجاله .

وكان بينيت يقهقه ، ويداه خلف ظهره .

– لم يكن « كابيتين » ، بل هو ملازم .

وسأله ماتيو : – أصحيح انك تريد ان تقاتل ؟

فأجاب : – انكم جميعاً تزعجونني !

وقالت موظفة البريد : – أترى ! أترى ! لقد قال انه يريد ان يقاتل . وقد سمعته .

– ولكن من قال لك انهم سيتقاتلون ؟

– ألم ترهم اذن ؟ ان في عينيهم الجريمة . وهو (واومأت بأصبعها الى بينيت) انظر اليه ، انه يخيفني . فهو شيطان !

وهز ماتيو كتفيه :

– ماذا تريدين مني ان افعل به ؟

– ألست صديقه ؟

– بلى .

– اذا كنت صديقه ، فعليك ان تقول له انه لا يحق له ان يعرّض نفسه للقتل .

وتشبثت بكتفي ماتيو :

– لا يحق له ذلك !

– ولماذا ؟

– انت تعرف السبب جيداً .

فبسم بينيت بسمة قاسية ورخوة :

– انا جندي ، فيجب ان أقاتل : إن الجنود قد خلقوا لذلك .

– كان ينبغي اذن الا تأتي للبحث عني .

وقبضت على ذراعه ، وأضافت بصوت واعش :

– انك لي .

فتخلص بينيت :

– لست لأحد .

قالت : – بلى ، انت لي (والتفتت الى ماتيو ونادته بلهجة نارية) ولكن ، قل له انت ! قل له انه لا يحق له بعد ان يعرّض نفسه للقتل ! انه واجبك ، ان تقول له ذلك .

وصمت ماتيو ، فتقدمت نحوه ، ووجهها يلتهب : وللمرة الاولى، وجدها ماتيو قابلة للاشتهاء .

– انت تزعم انك صديقه ، وسواء لديك ان يناله بعد ذلك أذى ؟

– كلا ، ليس الأمر سواء لدي .

– أتجد من المستحسن ان يذهب فيطلق بندقيته كالأحمق على جيش برمته ؟ وليت ذلك يفيد شيئاً بعد ! ولكنك تعلم جيداً ان ليس ثمة من يقاتل بعد .

قال ماتيو : – أعلم .

– ماذا تنتظر اذن لتقول له ذلك ؟

– انتظر أن يسألني رأيـي .

– هنري ! أبتهل اليكِ : اطلب منه النصيحـــة ، فهو اكبر منك سناً ، ولا بد ان يعرف .

فرفع بينيت يده علامة الرفض ، ولكن جاءته فكرة فترك ذراعه تسقط وهو يغض عينيه بهيئة مرائية لم يكن ماتيو يعهدها فيه :

– أتريدين ان أناقش الأمر معه ؟

– نعم ، ما دمت لا تحبني حباً كافياً لتصغي الي .

– حسناً . اتفقنا . ولكن يجب ان تذهبي .

– لماذا ؟
– لأني لا اريد ان اناقش بحضورك .
– ولكن لماذا ؟
– هكذا ! ليست هذه شؤوناً نسائية .
– انها « شؤوني » ما دام الأمر متعلقاً بك .
فقال مغتاظاً : – آه ، انك تفقرين لي بيضتي !
وغرس مرفقه في جنب ماتيو ، فقال ماتيو بحيوية :
– لا حاجة بك حتى لأن تذهبي : فسوف نتمشى قليلاً على الطريق، وليس عليك الا ان تنتظرينا هنا .
– نعم ، ثم لا تعودان .
قال بينيت : – انك مجنونة ! اين تريديننا ان نذهب ؟ سنكون على بعد عشرين متراً منك ، وسترييننا طوال الوقت .
– واذا قال لك صديقك بالا تقاتل ، فهل تصغي اليه ؟
قال بينيت : – بالتأكيد . انني افعل دائماً ما يقوله .
فتعلقت بعنق بينيت .
– أتقسم لي بأن تعود ؟ حتى ولو قررت ان تقاتل ؟ حتى ولو نصحك صديقك ؟ انني أفضل تحمل كل شيء على الا اراك ثانية . أتقسم لي ؟
– نعم ، نعم ، نعم .
– قل انك تقسم ! قل : أقسم على ذلك .
قال بينيت : – أقسم على ذلك .
فقالت لماتيو : – وانت ، هل تقسم على ان تعيده الي ؟
– طبعاً .
قالت : – لا تبقيا طويلاً ، ولا تبتعدا .
ومشيا بضع خطوات على الطريق ، في اتجاه روبيرفيل ، وكانت

ادغال واشجـــار تنبثق من الظلام . وبعد لحظة ، التفت ماتيو : فاذا موظفة البريد منتصبة متوترة ، يكاد الليل يمحوها ، وهي تجهد لتميّزهما في الظلمات . خطوة اخرى ، وامحت تمـــاماً . وفي تلك اللحظة ، صاحت :

— لا تذهبا بعيداً ، فانا لا اراكما بعد .

فأخذ بينيت يضحك ، وكور يديه فوق فمه وصاح :

— اوهو ! اوهوهو ! اوهوهوهو !

فتابعا سيرهما . وكان بينيت ما يزال يضحك :

— كانت تود ان تجعلني اصدّق انها عذراء ؛ هذا هو السبب .

— آه !

— هذا ما تقوله هي . اما انا ، فلم ألاحظ ذلك .

— هناك فتيات على هذا النحو : تحسب انهن يكذبن عليك ، ثم تتبين انهن عذراوات حقاً .

فقال بينيت مقهقهاً : — هكذا اذن ؟

— هذا يحدث .

— ماذا تقول ! حتى ولو أقررت ذلك ، فسيكون اتفاقاً عجيباً ان يحدث هذا لي بالذات .

فابتسم ماتيو من غير أن يجيب ، وهز بينيت رأسه في الخلاء .

— ثم اسمع . انني لم أغتصبها . حين تكون الفتاة رصينة ، فهي تجعلك تجهد كثيراً حتى تصل اليها . خذ مثلاً زوجتي : لقد كنـــا كلانا نموت رغبة ، ولكن لم يحدث شيء قط قبل ليلة العرس .

وشق الهواء بيد قاطعة :

— لا تخلط الامور : فهذه الفتاة ، كان يتأكلهـــا حيث افكر ، واعتقد جيداً انني انا الذي اديت لها خدمة .

— واذا جعلتها تحمل ؟

فقال بينيت دهشاً : — انا ؟ آه ، لا ، لا ! انك لا تعرفني . فانا النكّاح القانوني . لم تكن زوجتي تريد اولاداً لأننا كنا فقيرين اكثر مما ينبغي ، فتعودت ان اراقب نفسي . لا ، لا . لقد حصلت على لذتها ، وانا كذلك : فنحن سواء .

قال ماتيو : — اذا كانت هذه هي المرة الاولى حقاً ، فسيكون امراً نادراً جداً ان تكون قد حصلت على لذة .

قال بجفاء : — طز ! انها في هذه الحالة هي المخطئة .

وصمتا . وبعد لحظة ، رفع ماتيو رأسه وبحث عن عيني بينيت في الظلام .

— أصحيح انهم سيقاتلون ؟

— صحيح .

— في القرية ؟

— واين تريد ان يقاتلوا ؟

فانقبض قلب ماتيو ، ثم فكر فجأة في لونجان متقيئاً تحت شجرته ، وفي غيكيولي متمرغاً على الارض الخشبية ، وفي لوبيرون الذي كان ينظر الى روبيرفيل تحترق فيصيح : « انه السلام » . وضحك من فرط الغضب .

— لماذا تضحك ؟

قال ماتيو : — بسبب الرفاق . سيواجهون مفاجأة طريفة .

— صحيح ؟

— هل يريدك الملازم ؟

— اذا كان معي بندقية . قال لي : تعال اذا كانت معك بندقية .

— وهل انت مصمم تماماً ؟

فضحك بينيت ضحكة متوحشة . وبدأ ماتيو يقول :

— هناك ...

فالتفت بينيت فجأة اليه :
– انني بالغ سد الرشد . فلست بحاجة الى نصيحة .
قال ماتيو : – حسناً . اذن ، لنرجع .
فقال بينيت : – لا ، بل تقدّم .
فتقدما بضع خطى . وقال بينيت بغتةً :
– اقفز في الحفرة .
– كيف ؟
– هيا ! اقفز !
وقفزا، وتسلقا الكثيب، فالفيا نفسها وسط القمح، وقال بينيت موضحاً :
– الى اليسار ، هناك ممر يفضي الى القرية .
وتعثّر ماتيو ، فسقط على ركبته ، وقال :
– يلعن دين ! أية حماقة تجعلني ارتكبها ؟
فأجاب بينيت : – انني لا أطيق ان أراها بعد .
وسمعا صوت امرأة آتياً من الطريق :
– هنري ! هنري !
قال بينيت : – كم هي لصقة ملحاح !
– هنري ! لا تتركني !
وجذب بينيت ماتيـــو من ذراعه ، فانبطحا بين القمح ، وكان صوت موظفة البريد يسمع وهي تعدو في الطريق ، وتطايرت حزمة سنابل على وجه ماتيو ، وفرّ حيوان من بين يديه .
–هنري ! لا تتركني ، افعل ماتشاء ، ولكن لا تتركني . عد اليّ . هنري ، لن اقول شيئاً ، أعدك بذلك ، ولكن عُدْ ، ولا تتركني هكذا ! هنري - ي - ي - ي ! لا تتركني من غير ان تقبّلني .
ومرّت الفتاة بقربهما ، لاهثة . وهمس بينيت :
– من حسن الحظ ، ان القمر لم يظهر بعد .

وكان ماتيو يتنسم رائحة ارض قوية ؛ كانت الارض رطبة ورخوة تحت يديه ، وكان يسمع نفَسَ بينيت الأبح ويفكر : « سوف يقاتلون في القرية . » وصاحت الفتاة مرتين اخريين بصوت يقطعه القلق ، وفجأة ارتدت على اعقابها وأخذت تعدو باتجاه معاكس .

قال ماتيو : — انها تحبك .

فأجاب بينيت : — طز فيها !

ونهضا . فرأى ماتيو ، الى الشمال الشرقي ، فوق السنابل تماماً ، الكرة النارية التي كانت تنوس . « اذا سقط للالمان قتيل واحد ، احرقوا كل شيء . »

وسأله بينيت في تحدّ :

— وإذن ؟ أتراك لن تؤاسيها ؟

قال ماتيو : — انها تزعجني . ومهما يكن ، فان حكايات الفرج لا تثير حماستي اليوم . ولكنك قد أخطأت في مضاجعتها ، اذا كان قصدك ان تتركها بعد ذلك .

قال بينيت : — آه ، خراء ! الانسان معك ، دائماً على خطأ .

قال ماتيو : — هذا هو الممر .

ومشيا لحظة . وقال بينيت :

— القمر !

فرفع ماتيو رأسه ، ورأى ناراً اخرى في الافق : كان ذلك حريقاً فضياً .

قال بينيت : — سنكون لهم كرتوناً سهلا !

قال ماتيو : — على اي حال ، لا اعتقد انهم سيأتون قبل صباح الغد .

وأضاف بعد لحظة ، من غير ان ينظر الى بينيت :

— ستعرّضون انفسكم حتى يقتلوكم عن آخركم .

قال بينيت بصوت أبح :

ـ انها الحرب .

قال ماتيو : ـ الحقيقة ان لا . انها ليست الحرب « بعد » .

ـ لم توقع الهدنة .

وأخذ ماتيو يد بينيت فشدها قليلا بين اصابعه : كانت مثلجة .

ـ هل انت متأكد بأنك راغب في ان تُقتل ؟

ـ لست راغباً في ان أُقتل : وانما انا راغب في قتل الماني ..

ـ الأمران مرتبطان .

وخلص بينيت يده من غير ان يجيب . وأراد ماتيو ان يتكلم ، وكان يفكر :

« انه يموت من اجل لا شيء » وكان هذا يخنقه . ولكنه أصيب فجأة بالبرد ، فصمت : « بأي حق امنعه من ذلك ؟ وماذا لدي لأهبه إياه ؟ » والتفت الى بينيت وصفر بهدوء : كان بينيت غير قابل للادراك ؛ كان يمشي اعمى في ليله الاخير ؛ كان يمشي ، ولكنه لم يكن يتقدم : كان قد وصل ، وكان موته ومولده قد اتصلا ، كان يمشي تحت القمر ، وكانت الشمس القادمة قد بدأت تضيء جروحه . كان قد كف عن ان يجري وراء نفسه ، فقد كان حاضراً كله في ذاته ، بينيت برمته ، كثيفاً ومغلقاً . وتنهد ماتيو وأخذ له ذراعه في صمت ، اخذ ذراع موظف شاب في المترو ، نبيل وعذب وشجاع ورقيق كان قد قتل يوم ١٨ حزيران ١٩٤٠. وبسم له ، ومن اعماق الماضي ، بسم له بينيت ؛ ورأى ماتيو البسمة واحس بأنه وحيد تماماً. ينبغي لتحطيم هذه القشرة التي تفصله عني ألا اريد بعدُ مستقبلا آخر غير مستقبله ، ولا شمساً اخرى غير التي سيراها غداً للمرة الاخيرة ؛ ولكي اعيش الدقائق نفسها ، في الوقت نفسه ، يجب ان اريد ان ان اموت الميتة نفسها . وقال بهدوء :

– الحقيقة ان عليّ أنا ان اذهب للقتال بدلاً منك. لأنني انا ، لا املك بعد اسباباً للحياة كما تملك .

فنظر اليه بينيت في فرح ، كانا قد عادا فأصبحا تقريباً متعاصرين.

– انت ؟

– لقد خدعت نفسي منذ البدء .

قال بينيت : – حسناً ، ليس لك الا ان تأتي . اننا نمحو كل كل شيء ونبدأ من جديد .

فابتسم ماتيو وقال :

– نمحو كل شيء ، ولكننا لا نبدأ من جديد .

فوضع بينيت يده حول عنقه ، وقال في شغف :

– دولارو ، يا صديقي الصغير ، تعال معي ، تعال . انه ليسرني، لو تعلم ، ان نكون معاً نحن الاثنين : فأنا لا اعرف الآخرين .

وتردد ماتيو : ان يموت ، فيدخل في خلود هذه الحياة التي سبق لها ان ماتت ... ان يموتا معاً ... وهز رأسه :

– لا

– ماذا ، لا ؟

– لا اريد .

– هل انت خائف ؟

– لا ، بل اجد ذلك سخيفاً .

ان يشق يده بضربة سكين ، ان يقذف خاتم الزواج ، ان يطلق النار على الالمان: ثم ماذا بعد ذلك ؟ التحطيم والتخريب: ليس ذلك بالحل ؛ وضربة عناد ، ليس هذا هو الحرية . ليتني فقط استطيع ان اكون « متواضعاً » . وسأل بينيت مغتاظاً :

– ولماذا تراه سخيفاً ؟ اريد ان اقتل المانياً ؛ ليس في ذلك اي سخف .

– بوسعك ان تقتل مئة ، فان الحرب ستكون خاسرة مع ذلك .
فقهقه بينيت :
– سأنقذ الشرف !
في نظر من ؟
وكان بينيت يسير خافض الرأس ، من غير ان يجيب. وقال ماتيو:
– وحتى لو نصبوا لك تمثالاً ، حتى ولو نثروا رمادك تحت «قوس النصر » . ايستحق ذلك تعريض قرية برمتها للحرق ؟
قال بينيت : – لتحترق ، فهذه هي الحرب .
– هناك نساء واطفال .
– ليس عليهم الا ان يلتجئوا الى الحقول . آه ! (واضاف بهيئة بلهاء) يجب ان تنفجر الفرقعات !
ووضع ماتيو يده على ذراعه :
– ألى هذا الحد تحبها اذن ، زوجتك ؟
– ما دخلها في هذا ؟
فسأله ماتيو : – أمن اجلها تريد تعريض نفسك للموت ؟
فصاح بينيت : – انك تضحكني ! لقد مللت تفسيراتك . اذا كان هذا هو كل ما تنتجه الثقافة ، فسوف أتعزى من انني لا املكها.
وكانا قد بلغا بيوت القرية الاولى؛ وبغتة، اخذ ماتيو يصيح هوايضاً:
– كفى ! كفى ! كفى !
وتوقف بينيت لينظر اليه :
– ماذا دهاك ؟
فقال ماتيو مشدوهاً :
– لا شيء . انني اصبح مجنوناً .
فهز بينيت كتفيه وقال :
– يجب ان ادخل الى المدرسة . ان البنادق موجودة في غرفة الدرس.

وكان الباب مفتوحاً : فدخلا . وكان ثمة جنود ينامون على بلاط الرواق . واخرج بينيت مصباح جيبه ، فارتسمت على الجدار دائرة مضيئة .

— هنا .

وكان ثمة ركام من البنادق ، فأخذ بينيت احداها ، وتفحصها طويلاً على ضوء مصباحه ، ثم وضعها وأخذ غيرها وفحصها بعناية . وكان ماتيو يستشعر الخجل لكونه قد صرخ : يجب ان ينتظر المرء وان يحتفظ بذهنه صافياً . ان يحتفظ بنفسه لفرصة مناسبة . إن ضروب العناد لا تيسر أمراً . وبسم لبينيت .

— يبدو عليك وكأنك تختار سيكاراً .

وأخذ بينيت السلاح فوضعه راضياً على كتفه :

— اني آخذها . هيا بنا .

قال ماتيو : — اعطني مصباحك .

وأمر نور المصباح على البنادق : فكانت تبدو ضجرة ، ادارية ، كأنها آلات كاتبة . وقد كان صعباً ان يفكر المرء ان بوسعه ان يقتل بمثل هذه الادوات . وانحنى فتناول احداها بلا تمييز .

وسأله بينيت مندهشاً :

— ماذا تفعل ؟

قال ماتيو : — كما ترى : انني آخذ بندقية .

قالت المرأة ، وهي تصفق الباب في وجهه :

— لا .

وظل على الدرج ، مسترخي الذراعين ، على تلك الهيئة المظلومة التي يتخذها حين لا يستطيع بعدُ ان يخيف ، وتمتم « ايتهـــا الساحرة

العجوز » بصوت مرتفع بما فيه الكفاية حتى اسمعه ، ومنخفض بما فيه الكفاية حتى لا تسمعه ، كلا ، كلا ، ياعزيزي المسكين جاك : كل شيء ما عدا « ســاحرة عجوز » . اخفض الآن ، اخفض عينيك الزرقاوين ، وانظر ما بين قدميك : إن العدالة، لعبتك الرجالية الجميلة، هي مهشمة ، عُد الى السيارة « بخطوتك » الأليمة الى ابعد حد ، انا اعرف : ان الاله الرحيم مدين لك بحساب ، ولكنكما ستسويان الأمر يوم الحساب (وعاد الى السيارة « بخطوته » الأليمة الى ابعد حد) . اما بشأن « ساحرة عجوز » فلا ؛ كان بوسعه ان يجد شيئاً آخر ، ان يقول « جلد قديم ، حطام قديم ، شيء قديم ، ولكن لا « ساحرة عجوز » انك تحسدينه على لغتــه العامية ؛ كلا ، ما كان ليقول شيئاً ، كان الناس ليفتحوا لنا ابوابهم على سعتها ، وليعطونا سريرهم وأغطيتهم وقمصانهم ، وكان ليجلس على حافة السرير ، فيضع باطن يده الكبيرة على الغطاء الاحمر ، وكان ليقول في احمرار : « اوديت ، انهم يظنوننا زوجاً وامرأة » وما كنت لأقول شيئاً ، وكان ليقول : « سأنام على الارض الخشبية » وكنت لأقول : « ولكن لا ، لا بأس ، انها ليلة وتنقضي بسرعة ، فلنم في السرير نفسه ؛ تعال يا جاك ، تعال ، فأغلقْ عيني ، واسحق فكري ، اشغلني ، كن ثقيلاً ، متطلباً ، مستأثراً ، لا تتركني وحدي معه » وأتى ، فهبط الدرج ، شفافاً ، متوقّعاً جداً حتى ليشبه ذكرى ، سوف تنشق وأنت ترفع حاجبك الأيمن ، وستطبّل على الغطاء ، وستنظر اليّ بعمق ، وقام بنشقته ، وبرفع حاجبه ، وبنظرته العميقة المفكرة ، وكان هنا ، منحنياً فوقها ؛ كان يطفو في هذا الليل الضخم القاسي الذي كانت تداعبه بأطراف اصابعها ، يطفو ، بلا كثافة ، عادياً وعتيقاً ، فأرى عبره المزرعة المظلمة الكثيفة ، والطريق ، والكلب الذي يروح ويجيء ، كل شيء جديد ، كل شيء ما عداه ، انه ليس زوجــاً ، بل فكرة عامة ، اناديه ، ولكنه لا

يساعد . وبسمت له ، لأنه ينبغي دائماً ان تبسم لهم ، ومنحته الهدوء وعذوبة الطبيعة ، تفاؤل المرأة السعيدة الواثق ؛ وكانت من تحت تذوب في الليل ، تذوب في هذا الليل النسائي الكبير الذي كان يخفي ماتيو ، في مكان ما من قلبه ؛ ولم يبتسم ، وحك أنفه ، تلك حركة استعارها من أخيه ، وانتفضت : ولكن بمَ تراني قد فكرت ، انني أنام واقفة ، فلست بعد هذه المرأة العجوز الوقحة ، لقد حلمت ، واستغرق الكلام في ليل حلقها ، ونُسي كل شيء ، ولم يكن باقياً على السطح الا عموميتهما المزدوجة الهادئة . وسألت بمرح :

— وإذن ؟

— غير وارد . يدعون ان ليس عندهم عنبر ؛ ولكني أراه ، عنبرهم . إنه في اقصى الحديقة . ليست لي مع ذلك هيئة لصّ يجوب الطرقات .

قالت : — اسمع ، لا شك في اننا لا نبدو في حالة لامعة ، بعد اربع عشرة ساعة من السير .

فنظر اليها بمزيد من التنبه ، فأحست ان انفها ، تحت النظر ، يبرق كأنه منارة ؛ سيقول لي إن انفي يبرق ، وقال :

— ان تحت عينيك جيوباً ، يا عزيزتي المسكينة : فلا بدّ انك مرهقة .

فأخرجت بحيوية علبة البودرة من حقيبتها ، ونظرت في المرآة بقسوة ؛ انني أخيف : لقد كان وجهها ، تحت ضوء القمر ، يبدو مرخماً بلطخات سود ؛ قد تكون البشاعة محتملة ، ولكني استفظع القذارة. وسأل جاك في تبرّم :

— ما عسانا نفعل ؟

وكانت قد سحبت ممسحتها ، فجعلت تمررها على وجنتيها وتحت عينيها ، وقالت :

– ما تشاء .

– اني أستشيرك .

وكان قد التقط اليد التي تمسك بالممسحة فجمدها بسلطة باسمة . انني استشيرك ، استشيرك هذه المرة ، كلما استشرتك ؛ يا صديقي العزيز ، انت تعلم جيداً انك لن تتبع رأيي . ولكنه كان بحاجة الى نقد افكار الآخرين ، ليعي أفكاره . وقالت كيفما تأتى لها :

– لنتابع ، فربما وجدنا اناساً ألطف .

– لا ، شكراً ! إن التجربة تكفيني . ها ! (وأضاف بقوة) انني احتقر الفلاحين !

– اتريد ان نظل سائرين طوال الليل بالسيارة ؟

– طوال الليل ؟

– سنكون صباح الغد في غرنوبل ، فيكون بوسعنا ان نرتاح لدى اسرة « بلبريو » ، ثم نستأنف بعد الظهر لننام في كاستيلان : وسنصل الى « جوان » بعد الظهر .

– انك لا تقدرين هذا !

واتخذ هيئته الرصينة ليضيف :

– انني متعب جداً ، وسوف أنام وراء المقود ونستيقظ في الحفرة .

– أستطيع ان أحل محلك .

– يا حبيبتي ، ضعي دائماً في رأسك فكرة انني لن ادعك ابداً تسوقين في الليل . فستكون العملية ، بسبب نظرك الحسير ، عملية قتل . إن الطرقات مزدحمة بالعربات والشاحنات والسيارات : أشخاص لم يمسوا المقود في حياتهم ، وقد انطلقوا مع ذلك ، يخبطون خبط عشواء ، بدافع الذعر . كلا : اننا بحاجة الى أعصاب رجل .

وانفتحت مصاريع ، فبرز رأس على نافذة ، وقال صوت خشن :

– اترانا نستطيع ان ننام بهدوء ؟ إذهبا فتحدثا بعيداً ! يلعن دين !

فقال جاك بسخرية صافعة :

ـ شكراً كثيراً يا سيدي ، انك مؤدب جداً ومضياف !

وغرق في السيارة ، فصفق البـــاب وأقلع بوحشية ؛ ونظرت اليه اوديت بطرف عينها : كان الأفضل ان تصمت ؛ انه يسير ثمانين على الاقل ، مطفئاً كـــل أنواره لأنه كان يخشى الطائرات ؛ ومن حسن الحظ ، ان القمر بدر . وانقذفت الى الباب :

ـ ماذا تفعل ؟

كان قـــد حاد بالسيارة ، من غير ان يخفف السير ، الى طريق معترضة . وسار فترة اخرى ، ثم توقف فجأة . فصف السيارة في آخر الطريق ، تحت باقة من الشجر .

ـ سننام هنا .

ـ هنا ؟

وفتح الباب ، فهبط من غير ان يجيب ، فانسلت خلفه ، وكان الهواء رطباً تقريباً .

ـ اتريد ان ننام خارجاً ؟

ـ كلا .

فنظرت بأسف الى العشب الأسود الرقيق ، وانحنت فجسته كما تجس الماء .

ـ اوه ! جاك ! سنكون في وضع مريح ؛ وبوسعنا ان نخرج الأغطية مع وسادة .

فردد : ـ كلا (وأضاف بحزم) سننام في السيارة ، فنحن لا نعرف من يمر على الطرقات في هذه اللحظة .

وكانت تنظر اليه يذرع الطريق جيئة وذهاباً ، يداه في جيبه ، وخطوته فتية راقصة ؛ فاي شيطان يغني في الأشجار ، فيضطر جاك الى القفز والرقص على الإيقاع . وأدار نحوها سحنة مهمومة شائخة ،

ذات عينين هاربتين : هناك أمرٌ ذو بال ؛ لكأنه كان يشعر بالعار ؛ وعاد الى السيارة ، وكانت نضارة الآلة السحرية وانطلاقها قد ذابا فيه ، وسالا حتى قدميه يستخفّانه بجذل . كان يكره النوم في السيارة . فمن تراه يعاقب ؟ أيعاقب نفسه ، ام يعاقبني ؟ وكانت تحس نفسها مذنبة ، من غير ان تعرف الذنب . وسألها :

– لماذا تبدين متجهمة هكذا ؟ ها نحن على دروب المغامرة الكبيرة : فينبغي ان تكوني مسرورة .

فخفضت عينيها : لم اكن اريد الرحيل ، يا جاك ، انني أسخر بالألمان ، وكنت اريد ان ابقى في بيتي : فاذا استمرت الحرب ، قُطعنا عنه ، بل لن نعرف إن كان قد قتل . وقالت :

– افكر في اخي وفي ماتيو .

قال جاك في بسمة مريرة :

– إن راوول في هذه اللحظة، موجود في كاراكاس ، في سريره .

– وليس ماتيو .

فاجاب جاك : – اذكري جيداً ان أخي قد عُيّن في الخدمات الفرعية . وهو بهذا لا يجابه ايّ خطر . كل ما في الامر انه قد يكون أسيراً . انت تتصورين ان جميع الجنود أبطال . ولكن لا ، يا عزيزتي المسكينة : إن ماتيو كاتب بسيط في اركان حرب غير محدد؛ فهولا يقل اطمئناناً عما اذا كان في المؤخرة، بل لعله اكثر اطمئناناً منا في هذه اللحظة . وهم يسمون هذا « مخبأ » في لغتهم الخاصة . والحق اني أهنيء نفسي من أجله .

فقالت اوديت من غير ان ترفع عينيها :

– ليس طريفاً ان يكون المرء أسيراً .

فتأملها برصانة .

– لا تقوّليني ما لم أقله ! إن مصير ماتيو يُحدث لي قلقاً كبيراً .

ولكنه شخص صلب ، يعرف ان يتدبر أمره بشطارة . بلى ، بلى ، شاطر اكثر مما تظنين ، بالرغم من منظره الشارد ، وانا اعرفه خيراً مما تعرفينه . إن في تردداته ، السرمدية عمقاً وصلابة ، وهو صاحب شخصية . وسوف يتدبر امره هناك لايجاد الوضع المناسب : انني أتمثله ناجحاً في ان يكون سكرتيراً لضابط ألماني ، او طباخاً ... إن هذا يناسبه كما يناسب القفّاز يداً ! (وابتسم وردد بتلذذ) طباخ ، أجل ، طباخ ، كالقفاز (وأضاف في مسارّاة) اذا اردت ان تعرفي فانني اعتقد ان الأسر سيثقل رأسه ويزيل شروده ، فيعود الينا رجلاً آخر .

فسألت اوديت ، منقبضة الحلق :

— وكم يدوم الأسر !

— كيف تريدينني أن أعرف ذلك ؟

وهز رأسه وقال :

— ان ما يمكنني ان اقوله لك هو اني لا ارى ان الحرب يمكن ان تدوم وقتاً طويلاً . ان الهدف التـالي للجيش الالماني هو انكلترا ... و « الشانيل » ضيق جداً ...

قالت اوديت : — سيدافع الانكليز عن أنفسهم .

— بكل تأكيد . بكل تأكيد (وباعد بين ذراعيه في ارهاق) وانا لا ادري ان كان علينا ان نتمنى ذلك .

ماذا ينبغي ان نتمنّى ؟ ماذا ينبغي ان نتمنّى ؟ كان الامر في البدء يبدو بسيطاً : كانت قد ظنّت انها ينبغي ان تتمنى النصر ، كما في عام ١٤ . ولكن لم يكن ثمة من يبدو عليه انه يشتهيه . لقد ابتسمت في جذل . كما رأت امها تبتسم ، ساعة هجوم « نيفل » ، ورددته بقوة : « أجل ! سننتصر : ويجب ان نقول بيننا اننا « لا يمكن » الا ننتصر . » وكان ذلك يوحي لها بالاشمئزاز من نفسها ، لأنها كانت تحتقر الحرب حتى ولو في النصر . ولكن الناس كانوا يهزون رؤوسهم

من غير ان يجيبوا ، كما لو انها كانت تعوزها البصيرة ، فلزمت اذ ذاك الصمت ، وحاولت ان تجعل الجميع ينسونها ؛ كانت تسمعهم يتحدثون عن ألمانيا ، وعن انكلترا ، وعن روسيا ، فلم تكن تدرك حتى ما يريدونه ؛ وكانت تفكر : « لو كان هنا ، لشرح لي . ولكنه لم يكن هنا ، بل هو لم يكن حتى ليكتب : فطوال تسعة أشهر ، أرسل رسالتين لجاك . ما هو رأيه ؟ لا بدّ انه يعرف ، لا بد انه يدرك ، واذا لم يكن يدرك ؟ اذا لم يكن ثمة أحد يدرك ؟ ورفعت رأسها فجأة : كانت تودّ لو تجد لدى جاك تلك الهيئة من الوثوق القرير الذي كان ما يزال يطمئنها احياناً ، كانت تودّ لو تقرأ في نظره ان كل شيء على ما يرام ، وان الناس كانوا يملكون اسباباً للامل كانت تغيب عنها . أمل في اي شيء ! أصحيح ان انتصار الحلفاء لا يمكن ان يفيد غير روسيا ؟ كانت تسأل هذا الوجه المألوف اكثر مما ينبغي ، وفجأة بدا لها وجهاً جديداً : لقد رأت عينين مسودّتين بالقلق ؛ وكان قد بقي بعض العبوس عند زاويتي الشفتين ، ولكن ذلك كان غطرسة متجهمة لصبي اكتُشفت غلطته . « إنه يشكو شيئاً ، فهو غير مطمئن . » والواقع انه كان يتصرف بغرابة ، منذ تركا باريس ، فيبدو تارة اعنف مما ينبغي ، وطوراً أرق مما ينبغي . انه لمريع ان يبدو الرجال وكأنهم يُحسّون بأنهم مذنبون . وقال :

— انني اموت رغبة في التدخين .

— اليس معك سكاير بعد ؟

— لا .

قالت : — خذ ، بقي معي اربع منها .

وكانت سكاير « دوريزك » ، فمطّ شفتيه ، وتناول احداها متحدياً ، وقال وهو يضع العلبة في جيبه :

— انها من القش !

ولاول نفثة نفثها ، شمّت اوديت رائحة التبغ ؛ وجففت حلقهـا رغبةٌ في التدخين . لمدة طويلة ، وبالرغم من انها كفت عن ان تحبه، كان يروق لها ان تستشعر العطش حين كان يشرب بقربها ، والجوع بينما يأكل ، وان تنعس إذ تنظر اليه نائماً ، كان ذلك يطمئنها : لقد كان يأخذ منها رغباتها ، فيطهـّرها ، ويُشبعها لها ، على نحو اكثر رجولة واخلاقية وحسماً . اما الآن ..

وقالت بضحكة خفيفة :

— اعطني منها واحدة على الاقل .

فنظر اليها من غير ان يفهم ، ثم رفع حاجبيه .

- اوه ! عفـواً ، يا عزيزتي المسكينة : لقـد كانت مني حركة آلية .

وأخرج العلبة من جيبه ، فقالت :

— تستطيع ان تحتفظ بالعلبة ، ولكن أعطني منها واحدة .

ودخنا في صمت ، وكانت خائفـة من نفسها ؛ كانت تتذكر الرغبات العنيفة والتي لا تقاوم التي كانت تزرع فيها الاضطراب اذ كانت فتاة . ربما كانت ستعاودها الآن . وسعل مرتين او ثلاثـاً ليصفي صوته : انه يريد ان يحدثني . ولكنه يتباطأ كالعادة . وكانت تدخن بصبر : انه سيدخل موضوعه من جانب ؛ كالعقارب . وكان قد استقام ، فألـّف ملامح وجهه ونظر اليها في قسوة . وقال :

— هكذا ، يا عزيزتي المسكينة اوديت !

فبسمت له بابهام . لمجرد ما سيقول . ووضع يده على كتفها :

— يجب ان تقرّي الآن انها مغامرة شاقة .

قالت : — نعم . نعم . انها كذلك .

وظل ينظر اليها . واطفأ سيجارته على عتبة السيارة وسحقها تحت

قدمه ؛ واقترب منها ، وقال لها بقوة ، كأنما ليقنعها :

— ولكننا لا نواجه اي خطر .

فلم تجب ؛ وتابع بصوت ملحّ ورقيق :

— انني على ثقة من ان الألمان سيتصرفون جيداً ، سيحرصون على ان يتصرفوا تصرفاً جيداً .

وكان هذا هو ما فكرت به دائماً . ولكنها قرأت في عيني جاك الجواب الذي كان ينتظره منها ؛ فقالت :

— من يدري ؟ واذا أغرقوا باريس بالخراب ؟

فهزّ كتفيه :

— ولكن كيف تظنين ذلك ؟ الحق ان هذه افكار نسوية !

وانحنى عليها ، وأوضح لها بصبر :

— اسمعي يا اوديت ، وحاولي بان تفهمي : لا شك في ان برلين ستكون لديها الرغبة ، بعد الهدنة مباشرة ، ان تجعل فرنسا ممثلة في عداد اعضاء « المحور » ، بل ربما كانوا يعتمدون هناك على نفوذنا في اميركا ليبقوا الولايات المتحدة خارج الحرب . هل تتابعينني جيداً ؟ وبكلمة واحدة ، إن لنا مزايا كثيرة ، حتى ولو هُزمنا . (وأضاف بضحكة صغيرة) بل سيكون هناك دور هام يلعبه رجالنا السياسيون اذا أحسوا انهم قادرون على ذلك . حسناً . في مثـــل هذه الشروط ، لا يمكن حتى ان نتخيّل الألمان وهم يوشكون ان يثيروا عليهم الرأي العام الفرنسي بارتكاب أعمال عنف غير مجدية .

فقالت منزعجة : — هذا رأيي بالذات .

— آه ؟

وكان ينظر اليها وهو يعضّ شفته ؛ وكان يبدو من شدة الحيرة ، بحيث اسرعت تضيف :

— ولكن مع ذلك ، كيف لنا ان نتأكد ؟ افرض انهم أطلقوا

عليهم النار من النوافذ ؟

فالتمعت عينا جاك :

– لو كان ثمة من خطر ، لبقيت . فانما صممت على الذهاب لأني كنت متأكداً من انه لم يكن هناك خطر .

وكانت تتمثله يدخل الصالون في هدوء كبير مستطار ، وتسمعه مرة اخرى يقول بأوضح صوت يملكه ، وهو يشعل سيجارة بيد ترتجف : « اوديت ، احزمي امتعتك ، فالسيارة تحت ، وسنرحل بعد ثلاثين دقيقة . » فما الذي يقصده ؟ وندّت منه ضحكة سيئة ؛ وقال في شكل من اختتام الحديث :

– على كل حال ، هذا ما يُسمّى « ترك المركز » .

– ولكن لم يكن لك مركز ؟

قال : – بل كنت قائد حاملة طائرات . (ودفع براحته اعتراضاً ممكناً) اعرف ان هذا مضحك ؛ وانا لم اقبل الا على إلحاح شامبوتوا. ولكن حتى هناك ، كان يمكنني ان اقدم خدمة . ثم انه كان علينا ان نكون قدوة .

وكانت تنظر اليه بلا ود : نعم ، نعم ، « نعم » كان عليك ان تبقى في باريس ، فلا تعتمد عليّ لأقول لك العكس . وتنهد :

– مهما يكن . ما حصل قد حصل . كان الامر يكون مريحاً اكثر مما ينبغي لو لم يكن لدينا الا واجبات متوافقة . (واضاف) انني أضجرك يا عزيزتي المسكينة . فهذه وساوس رجالية .

قالت : – احسب اني استطيع ان أفهمها .

– طبعاً ، يا صغيرتي ، طبعاً (وبسم بسمة رجولية متوحدة ثم أخذ معصمها وقال لها بصوت مطمئن) ولكن لنفكر : ماذا كان عساه يحدث لي ؟ في اسوأ الظروف كانوا ليأخذوا الرجال الأصحاء الى المانيا ، وبعد ذلك ؟ إن ماتيو هناك . صحيح أنه ليس له قلبي

الملعون . ولكن تذكرين ، حين سرّحني ذلك الماجور الأبله ؟

— نعم .

— لقد كنت مجنوناً من الغضب ، وكنت مستعداً ان افعل اي شيء : اتذكرين ؟ اتذكرين كم كنت غاضباً ؟

— نعم .

وجلس على عتبة السيارة ، ووضع رأسه بين يديه ؛ وكان ينظر امامه باستقامة ؛ وقال وعيناه ثابتتان :

— لقد بقي شرفوز .

— ماذا ؟

— لقد بقي . التقيت به هذا الصباح في المرأب ، وقد بدت عليه الدهشة ان أرحل .

فقالت بآلية : — ولكن الامر معه يختلف .

قال في مرارة : — نعم . في الواقع . فهو عازب .

وكانت اوديت واقفة الى يساره ، تنظر الى جلدة رأسه التي كانت تلمع ، في اماكن ، تحت شعره ، وتفكر : هذا هو السبب إذن !

وكانت عيناه غائمتين . وقال بين أسنانه :

— لم يكن ثمة من أستودعه إياك .

فتصلبت :

— ماذا ؟

— اقول اني لم اكن استطيع ان استودعك احداً . ولو جرؤت على انْ ادعك تذهبين وحدك الى بيت عمتك ...

فسألته بصوت مرتجف :

— أتعني انك انما رحلت بسببي ؟

فأجاب : — كانت هذه حالة ضميرية .

وكان ينظر اليها بشغف :

– في هـــذه الايام الأخيرة ، كنت ثائرة الأعصاب جداً : كنت تخيفيني .

وكانت بكماء من الذهول : ولكن لماذا يجب ؟ لماذا يعتقد نفسه مضطراً ؟

وكان يتابع بمرح يثير الأعصاب :

– كنت تبقين النوافذ مغلقة ، وكنا نعيش طوال النهار في الظلام ، وكنت تراكمين المعلبات ، وكنت امشي على عاب السردين .. وأظن بعد ذلك ان لوسيان كانت تسيء اليك كثيراً ، وحين كانت تخرج من بيتنا ، تتغيرين تماماً : لقد كانت شديدة الذعر ، وساذجة جداً ايضاً ، وتميل الى تصديق جميع قصص الاغتصاب والأيدي المقطوعة .

لا اريد . لا اريد ان اقول له ما يريد ان يحملني على قوله . فماذا يبقى لي في الدنيا اذا احتقرته ؟ وتراجعت خطوة الى الوراء ، وكان يحدد فيها نظراً فولاذياً ، ويبـــدو وكأنه يقول : « قوليها ، ولكن آن لك ان تقوليها ! » ومن جديد كان يشعر تحت هذا النظر النسري ، هذا النظر الزوجي ، بأنه مذنب ، ربمـــا ظن بأنه كانت لي رغبة في الرحيل ، وربما كنت ابدو خائفة ، وربما كنت خائفة من غير ان ادري . فما هو الصحيح ؟ ان ما كان صحيحاً حتى الآن ، هو ما كان يقوله جاك ، فاذا كففت عن تصديقه ، فماذا أصدق ؟ وقالت وهي تخفض رأسها :

– ما كنت احب ان أبقي في باريس .

فسألها بطيبة : – هل كنت خائفة ؟

قالت : – نعم . كنت خائفة .

وحين رفعت رأسها ، كان ينظر اليها وهو يضحك ، وقال :

– كفى ! كل هـــذا ليس خطيراً : صحيح ان قضاء ليلة تحت ضوء القمر لا يناسب عمرنا بعد ، ولكننا ما نزال نجد في ذلك بعض

السحر . (وداعب رقبتها قليلاً) اتتذكرين « هيار » عام ٣٦ ؟
لقد نمنا تحت الخيمة ، وهذه من ذكرياتي الجميلة .

فلم تجب ، وكانت قد وضعت يدها على مقبض الباب تشده بكل قواها . وخنق تثاؤبة .

— ولكن اصبح الوقت متأخراً . اتريدين ان ننام ؟

فأومأت برأسها ايجاباً . وصاح حيوان ليلي ، فانفجر جاك ضاحكاً ، وقال :

— إن هذا ريفي ! ادخلي الى السيارة (قالها بملاطفة) وتستطيعين ان تمدّي ساقيك قليلاً ، اما انا ، فسأنام على المقود .

ودخلا السيارة ، وأقفل بالمفتاح الباب الأيمن ، ودفع كاب الأيسر .

— هل انت مرتاحة ؟

— مرتاحة جداً.

وأخرج المسدس وتفحّصه في متعة ، وقال :

— هذا وضع كان يمكن ان يسحر جدي القرصان (وأضاف بمرح) اننا كلنا في الاسرة لا نخلو من طبع القرصنة .

ولم تكن تقول شيئاً . والتفت من مقعده فأخذ بيده ذقنها :

— قبّليني يا حبيبتي .

وشعرت بفمه الحار المفتوح ينسحق على فمها ، ولحس قليلاً شفتيها كما كان يفعل في السابق ، فارتعشت ، وفي الوقت نفسه احست يداً تتسلل تحت إبطها وتداعب نهدها ، وقال بحنان :

— عزيزتي المسكينة اوديت ، عزيزتي الصغيرة .

وارتمت الى خلف . وقالت :

— انني اموت من النعاس .

قال باسماً : — تصبحين على خير ، يا حبيبتي .

وانفتل فشبك ذراعيـــه على المقود وترك رأسه يسقط على يديه ،

وظلت هي جالسة ، مستقيمة الصدر ، منزعجة : كانت تترصده . زفرتان ، ليس هذا بعد . فهو ما يزال يتحرك . ولم تكن تستطيع ان تفكر بشيء ما دام ساهراً وفي رأسه هذه الصورة عنها ، لم تستطع قط ان تفكر بشيء ما دام بالقرب منهـــا . حسناً : لقد ارسل أناته الثلاث ، واسترخى قليلاً : فهو ليس بعد الا حيواناً . كان نائماً ، وكانت الحرب نائمة . وكان عالم البشر نائماً ، غارقاً في هذا الرأس ، المستقيم في الظلام ، بين النافذتين المغبرتين ، في جوف بحيرة قمرية . كانت اوديت ساهرة ، وعاود ذهنها انطباع قديم جداً ، كنت أعدو على درب صغير وردي ، وكنت في الثانية عشرة ، فتوقفت وقلبي يخفق بفرحة قلقة ، وقلت بصوت مرتفع : انني لازمة ولا غنى عني . ورددت : انني لازمة ولا غنى عني ، ولكنهـــا لم تكن تعرف لأي شيء ، وحاولت ان تفكر في الحرب ، وكان يخيل اليها انها ستجد الحقيقة : « أصحيح ان النصر لن يفيد الا روسيا ؟ » وسرعان ما تركت ، وانقلبت فرحتها الى اشمئزاز : انني لا اعرف من الأمر ما فيه الكفاية .

وأخذتها الرغبة في التدخين . ليست حقاً رغبة ، وانما هي عصبية. وانتفخت الرغبة وانتفخت ، فملأت نهديها . رغبة حاسمة وفاتحة ، كما كان يحـــدث في زمن طفولتها المتغطرسة ، لقد وضع العلبة في جيب سترته ، لماذا تراه يدخن بعد ؟ ان مذاق التبغ ذاك في فمه ، لا بد ان يكون مضجراً جـــداً ، اصطلاحياً جداً ، فلماذا تراه يدخن ولا أدخن ؟ وانحنت فوقه ، وكان يتنفس ، فدست يدها في جيبه ، وأخرجت السكاير ثم فتحت الباب على مهل وهي ترد الكلب ، وانسلت الى الخارج . ان القمر عبر الاوراق ، وبحيرات القمر على الطريق ، وهذه النسمة الرطبة ، وصرخة ذلك الحيوان . كل هذا لي انا . وأشعلت سيكارة ، ان الحرب تنام ، وبرلين تنام ، وموسكو ، وتشرشل ،

والمكتب السياسي ، ورجالنا السياسيون ينامون ، كل شيء ينام ، وليس ثمة من يرى ليلي ، انني لازمة ولا غنى عني ، والمعلبات كانت لجنودي الذين أهتم بهم في الحرب . ولاحظت فجأة انها كانت تحتقر التبغ ، وسحبت نفسين آخرين من سيكارتها ثم رمتها : انها لم تكن لتعرف لماذا شاءت ان تدخن . وكان حفيف الشجر ينبعث بعذوبة ، وكان الريف يقضقض كالأرض الخشبية . وقد كانت النجوم حيوانات : وكانت هي خائفة ، كان ينام ، وكانت هي قد وجدت ثانية عالم طفولتها المظلم ، غابة الاسئلة التي ليس لها أجوبة ، كان هو الذي يعرف اسماء النجوم ، والمسافة الدقيقة التي تفصل الأرض عن القمر ، وعدد سكان المنطقة ، وتاريخهم وشواغلهم ، هو ينام ، وانا احتقره ولا اعرف شيئاً ، وكانت تحس نفسها ضائعة في هذا العالم غير القابل للاستعمال ، في هذا العالم الذي « يُرى ويُلمس » . وهرعت الى السيارة ، وكانت تود ان توقظه على الفور ، ان توقظ « العلم » و « الصناعة » و « الاخلاق » . ووضعت يدها على المقبض ، وانحنت على الباب ، فرأت عبر الزجاج فماً كبيراً فاغراً . وقالت في نفسها : ما الفائدة ؟ وجلست على العتبة ، وأخذت ككل مساء ، تفكر في ماتيو .

كان الملازم يرقى السلم المظلم راكضاً ، وكانوا يركضون ويدورون حوله ، وتوقف في وضح الليل ، فدفع برقبته باب سقف ، فبهرهم ضوء فضي .

— اتبعوني .

فانبثقوا في السماء الباردة النيرة المليئة بالذكريات وبالأصوات الخفيفة . وقال صوت :

— ما هذا ؟

قال الملازم : — هذا أنا .

— انتبهوا !

قال : — استراحة .

وكانوا يجدون انفسهم فوق سطح مربع ، في رأس برج الأجراس. وكانت اربعة اعمدة تسند السقف ، لدى الزوايا الأربع . وبين الأعمدة كان يركض إفريز حجري بارتفاع مترٍ تقريباً . وكانت السماء في كل مكان . وكان القمر يعكس على الارضِ الخشبية ظل عمــود مائلاً .

قال الملازم :

— هل الامور على ما يرام ، هنا ؟

— لا بأس ، يا سيدي الملازم .

وكان ثلاثة افراد يواجهونه : وكانوا ثلاثتهم طوالاً هزالاً يحملون البنادق . وكان ماتيو وبينيت واقفين خلف الملازم ، خائفين . وسأل احد الجنود الثلاثة :

— هل نبقى هنا ، يا سيدي الملازم ؟

قال الملازم : — نعم (وأضاف) لقد أقمت « كلاسون » واربعة افراد في دار البلدية ، اما البــاقون فيحتلون المدرسة معي . وسيقوم درايز بعملية الاتصال .

— وما هي الاوامر ؟

— اطلاق النار كما تريدون . وباستطاعتكم تصفية الذخيرة .

— ما هذا ؟

نداءات مخنوقة ، وجرجرة اقدام : وكانت الاصوات صادرة عن الشارع . وابتسم الملازم :

— انهم فاتنــو اركان الحرب الذين حبستهم في قبو البلدية . ان المكان ضيق عليهم ، ولكن ذلك سيكون لليل فحسب : فغداً صباحاً ، يتسلمهم الالمان بعد ان يفرغوا منا .

ونظر ماتيو الى الجنود ، كان يشعر بالعار من أجل الرفاق ، ولكن الوجوه الثلاثة ظلت جامدة . وقال الملازم :

– آه ! في الساعة الحادية عشرة سيجتمع سكان القرية في الساحة، فلا تطلقوا عليهم النار . انني ارسلهم ليقضوا الليل في الغابات . وبعد مرورهم ، أطلقـوا النار على كل من يعبر الطريق . ولا تهبطوا لأية ذريعة : فاذا فعلتم ، اطلقنا نحن النار عليكم .

وتوجه نحو باب السقف . وكان الجنـود يحدجون ماتيو وبينيت في صمت .

قال ماتيو : – يا سيدي الملازم ...

فالتفت الملازم ، وقال :

– لقد نسيتكما . ان هذين يريدان ان يقاتلا (متوجهاً الى الآخرين) إن معهما بندقيتين ، وقد اعطيتهما جرابين للطلقات. فانظروا ما تفعلون بهما . فاذا أساءا اطلاق النار ، فاستردوا منهما الجرابين .

ونظر الى الجنود في صداقة .

– وداعا ايها الرفاق ، وداعا .

فقالوا بأدب : – وداعا يا سيدي الملازم .

وتردد لحظة وهو يهز رأسه ، ثم هبط درجات السلم متقهقراً، ورد دونه باب السقف . وكان الافراد الثلاثة ينظرون الى ماتيو وبينيت من غير فضول ولا ود . وقام ماتيو بخطوتين الى الخلف ، فاستند الى عمود . وكانت بندقيته تزعجه ؛ كان احياناً يحملها في كثير من اللامبالاة، وأحياناً اخرى يمسكها كشمعدان . وانتهى بأن أضجعها على الارض في حيطة . ولحق به بينيت ، وكـان كلاهمـا يولي القمر ظهره ، وعلى العكس ، كان الجنود الثلاثة في صميم النور . وكان الزبد الأسود نفسه يلطخ وجوههم الطبشورية ؛ وكان لهم نظر واحد يشبه نظر طيور الليل .

قال بينيت : — لكأننا في زيارة .

فابتسم ماتيو ؛ ولم يبتسم الافراد الثلاثة . واقترب بينيت من ماتيو وهمس :

— لا يبدو انهم يتقبلوننا تقبلاً حسناً .

قال ماتيو : — صحيح !

وسكتا منزعجين . ومال ماتيو ، فرأى تحته تموّج اشجار الكستناء. وقال بينيت :

— انني ذاهب للتحدث معهم .

— لا ، إلزم هدوءك .

وكان بينيت قد تقدم باتجاه الجنود :

— اسمي بينيت . اما رفيقي ، فهو دولارو .

وتوقف ينتظر . وأومأ اكبرهم برأسه ، ولكنهم لم يعرّفوا انفسهم. وتنحنح بينيت وقال :

— نحن هنا لنقاتل .

فظلوا على صمتهم ، وكزّ الطويل الاشقر وصرف رأسه . وتردد بينيت مرتبكاً .

— فأي عمل نعمله ؟

وكان الطويل الاشقر قد ارتد الى خلف يتثاءب . ورأى ماتيو انه كان « عريفاً » .

وكرر بينيت :

— اي عمل نعمله ؟

— لا شيء .

— كيف ، لا شيء ؟

— لا شيء ، الآن .

— وبعد ذلك ؟

ـ سنبلغكما .
وابتسم ماتيو لهم :
ـ اننا نبعصكم ، أليس كذلك ؟ انكم تفضلون ان تكونوا وحدكم.
ونظر اليه الاشقر الطويل بتفكر ، ثم التفت الى بينيت :
ـ ما مهنتك انت ؟
ـ موظف في المترو .
فضحك الكابورال ضحكة قصيرة ، ولكن عينيه لم تكونا تضحكان.
ـ أتحسب نفسك قد عدت مدنياً ؟ انتظر قليلاً .
ـ آه ! تعني : هنا ؟
ـ نعم .
ـ مراقب .
ـ وهو ؟
ـ على المخابرات التلفونية .
ـ مساعد ؟
ـ نعم .
فنظر اليه العريف في جهد ، كما لو انه يجد مشقة في تثبيت انتباهه عليه :
ـ ما الذي تشكوه ؟ يبدو عليك القوة والشدة ...
ـ القلب ...
ـ هل اطلقت النار في حياتك على رجال ؟
قال ماتيو : ـ ابداً .
فالتفت العريف نحو رفاقه . وكانوا ثلاثتهم يهزون رأسهم . وقال بينيت بصوت مخنوق :
ـ سنبذل جهدنا للتصويب جيداً .
وحدثت لحظة صمت طويلة . وكان العريف ينظر اليهم وهو يحك

رأسه . وأخيراً تنهد وبدا عليه انه صمّم . ونهض فقال بصوت اجش:

ـ إنني أُدعى كلابو . ويجب ان تطيعاني انا . اما الآخران فهما شاسيريو ودانديو ، وما عليكما ان تفعلا الا ما يقولانه لكما ، لأن خمسة عشر يوماً قد انقضت ونحن نقاتل ، فألفنا ذلك .

فردد بينيت غير مصدق :

ـ منذ خمسة عشر يوماً ؟ وكيف حدث ذلك ؟

فأجاب داندیو : ـ كنا نغطي انسحابكم .

فاحمر بينيت وخفض انفه . وأحس ماتيو بفكيه ينقبضان . وأوضح كلابو بلهجه اكثر مصالحة :

ـ مهمه تأخير .

وتبادلوا النظر من غير ان يقولوا شيئاً . وأحس ماتيو بالضيق ؛ وكان يفكر : « لن نكون ابداً منهم . لقد قاتلوا خمسة عشر يوماً متتالية ، وكنا نحن نهرب على الطرقات ، وسيكون الامر ايسر مما ينبغي اذا كان يكفي ان ننضم اليهم حين يطلقون الاسهم النارية النهائية. لن نكون ابداً منهم ، ابداً . ان الذين نمتّ اليهم هم تحت ، في القبو ، يأسنون في العار والشقاء ، ومكاننا بينهم ، وقد تخلينا عنهم في اللحظة الاخيرة بدافع الكبرياء . » وانحنى فرأى البيوت السوداء ، والطريق التي تلمع ؛ وكان يردد لنفسه : « ان مكـــاني هو تحت ، مكاني تحت . » وكان يعلم في صميم قلبه انه لن يستطيع بعد ان يهبط من جديد . وجلس بينيت راكباً الافريز ، ليمنح نفســه التماسك من غير شك .

وقال كلابو : ـ انزل من هنا ، فانك قد ترشدهم الينا .

ـ ان الالمان ما يزالون بعيدين !

ـ وما ادراك ؟ اقول لك ان تنزل .

فقفز بينيت على الارض الخشبية في استياء ، وفكر ماتيو: «انهم لن

يقبلونا ابداً . » وكان بينيت يزعجه : كان يتحرك ويتحدث حين كان ينبغي له ان يمحّي ويُمسك انفاسه ويجعل الناس ينسونه . وانتفض ماتيو : فقد انفجر في اذنه انفجار هائل ، ثقيل ودبق ، ثم انفجار آخر ، وثالث : صرخــات برونزية ، وكانت الارض الخشبية تهتز تحت قدميه . وضحك بينيت ضحكة عصبية :

ـ لا حاجة بك للخوف : انها الساعة تدق .

وألقى ماتيو نظرة على الجنود ، فلاحظ برضى انهم كانوا هم ايضاً قد انتفضوا مذعورين .

قال بينيت : ـ انها الساعة الحادية عشرة .

وارتعش ماتيو : كان يحس البرد ، ولكن ذلك لم يكن بلا لذة . كان عالياً جداً في السماء ، فوق السقوف ، وفوق الرجال ، وكان يشعر بالبرد ، وكان الظلام سائداً . « كلا ، لن انزل ثانيــة ، لن انزل بأي ثمن . »

ـ ها هم المدنيون يرحلون .

وانحنوا جميعاً فوق الافريز . ورأى حيوانات سوداء تتحرك تحت الاوراق ، فكأنها اعماق البحر تتحرك . وفي الشارع الكبير ، انفتحت ابواب ببطء ، وكار رجال ونساء واطفال ينسلّون الى الخارج ، وكان معظمهم يحملون حزماً او حقائب. وتشكّلت جماعات صغيرة في الشارع : وكان يبدو انهم ينتظرون . ثم ذابت الجماعات في موكب واحد تحرك ببطء نحو الجنوب .

قال بينيت : ـ لكنها جنازة !

قال ماتيو : ـ يا للمساكين!

فأجاب دانديو بجفاء :

ـ لا ترْثِ لهم . فسوف يعودون الى بلدهم . ونادراً ما يشعل الالمان النار في القرى .

قال ماتيو وهو يشير الى روبيرفيل :
ــ وتلك ؟
ــ ليس الامر سواء : فقد كان الفلاحون يطلقون النار معنا .
واخذ بينيت يضحك :
ــ لم يكن الامر اذاً كما هو هنا ! فكم كان الفلاحون هنا هادئين !
فنظر اليه دانديو :
ــ انكم لم تكونوا تقاتلون : واظن ان ليس على المدنيين ان يبدأوا.
فسأل بينيت في غضب :
ــ ومن هو المذنب ؟ من هو المذنب اذا لم نكن نقاتل ؟
ــ لا ادري .
ــ الضباط ! ان الضباط هم الذين خسروا الحرب .
قال كلابو : ــ لا تتحدث بالسوء عن الضباط . فليس لك الحق ان تتحدث عنهم بالسوء .
ــ ان هذا لا يزعجني .
قال كلابو بحزم : ــ لن تتحدث عنهم بالسوء امامنا . لأني سأقول لك : فباستثناء الملازم ، وهي ليست غلطته ، فان جميع ضباطنا بقوا .
وأراد بينيت ان يوضح رأيه ، فمد ذراعيه نحو كلابو ، ثم تركهما تسقطان ، وقال في ارهاق :
ــ اننا لا نستطيع ان نتفاهم .
وكان شاسريو ينظر الى بينيت في فضول :
ــ ولكن لماذا اتيت الى هنا اذن ؟
ــ لقد جئنا لنقاتل ، كما قلت لك من قبل .
ــ ولكن لماذا ؟ انت لست مجبراً على ذلك .
وكان بينيت يقهقه بهيئة بليدة .
ــ هكذا ! لنتلوى من الضحك !
قال كلابو بلا عذوبة :

ــ حسناً ! ستتلويان من الضحك ! أؤكد لكما ذلك !

وكان دانديو يضحك اشفاقاً :

ــ اسمعهما : لقد جاءا يزوراننا ، ليتلويا من الضحك ، ليريا كيف يكون البارود ؛ وهما يريدان ان يتمرنا على اصابة المرمى ، كما في صيد الحمام . ثم انهما غير مجبرين حتى على ذلك !

فسأله بينيت : ــ وانت ، يا ابله ، من يجبرك على ان تقاتل ؟

ــ نحن ، ليس الامر مشابهاً : فاننا جنود مطاردة .

ــ يعني ؟

ــ لو كنتَ كذلك ، لقاتلت .

فهز رأسه :

ــ انت تتحدث كما لو انني سأطلق النار على الرجال لمجرد لذتي .

وكان شاسيريو ينظر الى بينيت في مزيج من الذهول والنفور :

ــ هل تدرك انك تجازف بروحك ؟

فهز بينيت كتفيه من غير ان يجيب . وتابع شاسيريو :

ــ اذا كنت مدركاً ذلك ، فانك اشد بلاهة مما يبدو عليك . فليس من سلامة الحسّ ان يجازف المرء بحياته اذا لم يكن مجبراً على ذلك .

قال ماتيو فجأة :

ــ كنا مجبرين على ذلك . كنا مجبرين . فقد كنا ضجرين ، ولم نكن نعرف ما ينبغي لنا ان نعمل .

وأشار الى المدرسة تحتهم .

ــ كان امامنا ان نختار بين برج الاجراس والقبو .

فبدا على دانديو الاهتمام ، وتقلصت ملامحه قليلاً . وتابع ماتيو :

ــ فما عساكم تفعلون ، لو كنتم في وضعنا ؟

ولم يكونوا يجيبون ، فألحّ قائلاً :

– ما عساكم تفعلون ؟

فهز دانديو رأسه :

– ربما كنت اختار القبو . فسترى : ان عملنا ليس بالطريف .

قال ماتيو : – صحيح ، ولكن ليس من الطريف ايضا ان نبقى في القبو حين يحارب الآخرون .

قال شاسيريو : – لا انكر ذلك .

وأقرّه دانديو : – نعم ، لن يشعر المرء في هذا الوضع بالاعتزاز.

وبدا عليهم انهم اصبحوا اقل عداء . وحدج كلابو بينيت في شيء من الدهشة ، ثم انتقـل واقترب من الافريز . وامّحت قسوة نظره المحمومة ، وكانت هيئته مبهمة عذبة ، وكان ينظر بابهام الى الليل العذب ، والريف الطفولي الاسطوري ، ولم يكن ماتيو يعرف اذا كانت عذوبة الليل هي التي تنعكس على هذا الوجه ، ام ان وحدة هذا الجو هي التي تنعكس على ذلك الليل .

قال دانديو : – هو ! كلابو !

فاستقام كلابو واستعاد هيئة الاخصائي الجادة :

– ماذا تريد ؟

– اريد ان اقوم بجولة في الغرفة التحتية : فقد رأيت فيها شيئاً ما.

– اذهب .

واذ كان دانديو يرفع باب السقف ، صعد اليهم صوّت امرأة :

– هنري ! هنري !

وأطل ماتيو على الشارع . فكان ثمة متخلّفون يعدون في كل اتجاه، كأنهم نملٌ مجنون ؛ ورأى في الشارع ، بالقرب من البريد ، طيفا صغيراً :

– هنري !

فاسود وجه بينيت ولكنه لم يقل شيئا . وكان ثمة نساء يمسكن بذراع

عاملة البريد ويحاولن أن يجررنها . ولكنها كانت تتخبط وهي تصيح :

– هنري ! هنري !

وتحللت منهن ، ثم ارتمت داخل قاعة البريد ، واغلقت الباب دونها ؛ وقال بينيت بين اسنانه :

– إن هذا لبلاهة !

وكان يحك اظافره بحجر الافريز :

– يجب ان تذهب مع الآخرين .

قال ماتيو : – صحيح .

– وإلا أصيبت بشر .

– من المسؤول عن ذلك ؟

فلم يجب . وارتفع باب السقف :

– ساعدوني .

فردوا الباب الى خلف ، وانبثق دانديو من الظل ؛ وكان يحمل على ظهره فراشين .

– لقد وجدت هذا .

فابتسم كلابو للمرة الاولى : وكان يبدو على هيئته ابتهاج ، وقال:

– اننا محظوظون .

وسأل ماتيو : – ماذا تريدون ان تفعلوا بهذا ؟

فنظر اليه كلابو في دهشة :

– لأي شيء يستعمل هذا ، في رأيك ؟ لإخفاء الجواهر ؟

– هل تراكم ستنامون ؟

قال شاسيريو : – سنكسر الصفرة اولاً .

ونظر اليهم ماتيو ينشغلون حول الفراشين ، ويخرجون من قربهم علبا من لحم القرد : اتراهم لا يدركون انهم سيموتون ؟ وكان شاسيريو قد عثر على مفتاح علب ، ففتح ثلاث علب بحركات سريعة

ودقيقة ، ثم جلسوا وسحبوا مُداهم من جيوبهم .

والقى كلابو نظرة الى ماتيو ، من فوق كتفه ، وسأل :

— هل انتما جائعان ؟

وكان قد انقضى يومان لم يأكل ماتيو فيهما شيئا ؛ وكان اللعاب يملأ فمه . فقال :

— انا ؟ كلا .

— ورفيقك ؟

فلم يجب بينيت . كان مطلاً من فوق الافريز ينظر الى بناية البريد. قال كلابو :

— هيا ، كُلا : فليس الطعام هو ما ينقصنا .

قال شاسيريو : — ان من يقاتل يحق له ان يأكل .

وفتش دانديو في قربة ، فأخرج منها علبتين مدّهما لماتيو . وتناولهما ماتيو وضرب على كتف بينيت ، فانتفض بينيت :

— ماذا تريد ؟

— هذا لك : كل !

وأخذ ماتيو مفتاح العلب الذي مدّه له دانديو ، فأسنده على حافة العلبة وشد بكل قواه ؛ ولكن الشفرة انزلقت من غير ان تعض ، وقفزت خارج الخط فأتت تصدم ابهامه الايسر .

وقال بينيت : — كم انت عادم الحذق ! هل آذيت نفسك ؟

قال ماتيو : — لا .

— هاته .

وفتح بينيت العلبتين ، واخذا يأكلان في صمت ، بالقرب من عمود : ولم يكونا قد جرؤا على الجلوس . وكانا يحفران بمديتهما في لحم القرد ، ويعلّقان القطع على رأس الشفرتين . وكان ماتيو يمضغ باهتمام ، ولكن حنجرته كانت مشلولة : انه لم يكن يحس طعم اللحم ،

وكان يشق عليه ان يبتلع . وكان الجنود الثلاثة جالسين على الفراشين، منحنين فوق طعامهم بهيئة مجدة ؛ وكانت مداهم تبرق تحت ضوء القمر.

وقال شاسيريو حالماً :

ــ لذيذ ان نأكل في برج كنيسة .

في برج كنيسة . وخفض ماتيو عينيه . كانت تحت أقدامهم رائحة البهار والبخور تلك ، وهذه الرطوبة ، وذلك الزجاج المقطع الذي كان يلمع لمعاناً خفيفاً في ظلام الايمان . كان تحت اقدامهم الثقة والأمل . وكان يشعر بالبرد ، وكان يرى السماء ، ويتنشق السماء ، وكان يفكر تفكيراً ممزوجاً بالسماء ، كان عارياً على كومة جليد ، في الأعـــالي ؛ وبعيداً جداً تحته ، كانت طفولته .

وكان كلابو قد قلب رأسه ، وكان يأكـــل وهو ينظر الى السماء . وقال بصوت منخفض :

ــ انظر الى القمر .

قال شاسيريو : ــ ما به ؟

ــ أليس هو اليوم اكبر من العادة ؟

ــ كلا .

ــ آه ! انني أجده اكبر من العادة .

وخفض عينيه فجأة :

ــ تعالا فكلا معنا : إن المرء لا يأكل واقفاً .

فتردد ماتيو وبينيت . قال كلابو :

ــ هيا ! هيا !

قال ماتيو لبينيت : ــ تعال !

وجلسا ؛ وكان ماتيو يشعر بحرارة كلابو ازاء خاصرته . وكانوا صامتين : كانت هذه آخر وجبة لهم ، وكانت مقدسة .

وقال دانديو : ــ عندنا «روم» ولكنه غير كثير : جرعة واحدة لكل انسان .

وأمرّوا تنكة ، ووضع كل منهم شفتيه حيث شرب الآخرون . وانحنى بينيت على ماتيو .

— أظنّ انهم تبنّونا .

— نعم .

— ليسوا جماعة سيئين . إنني أحتملهم جيداً .

— وانا ايضاً .

واستقام بينيت في انتفاضة كبرياء ، وكانت عيناه تلتمعان .

— كنا نكون شبيهين بهم ؛ لو كان لنا قائد .

ونظر ماتيو الى وجوههم الثلاثة وهز رأسه .

— أليس صحيحاً ما أقول ؟

قال ماتيو : — ربما .

وكانت قد مضت لحظة على بينيت وهو ينظر الى يدي ماتيو ؛ وانتهى بان لامس مرفقه :

— ما بك ؟ انك تنزف ؟

فأخفض ماتيو عينيه على يديه : كان قد جرح ابهامه الايسر . وقال :

— آه ، لا بدّ ان ذلك حدث بمفتاح العلب ، منذ لحظة .

— وتركته ينزف ، ايها الثقيل ؟

قال ماتيو : — لم أحسّ بشيء .

فقال بينيت بلهجة توبيخ وافتتان :

— آه ! ما عساك كنت تفعل ، لو لم أكن هنا !

وكان ماتيو ينظر الى ابهامه ، دهشاً ان يكون له جسم : انه لم يكن يشعر بعد بشيء ، لا بطعم اللحم ، ولا بطعم الخمر ، ولا بالألم ، كنت أحسبني من ثلج . وضحك .

— ذات مرة ، كان معي مدية في مرقص ..

وتوقف . وكان بينيت ينظر اليه في دهشة :

ــ وماذا حدث ؟

ــ لا شيء . لاحظ لي مع الآلات القاصة .

قال كلابو : ــ هات يدك .

وكان قد اخرج من رزمته ملفاً من الشاش وزجاجة زرقاء . وسكبه المائع المحرق على ابهام ماتيو ولفه بالشاش . وحرك ماتيو الدمية وتأملها مبتسماً : هذه العناية كلها للحؤول دون ان يسيل الدم قبل الاوان .

قال كلابو : ــ هكذا !

قال ماتيو : ــ هكذا !

واستشار كلابو ساعته :

ــ الى الفراش ، ايها الرفاق : سيحل منتصف الليل .

وأحاطوا به ، فقال وهو يلفت نظر دانديو الى ماتيو :

ــ ستقوم بالحراسة معه يا دانديو .

ــ حسناً .

وتمدد شاسيريو وبينيت وكلابو جنباً الى جنب على الفراشين . وأخرج دانديو غطاء من رزمته فألقاه على أجسامهم الثلاثة . وتمطى بينيت بشهوة ، وغمز ماتيو غمزة خبيثة وأسبل جفنيه .

وقال دانديو : ــ انا احرس من هنا ، وانت من هناك . فاذا سمعت طلقات ، فلا تفعل شيئاً قبل ان تخبرني .

ومضى ماتيو الى ركنه فاستعرض الريف بعينيه ؛ وكان يفكر بأنه سيموت ، فيبدو له ذلك طريفاً . كان ينظر الى السقوف المظلمة ، وتلألؤ الطريق بين الأشجار الزرقاء وكل هذه الأرض الفخمة غير المسكونة ويفكر : انني اموت من اجل لا شيء . وانبعث شخير ناعم فجعله ينتفض ، والتفت : فاذا النوم قد استغرق الافراد ؛ وكان

كلابو يبتسم للملائكة ، مغمض العينين ، منتعش الشباب ؛ وكان بينيت يبتسم ايضاً . وانحنى ماتيو فوقه ونظر اليه طويلا ؛ وكان يفكر : « يا للخسارة ! » . وفي الجهة المقابلة من السطيحة ، كان دانديو قد انحنى الى امام ، ويداه على مؤخرته ، في وضع حارس مرمى . وقال ماتيو بصوت منخفض :

— هيه !

— هيه !

— أكنت حارس مرمى ؟

فالتفت اليه دانديو مندهشاً :

— وما ادراك بذلك ؟

— هذا واضح .

وأضاف :

— وهل كنتَ موفقاً ؟

— مع بعض الحظ ، كنت سأصبح محترفاً .

وتبادلا تحية صغيرة باليد ، وعاد ماتيو الى مركزه . وكان يفكر : سأموت من أجل لا شيء . وأخذته الشفقة على نفسه . وذات لحظة ، أصدت ذكرياته كاوراق الشجر تحت الريح . جميع ذكرياته : كنت أحب الحياة . وكان سؤال حائر يكمن في جوف حلقه : أكنت على حقّ بأن اترك الرفاق ؟ واستقام . فاستند بكلتا يديه على الافريز ، وهزّ رأسه في غضب « كفى ، كفى ! هم وشأنهم اولئك ، هم وشأنهم ، الجميع . لقد انتهى الندم ، والتحفظات ، والتقييدات : ليس هناك من هو قاضيّ ، فليس ثمة من يفكر بي ، ولن يكون هناك من يتذكرني ، ولا يستطيع أحد ان يقرر بدلاً مني » . وقرر بلا ندم ، واعياً كل الوعي . لقد قرر ، وفي اللحظة نفسها ، تدحرج قلبه الموسوس المشفق من غصن الى غصن ؛ ولم يبق ثمة قلب

بعد : لقد انتهى . انني اقرر ان الموت كان المعنى السّري لحياتي ، وانني عشت لأموت ؛ انني اموت لأشهد بان من المستحيل ان يعيش الانسان ؛ وسوف تطفيء عيناي العالم وتغلقانه الى الأبد .

وكانت الأرض ترفع نحو هـذا المقبل على الموت وجهها المقلوب ، وكانت السماء المقلوبة تسيل عَبْره بكل نجومها : ولكن ماتيو كان يترصّد ، من غير ان يتنازل لالتقاط هذه الهدايا اللامجدية .

الثلاثاء ١٨ حزيران ، الساعة ٥,٤٥

– لولا !

وأفاقت على اشمئزاز ، ككل صباح ، وعادت تقيم ككل صباح في جسمها القديم الفاسد .

– لولا ، هل تنامين ؟

قالت : – لا . كم هي الساعة ؟

– الخامسة وخمس واربعون .

– الخامسة وخمس واربعون ؟ وقد أفاق سارقي الصغير ؟ لقد غيّروه لي .

قال : – تعالي .

ففكرت « لا . لا اريد ان يلمسني »

– بوريس ...

ان جسمي يثير اشمئزازي ، فاذا لم يكن يثير اشمئزازك ، فهذا تدجيل ؛ انه فاسد ، وانت لا تعرف ذلك ، ولو كنت تعرفه لأثار نفورك .

– بوريس ، انني متعبة .

ولكنه كان قد أمسك بها من كتفيها ؛ وكان يثقل عليها . انك

انما « سوف تدخل في جرح » . حين كان يلمسني ، كنت أصبح مخملاً . اما الآن ، فان جسمي تراب جافّ ؛ وتحت أصابعه أتصدّع وأتفتت ؛ انه يدغدغني . كان يمزقها حتّى أعمق أعماق بطنها ، وكان يحرك في بطنها ما يشبه السكين ، وكان يبـــدو وحيداً ذا هوّس ، حشرة ، ذبابة تصعد زجاجاً فتسقط ثم تصعد ثانية . ولم تكن تُحس، إلاّ الوجع ؛ إنه يلهث ، وهو غارق في العرق ، انه يكابد اللذة ؛ في دمي يكابد لذته ، في ألمي . وفكرت : طبعاً ، انقضت ستة أشهر عليه بلا امرأة ؛ وهو الآن يضاجع كجندي في ماخور . وتحرك فيها شيء ما ، خفق أجنحة ، ولكن لا : لا شيء . والتصق بها ، وكان نهداها وحدهما يتحركان ، ثم ابتعد فجأة ، فأحدث نهدا لولا صوت محجم يُنزع عن اللحم ؛ وأخذتها الرغبة بان تضحك ، ولكنها نظرت الى وجه بوريس فزالت الرغبة ؛ وكان قد اتخذ هيئة قاسية متوترة ، إنه يضاجع كما يثمل المرء ، فلا شك في انه يريد ان ينسى شيئاً ما . وانتهى بان تداعى للسقوط عليها ، نصف ميت ، ولامست رقبتـه وشعره بآلية ؛ كانت باردة وهادئة ، ولكنها كانت تشعر بخفقات جرس كبيرة تصعد سريعة من بطنها الى صدرها : لقد كان ذلك قلب بوريس يخفق فيهـا . انني مسنة اكثر مما ينبغي ، مسنة جداً . وبدت لها هذه الرياضة الجسدية غريبة مضحكة ، فدفعته عنها على مهل .

– انسحب مني .

– ماذا ؟

وكان قد رفع رأسه ينظر اليها باندهاش ، فقالت :

– بسبب قلبي . انه يخفق أقوى مما يجب ، وانت تخنقني .

وبسم لها ، وانزلق عنها ، وظلّ نائمـــاً على بطنه ، وجبينه في الوسادة ، وعيناه مغمضتان ، وفي زاوية فمه ثنية غريبة . وتحاملت على مرفقها فنظرت اليه ، فاذا هيئته من شدة الألفة والاعتياد بحيث لم تكن

تستطيع بعد ان تراقبه . ليس اكثر مما لو كان يدها بالذات ، انني لم احسّ شيئاً . أمس ، حين ظهر في الباحة ، جميلا كفتاة ، لم أحس شيئاً ، حتى ولا ذلك المذاق من الحمى في فمي ، حتّى ولا ذلك الثقل الكثيف في بطني : كانت تنظر الى هذا الرأس الذي تألفه ألفة مفرطة وتفكر : انني وحيدة . يا للرأس الصغير ، الرأس الصغير الذي كانت تتدحرج فيه غالباً اسرار مرائية ، كم أخذته بين يديها وضمته ؛ كانت تتهالك ، وتسأل ، وتبتهل ، وكانت تود لو تفتحه كرمانة وتلحس ما كان في داخله ؛ وفي النهاية ، كان السر يفلت ، فلا يكون ، كما في الرمّان ، الا بعض ماء مسكر . كانت تنظر اليه في حقد ، وكانت تأخذ عليه انه لم يُحسن إثارتها ، وكانت تنظر الى ثنية فمه المريرة : اذا فقد مرحه ، فماذا يبقى له ؟ وفتح بوريس عينيه فبسم لها :

ـ كم انا مسرور ان تكوني هنا ، ايتها العجوز المجنونة .

فبادلته بسمته : انا الآن من يكنُّ سراً ، وبوسعك ان تحاول ان تحملني على البوح به . ونهض فدفع الغطاء ونظر الى جسم لولا في تنبُّه ؛ ولامس نهديها بيد خفيفة ، فكانت تشعر بالانزعاج .

وقال : ـ عاج .

وفكرت في الحيوان القذر الذي كان يتكاثر في ليل لحمها ، فصعد الدم الى رأسها .

وقال بوريس : ـ انني فخور بك .

ـ لماذا ؟

ـ هكذا ! لقد جعلتُ الافراد ، في المستشفى ، ينقلبون على أقفيتهم.

فضحكت لولا ضحكة صغيرة :

ـ ألم يسألوك عما عساك تفعل مع هذه العجوز ؟ ألم يظنُّوني أمك ؟

فقال بوريس معاتباً : ـ لولا ...

وضحك ، وقد أجذلته ذكرى ، فعادت الفتوة تفيض على وجهه .

– ما الذي يضحكك ؟

– انه فرانسيون . فان صاحبته مكونة تكويناً رائعاً ، وهي لما تبلغ الثامنة عشرة ؛ ومع ذلك ، فقد قال لي : اذا اردت ، قمتُ بالمبادلة على الفور .

قالت لولا : – انه مؤدب جداً .

وتسللت فكرة ، كالغيمة ، على وجه بوريس ، فاسودّت عيناه ؛ وكانت تنظر اليه من غير ودّ : طبعاً ، طبعـــاً ، إن لك همومك كجميع الناس . لو كنت أطلعه على همومي : فماذا يفعل ؟ ما عساك تفعل لو قلت لك : « ان في رحمي دمّلاً ، ويجب ان اجري عملية ؛ وقد تكون نتيجة ذلك ، بالنظر لعمري ، سيئة جداً . » إنك إذن ستفتح عينيك البغيتين ؛ وتقول لي : « هذا غير صحيح ! » فأقول لك بلى ، فتقول ان هذا غير ممكن ، وان ذلك يُشفى جيداً بالعقاقير ، والأشعة ، وأنني واهمة . وسأقول لك : انني لم أعد الى باريس من أجل المال ، وانما من اجل استشارة « لوغوبيل » وقد كان قاطعاً . » فتقول لي ان «لوغوبيل» حمار ، وليس هو الشخص الذي كان ينبغي ان أتوجه اليه : وسوف تنكر وتحتج وتحرك رأسك بهيئة من هو مطارد ، ثم ينتهي بك الأمر الى السكوت ، على ضيق شديد ، وستنظر إليّ بعينين مكروثتين طافحتين بالحقد . ورفعت ذراعها العارية وأمسكت بوريس من شعره :

– هيا ؟ ايها الدجال الصغير ! لِدْ ! قل لي ما الذي تشكوه .

فقال بلهجة مزيفه : – كل شيء على ما يرام .

– انك تدهشني . فليس من عادتك ان تستيقظ في الخامسة صباحاً .

فردّد بلا اقتناع :

– كل شيء على ما يرام .

ـ ارى ذلك . ان عندك ما تقوله لي ، ولكنك تريد ان أحملك على ان تلد .

فابتسم ووضع رأسه في إبط لولا ، فتشممه وقال :

ـ إن رائحتك لذيذة .

فهزّت كتفيها :

ـ وإذن ؟ هل تتكلم ام لا تتكلم ؟

فهزّ رأسه مسحوقاً . وصمتت ، واستلقت بدورها على ظهرها : حسناً ، لا تتكلم ! فما عسى ذلك ان ينفعني ؟ إنه يحدثني ، ويضاجعني ولكني سأموت وحيدة . وسمعت بوريس يتنهد ، فأدارت رأسها اليه . وكان له فم حزين قاس لم تكن تعهده فيه . وفكرت بلا حماسة : « حسناً سأهتم بأمرك . » كان لا بـــدّ من سؤاله ، وترصّده ، وتفسير هيئاته ، كما في العهد الذي كانت تغار فيه ، واجهـــاد نفسها لتحمله على ان يعترف اخيراً بما كان يموت رغبة للاعتراف به وجلست :

ـ حسناً ! أعطني الروبديشامبر وسيجارة .

ـ ولماذا الروبديشامبر ؟ انت هكذا أفضل .

ـ أعطني الروبديشامبر . انني أشعر بالبرد .

فنهض ، أسمر عارياً ، وأدار عينيه ، وتناول الروبديشامبر عند قدم السرير فمدّه لها ، فارتدته : وتردّد لحظة ، ثم انزلق في بنطاله وجلس على كرسي .

وسألته : ـ هل وجدت عذراء ، وتريد ان تتزوج ؟

فنظر اليها بانشداه شديد ، حتى انها احمرت وقالت :

ـ حسناً ، حسناً .

وساد صمت قصير ، ثم استطردت :

ـ ما الذي تنوي ان تفعله إذن ، حين يسرحونك ؟

قال – أتزوجك .

فتناولت سيكارة وأشعلتها ، وسألته :

– ولماذا ؟

– يجب ان أكون محترماً . وليس بوسعي ان آخذك الى كاستيلنوداري اذا لم تكوني زوجتي .

– وماذا انت ذاهب تفعل في كاستيلنوداري ؟

فقال في قسوة : – أكسب معيشتي . كلا ، بلا مزاح : سأكون استاذاً في كلية .

– ولكن لماذا في كاستيلنوداري ؟

قال : – سترين ، سترين . ستكون كاستيلنوداري .

– وهل تعني انني سأدعى السيدة سرغين ، وسأضع قبعة لأذهب فأرى زوجة مدير المدرسة ؟

قال بوريس : – إنه يدعى رئيساً . نعم . هذا ما ستفعلينه . وأنا سألقي في آخر العام خطاب حفلة توزيع الجوائز .

فقالت لولا : – هكذا !

قال بوريس :– وستأتي ايفيش فتعيش معنا .

– انها لا تستطيع ان تطيقني .

– صحيح ، ولكن هذا هو الوضع .

– وهي التي تريد ؟

– نعم . انها مبعوصة جداً لدى أهل زوجها ، وهي تكاد تجن معهم ، حتى انك ستنكرينها اذ ترينها .

وساد صمت . وكانت لولا تراقبه من طرف عينها . وسألته :

– وهل رتبت كل شيء ؟

– نعم .

– واذا كان ذلك لا يروق لي ؟

قال : ـــ اوه ، لولا ، فكيف تريدين ؟

قالت لولا : ـــ لأنك تفكر طبعاً بأنني سأكون دائماً مسرورة لمجرد ان أعيش معك .

وحسبت شعاعاً يضيء في عيني بوريس ؛ وسألها بوريس :

ـــ أليس ذلك صحيحاً ؟

قالت : ـــ بلى ، صحيح . ولكنك دجّال صغير ، وانت تبالغ في الثقة بمفاتنك .

وانطفأ الشعاع ؛ كان ينظر الى ركبتيه ، وكانت لولا ترى فكيه يتحركان .

وسألته : ـــ وهل تروقك ، تلك الحياة ؟

فقال بوريس بأنس : ـــ سأكون دائماً مسروراً اذا استطعت ان اعيش معك .

ـــ كنت تقول انك تستفطع ان تكون استاذاً .

ـــ ماذا تريدين ان افعل غير ذلك ، الآن ؟ (واضاف) سأشرح لك الأمر : حين كنت اقاتل ، لم اكن أطرح على نفسي الأسئلة . غير انني اتساءل الآن لأي شيء خلقت ؟

ـــ كنت تريد ان تكتب .

ـــ انني لم افكر بذلك قط بصورة جدية : فليس لديّ ما أقوله . انت تدركين ، كنت احسب اني سأبقى في الميدان ، فأخذتُ على حين غرّة .

فنظرت اليه لولا بتنبه :

ـــ ايؤسفك ان تكون الحرب قد انتهت ؟

قال بوريس : ـــ انها لم تنته . فالانكليز يقاتلون ، وقبل مضي ستة أشهر سيدخل الاميركيون الحلبة .

ـــ على كل حال ، انتهت بالنسبة اليك .

قال بوريس : — بالنسبة لي ، نعم .

وكانت لولا ما تزال تنظر اليه . وقالت :

— بالنسبة لي ، ولجميع الفرنسيين .

فقال في حماسة :

— لا بالنسبة للجميع ! إن هناك من هم في انكلترا ، وسيحاربون حتى النهاية .

قالت لولا : — فهمت .

وسحبت نفساً من سيكارتها وألقت بالعقب على الأرض الخشبية . وقالت بلطف :

— هل تملك الوسائل للسفر الى هناك ؟

فقال بوريس بلهجة اعجاب وعرفان :

— اوه ، لولا ! نعم ، نعم . املك الوسائل .

— اية وسائل ؟

— طائرة .

فرددت من غير ان تفهم :

— طائرة ؟

— بالقرب من مارينيان . هناك مطار صغير خاص ، بين تلتين . وقد حطت فيه طائرة عسكرية منـــذ خمسة عشر يومـــاً ، لأنها كانت مضطرة . وقد أصلحت الآن .

— لكنك لست طياراً .

— عندي اصدقاء طيارون .

— اي اصدقاء ؟

— هناك فرانسيون : الشخص الذي قدمته لك . ثم غابيل ، وتيراس .

— وقد اقترحوا عليك أن تذهب معهم ؟

— نعم .

ـ وماذا قلت ؟

فقال بسرعة : ـ لقد رفضت .

ـ صحيح ؟ الم تقبل بكل رضى وانت تقول لنفسك : سأمهد للعجوز قليلا قليلا ؟

قال : ـ لا .

وكان ينظر اليها بحنو . وكان نادراً ان يظهر بهساتين العينين المائعتين تقريباً : في الماضي ، كنت مستعدة لقتل نفسي من أجل نظرة كهذه .

وقال : ـ انت امرأة عجوز ومجنونة . ولكني لا أستطيع ان اتركك : فلن ترتكبي الا الحماقات اذا لم أكن هنا لأحملك على السير باستقامة .

قالت لولا : ـ وإذن ؟ متى نتزوج ؟

فقال بلامبالاة : ـ متى شئت . المهم ان نكون متزوجين عند بدء الفصل الدراسي .

ـ بدء فصل الدراسي في ايلول ؟

ـ كلا : في تشرين الاول .

قالت : ـ حسناً . ان لدينا متسعاً مع الوقت .

ونهضت وأخذت تذرع الغرفة . وكان على الارض الخشبية أعقاب ملطخة بالأحمر : وكان بوريس قد انحنى ليلمسّها بهيئة بلهاء . وسألته :

ـ متى يسافر رفاقك ؟

وكان بوريس يصف الأعقاب بعناية على بلاط طاولة الليل ، فقال من غير ان يلتفت :

ـ غداً مساء .

قالت : ـ أبهذه السرعة ؟

– نعم : يجب ان يعجلوا .

– بهذه السرعة !

ومشت حتى بلغت النافذة ففتحتها : وكانت تنظر الى سواري قوارب الصيد المهتزة ، والى الارصفة الخالية ، والى السماء الوردية وتفكر : غداً مساء . وكان ثمة قلس واحد بعد ينبغي ان يقطع ، قلس واحد. وحين يقطع القلس ، سوف تلتفت ، وفكرت : فليكن غـــداً مساء بدلاً من يوم آخر . وكان الماء يحرك بهدوء موجاته الفجرية ، وسمعت لولا في البعيد صفارة سفينة ، وحين احست انها أصبحت حرة تماماً ، التفت اليه ، وقالت :

– اذا اردت ان تذهب ، فلست انا التي أحول بينك وبين ذلك.

وكانت العبارة قد خرجت بمشقة وجهد ، ولكن لولا كانت تشعر الآن بالفراغ والعزاء . كانت تنظر الى بوريس ، وتفكر ، من غير ن تعرف السبب : يا للفتى المسكين ، يـــا للفتى المسكين ، وكان بوريس قد نهض فجأة ، فأقبل عليها وأمسك بذراعها :

– لولا .

قالت : – انك توجعني .

فتركها : ولكنه كان ينظر اليها نظرة ارتياب .

– إن ذلك لن يعود عليك بالهم ؟

فقالت بصوت متعقل : – بلى ، سيشق علي ذلك ، ولكني افضل ذلك على ان تكون استاذاً في كاستيلنوداري .

فبدا مطمئناً بعض الاطمئنان ، وسألها :

– انت ايضاً ، لا تستطيعين ان تعيشي فيها ؟

قالت : – نعم . انا ايضاً لا أستطيع .

وكان يحني كتفيه ويتهالك بذراعيه ؛ للمرة الاولى في حياته ، كان يبدو مرتبكاً بجسمه . وحمدت له لولا ان لا يظهر فرحه . وقال :

ــ لولا !

ومد يده فأراحها علي كتف لولا ، فكانت بها رغبة لأن تنزع هذه اليد عن كتفها ، ولكنها تمالكت نفسها . كانت تحس بثقل يده، وبأنه كفّ عن ان يكون لها ، فقد كان في انكلترا الآن، وقد ماتا ، كل من جهته .

وقال بصوت راجف :

ــ لقد سبق ان رفضت ، لو تعلمين ، لقد رفضت ،

ــ أعرف ذلك .

قال : ــ انني لن اخونك . لن انام مع أحد .

فابتسمت :

ــ يا لصغيري المسكين !

وكان وجوده في تلك اللحظة « زائداً عن اللزوم » . فقد كانت تود لو تكون الآن في مساء اليوم التالي . وضرب جبينه فجأة :

ــ خراء !

فسألته : ــ ماذا هناك بعد ؟

ــ انني لن اذهب ! لا استطيع ان اذهب !

ــ لماذا ؟

ــ ايفيش ! لقد قلت لك انها كانت تريد ان تعيش معنا .

فقالت لولا غاضبة : ــ اسمع يا بوريس ! اذا لم تبق من أجلي ، فأمنعك ان تبقى من أجل ايفيش .

ولكن ذلك كان غضباً « سابقاً » ما لبث ان انطفأ . وقالت :

ــ سأهتم بأمر ايفيش .

ــ أتأخذينها معك ؟

ــ ولمَ لا ؟

ــ ولكن احداكما لا تطيق الأخرى .

قالت لولا : ـــ وماذا يمكن لذلك ان يُنتج ؟
وكانت تحس بتعب فظيع ، فقالت :
ـــ ارتد ثيابك ونم ، فسوف تُلحق بنفسك الأذى .
وتناول منشفة واخذ يدلك صدره . وكان يبدو مشدوهاً . وفكرت : هذا طريف : لقد قرر الآن حياته كلها . وجلست علـــى السرير ، وكان يدلك نفسه بقوة ، ولكنه ظل متجهماً . وسألته :
ـــ ماذا هناك بعد ؟
قال : ـــ كل شيء على ما يرام . ولكن كم نزفت من العرق !
ونهضت على مشقة ، فأمسكته من خصلته ورفعت له رأسه :
ـــ انظر إلي ، ماذا هناك بعد ؟
فصرف بوريس عينيه :
ـــ انني أجدك غريبة .
ـــ لماذا غريبة ؟
ـــ لا اراك غاضبة لذهابي كما كنت أتوقع . وهذا ما يصدمني !
فرددت لولا : ـــ هذا ما يصدمك ؟ هذا ما يصدمك ؟
وانفجرت ضاحكة .

دمدم ماتيو وجلس ، ثم حكّ رأسه . وكان ديك يغني ، وكانت الشمس حارة جذلة ، ولكنها كانت ما تزال منخفضة .
قال ماتيو : ـــ الطقس جميل .
فلم يجب احد : كانوا جميعاً راكعين وراء الافريز . ونظر ماتيو الى ساعته فرأى انهـا كانت السادسة : وسمع هديراً بعيـــداً ومتعدداً ، فركع على ركبتيه وانضم للرفاق :
ـــ ما هذا ؟ طائرة ؟

ـ لا : انهم هم ، فرقة المشاة الآلية .

فارتفع ماتيو فوق اكتافهم ، فقال كلابو :

ـ حذار ! تخفَّ جيداً ، فان معهم مناظير .

وكانت الطريق ، على بعد مئتي متر قبل البيوت ، تنعطف نحو الغرب ، وتختفي خلف رابية معشبة ، وتنساب بين ابنية المطحنة العالية التي كانت تقنّعها ، لتأتي فتحاذي القرية بشكل مائل ، في اتجاه الجنوب الغربي . ورأى ماتيو ، في البعيد البعيد ، سيارات كانت تبدو ثابتة ، ففكر : « انهم الالمان ! » واصابه الخوف ، خوف غريب ، يكاد يكون دينيا ، نوع من الرعب المقدس . كانت الاف العيون الاجنبية تلتهم القرية ، عيون رجال فوق الرجال ، وحشرات . وغمرت ماتيو بدهية فظيعة :

« سوف يرون » جثتي .

وقال بالرغم عنه :

ـ سيكونون هنا بعد دقيقة .

فلم يجيبوا . وبعد لحظة ، قال دانديو بصوت ثقيل بطيء :

ـ لو نطلق النار وقتاً طويلا !

قال كلابو : ـ الى الخلف .

فتراجعوا وجلسوا هم الاربعة على فراش . لكأن شاسيريو ودانديو خوختان متشابهتان ، وكان بينيت قد اخذ يشبههما : كانت لهم جميعاً السحنة المتربة نفسها والعيون الكبيرة العذبة التي لا جوف لها ؛ وفكر ماتيو : « ان لي هاتين العينين الوعليتين . » وكان كلابو قد تداعى للسقوط على عقبيه ، فأخذ يحدثهم من فوق كتفه :

ـ سوف يتوقفون عند مدخل القرية ، وسيرسلون عيوناً للاستطلاع فحذار ان تطلقوا عليهم .

وتثاءب شاسيريو ، وهذه التثاؤبة نفسها ، اللذيذة كالغثيان ، كانت

تفتح فم ماتيو . وحاول ان يقاوم الضيق وان يحرّر نفسه بالغضب ، فقال في نفسه « اننا مقاتلون ، ولسنا ضحايا ! » ولكن ذلك لم يكن غضباً « حقيقياً » . وتثاءب من جديد ، وكان شاسيريو ينظر اليه في ود ، وقال :

– البداءة قاسية ، وفيما بعد ، سيتحسن الوضع .

واستدار كلابو على نفسه وجلس القرفصاء تجاههم ، وقال لهم :

– ليس هناك الا امر واحد : الدفاع عن المدرسة ودار البلدية ، فيجب الا يقتربوا منهما ، والرفاق تحت هم الذين سيعطون الاشارة ، فما ان يبدأوا بالاطلاق ، حتى تطلقوا كما تشاءون . وتذكروا : لن يكون دورنا الا دور حماية ، ما استطاعوا ان يقاتلوا .

وكانوا ينظرون اليه بهيئة وادعة مجدة . وسأل بينيت :

- وبعد ذاك ؟

فهز كلابو كتفيه وقال :

– اوه ! بعد ذلك ..

قال دانديو : – لا اعتقد اننا سنقاوم طويلا .

– لا نستطيع ان نعرف . من المرجح ان يكون معهم مدفع للمشاة . فيجب ان نحاول منعهم من تركيزه . سنواجه مصاعب ، ولكن اذا وجدت هذه المصاعب ، فستكون لهم ايضـاً ، لان الطريق والساحة يكوّنان زاوية .

وعاد يركع على ركبتيه ، وزحف حتى الافريز . كـان يراقب الريف مختبئاً وراء عمود .

– دانديو ؟

– نعم ؟

– تعال .

واوضح من غير ان يلتفت :

— كلا يا دانديو ، سنأخـذهم مواجهة ، وانت يا شاسيريو قف الى اليمين ، ودولارو الى اليسار . وانت يا بينيت ، ستنتقل الى الجهة الاخرى ، اذا انعطفوا حولنا .

وسحب شاسيريو فراشاً الى الغرب ، فأسنده الى الافريز ، واخذ ماتيو الغطاء ، فتداعى للسقوط فوقه على ركبتيه . وكان بينيت يقول في غضب :

— انني أريهم ظهري ، هؤلاء الملعونين .

قال شاسيريو : — اراك تشكو . ستكون الشمس في صميم وجهي .

وكان ماتيو ملتصقاً بالعمود ، ودار البلدية تجاهه ، فكان اذا انحنى قليلا الى اليمين يستطيع ان يرى الطريق . اما الساحة ، فكانت حفرة ظل سامة ، شركا : وكان يؤذيه ان ينظر اليها . وكانت عصافير تغني في شجر الكستناء .

— حذار !

فأمسك ماتيو نفسه : كان راكبا دراجتين اسودان يرتديان قبعتين يدلفان الى الشارع ، فارسان من فرسان ما فوق الطبيعة : وحاول عبثا ان يتميز وجهيهما : فانه لم يكن لهما وجهان . قامتان دقيقتان ، اربع سيقان طويلة متوازية ، رأسان اسودان املسان ، لا عينان فيهما ولا فم . وكانا يسيران بتقطعات آلية ، وفي كبرياء صلبة تشبه كبريـاء الاشخاص الاليين الذين يتقدمون تحت وجه الساعات القديمة حين تدق الساعة . وكانت الساعة على وشك ان تدق .

— لا تطلقوا النار !

وقامت الدراجتان بدورة الارض وهما تضرّطان ، ولم يتحرك شيء . باستثناء بعض عصفور الدوري الذي تطاير : كانت تلك الساحة المزورة تظهر بمظهر الموت وكان ماتيو يفكر ، مسحوراً : « انهم ألمان » . وارتدا الى مقربة من دار البلدية ، ومرا تحت ماتيو تماماً فرأى ايديهما

الضخمة الجلدية ترتجف على المقودين ، ودلفا الى الشارع الكبير . وبعد لحظة ، عادا الى الظهور ، مستقيمين ، مركوزين فوق سرجيهما المترجرجين ، ثم عادا بسرعة الى الطريق الذي جاءا منه . وكان ماتيو مسروراً ان كلابو قد منعهم من الاطلاق : فقد كانا يبدوان له غير قابلين للجرح . وتطايرت العصافير مرة اخرى ، ثم اندست بين الاوراق.

وقال كلابو : — جاء دورنا .

وأنّت فرملة ، واصطفقت ابواب ، وسمع ماتيو اصواتاً وخطى . فسقط في اشمئزاز يشبه النعاس : كان عليه ان يجالد ليُبقي عينيه مفتوحتين ، وكان ينظر الى الطريق عبر جفنيه نصف المغلقين ، ويشعر بنفسه ميالاً للمصالحة ؛ اذا هبطنا ونحن نلقي بنادقنا ، فسيحيطون بنا ، وربما قالوا لنا : « ايها الاصدقاء الفرنسيون ، لقد انتهت الحرب . » وكانت الخطى تقترب ، انهم لم يفعلوا لنا شيئاً ، وهم لا يفكرون بنا ، ولا يريدون بنا شراً . واغمض عينيه تماماً : ان الحقد سيتدفق حتى يبلغ السماء . سيرون جثتي ، وسيركلونها باقدامهم . ولم يكن يخاف ان يموت ، وانما كان يخاف الكراهية والحقد .

انتهى الامر ! وطقّ الطلق شديداً في اذنيه ، ففتح عينيه : فاذا الشارع خال صامت ، وحاول ان يصدق انه حلم . فان احداً لم يطلق ..

وتمتم كلابو : — يا للحمقى !

فانتفض ماتيو : — اي حمقى ؟

— افراد دار البلدية ، لقد تعجلوا اطلاق النار ، لا بد ان في الهواء اصوات انفجار ، والا لتركوهم يجيئون .

وتطلع ماتيو في مشقة الى الطريق ، وانزلق نظره على البلاط ، وعلى ادغال من العشب بين البلاط ، حتى زاوية الشارع . لا احد . الصمت . « انها قرية في شهر آب ، فالرجال في الحقول . » ولكنه كان يعلم انهم كانوا يخترعون موته فيما وراء هذه الجدران : انهم يعملون على

ان يلحقوا بنا اكبر اذى ممكن . وغرق في الحنو ، كان يحب جميع الناس : الفرنسيين ، الالمان ، هتلر . وفي حلم دبق ، سمع صرخات ، تبعها انفجار عنيف وتكسر زجاج ، ثم تتابعت اصوات الانفجار . وشنّج يده على قبضة بندقيته ليحول دون سقوطها .

قال كلابو بين اسنانه : — ان مدى القنبلة اقصر مما ينبغي .

وكانت الطلقات تتوالى دون انقطاع ، وكان الالمان قد اخذوا يطلقون ، وانفجرت قنبلتان اخريان . ليت هذا يمكن ان يتوقف دقيقة لأتنفس ، ولكن الطلقات كانت مستمرة ، والانفجارات تتزايد ، وفي رأسه كانت عجلة مخرمة تدور بسرعة متنامية : وكانت كل تخريمة طلقة نارية ، يلعن دين ! واذا كنت ، فوق هذا كله ، جباناً ! والتفت فنظر الى رفاقه : كان كلابو وداندیو يراقبان مقرفصين على اعقابهما ، ممتقعين ، وعيونهما تلتمع في قسوة . وكان بينيت مولياً ظهره ، متصلب الرقبة ، وكانت كتفاه تقفزان ، فكأنه كان في رقصة ، او في ضحك جنوني . واحتمى ماتيو بالعمود ، واطل بحذر . ونجح في الاحتفاظ بعينيه مفتوحتين ، ولكنه لم يستطع ان يقسر نفسه على لفت رأسه نحو دار البلدية : كان ينظر الى الجنوب القاحل الهادىء ، وكان يفر نحو مارسيليا ، نحو البحر . وحدث انفجار جديد تبعته تدحرجات جافة على احجار برج الاجراس . فحملق ماتيو بعينيه ولكن الطريق كانت تجري تحته باقصى سرعتها ، فالاشياء تنسرب وتنسرب وتنزلق وتختلط وتبتعد ، فكأن ذلك حلم ، وكانت الحفرة تنحفر وتجذبه ، كان ذلك حلما ، وكانت عجلة النار تدور وتدور كعجلة باعة الحلويات الناعمة ، وكان موشكاً على ان يستيقظ في سريره حين لمح ضفدعاً يزحف نحو المعركة . ونظر ماتيو لحظة الى هذا الحيوان المسطح في غير اكتراث ، ثم اصبح الضفدع رجلا ، وكان ماتيو يرى بوضوح مدهش ثنيتي رقبته الحليقة ، وسترته الخضراء ، ونطاقه وحذاءه

الطري الاسود . « لا بد انه قام بالدورة عبر الحقول ، وهـا هو يزحف الآن باتجاه البلدية ليلقي قنبلته . » وكان الالماني يزحف على مرفقيه وركبتيه ، وكانت يده اليمنى التي كان يرفعها في الهواء تشد عصًا تنتهي باسطوانة معدنية في شكل مرجل . وقال ماتيو : « ولكن ، ولكن ... » وتوقفت الطريق عن الجري ، وجمدت العجلة ، وقفز ماتيو على قدميه ، وركز بندقيته على كتفه ، وقست عينـاه : كان واقفاً كثيفاً ، في عالم يتكون من شديدي الاسر ، وهو يمسك عدواً في طرف انبوب بندقيته ، ويصوب بهدوء الى جبينه . وقهقه قهقهة ترفّع قصيرة : ان الجيش الالماني العظيم ، جيش الرجـال الذين هم فوق الرجال ، جيش الجراد ، انما كان هذا الشخص المسكين ، الذي يبعث على الرأفة لفرط ما هو مخطيء ، والذي كان يستغرق في الخطأ وفي الجهل ، والذي كان منهمكـاً انهماك صبي مضحك ، ولم يكن ماتيو ليعجل ، كان يحدج صاحبه بفضول ، وكـان لديه متسع من الوقت : ان الجيش الالماني « قابل للجرح » . واطلق ، فقام الرجل بقفزة غريبة على بطنه وهو يرمي ذراعيه الى امـام ، فكان يشبه من يتعلم السباحة ، واطلق ماتيو مرة اخرى ، وقد ابهجه ذلك ، فانتفض الرجـل المسكين باعين او ثلاثة وهو يترك القنبلة التي تدحرجت على الطريق من غير ان تنفجر . انه الآن هاديء، مضحك ، لا خطر منه، ميت ، وقال ماتيو بصوت منخفض : « لقد هدّأته، لقد هدّأته . » وكان ينظر الى الميت ويفكر : « انهم كسائر البشر » وكان يحس بنفسه قوياً نشيطاً .

وحطت يد على كتفه : كان كلابو قد اتى ينظر الى عمل الهاوي ـ وتأمل الحيوان الميت وهو يهز رأسه ، ثم التفت :

ــ شاسيريو !

فجرّ شاسيريو نفسه على ركبتيه حتى بلغهما ، فقال كلابو :

ــ راقب قليلا من هنا .

فقال ماتيو متضايقاً :

ــ لست بحاجة الى شاسيريو .

قال كلابو : ــ سيأتون لاخـــذه ، فاذا كان عددهم كبيراً ، تغلبوا عليك .

وانطلق صوت رشاش ، فرفع كلابو حاجبيه ، وقال وهو يعود الى مركزه :

ــ هيه ! لقد بدأ الاطلاق جدياً .

والتفت ماتيو الى شاسيريو ، وقال في حيوية :

ــ حسناً ! اظن اننا نحدث للالمان مصاعب .

فلم يجب شاسيريو ، كان يبدو ، ثقيلا ، خاماً ، شبه نائم ، وسأله ماتيو منزعجاً :

ــ الا ترى كم هم بطيئون ؟ كنت احسب انهم سيصفّون حسابنا في ضربتي ملعقة !

فتأمله شاسيريو في دهشة ، ثم نظر الى ساعة يده ، وقال :

ــ لم تنقض ثلاث دقائق على مرور الدراجات .

فانحسر هياج ماتيو ، واخذ يضحك . لقد حاول طوال اعوام ان يعمل ولكن عبثاً : فقد كانت افعاله تُسرق منه بالتتالي . اما هذا العمل، فلم يسرق منه شيء علي الاطلاق . لقد ضغط على الزناد ، فحدث شيء ما ، في هذه المرة ، وفكر وهو يزداد ضحكاً : شيء حاسم . وكانت اذنه مثقوبة بالانفجارات والصراخ ، ولكنه كان لا يكاد يسمعها ، كان ينظر الى ميته في رضى ، وكان يفكر : « يلعن دين ! لقد احس به يمر . لقد فهم ، ذاك ، لقد فهم ! » ميته « هو » ، عمله « هو » ، اثر مروره « هو » على الارض ، واخذته الرغبة بان يقتل آخرين : كان ذلك مسلياً وسهلا ، كان يريد ان يُغرق المانيا في الحداد .

ـ حذار !

كان شخص يزحف بحذاء الجدار ، وفي يده قنبلة ، وصوب ماتيو على هذا الكائن الغريب المرغوب فيه ، وكان قلبه يخفق خفقات كبيرة .

ـ خراء !

لقد اخطأه . وانطوى الشيء على نفسه ، فاصبح رجلا تائهاً ينظر فيما حوله من غير ان يفهم ، واطلق شاسيريو ، فتمدد الرجـل كأنه زنبرك ، وانتصب ، فقفز في الهواء وهو يطوي ذراعه ، وقذف قنبلته ، ثم انهار على ظهره في وسط الشارع . وفي اللحظة نفسهـا ، تطايرت الواح زجاج ورأى ماتيو ، في نهار ممتقع باهر ، اشباحـاً تتلوى في الطابق الاسفل من دار البلدية ، ثم عاد الليل ، وكانت سمادير صفراء تنسحب في عينيه ، وكان غاضباً على شاسيريو ، وردد :

ـ خراء ! خراء ! خراء !

قال شاسيريو : ـ لا تحزن ، فقد اخطأ هدفه على كل حال : ان الرفاق في الطابق الاول .

وكان ماتيو يطرف بعينيـه وينفض رأسه ليتخلص من السمادير الصفراء التي كانت تبهره . وقال :

ـ حذار ! انني اعمى .

قال شاسيريو : ـ سيزول ذلك ، يلعن دين ! انظر الى الشخص الذي رميته ، انه يحرك ساقيه .

فاطل ماتيو ، وكانت قد تحسنت رؤيته ، فاذا الالماني الملقى على ظهره ، مفتوح العينين على سعتهما ، يحرك ساقيه ، وركز ماتيو البندقية على كتفه فقال شاسيريو :

ـ هل انت مجنون ؟ لا تبذر طلقاتك !

فاراح ماتيو بندقيته في كزازة . وفكر : « ربما استطاع هذا الفرج ان ينجو بنفسه . »

وانفتح باب البلدية على سعته ، وظهر شخص على العتبة ، فتقدم بخيلاء . وكان عارياً حتى النطاق : لكأنه رجـــل مسلوخ . وكانت تتدلى من خدَيه الاحمرين اللذين يبدوان كأنهما منحوتان ، برايات من اللحم . واخذ فجأة يصرخ ، فانطلقت عشرون بندقية في وقت واحد ، فتهاوى ، وهوى بانفه ثم سقط على درجات الحاجز .

وقال شاسيريو : — انه ليس من فرقتنا .

فقال ماتيو بصوت يخنقه الغضب :

— كلا ، بل هو من فرقتنا ، واسمه لاتيكس .

وكانت يداه ترتجفـــان ، وكانت عيناه تؤلمانه ، وكـــان يردد بصوت مبحوح :

— كان يدعى لاتيكس . وعنده ستة اولاد .

ثم انحنى فجأة ، فصوب الى الجريح الذي كانت عيناه الكبيرتان تبدوان وكأنهما تنظران اليه :

— ستدفع الثمن ، ايها القذر .

قال شاسيريو : — انت مجنون . قلت لك ألا تبذر طلقاتك .

قال ماتيو : — حلّ عن ديني !

ولم يكن يعجل في الاطلاق : اذا رآني ، هذا القذر ، فسيكون في وضع شاق ، وكان يصوّب على رأسه ، واطلق : فانفجر الرأس ، ولكن الرجل ظل يحرك رجليه .

وصاح ماتيو : — قذر ! قذر !

— حذار ! يلعن دين ! حذار ! الى اليسار !

وكان خمسة المان أو ستة قد ظهروا ، فأخذ شاسيريو وماتيو يطلقان ، ولكن الالمان كانوا قد غيروا خطتهم . كانوا يبقون واقفين ، مختفين في الزوايا ، وكأنهم ينتظرون : وقال شاسيريو :

— تعال يا كلابو ! يا دانديو ! لقد تكاثروا .

قال كلابو : — لا استطيع .

فصاح ماتيو : — بينيت !

فلم يجب بينيت ، ولم يجرؤ ماتيو على الالتفات .

— حذار !

كان الالمان قد اخذوا يركضون ، واطلق ماتيو ، ولكنهم كانوا قد عبروا الشارع ، وصاح بهم كلابو من مكانه :

— عجباً ! ان هناك الماناً تحت الاشجار في هـــذه الساعة ، فمن تركهم يمرون ؟

فلم يجيبوا ، كانت ثمة تحركات تحت الاشجار . واطلق شاسيريو على هواه .

— سيكون مستحيلا ان نخرجهم من اماكنهم .

وكان افراد المدرسة قد اخذوا يطلقون ، وكان الألمان يجيبونهم ، وهم في مخابئهم خلف الاشجار . وكفت البلدية عن اطلاق النار بتاتاً . وكان الشارع يصعد الدخان ببطء ، على مستوى الارض .

وصاح كلابو : — لا تطلقوا في الاشجار ، فسيكون ذلك بارودا ضائعا .

وفي اللحظة نفسها ، انفجرت قنبلة على واجهة البلدية ، في مستوى الطابق الاول ، وقال شاسيريو : — انهم يتسلقون الاشجار .

فقال ماتيو : — اذا تسلقوا الاشجار ، سهل علينا اصطيادهم .

وكان نظره يحاول ان يخرق الاوراق ، ورأى ذراعاً ترتفع فأطلق. ولكن ذلك بعد فوات الاوان : لقد انفجرت البلديـــة ، فانتزعت نوافذ الطابق الاول ، ومن جديد ، اعماه ذلك النور الاصفر الفظيـع ، واطلق كيفما تأتى له : فسمع ثماراً ضخمة ناضجة تتدحرج من غصن لغصن ، ولم يكن يعلم ان كان الاشخاص يسقطون ام يهبطون .

قال كلابو : — لقد كفت البلدية عن الاطلاق .

وارهفوا آذانهم ، ممسكين انفاسهم ، كان الالمان ما يزالون يطلقون ولكن البلدية لم تكن تجيب . وارتعش ماتيو ، ماتوا ، قطع من اللحم الدامي فوق ارض مبعوجة ، في قاعات فارغة .

وفجأة ، خرجت من نوافذ الطابق الاول دوامات دخان ، وتميز ماتيو ، عبر الدخان ، لهبا احمر واسود . واخذ احدهم يصيح في دار البلدية ، وكان صوتاً حادا ابيض ، صوت امرأة . واحس ماتيو فجأة انه سيموت . وأطلق شاسيريو النار .

وقال له ماتيو : — انك مجنون ، هأنت الآن تطلق على دار البلدية ، انت الذي تأخذ علي ان ابذر الطلقات .

وكان شاسيريو يصوب على نوافذ البلدية ، واطلق ثلاث مرات في اللهيب ، وقال :

— انه هذا الذى يزعق ، لا استطيع بعد ان اسمعه .

قال ماتيو : — ما يزال يزعق .

وكانا يصغيان ، مثلوجين ، وضعف الصوت .

— انتهى .

ولكن الصرخات ما لبثت ان عادت بصورة اقوى ، وكانت لا انسانية ، كانت اصداء هائلة ضخمة تزداد حدة وثقوبا. واطلق ماتيو بدوره على النافذة ، ولكن بلا جدوى .

قال شاسيريو : — انه لا يريد ان يموت .

وفجأة انقطع الصراخ ، فقال ماتيو :

— أف !

قال شاسيريو : — انتهى . مات . شُوي .

ولم يكن ثمة بعد ما يتحرك ، لا تحت الشجر ، ولا في الشارع ، وكانت الشمس تذهّب مثلث دار البلدية الملتهب . ونظر شاسيريو الى ساعته . فقال :

ـ سبع دقائق .

وكان ماتيو يتلوى في اللهب ، انه لم يكن بعد الا حرقاً ، وكان يختنق ، ووجب عليه ان يشد يديه على صدره ويهبط بهما رويداً حتى بطنه ، ليتأكد من انه كان سليما . وقال كلابو فجأة :

ـ هناك جنود على السقوف .

ـ على السقوف ؟

ـ تجاهنا تماماً . انهم يطلقون على المدرسة ، خراء ! هكذا اذن !

ـ ماذا !

ـ انهم ينصبون رشاشاً ، (وصاح) بينيت !

فانزلق بينيت الى الخلف .

ـ تعال الى هنا ! ان افراد المدرسة سيتعرضون للقتل .

وانحنى بينيت على اربع : وكان ينظر اليهم بهيئة غائبة ، وكان وجهه رماديا .

وسأل ماتيو : ـ هل تشكو شيئاً ؟

فقال بجفاء : ـ الامور على أحسن ما يرام .

وجر نفسه نحو كلابو ، وركع .

قال كلابو : ـ اطلق ، اطلق في الشارع لتشغلهم ، اما نحن ، فسنتولى امر الرشاش .

واخذ بينيت يطلق ، من غير ان يقول كلمة . فقال كلابو :

ـ اطلق بطريقة افضل ، يلعن دين : ان الانسان لا يطلق ، وعيناه مغمضتان .

فارتعش بينيت وبدا وهو يبذل جهداً عنيفاً على نفسه ، فعاود خديه بعض الاحمرار ، وصوّب وهو يحملق بعينيه ، وكان كلابو ودانديو ، الى جانبه ، يطلقان بلا انقطاع ، ثم اطلق كلابو صيحة انتصار :

– حسناً ! حسناً ! لقد اغلق الرشاس فه .

وارهف ماتيو اذنه : لم يكن يُسمع شيء بعد ، وقال :

– نعم ، ولكن الرفاق لا يطلقون بعد .

كانت المدرسة صامتة ، واجتاز الطريق ركضا ثلاثة ألمان كانوا قد اختبأوا تحت الاشجار وارتموا على باب المدرسة فانفتح . ودخلوا، ثم ظهروا بعد لحظة مطلين من نوافذ الطابق الاول ، يصرخون ويأتون بالحركات . واطلق كلابو ، فاختفوا ، وبعد لحظات ، سمع ماتيو ، للمرة الاولى منذ الصباح ، ازيز رصاصة ، ونظر شاسيريو الى ساعته :

– عشر دقائق .

قال ماتيو : – نعم ، انها بداية النهاية .

كانت البلدية تحترق ، وكان الالمان يحتلون المدرسة : فكأن فرنسا هُزمت مرة اخرى .

– اطلقوا ، يلعن دين !

وكان بعض الالمان قد ظهروا، حذرين ، في مدخل الشارع الكبير واطلق شاسيريو ، وكلابو : فاختفت الرؤوس .

– لقد اهتدوا الى مكاننا ؛ هذه المرة .

وعاد الصمت من جديد ، صمت طويل ، وفكر ماتيو : « ماذا تراهم يُعدّون ؟» في الشارع الخالي ، كان ثمة اربعة قتلى ، وعلى بعد قليل ، اثنان آخران : هذا كل ما استطعنا ان نفعله . اما الآن ، فيجب ان ننجز مهمتنا : ان نُقتل . وبالنسبة اليهم ، ماذا يشكل ذلك ؟ عشر دقائق تأخير عما هو مقرر .

وقال كلابو فجأة : – عليهم !

كان شيطان صغير كثيف يجري نحو الكنيسة ، وكان يلتمع في الشمس ، وقال دانديو بين اسنانه :

– « شنلفوراكنون » .

وزحف ماتيو نحوهم . كانوا يطلقون ، ولكن لم يكن يُرى احد ، وكان يبدو ان المدفع يسير من تلقـاء نفسه . كانوا يطلقون ارضاء لضمائرهم ، لانه كان ثمة بعد طلقات ، وكانت لهم وجوه جميلة هادئة ومتعبة ، وجوههم الاخيرة .

– الى الوراء !

وبدا فجأة الى شمال المدفع رجل يرتدي قميصاً بنصف كم ، ولم يكن يسعى للاحتماء بشيء ، بل كان يصدر اوامره في هدوء ، وهو يرفع ذراعه . وانتصب ماتيو بغتة : كان هذا الرجل القصير ذو العنق العارية يُلهبه رغبة .

– الى الوراء ، وعلى بطونكم !

وارتفع فم المدفع في هدوء ، ولم يكن ماتيو قد تحرّك : كان على ركبتيه يصوّب ناره على نائب الضابط ، وصاح به كلابو :

– هل سمعت امري ؟

فدمدم ماتيو : - اسكت !

واطلق ، فصدم مقبض بندقيته كتفه ، وحدث انفجار هائل كأنه صدى مضخم لطلقة بندقيته ، ورأى لوناً احمر . ثم سمع ضجة تمزُّق ، طويلة ، مائعة .

قال كلابو : – أخطأوا الهدف ، لقد صوّبوا اعلى مما ينبغي .

وكان نائب الضابط يتخبط ، وساقاه في الهواء . وكان ماتيو ينظر اليه وهو يبتسم . وكان يوشك ان يجهز عليه حين بدا جنديان فحملاه ، وزحف ماتيو القهقرى ، واتى يتمدد بالقرب من دانديو ، وكان كلابو قد بدأ برفع باب السقف .

– عجِّلوا ، لنهبط !

فهز دانديو رأسه :

ـــ تحت ، ليس ثمة من نوافذ .

وتبادلوا النظر ، وقال شاسيريو :

ـــ اننا لا نستطيع ان ندع الطلقات تذهب هدرا .

ـــ وهل بقي معك منها كثير ؟

ـــ مشطان .

ـــ وانت ، يا دانديو ؟

ـــ مشط واحد .

فعاد كلابو يغلق باب السقف ، وهو يقول :

ـــ انت علي حق ، لا نستطيع ان ندعها تذهب هدرا .

وسمع ماتيو خلفه نفساً أبح ، فالتفت : كان بينيت قد امتقع حتى الشفتين وكان يتنفس بمشقة .

ـــ هل انت مجروح ؟

فنظر اليه بينيت نظرة قاسية :

ـــ لا .

ونظر كلابو الى بينيت بتنبه :

ـــ اذا اردت ان تهبط ، يا صغيري ، فلست مجبرا علي البقاء ، ليس ثمة من هو مدين لاحد بشيء . انها كما تعلم طلقاتنا . ولا نستطيع ان ندعها تذهب هدرا .

قال بينيت : ـــ خراء اذن ! ولماذا تراني اهبط ، اذا لم يهبط دولارو ؟ .

وزحف حتى الافريز ، واخذ يطلق .

وصاح ماتيو : ـــ بينيت !

فلم يجب بينيت . وكان الرصاص يصفر فوقهم ، وقال كلابو :

ـــ دعه وشأنه . فان هذا يشغله .

واطلق المدفع طلقتين متتاليتين ، فسمعوا صدمة قاسية فوق رؤوسهم ، وانفصل عن السقف وابل من احجار الجبس ، وسحب شاسيريو ساعته :

ـ اثنتا عشرة دقيقة .

وزحف ماتيو وشاسيريو حتى الافريز . وجلس ماتيو القرفصاء ، بالقرب من بينيت ، وكان شاسيريو ، الى يمينه ، واقفاً منحنياً الى امام . وقال شاسيريو :

ـ لا بأس بها ، اثنتا عشرة دقيقة حتى الآن . لا بأس بها .

وهبت الريح وأنّت وصفعت ماتيو على وجهه : ريح حارة ثقيلة كأنها الحساء ، وسقط ماتيو جالساً على الارض . وكان الدم يعميه ، كانت يداه حمراوين حتى المعصمين ، وكان يفرك عينيه فيمزج دم يديه بدم عينيه ، ولكن ذلك لم يكن دمه : فان شاسيريو كان جالساً على الافريز ، بلا رأس . كان مزيج من الدم والفقاعات يخرج من عنقه .

قال بينيت : ـ لا اريد ، لا اريد !

ونهض فجـــأة ، فركض الى شاسيريو وضربه في صدره بمقبض بندقيته ، فتهاوى شاسيريو وهوى من فوق الافريز . ورآه ماتيو يسقط بلا انفعال : كان ذلك بداية موته هو بالذات .

وصاح كلابو : ـ اطلقوا النار كما تشاءون .

وفجأة ، اصبحت الساحة تنغل بالجنود ، وعاد ماتيو الى مركزه واخذ يطلق . وكان دانديو يطلق بالقرب منه .

وقال دانديو ضاحكاً : ـ ان هذه مذبحة !

وترك بندقيته التي سقطت في الشارع ، ونام على ماتيو وهو يقول :

ـ يا عزيزي ! يا عزيزي !

فدفعه ماتيو عنه بضربة كتف . فسقط دانديو الى الخلف ، واستمر ماتيو يطلق النار . وكان ما يزال يطلق حين انهار السقف عليه . وتلقى عارضة عـــلى رأسه ، فترك بندقيته وسقط . وفكر في جنون ، خمس عشرة دقيقة ، انني اهب كل شيء لاقاوم خمس عشرة دقيقة ! وكانت قبضة بندقيته تخرج من فوضى الخشب المحطم والاحجـــار المتناثرة ،

فسحبها اليه ، كانت البندقية دبقة بالدم ، ولكنها معبأة بالطلقات .

وصاح بينيث : — ماتيو !

فلم يجب احد ، كان انهيار السقف يسد شمال السطيحة كله . وكانت الانقاض والعوارض تسد باب السقف ، وكانت عصا من حديد تتدلى من السقف الفاغر ، كان ماتيو وحيداً .

وقال بصوت مرتفع : — يلعن دين ! لن يقال اننا لم نقاوم خمس عشرة دقيقة .

واقترب من الافريز واخذ يطلق واقفاً . وكان ذلك ثأراً هائلا . كانت كل طلقة تثأر له من وسواس قديم ، طلقة على لولا التي لم اجرؤ على سرقتها ، وطلقة على مارسيل التي كان علي ان اهجرها ، وطلقة على اوديت التي لم ارد ان اضاجعها . وهذه للكتب التي لم اجرؤ على كتابتها ، وتلك للرحلات التي امتنعت عن القيام بها ، وهذه الاخرى على جميع الاشخاص ، جملة ، الذين كنت راغباً في احتقارهم والذين حاولت ان افهمهم ، كان يطلق ، وكانت القوانين تتطاير في الهواء ، ستحب قريبك كما تحب نفسك ، طق في فم هذا الفرج ، لن تقتل ابداً ، طق في الطرح المزيف الساكن قبالتي . كان يطلق على الانسان ، على « الفضيلة » على العالم : « الحرية » هي « الارهاب » ، كانت النار تشتعل في البلدية ، تشتعل في رأسه : كان الرصاص يئز ، حراً كالهواء ، سينفجر العالم ، وانا معه ، واطلق ، ونظر الى ساعته : اربع عشرة دقيقة وثلاثون ثانية ، لم يبق ما يُطلب بعدُ الا مهلة نصف دقيقة ، ما يكفي فحسب لاطلاق النار على الضابط الجميل الفخور الذي كان يعدو نحو الكنيسة : واطلق على الضابط الجميل ، على كل « جمال » الارض ، على الشارع ، على الازهار ، على الحدائق ، على كل ما سبق له ان احبه ، وغطس « الجمال » غطسة داعرة ، واطلق ماتيو مرة اخرى . اطلق : وكان نقياً ، وكان قديراً ، وكان حراً .

خمس عشرة دقيقة .

القسم الثاني

الليل ، النجوم ؛ نار حمراء في الشمال ، انهـا دسكرة تحترق في الشرق والغرب ، بروق حرّ طويلة وجافة : انها مدافعهم . إنهم في كل مكان ، وسيعتقلونني غداً . ويدخل الى القرية النـائمة ؛ ويعبر الساحة ، ويقترب من بيت يراه ، فيطرق بابه ، لا جواب ، ويشد على المقبض ، فينفتح الباب . ويدخل ، ويغلق الباب خلفه : الظلام . عود ثقاب . هو في الممر ، وتخرج مرآة من الظلام بغموض ، فيرى فيها نفسه : انني بأشد الحاجة الى حلق ذقني . وينطفيء عود الثقاب . وقد أُتيح له ان يلمح سلماً يهبط الى اليسار . ويقترب منه متحسساً : السلم يهبط منعطفاً ، وينعطف برونيه ، فيلمح ضياء غامضاً منتشراً ، وينعطف مرة اخرى : القبو . إن رائحة الخمر والفطر تنبعث منه . براميل ، كومة قش . رجل ضخم في قميص الليل والبنطلون ، جالس على القش بالقرب من شقراء نصف عارية تمسك طفلا بين ذراعيها . وينظرون الى برونيه ، فاغري الافواه ، خائفين . ويهبط برونيه درجات السلم ، والرجل لا ينفك ينظر اليه . ويظـل برونيه يهبط ، ويقول الرجل فجأة :

— إن زوجتي مريضة .

فيسأل برونيه : — يعني ؟

— لم ارد ان تقضي الليل في الغابات .

قال برونيه : — تقول لي هذا ، وهو لا يهمني على الاطلاق . وهو الآن في القبو . وينظر اليه الرجل في تحدّ :

— ولكن ماذا تريد ؟

قال برونيه : — اريد ان أنام هنا .

فكزّ وجه الرجل ، وظل ينظر :

— هل انت ملازم ؟

فلم يجب برونيه . فسأله الرجل بارتياب :

— اين هم رجالك ؟

قال برونيه : — لقد ماتوا .

واقترب من كومة القش ، وقال الرجل :

— والألمان ، اين هم ؟

— في كل مكان .

قال الرجل : — لا اريد ان يجدوك هنا .

ونزع برونيه سترته فطواها ووضعها علي برميل . وصاح الرجل :

— أتسمع ؟

فقال برونيه : — أسمع .

— إن لي امرأة وطفلا : فلا اريد ان ادفع ثمن حماقاتكم .

قال برونيه : — لا تهتمّ بالأمر .

وجلس . ونظرت اليه المرأة في حقد . وقالت :

— هناك فرنسيون سيقاتلون فوق . فكان ينبغي لك ان تكون معهم .

ونظر اليها برونيه ، فرفعت قميص النوم علي نهديها ، وصاحت :

— اخرج من هنا ، اخرج من هنا . يكفي انكم خسرتم الحرب ، فلا تعرّضونا فوق ذلك للقتل .

فقال لها برونيه : — لا تخافي . فليس عليكما الا ان توقظاني حين يصبح الالمان هنا .

— وماذا ستفعل ؟

— سوف استسلم .

قالت المرأة : — قذارة ! بينما هناك اخيراً أناس يعرّضون انفسهم للذبح .

وتثاءب برونيه وتمطى ثم ابتسم . انه يقاتل منذ ثمانية ايام ، من غير أن ينام ، ومن غير ان يأكل تقريباً ، وقد اوشك عشرين مرة ان يُقتل . ولقد انتهى القتال الآن ، لقد خُسرت الحرب ، وهناك ما ينبغي ان يعمل . عمل كثير . وتمدّد على القش ، وتثاءب ، ونام .

قال الرجل : — هيا ! ها هم اولاء !

وفتح برونيه عينيه ، فرأى وجهاً ضخماً أحمر ، وسمع طلقات وانفجارات .

— هل وصلوا ؟

— نعم . والقتال دائر . انني لا استطيع ان احتفظ بك عندي .

ولم تتحرك المرأة . انها تنظر الى برونيه بعينيها المتوحشتين ، وهي تضمّ ولدها النائم في ذراعيها .

وقال برونيه : — انني ذاهب .

ونهض ، وتثاءب ، واقترب من نافذة ، وفتّش في قربته ، فأخرج منها قطعة مرآة وآلة للحلاقة . ونظر اليه الرجل ، مذهولا من شدة الغيظ :

— اتراك ستحلق ذقنك ؟

فسأله برونيه : — ولِمَ لا ؟

ويحمرّ وجه الرجل :

— اقول لك انهم سيرموننا بالرصاص اذا وجدوك هنا !

ويقول برونيه : — سأنتهي بسرعة .

ويشدّه الرجل من ذراعه ليخرجه :

— انني لا اريد ذلك ، فلي امرأة وطفل ، ولو علمت ، لما تركتك تدخل .

فتخلص برونيه بانتفاضة ، ونظر باشمئزاز الى هذا المائع الخروع الذي يُصرّ على الحياة ، والذي سيحيا في جميع العهود ، متواضعاً ، مخاتلا ، وسيحيا من اجل لا شيء . وارتدّ الرجل عليه ، فقذفه برونيه على الجدار :

— اهدأ والا

وتوقف

الكحوليتين ؛ وكانت تنبعث منه رائحة موت وزبل . واخذ برونيه يحلق ذقنه ، بلا صابون ولا ماء ، وكان جلده يحرقه ؛ والى جانبه ، كانت المرأة ترتجف خوفاً وغيظاً ، وعجّل برونيه : اذا استمر ذلك طويلا ، أصبحت مجنونة . ووضع آلته في قربته : إن الشفرة ما زالت تصلح مرتين :

– ارأيت ؟ لقد انتهيت . إن الامر لم يكن يستحق كل هذه المشاكل .

فلم يجب الرجل ، وصاحت المرأة :

– اخرج من هنا ، ايها القذر ، ايها الجبان ، إنك ستعرّضنا للقتل !

وارتدى برونيه سترته ، وأحسّ نفسه نظيفاً ، جديداً وصلباً ، وكان وجهه أحمر .

– اخرج من هنا ! اخرج من هنا !

وحيّا باصبعين وقال :

– شكراً على اي حال .

ورقي السلم المظلم ، واجتاز مدخلا : وكان باب الدخول مفتوحاً على سعته ؛ وفي الخارج ، كان شلال النهار الابيض ، وطقطقة الرشاشات العنيدة ، كان البيت مظلماً ورطباً . واقترب من الباب : يجب ان يغطس في زبد هذا النور . ساحة صغيرة ، الكنيسة ، المقبرة ، زبل امام الأبواب . وبين بيتين يحترقان ، كانت الطريق الوطنية ، مورّدة بالصباح . وكان الألمان هناك ، زهاء ثلاثين رجلا منهمكين ، عمال في اثناء عملهم ، يطلقون النار على الكنيسة ، ويُطلق عليهم من برج الأجراس ، فكأنهم في ورشة . وفي وسط الساحة ، كان الجنود الفرنسيون في قمصانهم تحت النيران المتشابكة ، وعيونهم متوردة من النعاس ، يمشون على رؤوس أصابعهم ، بخطى صغيرة مسرعة ، كما لو أنهم يسيرون في استعراض لاحدى مسابقات الجمال . وكانوا رافعين

ايديهم الممتقعة فوق رؤوسهم ، والشمس تتلاعب بين أصابعهم . وينظر اليهم برونيه ، وينظر الى برج الاجراس ، والى يمينه بنـــاء ضخم يحترق . ويحسّ الحرارة على خده ، ويقول : « خراء ! » ، ويهبط درجات السلم الثلاث . وهكذا : لقد أُخذ . ويحتفظ بيديه في جيبه ، وهما ثقيلتان كأنهما من رصاص . « ارفع يديك ! » ويصوّب عليه ألمانيّ ببندقيته . ويحمرّ وجهه ، وترتفع يداه ببطء ، وها همـــا في الهواء فوق رأسه : سيدفعون لي ذلك دماً . وينضمّ الى الفرنسيين فيرقص معهم ، فكأنه فيلم سينمائي ، لا شيء يبدو حقيقياً ، وهذا الرصاص الذي يئز لا يمكن ان يقتل ، والمدفع يطلق باروداً ابيض . وينحني فرنسيّ في شكل تحية ثم يسقط ، فيتجاوزه برونيه . وينعطف غير معجل عنـــد زاوية البيت الأسمر ثم يسلك الشارع الكبير ، في الوقت الذي ينهار فيه برج الأجراس . ليس من ألمان بعـــد ، وليس من رصاص ، انتهى الفيلم ، وها هو الريف الحقيقي ، ويعود فيضع يديه في جيبيه . انهم فرنسيون فيما بينهم . جمع من الفرنسيين القصار في ثيـــاب الكاكي ، متسخون ، طويلو اللحى ، مسودّة وجوههم من الدخان ، يضحكون ويمزحون ويهمسون ، موجة من الرؤوس العارية ، أو طاقيات رجال الشرطة ، وليس من قبعة واحدة ؛ ويعرف بعضهم بعضاً ، ويتبادلون التحيات : « لقد رأيتك في سافيرن في شهر كانون الاول . هيد ! جيرار ، مرحباً ، يجب ان تحدث الهزيمة لنلتقي من جديد ، كيف حال ليزا ؟ » ويحرس قطيع المهزومين الصغار جندي ألماني يبدو عليه الضجر ، وسلاحه على كتفه ، وهو يرافق كردحتهم المستعجلة بخطوات واسعة بطيئة . ويكردح برونيه مع الآخرين ، ولكنه في طول الألمان ، وهو حليق الذقن مثلهم . والطريق الوردية تسيل بين العشب ، ليس من نسمة هواء ، والحر حرّ هزيمة . إن رائحة الرجال منبعثة ، وهم يثرثرون والعصافير تغني . ويلتفت برونيه الى جاره ،

وهو رجل سمين يبدو عليه اللطف ويتنفس من فمه فيسأله :

– من اين انتم قادمون ؟

– كنا نازلين من « سافيرن » وقد قضينا الليل في المزارع .

قال برونيه : – اما أنا فقد جئت وحدي . إن هذا لطيف ، فقد كنت أحسب القرية خالية .

وكان شاب أشقر برونزي يسير على بعد صفين منه ، عارياً حتى النطاق ، وبين راسليه قشرة ضخمة دامية . وارتفع في ظهر برونيه ضجيج طبيعي هائل ، من الضحك والصراخ واصطدام الاقدام بالأرض ، مما يشبه صوت الريح في الشجر . والتفت : إن آلاف الرجال هم الآن خلفه ، وقد جُمعوا من كل مكان ، من الحقول ، ومن الدساكر ، ومن المزارع . وانتصبت كتفا برونيه ورأسه متوحدة فوق هذا السهل المتموّج .

وقال الشخص السمين : – اسمي مولو ، وانا من « بارلودوك » .

وأضاف باعتزاز : – انني اعرف المنطقة .

وفي طرف الشارع ، كانت مزرعة تحترق ، وكان اللهيب اسود في وجه الشمس ، وكان كلب يعوي . وقال مولو لجاره :

– أتسمع الكلب ؟ لقد سجنوه في الداخل .

والجار هو بكل تأكيد من الشمال ، أشقر ، وليس قصيراً جداً ، وله بشرة حليبية ، وكان يشبه الألماني الذي يحرسهم . ويقطّب حاجبيه ويدير عينيه الكبيرتين الزرقاوين ، نحو مولو :

– ماذا ؟

– الكلب مسجون في الداخل ؟

قال « الشتيمي » : – يعني ؟ إنه كلب .

– اواه ! اواه ! اواه ! اواه !

ولم يكن الكلب هو الذي ينبح ، هذه المرة : وانما كان الفتى ذا

الظهر العاري . وأقبل واحد يجرّه ويضع يده على فمه ؛ وأتيح لبرونيه ان يلمح وجهه المتقع الضخم المشدوه ذا العينين اللتين لا أجفان لهما . وقال مولو للشتيمي :

ـ لا يبدو على « شاربان » انه في حالٍ طيبة .

فنظر اليه الشتيمي :

ـ ماذا تقول ؟

ـ اقول إن رفيقك شاربان لا يبدو في حال طيبة .

وضحك الشتيمي فبدت اسنانه البيضاء :

ـ لقد كان دائماً غريباً .

وكانت الطريق صاعدة ، وكانت ترافقهم رائحة طيبة لأحجار ساخنة وحطب محروق ، وكان الكلب يعوي في ظهرهم . وبلغوا قمة الشاطيء ، فانحـــدرت الطريق في مهبط صلب . وأشار مولو باصبعه الى العمود الذي لا ينتهـي :

ـ اوه ! من اين تراهم يخرجون ، هؤلاء ؟

والتفت الى برونيه :

ـ كم يبلغ العدد ؟

ـ لا ادري . ربما عشرة آلاف ، وربما اكثر .

فنظر اليه مولو غير مصدق :

ـ وتستطيـع ان ترى ذلك هكذا ، بمجرد نظرة ؟

ويفكر برونيه في ايام ١٤ تموز ، وايام اول ايار ؛ كانوا يوقفون الأفراد في جادة ريشار ــ لونوار ، ثم يقومون باحصائهم وفقـاً لمدة العرض ، جموع صامتة وحارّة ؛ وكان يحترق اذ يكون في وسطهم . أما هذا الجمع ، فهو صاخب ، ولكنه بارد وميت . ويبتسم ويقول :

ـ لقد ألفت ذلك .

فسأل الشتيمي :

— واين هم ذاهبون ؟
— لا أدري .
— واين هم الألمان ؟ ومن الذي يقود ؟

ولم يكن ثمة المان ، باستثناء زهاء عشرة يتفكهون في الشارع . كان القطيع الهائل ينسرب حتى منخفض الشاطيء ، كما لو انه يستجيب لثقله وحده ، وقال مولو :

— هذا طريف .

قال برونيه : — نعم ، هذا طريف .

هذا طريف ؛ كان بوسعهم ان يرتموا علـى الألمان ، فيخنقوهم ويفروا عبر السهول : ولكن ما جدوى ذلك ؟ كانوا يسيرون باستقامة ، أيان تقودهم الطريق . وها هم اولاء في اسفل الشاطيء ، في حفرة شبه مغلقة . وهـا هم الآن يصعـدون ثانية ، وهم يحسون بالحر . ويسحب مولو من جيبه رزمة من الرسائل يربطها خيط من المطاط ، فيقلبها لحظة بين أصابعه الضخمة المرتبكة . ويخلف العرق لطخات على الورق ، فيكمـد الحبر البنفسجي في مواضع . وينزع مولو الخيط المطاط ، ويأخذ يمزّق الرسائل بانتظام ، من غير ان يعيد قراءتها ، الى قصاصات صغيرة ينثرها شيئاً فشيئاً ، في حركة باذر . ويتـابع برونيه بعينيه طيران القصاصات اللاهث : وكان معظمها يسقط نثاراً على اكتاف الجنود ، ومن ثمّ تحت أقدامهم ؛ وتطايرت قصاصة لحظة ، ثم حطّت على باقة عشب ، فانثنى العشب قليلا وحملها كمظلة . وعلى طول الطريق ، كان ثمة اوراق اخرى ، ممزقة ومدعوكة ومكوّرة ، في الحفر ، وبين البنادق المحطمة ، والقبعات المبعوجة . وكان برونيه يلتقط كلمة في عبوره ، اذ يكون الخطّ كبيراً وعالياً : « كل جيداً ، تغط جيّداً ، جاءت هيلين مع الصغـار ، في ذراعيك يا حبيبي » . الطريق كلها رسالة غرام ملطخة . وكانت مسوخ صغيرة مائعة تزحف

على الارض ، وتنظر الى قطيع المهزومين المرح بعيونها التي لا حدق فيها : اقنعة للوقاية من الغازات السامة . ويدفع مولو مرفق برونيه ، ويومىء الى قناع :

– إن من حظنا على كل حال اننا لم نحتج اليها للاستعمال .

فلا يجيب برونيه ؛ ويبحث مولو عن مشاركين آخرين :

– ايه ! لامبير !

فالتفت رجل كان بالقرب من برونيه ، فنبهه مولو الى قناع ، من غير تعليقات ، فأخذا يضحكان ، وكان الباقون يضحكون حولهما : كانوا يحتقرونهم ، هؤلاء الدعاميص الطفيليين ، وكانوا يخافون منهم ، ومع ذلك فقد كان ينبغي إطعامهم والاعتناء بهم . انهم الآن ملقون تحت اقدامهم ، امواتاً ، وهم يرونهم فيتذكرون بان الحرب قد انتهت . وكان فلاحون آتون ، على مألوف عادتهم كل يوم ، ليشتغلوا في الحقول ، ينظرون اليهم يمرون وهم يستندون على مقالبهم ؛ وأخذ لامبير الجذل ، فصاح بهم : « مرحباً يا اولادي ! هذا هو الصف ! » فرددت عشرة أصوات ، مئة صوت ، في لهجة تحدّ : « هذا هو الصف ! هذا هو الصف ! اننا عائدون الى بيوتنا » . ولم يجب الفلاحون ، بل لم يكن يبدو عليهم انهم يسمعون . وسأل شاب أسمر مجعد الشعر يبدو عليه انه باريسي ، سأل لامبير :

– كم تظنّ عددهم ؟

قال لامبير : – قليل ، يا بلوندنيه ، قليل .

– اتعتقد ؟ هل انت متأكد ؟

– ما عليك الا ان ترى . اين هم الأشخاص الذين يجب ان يحرسونا ؟ لو كنا حقاً من الأسرى ، لرأيت كيف كنا نكون محاطين .

فسأل مولو : – لماذا أخذونا اذن ؟

– أخذونا ؟ انهم لم يأخذونا : وانما هم ركنونا جانباً حتى لا

نكون بين سيقانهم ، فيما هم يتقدمون .

فتنهد الأشقر : – حتى في هذا الوضع ، يمكن لذلك ان يدوم طويلاً .

– هل انت مجنون ؟ انهم لا يستطيعون حتى ان يركضوا في مثل السرعة التي نهرب بها .

وكان يبدو جذلا ويقهقه :

– إن الالمان لا يكترثون بذاك ، فهم يتنزهون : دجاجة صغيرة في باريس ، قدح خمر في ديجون ، وسمك مطبوخ في مارسيليا . ولكن ينتهي الأمر في مارسيليا ، فعليهم ان يتوقفوا هناك : لأن البحر أمامهم . وفي تلك اللحظة يتركوننا ، فنكون في بيوتنا ، في منتصف آب .

ويهز بلوندنيه رأسه :

– شهران ! إن هذا طويل .

– يبدو انك مستعجل جداً . ولكن اسمع : يجب ان يصلحوا الخطوط ، حتى يستطيع القطار ان يمر .

قال مولو : – القطار ؟ انني اهديهم إياه . اذا كان الأمر مقتصراً على ذلك ، فاني مستعد للعودة الى بيتي مشياً على الاقدام .

– خراء إذن ! أما انا فلا ، لقد انقضى عليّ خمسة عشر يوماً وأنا أمشي ، وقد امتلأت مؤخرتي مشياً ، واريد ان ارتاح .

– أليست لك رغبة إذن في ان تضاجع صاحبتك ؟

– ولكن بأيّ شيء أفعل ذلك ؟ لقد أفرطت في المشي ، حتى لم يبق لي شيء في البنطلون . اريد ان أنام ، وأنام وحدي .

وكان برونيه يستمع اليهم ، وينظر الى رقابهم ، ويفكر بأن هناك عملا كثيراً يُعمل . شجر الحور ، شجر الحور ، جسر على ساقية ، شجر الحور . وقال مولو :

– انني عطشان .

فقال الشتيمي : — ليس هو العطش ، وانما الجوع : فانا لم أقضم لقمة منذ الأمس .

وكان مولو يكردح ويعرق ، ويلهث ، ونزع سترته ، ووضعها على ذراعه ، وفكّ ازرار قميصه وقال مبتسماً :

— نستطيع الآن ان نخلع ستراتنا ، فنحن أحرار .

توقفٌ مفاجيء . وصدم برونيه بصدره ظهر لامبير . والتفت لامبير ، وكانت لحيته متصلة بسالفيه ، وكانت له عينان حيتان تحت حاجبين كثيفين اسودين .

— الا تستطيع ان تنظر امامك ، ايها الابله ؟ أليست عيناك في ثقبيك ؟

وكان ينظر الى ثوب برونيه العسكري في قحة :

— انتهى عهد المائعين . وليس هناك من يأمر . ليس هناك إلا بشر .

ونظر اليه برونيه بلا غضب ، وصمت الرجل . وتساءل برونيه عما يستطيع ان يعمل اذ يعود مدنياً . تاجر صغير ؟ عامل ؟ طبقة وسطى ، على أي حال . إنهم مئات الوف على هذا الوضع : ليس ثمة أي حس للسلطة أو للنظافة الشخصية . ولا بد من نظام حديدي . وسأل مولو :

— لماذا توقفنا ؟

فلم يجب برونيه . إن هذا هو أيضاً بورجوازي صغير ، شبيه كل الشبه بالآخر ، ولكنه اكثر بلاهة : فلن يكون مناسباً العمل هنا . وتنهد مولو رضى وتروّح :

— لعل لدينا متسعاً من الوقت للجلوس على الأرض .

ووضع قربته في الطريق وجلس عليها ، واقترب منهم الجندي الألماني ، فأدار نحوهم وجهه الجميل الخالي من التعبير ، وكانت غشاوة مبهمة من الودّ تطوّف بعينيه الزرقاوين ، وقال في اهتمام :

– يا للفرنسيين المساكين ، لقد انتهت الحرب : فعودوا الى بيوتكم ، عودوا الى بيوتكم .

– ماذا يقول ؟ ماذا يقول ؟ اننا سنعود الى بيوتنا ؟ طبعاً سنعود الى بيوتنا ، خراء ، يا جوليان ، أتسمع ؟ سنعود الى بيوتنا ، إسأله متى ، أجل ، إسأله متى نعود الى بيوتنا ؟

– قل لي ، يا ألمانيّ ، متى نعود الى بيوتنا ؟

كانوا يكلمونه بلا كلفة ، بألفة وودّ . إنه الجيش المنتصر كله ، وليس هو الا عسكرياً بسيطاً . وردد الألماني ، فارغ العين :

– عودوا الى بيوتكم ، عودوا الى بيوتكم .

– ولكن متى ؟

– ايها الفرنسيون المساكين ، عودوا الى بيوتكم .

ويستأنفونِ السير ، ايتها الحور ، ايتها الحور . ويئنّ مولو ، انه يعاني الحر ، ويعاني العطش ، ويعاني التعب ، ويودّ لو يقف ، ولكن ليس ثمة من يستطيع ان يوقف هذا السير العنيد الذي لا يقوده احد . وأنّ شخص آخر : « إن بي صداعاً » ومشى ، وثقلت الثرثرة ، تقطعها لحظات صمت طويلة ؛ وقالوا فيما بينهم : « أنظل نمشي هكذا حتى برلين ؟ » وظلوا يمشون ؛ وكانوا يتبعون من يسبقهم ، مدفوعين بمن يليهم . قرية ، كومة قبعات وأقنعة وبنادق في الساحة الكبرى . وقال مولو :

– بودرو : لقد مررت من هنا أمس الاول .

فقال بلوندينه : – عجباً ، وأنا ، أمس . وكنت في الشاحنة : وكان ثمة ناس على عتبات بيوتهم ، ولم يكن يبدو عليهم انهم ينظرون الينا باحترام .

وكانوا ما يزالون هناك ، على عتبات بيوتهم ، صامتين ، متشابكي الذراعين . نساء ذوات شعر أسود ، وعيون سوداء ، وثياب سوداء ،

وشيوخ . انهم ينظرون . وامام هؤلاء الشهود ، كان الأسرى ينتصبون، فتصبح وجوههم وقحة مروّسة ، وتتحرك أيديهم ويضحكون ويصرخون : « مرحباً بالأم الصغيرة ! مرحباً بالأب ! هذه هي العودة الى الصف ، انتهت الحرب ، مرحباً . » ويمرّون ويحيّون ، ويرسلون غمزات وبسمات مثيرة ، فيصمت الشهود وينظرون . وتتمتم السمّانة الطيبة السمينة وحدها : « يا للشباب المساكين ! » . ويبتسم الشتيمي باقتضاب ، ويقول للامبير :

– من حسن الحظ اننا لسنا في الشمال .

– لماذا ؟

– لو كنا هناك ، لقذفونا بالكراسي والصحون .

نبع ، عشرة أشخاص ، مئة شخص ينفصلون عن الصفوف ، ويذهبون ليشربوا . ويهرع مولو ، فينحني بارتباك ونَهَم . وكانوا يتلامسون من التعب فترتعش اكتافهم ، ويسيل الماء على وجوههم . ولم يكن يبدو على الحارس انه يراهم : لسوف يبقون في القرية اذا شاءوا وإذا كانت لديهم الجرأة على مجابهة الأنظار . ولكن لا ، انهم يعودون واحداً واحداً ، معجلين كما لو انهم يخشون ان يفقدوا مراكزهم . ويعدو مولو كأنه امرأة ، وهو يلوي ركبتيه ، ويتدافعون ويضحكون ويصرخون ، يثيرون الدهشة والتحدي ؛ وكانت افواههم تنشقّ عن جروح ضاحكة تحت عيون تشبه عيون كلابٍ مضروبة . ومسح مولو شفتيه وقال :

– كان ذلك منعشاً .

ونظر الى برونيه في دهشة :

– ألم تشرب أنت ؟ ألست عطشاً ؟

فهزّ برونيه كتفيه من غير ان يجيب ؛ مؤسف الا يكون هذا القطيع محاطاً بخمسمئة جندي مسلح ينغزون مؤخرات المتخلفين ،

ويقتلون الثرثارين بأعقاب البنادق : لو كـــان الأمر كذلك ، لكانت هيئتك مختلفة الآن . ونظر الى يمينه ، والى يساره ، والتفت ، باحثاً عن وجه شبيه بوجهه في هذه الغـــابة من الوجوه المهجورة ، الثملة ، التي يعذّبها مَرَحٌ لا يُقهر . اين هم الرفاق ؟ إن الشيوعي يُعرف من النظرة الاولى . وجه ، وجه واحد قاس وهادىء ، وجه انسان . ولكن لا : انهم يمشون منحنين الى أمام ، قصاراً ، قبيحين ، تسوق السرعة أجسامهم السقيمة المفتشة ، ويلهو على سحنهم القذرة كـــلّ الذكاء الفرنسي ، فيشدّ على زوايا الافواه بخيوط ، ويقلص المناخر أو يمدّدهـــا ، ويجعّد الجبـــاه ، ويلهب العيون ؛ انهم يقدّرون ، ويميّزون ، ويحاكمون ، ويحكمون ، وينتقدون ، ويزنون الحسنات والسيئات ، ويتذوقون اعتراضاً ، ويدللون وينتهون الى نتائج ، جدَل لا ينتهي يشكل كل وجه فيه طرفاً . انهم يسيرون بوداعة ، ويحاكمون وهم سائرون ، انهم هادئون : فلقد انتهت الحرب ؛ ولم تحدث معارك ضارية ، فالألمان لا يبدون مفرطين في الوحشية . هادئون لأنهم يحسبون أنهم قدّروا بلمحة واحدة أسيادهم الجدد ؛ وقد عادت وجوههم تفرز ذكاء ، لأن هـــذا صنفٌ كماليّ باذخ يختص به الفرنسيون ، ويمكن منحه للألمان في الوقت المناسب لقاء منافع دقيقة . شجر الحور ، شجر الحور ، والشمس تصفع ، والوقت ظهر : « ها هم اولاء ! » ويمحي الذكاء . ويئنّ القطيع برمته من الشهوة ، ولم يكن ذلك صرخة ، حتى ولا تنهدة ، بل كان نوعاً من التهالك الإعجابي ، وحفيفـــاً عذباً لاوراق شجر تنحني تحت ثقل المطر . « ها هم اولاء ! » وكـــان ذلك يعدو من أمام الى خلف ، وينتقل من رأس الى رأس كنبأ سارّ ، ها هم اولاء ! هـــا هم اولاء ! وتتزاحم الصفوف ، وتتدافع في الجوانب ، وترتعش دودة الفراش الطويلة : إن الألمان يمرون في الطريق ، على الدراجات ، وفي العربات والشاحنات ، حليقي الذقون ، مرتاحين ،

برونزيين ، بوجوه جميلة هادئة غامضة كأنها المراعي . انهم لا ينظرون الى أحد ، ونظرهم محدّق في الجنوب ، انهم يلجون في فرنسا ، وينقلون بالمجان ، انهم فرقة المشاة راكبة ، وانا أسمّي ذلك خوض الحرب ، انظر الى الرشاشات ، اوه ! والمدافع الصغيرة ، ما اروع ذلك ، وليس مستغرباً بعد ان نكون قد خسرنا الحرب . انهم مفتونون بان يكون الألمان اقوياء الى هذا الحد . ويحسون بأنهم غير مذنبين : « انهم لا يُقهرون ، فليس هناك من شك ، انهم لا يقهرون ! » وينظر برونيه الى هؤلاء المهزومين المشدوهين ، ويفكر : هذه هي المادة . صحيح انها تساوي ما تساوي ، ولكن لا أملك سواها . بوسعنا ان نعمل في كل مكان ، ولا شك في ان هناك ، في النصيب ، من هم قابلون للاسترداد . ويمرّ الألمان ، وتزحف الدودة الى خارج الطريق ، وها هم اولاء على ساحة لكرة السلة يملأونها بضمغهم الأسود ، فيجلسون ويضطجعون ، ويصنعون من صحف شهر ايار قبعات كبيرة تقي من الشمس ، فكأنها الارض الخضراء لحلبة سباق ، أو غابة « فانسين » يوم أحد .

— كيف حدث ان توقفنا ؟

قال برونيه : — لا ادري .

ونظر في غيظ الى هذا الجمع المقلوب ، ولم تكن به رغبة للجلوس ، ولكن تلك حماقة ، فينبغي ألا يُحتقروا ، فتلك خير وسيلة للقيام بعمل سيء ، ثم من يدري الى اين نحن ذاهبون ، فلا بدّ له من مراعاة قواه ، وجلس . ومرّ ألمانيّ خلفه ، ثم آخر : فنظر اليه وهما يضحكان بودّ ، وسألا في سخرية أبوية :

— أين هم الانكليز ؟

ونظر برونيه الى حذاءيهما الأسودين الطريّين ، ولم يجب ، فمضيا ، وظلّ نائب ملازم طويل في الخلف وردّد في حزن مليء بالعتاب :

– اين هم الانكليز ، ايها الفرنسيون المساكين ، أين هم الانكليز ؟

فلم يجب أحد ؛ وهزّ رأسه بضع مرات . وحين ابتعد الألمان ، أجابهم لامبير من بين أسنانه :

– في مؤخرتي هم الانكليز ؛ وانت لا تستطيع ان تركض بالسرعة التي يبعصونك بها !

قال مولو : – اويه !

– ماذا ؟

فأوضح مولو : – من الممكن ان يبعص الانكليز الألمان ، ولكن ليس هناك كيلومترات طويلة حتى يصبحوا مبعوصين بدورهم ، وبطريقة قذرة !

– ليس هذا مؤكداً .

– بلى ، بالتأكيد ، ايها المحبون ! إنهم يتطاوسون لأنهم في جزيرتهم ، ولكن انتظر قليلاً لترى كيف يجتاز الالمان المانش ، وسترى ! وانا اقول لك ، اذا لم يستطع الجندي الفرنسي ان يقاوم ، فليس الانكليز هم الذين سيربحون الحرب !

اين هم الرفاق ؟ ويُحسّ برونيه بأنه وحيد . ها هي عشرة اعوام تنقضي من غير ان يشعر بمثل هذه الوحدة . انه جائع وعطش ، وهو خجلٌ ان يحسّ الجوع والعطش • ويلتفت اليه مولو :

– سيعطوننا طعاماً .

– صحيح ؟

– يبدو ان نائب الملازم قد قال ذلك : سوف يوزعون خبزاً ومعلبات .

وابتسم برونيه : هو يعلم بأنهم لن يعطوهم شيئاً يأكلونه . يجب ان يسيل لعابهم لذلك ، ولن يسيل لعابهم بما فيه الكفاية ابداً . وفجأة نهض رجال ، وتبعهم آخرون ، ثم نهض الجميع ، ومضوا .

ويستبدّ الغضب بمولو ، ويُبدي استياءه :

ـ من الذي أمر بأن نمضي ؟

فلم يجب أحد ، فصاح مولو :

ـ لا تذهبوا ، يا جماعة ، فسوف يعطوننا ما نأكله .

ولكن القطيع كان قد انخرط في السير ، أعمى أصمّ . كانوا يمشون . غابة ؛ أشعة صفراء وحمراء تتخلل الاوراق ، ثلاثة مدافع عيار ٧٥ متروكة ، ما تزال تهدّد الشرق ، الرجال مسرورون لأن هناك ظلاً ؛ وتمرّ فرقة من ممهدي الطرق الألمان . فينظر اليهم الأشقر ببسمة دقيقة ، ويتسلّى بان يراقب المنتصرين عليه عبر أجفانه نصف المغلقة ، ويلاعبهم كما يلاعب القط الفأرة ، ويتنعّم بتفوقه ، ويقبض مولو على ذراع برونيه ويهزّه .

ـ انظر هناك ؟ المدخنة الرمادية !.

ـ يعني ؟

ـ انها «بكارا» .

وينتصب على رؤوس أصابعه ، ويكوّر يده حول فمه ويصيح :

ـ بكارا ! عجّلوا يا رفاق : اننا نصل الى بكارا .

الرجال متعبون ، والشمس في عيونهم ؛ وهم يردّدون بوداعة : « بكارا ، بكارا » ولكنهم لا يبالون . ويسأل بلوندينه برونيه :

ـ بكارا ، أهي التخريم ؟

قال برونيه : ـ كلا ، هي معمل الزجاج .

فقال بلوندينه بلهجة غموض واحترام .

ـ آه ! آه !

والمدينة سوداء تحت السماء الزرقاء ، والوجوه تحزن ، ويقول رجل يحزن : ـ طريف ان نرى مدينة .

وهبطوا شارعاً خالياً مسرعين ؛ وكانت شظايا زجاج تملأ الرصيف

والطريق ، ويضحك بلوندينه مشيراً اليها باصبعه، ويقول :

ـ هذا هو مصنع زجاج بكارا .

ويرفع برونيه رأسه : البيوت سليمة ولكن جميع الزجاج محطم ، ويردّد صوتٌ خافه :

ـ طريف ان نرى مدينة .

جسر ؛ ويتوقف العمود ، وتلتفت ملايين العيون نحو النهر : خمسة ألمان عراة تماماً يلعبون في الماء ، ويتراشقون به وهم يطلقون صرخات صغيرة ؛ وعشرون الف فرنسي ترشح اثوابهم بالعرق ينظرون الى تلك البطون والأفخاذ التي حماها متراس المدافع والدبابات مدة عشرة أشهر والتي تعرض نفسها الآن بطراوتها في قحة هادئة . كان الأمر كذلك ، ولم يكن الا كذلك : إن المنتصرين عليهم هم هـذا اللحم الأبيض الرخص. ومزّقت الجمع تنهدة منخفضة وعميقة: لقد تحمّلوا بلا غضب عرض جيش منتصر على دبابات النصر ؛ اما هؤلاء الألمان العراة الذين يلعبون في الماء ، فانهم إهانة . وانحنى لامبير فوق الإفريز ، فنظر الى الماء وتمتم :

ـ لا بدّ انه ماء لذيذ !

وكان ذلك اقلّ من رغبة : لم يكن إلاّ أسفَ ميت . وعـاد الجمع ، وهو ميت ، منسيّ ، مدفون في حرب فات أوانها ، عاد يسير في الجفاف والحرّ ودوّامات الغبار ، وانفتحّ باب كبير وهو يصرّ ، وتقاربت جدران عالية ، داخل ساحة هـائلة ، عبر الهواء الذي يرتعش ، ورأى برونيه ثكنة ذات نوافذ مغلقة ؛ وتقدم ، ودفع من الخلف ، فالتفت :

ـ كفى دفعاً ، سندخل جميعاً .

واجتاز العتبة ، وضحك مولو راضياً :

ـ انتهينا اليوم .

انتهى عالم المدنيين والمنتصرين ، عالم الحور والأنهار المرتعشة من الشمس ، وهم سيكفّنون بين هذه الجدران حربهم القديمة القذرة ، سينسلقون في مرقهم ، بلا شاهد ، فيما بينهم . ويتقدّم برونيه ، ويُدفع من خلف ، يتقدّم حتى داخل الساحة ، ويتوقف عند الجرف الرمادي . ويدفعه مولو من مرفقه :

هذه ثكنة الحرس المتحرك .

مئة شباك مغلق ؛ وسلم من ثلاث درجات يفضي الى باب مقفل . والى يسار السلم ، على بعد مترين من الثكنة ، أقيم متراس صغير من القرميد ارتفاعه متر وطوله متران ؛ واقترب منه برونيه فأسند جانبه اليه . وامتلأت الساحة ، وكان تيّار متصل يركم القادمين الاول بعضهم لصق بعض ويدفعهم الى جدار الثكنة ، وكانوا لا ينقطعون لحظة ؛ وفجأة دار مصراعا الباب الثقيلان على نفسهما وانغلقا . وقال مولو :

ــ حسناً ، ها نحن في بيتنا .

ونظر لامبير الى الباب وقال في رضى :

ــ هناك جمع لم يستطع ان يدخل : فينبغي ان يناموا خارجاً .

وهزّ برونيه كتفيه :

ــ ان تنام في الساحة او في الشارع ..

قال لامبير : ــ ليس الأمر سواء .

فوافق الأشقر برأسه ، وقال موضحاً :

ــ نحن هنا ، لسنا خارجاً .

وأضاف لامبير :

ــ اننا في بيت لا سقف له .

واستدار برونيه ، فأخذ يتفحص الأمكنة ، مولياً الثكنة ظهره : كانت الساحة امامه تهبط في منحدر دقيق حتى جدار السور ، وكان مركزا مراقبة يقومان على قمة الجدار ، يفصل بينهما مئة متر : وكانا

خاليين . وكان صف من الاوتاد المغروسة حديثاً والتي مُدت بينهما أسلاك حديدية وحبال ، يقسم الساحة الى قسمين غير متساويين ، كان أصغرهما — وهو رقعة أرض ضيقة نسبياً تمتد بين السور والاوتاد — فارغاً . اما في القسم الآخر ، بين الاوتاد والثكنة ، فقد كان الجميع متراكمين . الرجال منزعجون ، وكأنهم في زيارة ، وليس ثمة من يجرؤ على الجلوس ؛ وهم يحملون قربهم ورزمهم في ايديهم وفوق أذرعتهم ، والعرق يسيل على خدودهم ، وقد غادر الذكاء الفرنسي وجوههم ، ودخلت الشمس الى عيونهم الفارغة ، وهم يفرون من الماضي والمستقبل القريب الى موت صغير مزعج وموقت . ولم يكن برونيه ليعترف لنفسه بأنه عطش ، وقد أراح قربته ووضع يديه في جيبه ، وأخذ يصفر . وأدى رقيبٌ التحية العسكرية له ، فبسم له برونيه من غير ان يرد له التحية . واقترب الرقيب :

— ماذا ننتظر ؟

— لا ادري .

وكان رجلا طويلا هزيلا صلباً ذا عينين كبيرتين كدّرهما الكبر ؛ وكان شارب يعترض وجهه المعظم ، وكانت له حركات حية قاسية قد تعلمها . وسأل :

— من يأمر ؟

— ومن تريد ان يأمر ؟ انهم الألمان .

— ولكن عندنا ؟ اين هم المسؤولون ؟

فضحك برونيه وقال :

— إبحث عنهم .

فأمتلأت عينا الرقيب بلوم محتقر : كان بوده ان يأمر في المحل الثاني ، ان يجمع شكر الطاعة الى لذة اصدار الأوامر ؛ ولكن برونيه لا يريد بعد ان يأمر قط ؛ لقد انتهت قيادته حين سقط آخر رجاله

ميتاً . اما الآن فان في رأسه شيئاً آخر . وسأل الرقيب بنفاد صبر :

— لماذا يترك هؤلاء المساكين على أهبة الاستعداد ؟

فلم يجب برونيه ، ورماه الرقيب بنظرة غاضبة ، وقرر ان يأمر في المحل الاول . وتجمهر ، وأحاط فمه بيديه وصاح :

— ليجلس الجميع !

فـالتفتت رؤوس ، حيرى ، ولكن الأجسام لم تتحرك . وكرر الرقيب :

— ليجلس الجميع ! الجميع !

فجلس البعض بهيئة مستنيمة ، ورددت أصواتٌ الصدى : ليجلس الجميع ؛ وتماوج الجمع ورقد . واستدارت الصيحة فوق الرؤوس ، ليجلس الجميع ، وانسلت الى الجانب الآخر من الساحة ، فاصطدمت بالجـدار ، وعادت مقلوبة بطريقة سرية : ليقف الجميع ، ليبقوا واقفين ، انتظروا الاوامر . وينظر الرقيب الى برونيه في حيرة : إن له هناك منافساً ، من جانب الباب الكبير . ونهض بعض الرجال قافزين ، فتناولوا قربهم وضموها الى صدورهم وهم يرسلون نظرات مطاردة في كل مكان . ولكن معظمهم يظل جالساً ، ثم يعود من كان وقف الى الجلوس رويداً رويداً . ويتأمل الرقيب عمله في ضحكة بلهاء :

— لم يكن ثمة إلا ان آمر .

فنظر اليه برونيه وقال له :

— اجلس ، يا رقيب .

فطرف الرقيب بعينيه ، فردد برونيه :

— اجلس : الأمر هو ان تجلس .

فتردد الرقيب ثم تداعى للسقوط على الأرض بين لامبير ومولو : وأحاط ركبتيه بذراعيه ، ونظر الى برونيه من تحت الى فوق ، فاغر الفم . وشرح له برونيه :

ـ انا أبقى واقفاً لأني ضابط صف .

ولا يريد برونيه ان يجلس : لقد كانت الاوجاع تصعد من ركبتيه الى فخذيه ، ولكنه لا يريد ان يجلس . ويرى الوفاً من الظهور وأمشاط الأكتاف ، ويرى رقاباً تتحرك ، واكتافاً تهتز ؛ إن لهذا الجمع حركاته وعاداته . وكان ينظر اليه يحترق ويخفق ، وكان يفكر بلا ضجر ولا لذة : تلك هي المادة . انهم ينتظرون متوترين ؛ ولا يبدو عليهم بعد أنهم جائعون .. فلا بد ان الحرارة قد أفسدت معدهم . فهم خائفون، منتظرون . وما عساهم ينتظرون ؟ أمراً أو كارثة أو الليل : اي شيء يحررهم من ذواتهم . ويرفع احتياطي ضخم رأسه الممتقع ، ويومىء الى احد برجي المراقبة :

ـ لماذا يتغيب الحراس عنه ؟ ماذا تراهم يفعلون ؟

ويتلبث لحظة ، وتغمر الشمس عينيه المقلوبتين ، ثم ينتهي الى ان يهز كتفيه ويقول بصوت خائب قاس :

ـ عندهم كما عندنا ، ينتهزون عدم التنظيم .

وينظر برونيه ، وهو واقف وحده ، الى الرؤوس ويفكر : إن الرفاق هنا في الداخل ، ضائعين كالإبر في التبن ، ويحتاج تجميعهم من جديد الى الوقت . وينظر الى السماء ، والى الطائرة السوداء في السماء ، ثم يخفض عينيه ويدير رأسه ، فيلمح الى يمينه شخصاً طويلا لم يجلس . انه عريف ؛ وهو يدخن سيكارة . وتمر الطائرة في ضجة هادرة ، ويحول الجمع ، وهو مقلوب كالسهـــل ، من الاسود الى الابيض ، ويزدهر : فبدلا من الرؤوس القاسية السوداء ، تتفتح بالألوف زهرات كاميليا كبيرة : وتلتمع نظارات ، شظايا زجاج وسط الزهرات . ولم يتحرك العريف : بل انه يقوس كتفيه العريضتين وينظر الى الأرض بين قدميه . ويلاحظ برونيه في ود انه كان حليق الذقن . ويلتفت العريف وينظر الى برونيه بدوره : إن له عينين كبيرتين محاطتين بدائرة مزرقة في

ولولا أنفه الأفطس ، لكان جميلا على وجه التقريب ، وفكر برونيه : « لقد رأيت هذا الوجه في مكان ما . » ولكن اين « انه لا يذكر بعد » فكثيرة هي الوجوه التي رآها ! وتخلى عن التذكر ؛ ليس لذلك كبير أهمية ، ثم إن الرجل لم يبد عليه انه عرفه . وفجأة صاح برونيه:

— ايه !

فرفع الرجل عينيه :

— ماذا ؟

ولا يبدو السرور على برونيه : لم تكن به رغبة قط في ان ينادي هذا الشخص . غير ان الآخر كان واقفاً ، ونظيفاً تقريباً ، وحليقاً .. وقال برونيه بغير حماسة :

— تعال من هنا . اذا اردت ان تظل واقفاً ، فبوسعك ان تستند الى الجدار الصغير .

فانحنى الرجل ، والتقط رزمته ، ولحق ببرونيه وهو يتخطى الأجسام . إنه شديد البأس ، ولكنه سمين بعض الشيء .

وقال : — مرحباً ، يا صاح .

قال : — مرحباً .

قال الرجل : — سأقف هنا .

فسأله برونيه : — هل انت وحدك ؟

قال الرجل : — لقد مات رجالي .

قال برونيه : — ورجالي أيضاً . ما اسمك ؟

فسأله الرجل : — ماذا تقول ؟

— أسألك عن اسمك .

— آه ، نعم : اسمي شنايدر . وأنت ؟

— برونيه .

ولزما الصمت : ما حاجتي الى مناداة هذا الرجل ، انه سيزعجني .

ونظر برونيه الى ساعته : انها الخامسة ؛ الشمس مختبئة خلف الثكنة ، ولكن السماء تظل ساحقة ؛ لا غيمة ، ولا رعشة : البحر الميت . ليس ثمة من يتكلم ؛ وحول برونيه ، يحاول البعض ان ينام ، وهم يدسون الرأس بين الـــذراعين ، ولكن القلق يخلّفهم يقظين : فيستقيمون أو يتنهدون أو يحكّون رؤوسهم ، وقال مولو :

– ايه ! ايه ! ايه !

فالتفت برونيه : كان عشرة من الضبـــاط يقودهم حارس ألماني يمرّون خلفه وهم يلامسون الجدران ، وسأل الأشقر ، من بين اسنانه:

– الا يزال هناك بعضهم ؟ ألم يلوذوا جميعاً بالفرار ؟

ويبتعد الضباط في صمت ، من غير ان ينظروا الى احد ؛ ويقهقه الرجال في انزعاج ويصرفون رؤوسهم لدى مرورهم : فكأنهم يخافون بعضهم بعضاً . ويبحث برونيه عن نظر شنايـــدر ، ويتبادلان بسمة . انفجار صيحات على الأرض : انه الرقيب يضحك مع بلونديه . وقال البلونديه الأشقر :

– جميعاً ! في السيارات ، وعلى الدراجات ، لقد افرنقعوا جميعاً وتركونا في الخراء .

وشبك الرقيب ذراعيه :

– من المؤلم ان نسمع هذا . من المؤلم ، بالرغم من كل شيء .

فأجاب الأشقر :

– والدليل ان الألمان قالوها لنا . قالوها لنا حين اصطادونا ، قالوا لنا : الجيش الفرنسي جيش بلا قائد !

– والحرب الماضية ، ألم يربحها القواد ؟

– لم يكونوا القواد انفسهم .

– بل كانوا هم انفسهم ! ولكن كانت لديهم فرقٌ اخرى .

– يعني ؟ أنحن الذين خسرنا الحرب ؟ الصف الثاني ؟ ولكن قلها،

ما دمت تعنيها !

فأجاب الرقيب : – اني أقولها . اقول انكم هربتم امام العدو وسلمتم فرنسا .

واحمر لامبير الذي كان يستمع اليهما من غير ان يقول كلمة ، وانحنى على الرقيب :

– ولكن قل لي : يا صديقي الصغير ، كيف حدث انك هنا ، لو لم تهرب ؟ لعلك تظن انك متّ في ساحة الشرف ، واننا الآن في الجنة ؟ اما انا ، فأظن انهم قبضوا عليك لأنك لم تكن تستطيع ان تركض بسرعة كافية !

– لست صديقك الصغير : فانا رقيب ، ويمكنني ان اكون اباك . ثم اني لم اهرب : فقد قبضوا عليّ حين نفد رصاصي .

وزحف اليهم رجال من كل صوب ، فاستشهدهم الأشقر وهو يضحك :

– أتسمعونه ؟

فضحك الجميع . والتفت الأشقر الى الرقيب :

– نعم ، يا بابا ، نعم ، لقد أسقطت عشرين مظلياً ، واوقفت دبابة بمفردك . وبوسعي ان أقول مثل ذلك : فليس هناك من أدلة .

فأشار الرقيب الى ثلاثة أمكنة فاتحة على سترته ، والتمعت عيناه :

– المدالية العسكرية ، جوقة الشرف ، صليب الحرب : لقد حصلت عليها في حرب ١٤ ، حين لم تكونوا قد ولدتم بعد ؛ هذه هي أدلتي .

– وأين هي أوسمتك ؟

– لقد نزعتها حين وصل الألمان .

وكان الجميع يصرخون حوله ، مستلقين على بطونهم ، أو مقوسين من الأقدام حتى الرقبة ، فكأنهم الفقم ؛ كانوا ينبحون ، وكانت الحماسة تلون وجوههم ؛ وكان الرقيب في جلسته يشرف عليهم ،

وحيداً ضد الجميع . وصاح رجل :

– ايه ! قل لي ايها المنفوخ ، اتظن اني كنت مستعداً للقتال حين كانت اذاعة الاب بيتان تهتف في آذاننا أن فرنسا طلبت الهدنة ؟

وقال آخر : – وكنت تريد ان نعرّض نفوسنا للقتـــل بينما كان الجنرالية يُصفّون الحساب مع الألمان في قصر تاريخي ؟

فأجاب الرقيب في غضب :

– ولِمَ لا ؟ إن الحرب قد صنعت لقتل الناس ، أليس كذلك ؟

فصمتوا لحظة ، مشدوهين بالغيظ ، فانتهزها الرقيب فرصة ليتابع :

– مضى وقت طويل وانا اراكم قادمين ، انتم فتيان الـ ٤٠ ، الضراطين الصغار ، والسحن الغرامية ، وجماعة الاحتجاجات . لم يكن أحد يجرؤ على التحدث اليكم ، وكان يجب على الكابتين ان يضع قبعته بيده حتى يوجه اليكم الكلام : عفواً ، المعذرة ، هل يزعجكم كثيراً ان تقشروا البطاطا ؟ وكنت اقول لنفسي : حذار ! سيأتي يوم تقع فيه الحرب ، فماذا تراهم سيفعلون ، قوّادي الأشداء ؟ ثم جاءت نهاية كل شيء : المأذونيات . آه ! حين رأيت المأذونيات قلت لحقيبتي وداعاً ! مأذونيات ! لا بد انهم كانوا يجدونكم منفوخين جداً ، فكانوا يرسلونكم سريعاً لتمصكم صاحباتكم حتى يزلن نفختكم قليلاً . أكنا نأخذ مأذونيات في عام ١٤ ؟

– نعم ، كنتم تأخذون مأذونيات . لقد أخذتم بالفعل !

– وكيف عرفت ذلك ايها الطفل ؟ هل كنت في تلك الحرب ؟

– لم اكن فيها ، ولكن كان لي فيها صديق ، وهو الذي أخبرني.

– إن صديقك كان يخوض الحرب في مارسيليا . اما نحن ، فقد انتظرناها عامين ، هذه المأذونيات ؛ ومع ذلك ، فقد كانت تُلغى لادنى سبب ، أتعرف كم قضيت من الوقت في بيتي خلال اثنين وخمسين شهراً من الحرب ؟ قضيت اثنين وعشرين يوماً . أجل ، اثنان وعشرون

يوماً ، يا صغيري ، فهل يدهشك هذا ؟ وهناك من يقول اني كنت محظوظاً .

قال لامبير : — كفى ، لا تقصّ علينا حياتك .

— انني لا أقصّ عليكم حياتي ، وانما اشرح لكم لماذا ربحنا حربنا ، ولماذا خسرتم حربكم .

والتمعت عينا بلوندينه بالغضب :

— ما دمت ذكياً الى هذا الحد ، فربما كان باستطاعتك ان تشرح لنا لماذا خسرتم السلم ؟

فقال الرقيب مندهشاً : — السلم ؟

فصاح الآخرون : — نعم ! السلم ! لقد فقدت السلم .

قال بلوندينه : — انتم المحاربين القدامى ، كيف تراكم قد حميتم ابناءكم ؟ هل جعلتم المانيا تدفع الثمن ؟ هل نزعتم سلاحها ؟ وريننانيا؟ والرور ؟ وحرب اسبانيا ؟ والحبشة ؟

وقال فتى طويل ذو رأس شبيه برغيف سكّر :

— ومعاهدة فرساي ! أأنا الذي وقعتها ؟

فقال الرقيب ضاحكاً من الغيظ :

— بل ربما كنت أنا !

— نعم ، أنت ! انت تماماً ! كنت تنتخب ، أليس كذلك ؟

انا لم اكن انتخب ، لانني في الثانية والعشرين ، انني لم انتخب قط .

— وعلامَ يدلّ هذا ؟

— هذا يدلّ على انك كنت تنتخب كالحمار ، وانك ألقيت بنا في الحراء . كان امامك عشرون عاماً لتُعدّها او لتتجنبها ، هذه الحرب، فماذا فعلت ؟ اقول لك يا صديقي انني انا اساويك ، ولو كان لي نادة وسلاح ، لحاربت مثلك . ولكن قل لي : بمَ تريدني ان احارب ؟ لم يكن معي حتى الرصاص .

فسأله الرقيب : — وعلى من يقع الذنب ؟ من الذي كان يصوّت لستالين ؟ من الذي كان يعلن الاضراب لمجرد ضرطة ، لا لشيء إلاّ ليبعص رب العمل ؟ من الذي كان يطالب بالزيادات ؟ من الذي كان يرفض الساعات الاضافية ؟ السيارات والدراجات ، أليس كذلك ؟ المومسات الصغيرات ، العطل المدفوعة ، ايام الأحد في الارياف ، نوادي الشبيبة والسينما ؟ لقد كنتم كسالى الى ابعد حد . اما انا ، فقد اشتغلت حتى في ايام الأحد ، وطوال حياتي الكلبة كلها .

وأصبح وجه الاشقر أحمر ، فاقترب من الرقيب زاحفاً على اربع وصاح في وجهه :

— كرّرها ، كرّر اني لم أشتغل ! قلها ثانية ! انني ابن ارمل ، ايها الفرج ! وقد تركت المدرسة وانا في الحادية عشرة لأساعد امي .

كان يحتمل ، في أقسى الظروف ، ان يكون قد خسر الحرب ، ولكنه لا يسمح ان يتهم بأنه لم يعمل . وفكر برونيه : قد يكون هذا ما يفيد . وركع الرقيب ، هو ايضاً ، على اربع ، وأخذا يصيحان معاً ، جبيناً لجبين. وانحنى شنايدر ، كما لو انه يريد التدخل؛ فوضع برونيه يده على ذراعه :

— دعهما : انهما يمضيان الوقت .

فلم يُصر شنايدر ، واستوى وهو يرمق برونيه بنظرة غريبة .

وقال مولو : — كفى ، كفى ، لا تتقاتلا .

فعاد الرقيب الى الجلوس وهو يطلق ضحكة قصيرة ، وقال :

— انت على حق في ذلك ! لقد فات الاوان قليلاً لنتقاتل . لو كان يرغب في ذلك ، فما كان عليه الا ان يفعله مع الألمان .

فهزّ الأشقر كتفيه وعاد يجلس بدوره . وقال :

— عجباً ! إنك تحدث لي ألماً في بطني !

صمت طويل . انهم جالسون جنباً الى جنب ؛ وينتزع الأشقر باقات

عشب ، ويتسلى في جدلها ، وينتظر الآخرون لحظة ، ثم يعودون الى أمكنتهم زاحفين ، ويتمطى مولو ويبسم ، ويقول بصوت مصالح :

– هذا كله غير جدّي ، هذا غير جدي .

ويفكر برونيه بالرفاق : كانوا يخسرون معارك ، وأسنانهم منقبضة ، ومن هزيمة الى هزيمة ، كانوا يسيرون الى النصر . وينظر الى مولو – انني لا اعرف هذا النوع . انه بحاجة الى ان يتكلم : إن شنايدر هنا ، ويتحدث اليه برونيه :

– اترى ؟ لم تكن بك حاجة الى التدخل .

فلا يجيب شنايدر . ويقهقه برونيه ، مقلداً مولو :

– هذا غير جدّي !

فلا يجيب شنايدر بشيء : ويظلّ وجهه الثقيل الجميل محايداً . وينزعج برونيه ويوليه ظهره : إنه يكره المقاومة السلبية .

ويقول لامبير : – اريد ان آكل .

فيومىء مولو باصبعه الى الحيّز الذي يفصل السور عن الاوتاد ، ويتكلم بصوت بطيء حارّ ، كأنه ينشد قصيدة :

– سيأتي الطعام من هناك ، سينفتح الحاجز ، وتدخل الشاحنات ، فيلقون الينا بالخبز من فوق الشريط الحديدي .

وينظر برونيه الى شنايدر من زاوية عينه ويقهقه مردّداً :

– أترى ؟ يخطيء من ينفعل . فالهزيمة ، والحرب ، ليسا شيئاً جدياً . إن الطعام هو المهم .

فتسيل نظرة هازئة قصيرة بين أجفان شنايدر ، ويقول بلهجة مشاركة :

– ماذا فعلوا لك ، يا صديقي المسكين ؟ فانه لا يبدو عليك انك تطيقهم .

قال برونيه بجفاء : – لم يفعلوا لي شيئاً ، ولكني أسمعهم .

ويخفض شنايدر عينيه على يده اليمنى نصف المغلقة ، وينظر الى أظافره ، ويقول بصوته الأجشّ اللامبالي :

– من الصعب ان نساعد الآخرين حين لا نكنُّ لهم الودّ .

ويقطب برونيه حاجبيه : كانت صورتي غالباً ما تظهر في الصفحة الاولى من « الاومانيتيه » ، فمن السهل معرفتي .

– ما الذي يجعلك تعتقد اني أريد مساعدتهم ؟

فانطفأ وجه شنايدر ، وقال برخاوة ،

– يجب علينا جميعاً ان نساعد بعضنا بعضاً :

قال برونيه : – بكل تأكيد .

ويحنق على نفسه : كان ينبغي عليه اولاً ألاّ يغضب . ولكنه كان يؤاخذ نفسه خاصة لأنه أظهر غضبه لهذا الأبله الذي يرفض ان يشاطره إياه . وابتسم ، وهدأ .

وقال وهو يبتسم :

– اني لست الومهم هم .

– ومن تلوم إذن ؟

فنظر برونيه الى شنايدر بتنبّه :

– الذين تلاعبوا بهم .

فضحك شنايدر ضحكة رديئة ، وصحّح :

– الذين تلاعبوا بنا . فكلنا مركونون تحت لافتة واحدة .

وأحسّ برونيه غيظه يولد من جديد ، فكاد يختنق ، وقال بصوت مفرط الحلم :

– اذا شئت . ولكني انا ، لو تعلم ، لم اكن مخدوعاً بذلك .

قال شنايدر : – وانا ايضاً . وماذا يؤثر ذلك ؟ فمخدوعين كنا ام لا ، فنحن هنا .

– وبعد ذلك ؟ لماذا لا نكون هنا ، وفي مكان آخر ايضاً ؟

أصبح الآن هادئاً تماماً ، وفكر : ان لي مكاني وعملي ، حيثما يوجد الرجال . وكان شنايدر قد أدار عينيه نحو الباب ؛ ولم يقل شيئاً بعد . وينظر اليه برونيه بلا كراهية : ترى ، ما هذا الشخص ؟ مثقف ؟ فوضوى ؟ ما كانت مهنته في عهد السلم ؟ انه مفرط السمنة وبه شيء من عدم الكلفة ، ولكنه بالاجمال متماسك ، ربما كان باستطاعته ان يخدم .

وهبط المساء ، رمادياً موردأ على الجدران ، وعلى المدينة السوداء التي لا ترى ؛ إن الرجال محددو النظر ، وهم يتطلعون الى المدينة عبر الجدران . انهم لا يفكرون بشيء، ولا يتحركون بعد قط ، فقد هبط الصبر العسكري الطويل عليهم مع المساء : انهم ينتظرون . لقد انتظروا البريد ، والمأذونيات ، والهجوم الالماني ، وكانت تلك طريقتهم في انتظار نهاية الحرب . ولقد انتهت الحرب ، وما يزالون ينتظرون . ينتظرون الشاحنات المليئة بالخبز ، والحراس الالمان ، والهدنة ليحتفظوا فقط بكسرة مستقبل أمامهم ، وحتى لا يموتوا . وبعيداً في المساء ، في الماضي يقرع جرس . ويبتسم مولو :

– ايه يا لامبير ! لعلها الهدنة !

فأخذ لامبير يضحك ، وتبادلا غمزة مفهومة . وشرح لامبير للآخرين :

– لقد تعاهدنا على أن نأكل وجبة لذيذة هائلة !

قال مولو : – سنفعل ذلك يوم الصلح .

وقهقه البلوندينه الأشقر لهذه الفكرة وقال :

– اما انا ، فلن افيق من سكري خمسة عشر يوماً .

وقال الافراد من حوله :

– خمسة عشر يوماً ، بل شهراً ! حتى نموت من السكر ، يلعن ديو !

كانوا بحاجة الى ان تُهدم آمالهم واحداً واحداً ، وفي صبر ، وأن

تفجّر اوهامهم وان يُكشف لأعينهم وضعهم المريع عارياً ، وان يُثار اشمئزازهم من كـل شيء ، ومن الجميع ، ومن أنفسهم باديء ذي بدء . اذ ذاك فقط ... وكان شنايدر هو الذي ينظر اليه هذه المرة ، كما لو انه كان يقرأ فكرته . نظرة قاسية . وبادله برونيه نظرته .

وقال شنايدر : — سيكون صعباً .

وانتظر برونيه ، مرفوع الحاجبين .

وردّد شنايدر : — سيكون صعباً .

— ما الذي سيكون صعباً ؟

— ان نُعطى وعياً . فنحن لسنا طبقة . لسنا اكثر من قطيع . قليل من العمال : فلاحون ، وبورجوازيون صغار . بل نحن لا نعمـل : فنحن مجرّدون .

فقال برونيه بالرغم منه :

— لا تحزن ، فسوف نعمل ...

— نعم ، بكل تأكيد . ولكن كعبيد ، وليس هذا عملا يحرر ، ولن نكون ابداً الا تكملة . فأي عملٍ مشترك يمكن ان يُطلب منا ؟ إن الاضراب يمنح المضربين وعياً بقوتهم . ولكن حتى ولو شبك جميع الاسرى الفرنسيين أذرعتهم ، فان الاقتصاد الألماني لن يتأثر بذلك .

وتبادلا النظر ببرودة ، وفكر برونيه : لقـد عرفتني إذن ؛ لا بأس ، سوف أسهر عليك . وفجأة أضاء الحقد وجه شنايدر ، ثم انطفأ كل شيء . ولم يدر برونيه الى من كان هذا الحقد متجهـاً . وندّ صوت مندهش مفتون :

— ألماني !

— اين هو ؟ اين هو ؟

ورفع الجميع أنوفهم ، فاذا بجنديّ يبرز في برج المراقبة الأيسر ، مرتديـاً قبعة ، والرشاش في يده ، والقنبلة في الرزمة ؛ وتبعه آخر يحمل بندقية .

وقال رجل : — اوه ! لقد تأخروا في الاهتمام بنا .

فبدا على الجميع العزاء : هـا هو عالم الرجـال يعود ، بقوانينه ونواميسه وممنوعاته ؛ هذا هو النظام البشري . والتفتت الرؤوس نحو برج المراقبة الآخر . إنه ما يزال خالياً ولكن الناس ينتظرون بثقة ، كما ينتظرون فتح النوافذ في البريد أو مرور القطار الأزرق. وبدت قبعة على ارتفاع الجدار ، ثم اثنتان : مسخان يرتديـان قبعتين ويحملان رشاشاً يركزانه على محمله ويصوّبانه الى الأسرى . ليس ثمة من نخاف، ويقيم الجنود في البرجين ، ويعلن هؤلاء الحرس الواقفون على قمة الجدار ليلاً لا مغامرة فيه ؛ لن يأتي أي امر فيخرج الأسرى من سباتهم ليلقي بهم في الطرقات ؛ انهم يستشعرون الطمأنينة . وسحب فتى كبير يضع نظارتين من حديد كتاباً كهنوتياً من جيبه وجعل يقرأه مدمدماً . وفكر برونيه : « انه يمارس البغاء » ولكن الغضب انزلق عليه من غير ان يخترقه . وارتاح . للمرة الاولى منذ خمسة عشر عاماً ، يسير نهار ببطء شديد ، وينتهي بمساء جميل ، من غير ان يكون لديه مـا يفعله . وصعدت بطالة قديمة من ايام حداثته ، وكانت السماء هنا ، قد حطت على الجدار ، متوردة ، قريبة ، غير صالحة للاستخدام . ونظر اليها برونيه في خجل ، ثم نظر الى الافراد عند قدميه يتحركون ويهمسون ويحلون رزمهم ويربطونها : مهاجرون عـلى ظهر سفينة . وفكر : « ليس الذنب ذنبهم » وأخذته الرغبة في ان يبتسم لهم . وفكر بان قدميه تؤلمانه ؛ وجلس بالقرب من شنايدر ، فحـلّ سير حذائه . وتثاءب ، وأحسّ بجسمه ، غير صالح للاستخدام كالسماء ، وقال : « بدأ الطقس يبرد » غداً سوف يبدأ العمـل . وكان اللون الرمادي يشمل الأرض ، وسمع صوت مصفّقات ، صوتاً صغيراً عذباً ، ضجة صغيرة متلاحمة وغير منتظمة ، فأصغى اليها ، وحاول ان يتابع إيقاعها، وتسلى بالتفكير بأنها « مورس » وفكر فجأة : « بل هو شخص يصفق

أسنانه » واستوى ، فميّز أمامه ظهراً عارياً عليه قروح متصلبة سوداء ، انه الشخص الذي كان يصرخ في الطريق ، وزحف اليه : كان الرجل مقشعراً .

قال برونيه : — ايه !

فلم يجب الرجل ، فأخرج برونيه صدرة من قربته .

— ايه !

ولمس الكتف العارية ، فأخذ الرجـــل يهمدر ، والتفت فنظر الى برونيه لاهثاً ، وكان المخاط يسيل من منخريه حتى فمه . ورآه برونيه مواجهة للمرة الاولى : انه فتى جميل نضر ذو خدين أزرقين وعينين عميقتين ، ولكن بلا جفون . وقال له برونيه بهدوء :

— لا تنفعل ايها الصغير . اردت ان أعطيك صدرة .

فأخذ الفتى الصدرة بهيئة خائفة ، فارتداها بوداعة وظلّ جامداً ، متباعد الذراعين . وكان كلاهما مفرطين في الطول بحيث كانا يبلغـــان أظافره . وضحك برونيه :

— شمرهما .

فلم يجب الفتى ، وكانت اسنانه تصطك ؛ وأخـــذ برونيه ذراعيه فشمَّر كميه ، وقال الفتى :

— انها لهذا المساء .

قال برونيه : — ما الذي هو لهذا المساء ؟

قال الفتى : — المجزرة .

قال برونيه : — حسناً ، حسناً .

وبحث في جيب الفتى ، فأخرج منه منديلا قذراً وملطخاً بالدم ، فرماه وأخذ منديله الخاص فمدّه له :

— بانتظار ذلك ، تمخّط .

فتمخّط الفتى ، ووضع المنديـــل في جيبه وبدأ يهذي . فلامس

برونيه رأسه بلطف ، كما يلامس رأس حيوان ، وقال له :

— أنت على حق .

فهدأ الفتى ، وكفّت أسنانه عن الاصطكاك . واستـــدار برونيه الى جيرانه :

— من يعرفه ؟

فتحامل قصير أسمر ذو هيئة حيّة على مرفقيه وقال :

— انه شاربان .

قال برونيه : — راقبه بين وقت وآخر ، حتى لا يرتكب حماقات .

قال الرجل : — سأراقبه .

وسأله برونيه : — ما اسمك ؟

— فيرنييه .

— ماذا كنت تفعل ؟

— كنت عامل مطبعة في ليون .

عامل مطبعة : حظ من ثلاثة ؛ سأتحدث اليه غداً .

قال برونيه : — ليلة سعيدة .

فقال عامل المطبعة : — ليلة سعيدة .

وعاد برونيه الى مكانه ، فجلس ، واستعرض الوضع . مولو : تاجر ، هـــذا مؤكد . لن نفيد شيئاً كثيراً منه . وكذلك الرقيب ، لا يمكن إصلاحه ؛ فهو من نوع كاغول . لامبير : شرس معاند . وهو الآن في إبان التحلـــل تحت وقاحته . يمكن كسبه . الشتيمي : فلاح . جدير بالاهمال . ولم يكن برونيه يحب الفلاحين . البلونديه الأشقر : هو ولامبير من طينة واحدة ؛ ولكن الأشقر اكثر ذكاء ، ثم انه يملك حسّ احترام العمل . انه ثمرة ناضجة . عامل المطبعة : هو بالأغلب رفيق جديد ؛ وألقى برونيه نظرة على شنايدر الذي يدخن ، جامداً ، مفتوح العينين على سعتهما . « اما هذا ، فسنرى أمره . »

ووضع الكاهن كتابه ، وتكلم ؛ وكان ثلاثة فتية مضطجعين بالقرب منه ، يصغون اليه في ألفة تقيّة . لقد كسب ثلاثة : سوف يهزمني بسرعة ، في الفترة الاولى على الأقـــل . وفكر برونيه : إن هؤلاء الفتية محظوظون . فبوسعهم ان يعملوا في وضح النهار ؛ سيتلون يوم الأحد قدّاسهم . وتنهد مولو :

— لن تأتي بعد هذا المساء .

فسأله لامبير : — من تعني ؟

— الشاحنات . فالليل مفرط الظلام .

ونام على الأرض ، واضعاً رأسه على قربته . وقال لامبير :

— انتظر . إن عندي شراع خيمة . كم يبلغ عددنا ؟

قال مولو : — سبعة .

قال لامبير : — سبعة . انه يسعنا جميعاً . وسننام عليه نحن السبعة.

وبسط شراعه امام السلم .

— ومن معه لحاف ؟

فأخرج مولو لحافه ، وبسط الرقيب والشتيمي لحافيهما . ولم يكن بلوندينه يملك لحافاً . وكذلك برونيه . وقال لامبير :

— لا بأس . سوف نتدبر الأمر .

وخرج من الظل وجه خجول مبتسم :

— اذا تركتموني أنام على شراع الخيمة ، شاركتكم بغطائي .

فنظر لامبير وبلوندينه الى الدخيل ، وقال بلوندينه :

— لم يبق مكان لك .

وأضاف مولو في لهجة اكثر وداً :

— انك تفهم ، فنحن رفاق فيما بيننا .

واختفت البسمة ، وقد التهمها الليل . وهكذا : تشكل فريق وسط هذا الجمع ، فريق مصادفة ، بلا صداقة ولا تضامن حقيقي ، ولكنه

قد بدأ ينغلق من دون الآخرين ؛ وكان برونيه في داخله . وقـال له شنايدر :

— تعال . فسوف ننام كلانا تحت غطائي .

فتردد برونيه :

— بعد قليل . لا رغبة لي بالنوم .

قال شنايدر : — وأنا كذلك .

وظلا جالسين جنباً الى جنب بينما كان الآخرون يلتفون بأغطيتهم ، وكان شنايدر يدخن وهو يخفي سيكارته في يـده بسبب الحرس . وأخرج علبة « غولواز » فمدها الى برونيه .

— سيكارة ؟ اذا اردت ان تشعلها فاذهب وراء الجدار الصغير ، فانهم لا يرون اللهب .

وكان برونيه راغباً في التدخين . ورفض :

— شكراً . ليس الآن .

إنه لن يلعب لعب التلاميذ ، فهو ليس بعـد في السادسة عشرة : ان معصية الألمان في الامور الصغيرة هي طريقة للاعتراف بسلطتهم .

وأضاءت النجوم الاولى . وفي الجانب الآخر من الجدار ، كانت تُسمع موسيقى حامزة ، موسيقى المنتصرين . وكان النوم يتدحرج على عشرين الف جسم مهترىء ، وكل جسم موجة . وكان هذا التموّج يهدر كالبحر . وبدأ برونيه يشعر بالضجر من ان لا يفعل شيئاً ؛ إن من الممكن تقليب اوراق سماء جميلة ، ونحن في الانتظار . ومثل ذلك النوم . والتفت الى شنايدر وهو يتثاءب ، وفجأة قست عيناه ، فاستوى: لم يكن شنايدر متنبهاً ، فقد انطفأت سيكارته ولم يشعلها من جديد ، وتدلت من شفته السفـلى ، وكان ينظر الى السماء بأسى ، آن الاوان لمعرفة ما بداخله .

وسأل برونيه : — أنت من باريس ؟

ـ لا .

فاتخذ برونيه هيئة اللامبالاة وقال :

ـ امـــا انا فأسكن باريس ، ولكني من كومبلو ، بالقرب من سانت إتيان .

صمت . وبعد لحظة ، قال شنايدر على مضض :

ـ انني من بوردو .

قال برونيه : ـ آه ! آه ! انني أعرف بوردو جيـــداً . مدينة جميلة ، ولكنها حزينة ، أليس كذلك ؟ أهناك كنت تعمل ؟

ـ نعم .

ـ وماذا كنت تعمل ؟

ـ ماذا كنت أعمل ؟

ـ نعم .

ـ مساعد . مساعد محام .

قال برونيه : ـ آه !

وتثاءب ؛ لا بدّ من ان يتدبّر الأمر لرؤية دفتر شنايدر العسكري . وسأله شنايدر :

ـ وأنت ؟

فانتفض برونيه :

ـ انا ؟

ـ نعم .

ـ وكيل .

ـ وعمّ كنت تتوكل ؟

ـ كل شيء تقريباً .

ـ فهمت .

وتداعى برونيه للاستناد الى الجدار الصغير ، ثم رفع ركبتيه حتى

نفه وقـال بصوت قصي ، كما لو انه يستعرض أحداث يومه قبـل أن ينام :

ـ وهكذا !

قال شنايدر بالصوت نفسه :

ـ هكذا ! هكذا !

قال برونيه : ـ لقد عرّوا لنا مؤخراتنا .

قال شنايدر : ـ كان ذلك مؤكداً .

قال برونيه : ـ بالرغم من هزيمتنا ، فمن حسن الحظ ان ذلك انتهى بسرعة : إن النزف أقلّ .

فقهقه شنايدر : ـ سوف ينزفوننا شيئاً فشيئاً : وستكون النتيجة واحدة .

فرمقه برونيه : ـ يبدو لي انك انهزامي .

ـ لست انهزامياً ، ولكني أحقّق الهزيمة .

فسأله برونيه : ـ اية هزيمة ؟ ليس ثمّة من هزيمة اكثر مما هناك من خراء !

وتوقف ظاناً ان شنايدر سيحتجّ ، ولكنه لم يبال . وكان ينظر الى قدميه في كسل : وكان عقب سيكارته ما يزال متدلياً من زاوية شفته . ولم يكن برونيه ليستطيع ان يتوقف الآن : فيجب ان يبسط فكرته ؛ ولكنها « ليست بعد » الفكرة نفسها . فلو ان هذ الأحمق قد سأله مجرّد سؤال ، لألقاها برونيه عليه كالخاطوف ؛ اما الآن ، فينفره ان يتكلم . إن الكلمات ستنزلق على هذه الكتلة الضخمة اللامبالية من غير ان تخلف فيها أثراً .

ـ يظنّ الفرنسيون ان الحرب خاسرة ، بدافع من الشوفينية . انهم يتصورون دائماً انهم وحدهم في الدنيا ، فاذا تلقّى جيشهم الذي لا يُقهر صفعةً ما ، أقنعوا أنفسهم بأن كل شيء قد ضاع وهلك .

فأرسل شنايدر صوتاً مخناً صغيراً ، وعزم برونيه على ان يكتفي

به واستطرد :

– إن الحرب في بدايتها يا صديقي . وبعد ستة أشهر سنقاتل من « الكاب » الى مضيق « بهرنغ » .

فقهقه شنايدر وقال :

– نحن ؟

قال برونيه : – نحن الفرنسيين ، سنتابع الحرب في ميادين اخرى : إن الالمان يريدون ان يجعلوا صناعتنا عسكرية ؛ وتستطيع البروليتاريا ويجب عليها ان تمنعهم من ذلك .

فلم يكن لدى شنايدر اي ردّ فعل ، وظل جسمه العتليّ جامداً . ولم يكن برونيه يحبّ ذلك ، فان الصمت الثقيل المربك ، هو من اختصاصه ؛ لقد هُزم على أرضه بالذات ؛ كان يريـــد ان يحمل شنايدر على الكلام ، وكان هو الذي ابتلع الصنّارة في آخر المطاف . وصمت بدوره ، وظلّ شنايدر على صمته : وكان يمكن لذلك ان يدوم طويلاً . وبدأ برونيه يقلق : إن هذا الرأس افرغ مما ينبغي ، او أملأ مما ينبغي . وكان ثمة ، غير بعيد عنهما ، رجلٌ يعوي عواء خفيفاً . وكان شنايدر هو الذي قطع الصمت هـــذه المرة ، فتكلم في شيء من الحرارة :

– أتسمعه ؟ إنه يظنّ نفسه كلباً .

فهز برونيه كتفيه : لم يكن ذلك اوان التعطّف على فتىً يحلم ، وليس لي وقت أضيعه . وقال شنايدر بصوت ثقيل متحمّس :

– يا للمساكين ! يا للمساكين !

وصمت برونيه ، فأضاف شنايدر :

– انهم لن يعودوا ابداً الى بيوتهم . ابداً .

والتفت الى برونيه وجعل ينظر اليه في كراهيـــة ، فقال برونيه ضاحكاً :

ـ هيه ! لا تنظر اليّ هكذا ، فليس لي في الامر دخل .
فأخذ شنايدر يضحك ، وارتخى وجهه ، وانطفأت عيناه :
ـ صحيـح ، لا دخل لك في الأمر .
وصمتا ؛ وخطرت لبرونيه فكرة ، فاقترب من شنـايدر وسأله بصوت منخفض :
ـ اذا كان هذا ما تفكر به ، فلماذا لا تحاول ان تفرّ ؟
قال شنايدر : ـ يعني !
ـ هل انت متزوج ؟
ـ وعندي طفلان .
ـ ألست متفاهماً مع زوجتك ؟
ـ انا ؟ بل نحن نعبد بعضنا بعضاً .
ـ واذن ؟
قال شنايدر : ـ لا ادري . وانت ؟ هل ستفرّ !
قال برونيه : ـ لا ادري ، سنرى ذلك فيما بعد .
وحاول ان يرى وجه شنايدر ، ولكن الليل لفّ الساحة ، فـلم يكن يُرى شيء بعد ابداً ، الا ظلّ برجي المراقبة دون السماء . وقال برونيه وهو يتثاءب :
ـ أظنّ انـي سأنام .
قال شنايدر : ـ طيّب . وانا ايضاً .
وتمدّد على شراع الخيمة ، ودفعا قربتيهما الى الجـدار ؛ ونشر شنايدر غطاءه فالتفّا به . وقال شنايدر :
ـ مساء الخير .
ـ مساء الخير .
وانقلب برونيه على ظهره ووضع رأسه على قربته ، واحتفظ بعينيه مفتوحتين ، وأحسّ بحرارة شنايدر ، وحدس بان عيني شنايـدر

مفتوحتان . وفكر : «كنت بحاجة شديدة الى ان أرتبك بهذا الشخص.»
وتساءل أيهما حاور الآخر وناوره . وبين الفينة والفينة ، كان انهيارٌ مضيء صغير يخطّ السماء بين باقات النجوم ؛ وتحرّك شنايدر على مهل تحت الغطاء وقال :

— هل نمت يا برونيه ؟

فلم يجب برونيه ، وكان ينتظر . ومرّت لحظة ، فسمع شخيراً صغيراً مخنناً ؛ لقد نام شنايدر . وسهر برونيه وحده : ضوءاً وحيداً وسط هذه الليالي العشرين ألفاً . وابتسم ، وأغمض عينيه واستسلم ؛ وكان عربيان يضحكان في الغابة الصغيرة :

— اين عبد الكريم ؟

فأجابت العجوز : — لن يدهشني كثيراً ان يكون في مخزن الثياب .

وكان ، في الواقع ، هناك ، جالساً امام طاولة عمل ، هادئاً جداً وهو يهدر « قتَلَة ! قتلة ! » وينزع ازرار ثوبه ، فيحدث كل زرّ انفجاراً جافاً والتماعاً .

وقال شنايدر : — خلف الجدار ، اسمع !

فاستوى برونيه جالساً ، وحكّ رأسه ، فاذا هو امام ليل غريب مليء بالضجيج :

— ماذا هناك ؟

— اسمع ! اسمع !

فرمى برونيه الغطاء وانبطح خلف الجدار الصغير مع شنايدر . وانتحب صوت :

— قتَلَة !

وصرخ أحدهم بالالمانية، ثم كانت طلقات الرشاش الجافة . وتطلع برونيه بحذر من فوق الجدار ، فرأى على ضوء الالتماعات ، فرقةً برمّتها من الشجر الكسيح ، رافعاً نحو السماء أغصاناً معقدة وملويّة ،

فآلمته عيناه ، وأحسّ رأسه فارغاً فقال :
ـ الانسانية المتألمة .
فجرّه شنايدر الى خلف :
ـ الانسانية المتألمة ، طز فيها ؛ انهم يضحّون بنا .
فبكى الصوت : ـ كالكلاب ! كالكلاب !
وكفّ الرشّاش عن الإطلاق ، وأمرّ برونيه يده على جبينه ، واستيقظ تماماً
ـ ما الذي يحدث ؟
قال شنايدر : ـ لا أدرى . لقد أطلقوا مرتين ؛ في المرة الاولى ربما كان ذلك في الهواء ، اما في الثانية ، فقد كان الأمر جدّاً .
وكانت الغابة تنغل حولها : ما هذا ؟ ماذا حدث ؟ ويجيب قادة مرتجلون : اسكتوا ، لا تتحركوا ، ابقوا نائمين . ويبدو برجا المراقبة أسوديں ازاء السماء الحليبية ، وفيهما رجال يرصدون ، والاصبع على زناد الرشاشات . وكان برونيه وشنايدر راكعين خلف الجدار ، يريان في البعيد العين المستديرة لمصباح كهربائي . ويقترب المصباح ، تؤرجحه يد غير مرئية : فيكنس بضوئه حشرات رمادية ومسطحة . ويتحدّث صوتان أبحان باللغة الالمانية ، ويتلقى برونيه المصباح ملء وجهه ؛ فيغمض عينيه ، وقد أعماه النور ، ويسأل صوتٌ بلهجة قوية :
ـ من الذي صرخ ؟
فقال برونيه : ـ لا أدري .
ونهض الرقيب ، وكان بالغ السرور ، منتصباً باستقامة تحت النور الكهربائي ، قريباً وبعيداً في وقت واحد :
ـ انه جندي أصيب بالجنون ، فأخذ يصرخ ، وخاف رفاقه فنهضوا ، وعند ذاك أطلق الحارس النار .
فلم يفهم الألمانيان ، فحدّثهما شنايدر بالألمانية ، ودمدم الألمانيان

بدورهما ، فالتفت شنايدر نحو الرقيب .

– يقولان ان تسأل ان كان هناك جرحى .

فاستوى الرقيب ، ووضع يديه حول فمه بحركة دقيقة حيّة وصاح :

– أخبرونا عن الجرحى .

فأجابته أصوات ضعيفة من كل صوب ؛ وأضاءت منارتان فجأة ، وهبط كالثلج نور ساحر يداعب الجمع الراكع ؛ وأجتاز ألمان الساحة بالحمّالات ، فلحق بهم ممرضون فرنسيون ، وسأل الضابط الألماني في جهد :

– اين المجنون ؟

فلم يجب أحد ، ولكن المجنون كان هناك واقفاً ، مرتجف الشفتين أبيضهما ، ودموع تسيل على خديه ، فأحاط به الجنود وأخذوه ، فاستسلم لهم مذهولاً ، ومسح أنفه وفمه بمنديل برونيه . وكان الرجال منتصبين نصف انتصاب ، ينظرون الى هذا الشخص الذي تألم ألمهم حتى ذروته ؛ وكان لذلك مذاق الهزيمة والموت . واختفى الألمان ، وتثاءب برونيه ، وكان النور يؤلم عينيه . وسأل مولو :

– ماذا سيفعلون به ؟

فهزّ برونيه كتفيه ، واكتفى شنايدر بالقول :

– ان النازيين لا يحبون المجانين .

وكان رجال يروحون ويجيئون بالحمالات ، وقال برونيه :

– اعتقد ان بوسعنا ان نعود الى النوم .

فعادوا الى النوم . وضحك برونيه : ففي المكان نفسه الذي كان متمدّداً عليه ، كان ثمة ثقب في شراع الخيمة ، ثقب ذو أطراف مشيّطة ؛ وأشار اليه ، فاخضرّ مولو وارتجفت يداه وقال :

– اوه ! اوه ! اوه !

وقال برونيه وهو يبتسم لشنايدر :

– لقد انقذت حياتي بالاجمال .

فلم يبتسم شنايدر ، بل نظر الى برونيه نظرة جدّ وتبرم وقال ببطء :

– نعم ، لقد انقذت حياتك .

وقال برونيه وهو يلتفّ بالغطاء :

– شكراً على كل حال .

قال مولو : – اما انا ، فسأنام خلف الجدار .

وانطفأت المنارتان فجأة ، وصرّت الغابة ، وطقطقت ، وضجت ، وهمست ، واستوى برونيه ، وملء عينيه شمس ، وملء رأسه نعاس ، ونظر الى ساعته : الساعة السابعة . وكان الرجال منهمكين في طيّ أشرعة الخيم ، ولفّ الأغطية . وأحسّ برونيه بأنه متسخ دَبِق : لقد رشح في اثناء الليل وكان قميصه يلتصق بجسمه . وقال بلونديته :

– يلعن دين ! انني جائع !

وبحزن ، سأل مولو بعينيه الباب الكبير المغلق :

– يوم آخر بلا طعام !

ففتح لامبير عينه غاضباً :

– لا سمح الله !

ونهض برونيه ، فحدج الساحة ، فرأى تجمّعاً حول انبوب سقاية ، فاقترب ، كان رجل ضخم عارٍ تماماً يغتسل وهو يطلق صرخات امرأة . ونزع برونيه ثيابه ، فأخذ دوره ، وتلقى على ظهره وعلى بطنه وابلاً مثلجاً قاسياً ، وارتدى ثيابه من جديد من غير ان يتجفف ، وراح يُمسك بالانبوب ، ويغسل الثلاثة التالين . وكان هواة « الدوش » قليلين ، فقد كان الرجال يحرصون على عرقهم الليلي . وسأل برونيه :

– دور مَنْ ؟

فلم يجب أحد ، فوضع الانبوب في شيء من الغضب ، وفكر : « هكذا ! هكذا الرجال ! » سيكون الأمر قاسياً . ووضع سترته تحت

ذراعه ، ليخفي أوسمته ، واقترب من جمع يتحدث بصوت منخفض رغبة منه في معرفة الجو . إن هنـاك تسعة حظوظ على عشرة أنهم يتكلمون عن الطعام . ولن يشكو برونيه من ذلك : فالطعام نقطة ممتازة ؛ ان ذلك شيء بسيط ومحسوس ، انه حقيقي : فان الانسان الجائع عجينة يسهل العمل فيها . ولكنهم لم يكونوا يتحدثون عن الطعام ؛ وعرفه شاب طويل هزيل ذو عينين حمراوين :

ــ أأنت الذي كنت الى جانب المجنون ؟

قال برونيه : ــ نعم .

ــ ماذا فعل ، تماماً ؟

ــ لقد صرخ .

ــ هذا كل شيء ؟ خراء إذن ! المجموع : اربعة قتلى ، وعشرون جريحاً .

ــ كيف عرفت ذلك ؟

ــ لقد أبلغنا ذلك غارتيزر .

وكان غارتيزر رجلاً مربوعاً ذا خدين رخوين ، وعينين كثيبتين تنمّان عن الاهتمام . وسأله برونيه :

ــ انت ممرّض ؟

فأومأ غارتيزر برأسه : نعم ، انه ممرض ، وقد أخذه الألمان الى الاصطبلات ، خلف الثكنة ، ليُعنى بالجرحى .

ــ وكان في الجرحى من مات بين يديّ .

وقال رجل : ــ إن هذا لؤم . لؤم ان نموت هنا ، قبل ثمانية ايام من العودة .

فسأل برونيه : ــ ثمانية أيام ؟

ــ ثمانية ايام او خمسة عشر اذا شئت . فلا بدّ ان يُطلقونا ما داموا لا يستطيعون إطعامنا .

وسأل برونيه : — والمجنون ؟

فبصق غارتيزر بين قدميه :

— لا تتحدث عنه !

— ماذا ؟

— لقد ارادوا ان يسكتوه ، فقام أحدهم يضع يده على فمه ، واذ ذاك عضّه . اوه ؟ يا امي ليتك رأيتهم ! لقد أخذوا يصرخون بلغة غير مفهومه ، ودفعوه الى زاوية من الاصطبل وراحوا يضربونـــه بقبضات ايديهم وأعقاب بنادقهم ، وكان ذلك في النهاية يسليهم ويثير ضحكهم ، وكان ثمة أشخاص من عندنا يحمّسونهم لأن ابن البغيّ هذا هو ، على حد قولهم ، سبب كل شيء . واخيراً ، لم يكن الفتى جميلاً ، كان فمه شورباء ، وعينه جاحظة ، فوضعوه على حمّالة وساقوه الى حيث لا ادري ، ولكن لا بدّ انهم تسلوا معه مرة اخرى ، لأني سمعته يزعق حتّى الساعة الثالثة صباحاً .

وأخرج من جيبه شيئاً ما ملفوفاً بقصاصة جريدة :

— انظروا هذا .

وفتح الورقة :

— إنها سنّ . لقد وجدتّها هذا الصباح في المكان الذي سقط فيه ..

ثم طوى الورقة بعناية ، ووضعها في جيبه ، وقال :

— انني احتفظ بها كتذكار .

واولاهم برونيه ظهره ، وعاد بهدوء الى السلّم . وصاح به مولو من بعيد :

— هل عرفت النتيجة ؟

— اية نتيجة !

— نتيجة هذه الليلة : عشرون قتيلا وثلاثون جريحاً .

قال برونيه : — فظاعة !

قال مولو : — لا بأس .
وابتسم بسرور غامض وردّد :
— كنتيجة ليلة اولى ، لا بأس على الاطلاق .
وسأل لامبير : — ما حاجتهم الى تبذير رصاصهم ! اذا ارادوا ان يتخلصوا منا فليس عليهم الا ان يتركونا نموت جوعاً ، كما بدأوا .
قال مولو : — لن يدعونا نموت جوعاً .
— وما يدريك ؟
فابتسم مولو : — ليس لك الا ان تفعل مثلي : انظر الى الباب الكبير ، فهذا يسليك ، ثم ان الشاحنات ستأتي من هنا .
وغطّى صوته ضجيج محرّك ، فصاح الشتيمي :
— انظر الى الطائرة .
وكانت طائرة مراقبة تحلق على ارتفاع خمسين متراً ، سوداء لامعة ، وكانت تمرّ فوق الساحة ، ثم انعطفت على جناحها الايسر مرتين ، ثلاث مرات ، وكان عشرون الف رأس تتابعها ، والساحة كلها تدور معها . وقال المجعّد الشعر في لامبالاة :
— واذا قصفونا ؟
قال مولو : — قصفونا ؟ ولماذا ؟
— لأنهم لا يستطيعون إطعامنا .
ونظر شنايدر الى الطائرة وهو يطرف بعينيه ؛ وقال وهو يكزّ في الشمس :
— بل أعتقد انهم يصوروننا ...
فسأل مولو : — لماذا ؟
فأوضح شنايدر بغموض : — مراسلو حرب ..
فاحمر خدّا مولو السمينان ، وتحوّل خوفه الى غضب ، فاذا به يستوي فجأة . ويمدّ ذراعيه نحو السماء ويصيح :

– مدّوا لهم ألسنتكم ايها الرفاق ، مدّوا لهم ألسنتكم ، فيبدو انهم يصوروننا .

وتسلّى برونيه : إن رعشة غضب قد سرت في الجموع ؛ فمدّ جنديّ قبضته ، بينما ابرز جندي آخر بطنه ، وأدخل بنصره في شقّ بنطاله ونصب إبهامه نحو الطائرة كأنه عضو تناسلي ، وارتمى الشتيمي على أربع ، فخفض رأسه ورفع مؤخرته :

– قفاي ، سيصورونه !

ونظر شنايدر الى برونيه وقال :

– اترى ، ما تزال لدينا قوة .

ومضت الطائرة في الشمس . وقال برونيه :

– هذا لا يدل على شيء .

وقال مولو : – إذن سيرون مخي في جريدة « الفرنكفورتر » ؟

وكان لامبير قد اختفى وعاد هائجاً :

– يبدو ان باستطاعتنا ان نؤثث انفسنا بثمنٍ غير مرتفع .

– ماذا تقول ؟

– إن وراء الثكنة أثاثاً ، كالفُرُش والدلاء ، والآنية ، وليس علينا الا ان ننحني لنأخذها ، ولكن يجب ان تعجّلوا لأن هذه سوق السرقة !

ونظر الى رفاقه بعينين ملتمعتين :

– هل يأتي الرفاق ؟

قال المجعد وهو يقفز على قدميه :

– انا آتي .

ولم يحرّك مولو ساكناً ، فقال لامبير :

– تعال يا مولو .

قال مولو : – لا ، فأنا أقتصد . فما دمت لم آكل ، فلن أتحرّك .

فقال الرقيب : — اذن ، احرس الامتعة .

ونهض وانضمّ الى الآخرين وهو يعدو . وحين بلغوا زاوية الثكنة ، صاح بهم مولو بصوت رخو :

— انكم تبذرّون قواكم ، ايها الفروج الحمير !

وتنهّد ، ونظر الى برونيه وشنايدر في قسوة ، وقال هامساً :

— ما كان ينبغي لي حتى ان أصرخ .

وسأل شنايدر : — هل نلحق بهم ؟

فسأله برونيه : — وماذا نفعل بدلو ماء ؟

— اوه ! لنُذهبَ فقط خدرَ سيقاننا .

وكان في الجهة الاخرى من الثكنة ساحة اخرى وبناية طويلة ذات طابق واحد ذي اربعة ابواب : الاصطبلات . وكان مركوماً في زاوية منها فرش قديمة ورفاصات وسرر ذات أُطر ، وخزائن مرتعشة ، وطاولات عرجاء . وكان الجنود يتدافعون حول هذه البقايا ؛ واجتاز احدهم الساحة حاملا فراشا ، بينما احتمل آخر تمثالا من الخيزران . وطاف برونيه وشنايدر بالاصطبلات ، فاكتشفا تلة صغيرة معشبة . وسأل شنايدر :

— هل نرقاها ؟

— لنصعد .

وأحسّ برونيه بالضيق : ماذا يريد ، صاحبنا ؟ صداقة ؟ إن ذلك لا يناسب بعدُ عمري . وفي أعلى التلة ، رأيا ثلاث حفر مردومة حديثاً ، فقال شنايدر :

— اترى ، انهم لم يقتلوا الا ثلاثة .

وجلس برونيه على العشب بالقرب من القبور .

— أعطني مديتك .

فناوله شنايدر إياها ، ففتحها برونيه وبدأ يفتق أوسمته . فقال

شنايدر :

– أنت على خطأ ، إن نواب الضباط معفون من العمل .

فهزّ برونيه كتفيه من غير ان يجيب ، ووضع الأوسمة في جيبه ثم نهض . وعاد الى الساحة الأولى ، فاذا بالاشخاص ينتقلون ؛ وكان فتى جميل ذو وجه وقح يتأرجح في أريكة هزّازة ؛ وامام خيمة منصوبة ، جرّ رجلان طاولة وكرسيين ، وراحا يلعبان بالورق في انتصار ؛ وكان غارتيزر جالساً على حافة سرير فارسي منقطة بالحروق .

وقال برونيه :

– إن ذلك يذكرني « بسوق البراغيث »[1]

وقال شنايدر : – أو بسوق عربية .

واقترب برونيه من لامبير :

– بمَ تراك قد عُدت ؟

فرفع لامبير رأسه في زهو وقال :

– صحون .

وأشار الى نضد من الصحون المثلمة ذات القعر المسودّ .

– وماذا تريد ان تفعل بها ؟ أن تأكلها ؟

قال مولو : – دعه وشأنه ، فربما جاء ذلك بالطعام .

وكانت الصبيحة بطيئة : وقد سقط الرجال مرة اخرى في الخدر ؛ وكانوا يحاولون ان يناموا ، أو يتمددون على ظهورهم ، وسحنهم متجهة الى السماء ، وعيونهم مفتوحة ثابتة ؛ كانوا جائعين . وانتزع المجعد الشعر العشب الذي ينبت بين الحصى وأخذ يمضغه ؛ وأخرج الشتيمي مديته وأخذ ينقش قطعة من خشب . وأشعلت جماعة من الرجال ناراً تحت قدر صدئة . ونهض لامبير ، فذهب يرى ، وعاد خائباً ،

(١) هي سوق يباع فيها الاثاث القديم الذي قد تعشش فيه الحشرات والبراغيث لقدمه ، وهي معروفة في باريس (المترجم) .

وقال موضحاً وهو يتداعى للسقوط بين المجعد ومولو :

— انه حساء القرّاس . وهو لا يغذّي .

تبديل الحراس الألمان ، وقال الرقيب بلهجة غائبة :

— ذهبوا يأكلون .

وقام برونيه يجلس بالقرب من عامل المطبعة ، وقال له :

— هل نمت جيداً ؟

قال عامل المطبعة : — لا بأس .

ونظر اليه برونيه في رضي : كان على هيئة واضحة ونظيفة ، مع شعاع مرح في عينيه ؛ حظان من ثلاثة .

— قل لي ، كنت اودّ ان أسألك : أفي باريس كنت تعمل ؟

قال عامل المطبعة : — لا ، بل في ليون .

— اين ؟

— في مطبعة ليفرو .

قال برونيه : — آه ! ليفرو ، لا أعرف غيرها . لقد قمتم باضراب رائع عام ٣٦ ، اضراب جريء ومنظم .

فضحك عامل المطبعة ضحكة اعتزاز . وسأله برونيه :

— لا بدّ اذن ان تكون قد عرفت بيرنو ؟

— بيرنو ، الممثل النقابي ؟

— نعم .

— طبعاً .

ونهض برونيه : — تعال لنقم بدورة . اريد ان اكلمك .

وحين أصبحا في الساحة الثانية ، نظر اليه برونيه مواجهة :

— هل أنت في الحزب ؟

فتردّد العامل ، وقال له برونيه :

— أنا برونيه ، من جريدة « الاوما » .

قال العامل : — هكذا إذن . كنت اقول لنفسي ...

— هل لك رفاق هنا ؟

— اثنان أو ثلاثة .

— أشخاص شجعان ؟

— اشداء جداً . ولكني أضعتهم أمس في الصفوف .

قال برونيه : — حاول ان تجدهم . وتعال لتراني معهم : فيجب ان نتجمّع من جديد .

وعاد يجلس بالقرب من شنايدر ، فرماه بنظرة سريعة ، فاذا وجه شنايدر هادئ لا يعبرّ عن شيء .

وسأل شنايدر : — كم الساعة ؟

قال برونيه : — الساعة الثانية .

وقال المجعّد : — انظر الى الكلب .

وكان يعبر الساحة كلب كبير أسود ، متدلي اللسان ، وكان الرجال ينظرون اليه نظرة غريبة . فسأل الرقيب :

— من اين هو قادم ؟

قال برونيه : — لا ادري .

وربما كان في الاصطبلات . وتحامل لامبير على مرفق ، وتابع بعينيه الكلب في تململ . وقال كأنما يحدث نفسه :

— إن لحم كلب ليس رديئاً بالدرجة التي يقولون .

— هل أكلت منه ؟

فلم يجب لامبير ، واتى بحركة انزعاج ، ثم تداعى للسقوط على ظهره في استسلام قدري . وكان الشخصان اللذان يلعبان بالورق امام الخيمة قد تركا ورقها على الطاولة ونهضا بهيئة اهمال ؛ وكان أحدهما يحمل تحت ذراعه شراع خيمة . وقال لامبير :

— بعد فوات الاوان .

لقد اختفى الكلب خلف الثكنة ، فتبعاه بلا عجلة ، واختفيا خلفه وقال الشتيمي :

– اتراهما سيقبضان عليه ؟ ام لا ؟

وبعد لحظة ، عاد الرجلان : وكانا قد عقدا الشراع حول شيء ضخم وحملاه كلٌ بطرف ، كأرجوحةٍ للنوم . وحين ألمّا ببرونيه، سقطت نقطة من الشراع ، وانسحقت حمراء على الحصى . وقال الرقيب ملاحظاً :

– مادة رديئة . فقد كان على القماش ان يكون كتيماً .

فهزّ رأسه ودمدم :

– كل شيء متشابه . فكيف كنت تريد ان نربح الحرب ؟

وألقى الرجلان رزمتها في الخيمة ، ودخلها احدهما على أربع ، بينما ذهب الآخر يبحث عن خشب لإيقاد النار . وتنهّد المجعّد :

– على كل حال ، سيخلِّف ذلك اثنين من الأحياء .

وكان برونيه نائماً ، فأيقظه في ذعر صرخة من مولو :

– ! هاي ؟ هاي ! الطعام .

وانفتح الباب على مهل . ونهض مئة شخص : سيارة شحن .

ودخلت السيارة مغطّاة ، وعلى ظهرها زهور واوراق ، كأنها الربيع ، [illegible] . وسلكت السيارة الطريق بين جدران السور والحاجز . ونهض برونيه ، فاذا هو مدفوع ، مسحوب ، ملقى على الاسلاك الحديدية . وكانت السيارة فارغة . وكان ألمانيّ عارٍ حتى النطاق ينظر اليهم قادمين بتثاقل . بشرة سمراء ، شعر أشقر. عضلات طويلة مغزلية الشكل ، عليه هيئة رجل مترف ، من هؤلاء الشباب الجميلين الذين يتزلقون نصف عراة في سان موريتز . وارتفع نحوه الف زوج من العيون ، فكان ذلك يسلّيه : كان ينظر في ابتسام الى هذه الحيوانات الليلية الجائعة التي تلتصق بقضبان قفصها لتراه رؤية

أفضل . وبعد لحظة انحنى الى خلف ، ونادى حراس البرجين الذين أجابوه وهم يضحكون . وانتظر الجمع مبهوراً ، وكان يترصد حركات سيّده ، ويهذي من فرط السرور ونفاد الصبر . وانحنى الألماني ، فالتقط كرة من الخبز في قعر السيارة ، وأخرج مدية من جيبه ففتحها وسنّها بنعله وقطع شريحة . وخلف برونيه ، أخذ شخص يلهث . وحمل الألماني الشريحة الى أنفه وتظاهر بأنه يشمّها في تلذّذ ، وعيناه نصف مغمضتين ، وكانت الحيوانات تزمجر ، وأحسّ برونيه بان الغضب يلوي حلقه . ونظر اليهم الألماني من جديد ، فابتسم وتناول الشريحة بين الابهام والسبابة كالمطشّة ، وصوّب الى مكان أقرب مما ينبغي – وربما عن قصد – فسقطت بين السيارة والاوتاد . وكان رجال قد انحنوا لينسلّوا تحت الاسلاك الحديدية : فصاح حارس البرج بأمر جافّ وصوّب اليهم رشّاشه . وظلّ الرجال ملتصقين بالحاجز ، فاغري الفم ، وفي عيونهم الجنون . وتمتم مولو وهو ملتصق ببرونيه :

– سيسوء الوضع ، فأريد ان اذهب .

ولكن ضغط الجمع يسحقه على برونيه ، فيحاول عبثاً ان يتحلّل ويصيح :

– ارجعوا ، ارجعوا ، ايها الحمقى ؛ الا ترون ان الأمر سيُعاد من جديد ، كما حدث هذه الليلة ؟

وفي السيارة ، كان الألماني يقطع شريحة ثانية ؛ وقذف بها فدارت في الهواء وسقطت بين الرؤوس المرفوعة ؛ وأخذ برونيه في اهتزاز هائل ، فأحسّ بأنه مدفوع ، مُزاح ، مضروب ، ورأى مولو تحمله دوّامة فيرفع يديه في الهواء ، كما لو انه كان يغرق . وفكر : « يا للقذرين ! يا للقذرين ! » وكان يودّ لو يضرب الرجال الذين يحيطون به ، بيديه او بقدميه . وسقطت شريحة اخرى ، وثالثة ، وكان الرجال يتنازعون : وتخلّص شخص شديد البأس وهو يضغط في

يده شريحة ، فقبضوا عليه ،وحاصروه ، فدسّ الشريحة برمتها في فمه وهو يدفعها بظاهر يده ليدخلها ؛ وتركوه ، فمضى يخطى بطيئة وهو يدير عينين قلقتين . وظلّ الألماني يتسلّى ، فيرسل الشرائح الى اليمين والشمال ، ويتصنّع حركات ليخيّب الجمهور . وسقطت قطعة خبز تحت قدمي برونيه ، فرآه عريف اول ، فانزلق وهو يصدم برونيه ؛ وقبض عليه برونيه من كتفيه فألصقه به . وكان الجمع قد انقذف على القطعة الراقدة في الغبار. ووضع برونيه قدمه على القطعة ونكث الارض بنعله ، ولكن عشر أيدٍ قبضت على ساقه ، فأزاحتها والتقطت الفتات الملوّث بالتراب . وكانَ العريف الاول يتخبّط بغضب : لقد سقطت قطعة اخرى ازاء حذائه .

— هل لك ان تتركني ، ايها الفرج القذر ! هل تتركني ؟

ولكن برونيه يقاوم بشدّة ، فيحاول الرجل ان يضرب ، ويتفاداه برونيه بمرفقه ، ويضغط بكل قواه : وكان مسروراً . وقال الرجل بصوت أبيض :

— انك تخنقني !

ويظلّ برونيه يشدّ ، ويرى الشرائح تمرّ فوق رأسه في طيران أبيض ، فيظلّ يشدّ ويزداد سروراً ، فيستسلم الرجل بين ذراعيه . وقال صوت :

— انتهى .

فارتدّ برونيه برأسه الى خلف : كان البربري يُغلق مديته . ويفتح برونيه ذراعه : فيتهادى العريف الاول ، ثم يخطو خطوتين جانبيتين ليستعيد توازنه ، ويسعل وهو ينظر الى برونيه في ذهول حاقد . وابتسم برونيه ، ونظر الرجل الى كتفي برونيه ، فتردد ثم تمتم :

— فرج قذر !

وانفتل . وسال الجمع ببطء خائباً ، ولكن فخوراً . وكان بعض

المحظوظين ما يزالون يمضغون ، في إحساس من العار ، وايديهم امام أفواههم ، وهم يديرون عيوناً طفولية. وكان العريف الاول قد انزرع بازاء وتد ، وكانت شريحة خبز ترقد في الغبار المفحم ، بين سيارة الشحن والحاجز ، فكان ينظر اليها . وقفز الألماني من سيارة الشحن ، فسار محاذياً الجدار ، وفتح باب كوخ والتمعت عينا العريف الاول ، وراح يترصد . وأدار الحراس رؤوسهم ، فأرتمى على أربع ، وانسل تحت اسلاك الحديد ، فمدّ يده ؛ همدرة : وصوّب اليه الحارس . واراد ان يتقهقر ، فأومأ له الحارس الآخر بان يظلّ جامداً . وانتظر ممتقعاً ، لا تزال يده ممدودة ، ومؤخرته في الهواء . وكان ألماني سيارة الشحن قد عاد أدراجه ، فاقترب على غير عجل ، ورفع الرجل بيده ، وباليد الاخرى ارسل له صفعة شديدة ، وضحك برونيه حتى سالت دموعه وقال صوت وراءه بهدوء :

– انك لا تحبنا كثيراً .

فانتفض برونيه واستدار . انه شنايدر . وساد صمت ؛ وتابع برونيه بعينيه العريف الاول الذي كان الألماني يقوده بركلات شديدة نحو الكوخ ، ثم قال شنايدر بصوت محايد :

– اننا جائعون .

فهزّ برونيه كتفيه :

– لماذا تقول « اننا » ؟ هل التقطت الشرائح انت ؟

قال شنايدر : – طبعاً ، فانا جائع كجميع الآخرين .

قال برونيه : – ليس هذا صحيحاً . لقد رأيتك .

فهزّ شنايدر رأسه :

– سواء التقطت الشرائح ام لا ، فالأمر سواء .

وراح برونيه ، خافض الجبين ، ينكث الأرض بعقبه ليدفن الفتات في الغبار ؛ وعراه إحساس غريب جعله يرفع رأسه بسرعة ؛ وفي اللحظة نفسها ، انطفأ شيء ما في عيني شنايدر ، فلم يبق بعدُ الا

غضب مائعٌ يثقل وجهه ، وقال شنايدر :

ــ نعم ، نحن جشعون ! نعم ، نحن جبنــاء ، نحن منحطّون . اتكون هذه غلطتنا ؟ لقد سرقوا منا كل شيء : مهننا ، وأسرنــا ، ومسؤولياتنا . ولكي تكون شجاعاً ، فيجب ان يكون لديك شيء تفعله ، وإلا فانت تحلم . ولم يكن لدينا « شيء » ما نفعله بعد ، حتى ولا ان نكسب قوتنا ، لم يُحسب لنا بعد حساب . اننا نحلم ؛ واذا كنا جبناء، ففي الحلم . أعطنا عملا ، وسترى كيف نستيقظ .

وكان الألماني قد خرج من الكهف ؛ وكان يدخن ؛ وخرج العريف الاول خلفه وهو يعرج : وكان يحمل مجرفة ومعولاً . قال برونيه :

ــ ليس عندي عمل اعطيك إياه . ولكن ، حتى بلا عمل ، يستطيع المرء ان يتصرف تصرفات سليمة .

فرفعت رعشةٌ شفة شنايدر العليا ، ثم سقطت . وابتسم شنايدر :

ــ كنت أحسبك اكثر واقعية . تستطيع بكل تأكيــد ان تتصرف تصرفاً سليماً ، ولكن ماذا يغيّر ذلك : إنك لن تساعد احداً ، ولن يفيد ذلك الا بخلق رضى شخصي . (وأضاف بسخرية) الا ان كنت تؤمن بفضيلة القدوة .

ونظر برونيه ببرودة الى شنايدر وقال له :

ــ لقد عرفتني ، أليس كذلك ؟

قال شنايدر : ــ نعم ، انت برونيه من « الاوما » ، غالباً مــا رأيت صورتك .

ــ هل كنت تقرأ « الاوما » ؟

ــ كان يتفق لي ذلك أحياناً .

ــ هل أنت منّا ؟

ــ كلا ، ولكني لست ضدكم .

فكزّ وجه برونيه . وعادا بهدوء الى السلم وهما يتخطيان الأجسام :

كان الرجال قد عادوا الى النوم، بعد ان أرهقهم عنف رغبتهم وخيبتهم، فهم مزرقّون وعيونهم ملتمعة. وكان لاعبا الورق قد بدأا لعبة «المانيل» بالقرب من خيمتهما ؛ وكان تحت الطاولة عظامٌ ورماد. وحدج برونيه شنايدر من طرف عينه ؛ وكان يسعى لأن يجد على هذا الوجه هيئة الألفة التي لاحظها بالأمس. ولكنه كان قد رأى ملياً هذا الأنف الكبير وهذين الخدّين : فتلاشى انطباعه. وقال بين أسنانه :

– انت تعلم ما يعني ان يكون المرء شيوعياً حين يسقط بين ايدي النازيين ؟

فابتسم شنايدر من غير ان يجيب. وأضاف برونيه :

– سنكون قساة مع الثرثارين.

وظل شنايدر يبتسم، وقال :

– لست ثرثاراً.

وتوقف برونيه، فتوقف شنايدر ايضاً، وسأله برونيه :

– أتريد ان تعمل معي ؟

– وماذا ستفعل ؟

– سأقول لك. ولكن أجبْ اولا.

– لِمَ لا ؟

وحاول برونيه ان يستقرىء هذا الوجه الضخم الناعم المائع تقريباً، وقال من غير ان يغادر شنايدر بنظره :

– لن يكون العمل طريفاً كل يوم.

قال شنايدر : – لم يبق لي ما أفقده بعد. ثم إن ذلك سيشغلني.

وعادا الى الجلوس، وتمدّد شنايدر، عاقداً يديه خلف رقبته، وقال وهو يغمض عينيه :

– هذا لا يمنع انك لا تحبنا قط، وهذا ما يقلقني.

واضطجع برونيه بدوره. ما عساه يكون هـذا الشخص ؟ ايكون

من المؤيدين المتعاطفين ؟ وفكر : لقد قبلت ذلك ، لقد قبلت ذلك ، فلن اتركك بعد . ونام ، ثم استيقظ ، فكان المساء ، وعاد ينـام ، فكان الليل ، ثم كانت الشمس ، واستوى ونظر فيما حوله ، وتساءل اين يكون، ثم تذكر واحس برأسه فارغاً. وكان بلوندينه الأشقر جالساً، وعليه هيئة الخبل والأسى ، وكانت ذراعاه تتدليان بين ساقيه المنفرجتين. وسأله برونيه :

ــ هل تشكو شيئاً ؟

ــ انني جائع . أتظن انهم سيطعموننا هذا الصباح ؟

ــ لا ادري .

ــ اتظن أنهم يريدون ان يميتونا جوعاً ؟

ــ لا أظن .

وتنهّد بلوندينه : ــ انني مبعوص . فانا غير معتادٍ ان أظـل بلا عمل .

ــ تعال إذن فاغتسل .

فنظر الأشقر جهة انبوب السقاية بغير حماسة .

ــ سيكون الماء بارداً .

ــ تعال .

ونهضا . وكان شنايدر نائماً . وكان مولو نائماً ، وكان العريف راقداً على ظهره مفتوح العينين على سعتهما ، وكـان يمضغ شاربه ؛ وكان على الأرض آلاف العيون . آلاف العيون المفتوحة ، وأخرى كانت الحرارة والشمس تفتحانهـا رويداً رويـداً ؛ وتهادى الأشقر على ساقيه :

ــ خراء ! لا استطيع بعد ان أتماسك على ساقيّ ، وسوف اسقط في الهواء .

وفكّ برونيه انبوب السقاية ، فأثبته في الصنبور وأداره . وكان

يحس نفسه ثقيلا . وتعرّى الأشقر : انه قاس ومشعر ، ذو عضلات ضخمة مكتلة . واحمرّ لحمه وتكوم تحت الفوارة ، ولكن وجهه ظل رمادياً . وقال برونيه :

– هذا دوري .

فأخذ الأشقر الانبوب وقال :

– الحقيقة انه ثقيل الوزن .

وتركه ثم التقطه . ووجه الفوارة نحو برونيه ، فاصطكت ركبتاه وترك الانبوب فجأة ، ثم قال :

– إن ذلك يتعبني .

وارتديا ثيابهما . وظـــل الاشقر جالساً على الارض فترة طويلة ، واحدى طاقتيه في يده ، وهو ينظر الى الماء الذي ينبجس بين الحصى ، ويتابع بعينيه الانبوب الموحل وقال :

– اننا نفقد قوانا .

وأغلق برونيه الصنبور ، وساعد المجعد على النهوض ، فعاد به الى السلم . وكان لامبير قد استيقظ ، فنظر اليهما مقهقهاً :

– انكما لا تسيران سيراً مستقيما وتبدوان مرهقين .

وتداعى المجعد للسقوط على شراع الخيمة ، ودمدم :

– لقد أتعبني ذلك ، ولن استعيد ما فقدت .

ونظر الى يديه الضخمتين المرتجفتين المشعرتين :

– بمثل هاتين اليدين ، لا يمكن لرد الفعل ان يحدث .

قال برونيه : – تعال نتنزّه .

فالتفّ بغطائه وأغمض عينيه . ومضى برونيه الى الساحة الخلفية ، وكانت فارغة . ثلاثون دورة بخطوة رياضية . ولدى الدورة العاشرة ، كان رأسه يدور ؛ ولدى التاسعة عشرة اضطر للاستنـــاد الى جدار ، ولكنه كان متماسكـــاً ، وكان يريد ان يروّض جسمه ، ومضى حتى

النهاية ، ثم توقف لاهثاً . وكان قلبه ينبض حتى رأسه ، ولكنه سعيد : إن الجسم قد خُلق ليطيع . سأقوم بهذا كل يوم ، وسأتابع حتى أتمكن من القيام بخمسين دورة . ولم يكن يشعر بالجوع ، وكان سعيداً بالا يشعر بالجوع : إن هذا هو اليوم الخامس من صيامي ، وما زلت متماسكاً بما فيه الكفاية . وعاد الى الساحة الأمامية . وكان شنايدر ما يزال نائماً ، فاغر الفم ؛ وكان جميع الافراد مضطجعين ، جامدين وبكماً ، فكأنهم الجثث . وكان برونيه يودّ ان يتحدث الى عامل المطبعة ، ولكن عامل المطبعة كان ينام ايضاً . وعاد يجلس ، ما يزال خفق قلبه على شدّته ؛ وأخذ الشتيمي يضحك ، فالتفت برونيه : كان الشتيمي يضحك وعيناه منخفضتان على العصا التي ينقشها ؛ وكان قد نقش تاريخاً ، وها هو الآن يرسم زهوراً برأس مدينته . وسأل لامبير :

– ما بك تضحك ؟ اتجد هذا طريفاً ، انت ؟

فظل الشتيمي يضحك ، وقال موضحاً ، من غير ان يرفع عينيه :

– أضحك لأنه قد انقضت ثلاثة ايام عليّ دون ان أخرأ .

قال لامبير : – هذا طبيعي . فمّ تريد ان تخرأ ؟

قال مولو : – هناك مع ذلك من يخرأون . وقد رأيت بعضهم .

قال لامبير : – انهم محظوظون صغار . أشخاص جلبوا معهم علباً من لحم القرود .

واستوى الرقيب ، ونظر الى مولو وهو يشدّ على شاربه :

– ما هي اخبار سيارات شحنك ؟

قال مولو : – سوف تصل ، سوف تصل .

ولكن لم يكن في صوته بعدُ كثير من الاقتناع . وقال الرقيب :

– ولكن يجب عليها ان تستعجل ، وإلا فلن تجد بعدُ احداً .

وظل مولو ينظر الى البوابة ، وسمعت قرقرة مائعة منغمة ، فاعتذر

مولو وقال :

— انها معدتي !

واستيقظ شنايدر ، فأخذ يفرك عينيه ، وابتسم وتمتم :

— واحد قهوة بحليب .

فقال المجعد : — مع « الكرواسان »[1] .

قال الشتيمي : — اما انا فأفضل حساء طيباً ، مع قليل من الخمر الأحمر فيه .

وسأل الرقيب : — أليس مع احد منكم سكاير ؟

فمدّ له شنايدر علبته ، ولكن برونيه أوقفه منزعجاً : إنه لم يكن يحب حركات السخاء الفردية :

— الأفضل ان نجعلها مشتركة .

قال شنايدر : — كما تريد . إن معي علبة ونصف العلبة .

فقال برونيه : — وانا معي علبة .

واخرجها من جيبه ووضعها على شراع الخيمة . وأخرج مولو علبة من الحديد الابيض من قربته ففتحها :

— بقي معي سبع عشرة .

فسأل برونيه : — أهـــذا كل شيء ؟ وانت يا لامبير ، أليس معك سكاير ؟

قال لامبير : — لا .

فقال مولو : — غير صحيح . كانت علبتك ملأى ، مساء امس .

— دخنتها هذه الليلة .

— تدجيل ! لقد سمعتك تشخر .

قال لامبير : — خراء اخيراً ! اريد عن رضى ان اعطي الرقيب

---

(١) نوع من المعجنات على شكل هلال — المترجم .

سيكارة ، اذا لم تكن معه سكاير ، ولكن اذا لم ارد ان اجعل سكايري مشتركة ، فهذا يعنيني .

قال برونيه : — انت حر يا لامبير في ان تلمّ شراع خيمتك وان تذهب الى مكان آخر ، ولكن اذا شئت ان تبقى معنـــا ، فينبغي ان تتبنى روح الجماعة وتألف ان تضع كل شيء في حالة الاشتراك . هات سكايرك .

فهزّ لامبير كتفيه وقذف علبته بغضب على غطاء شنايدر . وجعل مولو يعدّ السكاير .

— ثمانون . اي احدى عشرة لكـــل رأس ، وتبقى ثلاث تجري عليها القرعة . فهل نوزعها ؟

قال برونيه : — لا . إذا وزعتها ، فهناك اشخاص يدخنونها كلها من الآن حتى المساء . اني احتفظ بها . وسوف اعطيكم ثلاثاً منها كل يوم لمدة ثلاثة ايام ؛ وفي اليوم الرابع اعطيكم اثنتين . اتفقنا ؟

كان الافراد ينظرون اليه ، ويدركون بغموض انهم بسبيـــل ان يتخذوا قائداً لهم . وكرر برونيه :

— اتفقنا ؟

إنهم لا يكترثون بهذا ، في آخر المطاف : فانهم يودون ان يأكلوا، هذا ما كان همهم . وهزّ مولو كتفيه وقال :

— اتفقنا .

ووافق الآخرون بايماءة رأس ، فوزع برونيه ثلاث سكاير لكـــل منهم ووضع الباقي في قربته . واشعل الرقيب سيكارة ، فسحب منهـــا اربع مجّات واطفأها ، ثم وضعها خلف اذنه . وأخذ الشتيمي احـــد سكايره ، فشق ورقتها ووضع التبغ في فمه ، وقال موضحاً ، وهو يمضغ :

— إن ذلك يخدع الجوع .

ولم يقل شنايدر شيئاً : انه اكثرهم خسراناً في هذه الصفقة ، ولكنه

لم يقل شيئاً . وفكر برونيه : « ربما كان كسباً طيباً في جماعتنا . » وفكر في شنايدر ثم في شيء آخر ؛ وتساءل فجأة بمَ كان يفكر ، ولم يبلغ ان يتذكر ذلك بعد . وظـل لحظة ثابت العينين ، وقبضة من الحصى في يده ، ثم نهض بتثاقل ؛ وكان عامل المطبعة قد استيقظ ، فسأل برونيه :

— وإذن ؟

قال عامل المطبعة : — لا ادري أين هم . لقد طفت بالساحة ثلاث مرات ، فلم استطع العثور عليهم .

قال برونيه : — استمر ولا تثبط همتك .

وراح يجلس ، ونظر الى ساعته وقال :

— هذا غير ممكن . كم هي الساعة ، ايها الرفاق ؟

قال مولو : — الرابعة وخمس وثلاثون .

— إذن هذا هو الأمر ، هذا هو تماماً .

الساعة الرابعة وخمس وثلاثون ولم أفعل شيئاً ، كنت احسب انهـا كانت الساعة العاشرة صباحاً . وخيل اليه ان الوقت قـد سُرق منه . « وعامل المطبعة الذي لم يعثر على رفاقه ... » إن كل شيء هنا بطيء . بطيء ، متردد ، معقد ؛ ولا بد من اشهر طويلة قبل تحقيق شيء ما . إن السماء ذات زرقة فجة ، والشمس قاسية . ورقت شيئاً فشيئـاً ، وتوردت السماء ، ونظر برونيه الى السماء ، وفكر في طير الزمج ، وكان به نعاس ، ورأسه يطن ، ولم يكن جائعاً ، وكان يفكر : لم اشعر بالجوع طوال النهار ، واستنام ، وحلم بأنه جائع ، واستيقظ ، فلم يكن جائعاً ، وانما كان ثمة غثيـان خفيف ودائرة من نار حول رأسه . السماء زرقاء مرحة ، والهواء رطب ؛ وبعيداً في الريف ، كان صوت ديك أبحّ يصرّ ، وكانت الشمس مختفية ، ولكن أشعتها كانت تتسلل ضباباً ذهبياً من فوق قمة جدار ؛ وكانت ظلال بنفسجية كبيرة

ما تزال تتمدد في الساحة . وصمت الديك ، وفكر برونيه : اي صمت! وخيل اليه لحظة انه وحيد في العالم ، واستوى على مشقة وجلس : كان الرجال هناك ، حوله ، الوف الرجال الجامدين النائمين . فكأنها ساحة معركة . ولكن جميع العيون مفتوحة على سعتها . ورأى برونيه حوله سحناً مقلوبة وسط شعر متناثر ، وعيون تترصد . والتفت نحو شنايدر ورأى عينيه الثابتتين ، فقال برقة :

— شنايدر ! ايه ! شنايدر !

فلم يجب شنايدر . ورأى برونيه في البعيد افعى طويلة رخوة يسيل لعابها : انبوب السقاية . وفكر : يجب ان اغتسل . وكان رأسه ثقيلاً ، وخيل اليه انه يشده الى خلف ، فعاد يضطجع ، وانتابه شعور الطفو . « يجب ان أغتسل » وحاول ان ينهض من جديد ، ولكن جسمه لم يكن ليطيعه بعد ؛ كانت ساقاه وذراعاه رخوة ، ولم يكن يحس بها بعد ، فقد كانت موضوعة الى جانبه كأنها امتعة . وبدت الشمس من فوق الجدار : يجب ان اغتسل ، وكان يزعجه ان يكون ميتاً بين هؤلاء الموتى المفتحي العيون ، وتشنّج ، وجمع اعضاءه ، وانقذف الى امام . وها هو ذا واقف ، ولكن ساقيه تصطكان ، وجسمه يرشح ، وخطا بضع خطوات ، وكان يخشى ان يسقط ؛ واقترب من عامل المطبعة فقال :

— مرحباً !

فاستوى العامل ونظر اليه نظرة غريبة . قال برونيه :

— مرحباً ! مرحباً !

فسأله العامل : — الا تريد ان تجلس ؟ هل تشكو شيئاً ؟

قال برونيه : — كلا ، فالامور على ما يرام . وانا افضل ان أبقى واقفاً .

اذا جلس ، فليس هو على ثقة من انه يستطيع ان ينهض ثانية .

وجلس عامل المطبعة ، وكان يبــدو منتعشاً ، وكانت عيناه اللوزيتان تلتمعان في وجهه الانثوي الجميل . وقال بفرح :

– لقد عثرت على احدهم ، واسمه بيران . وهو عامل في السكة الحديدية باورليان . وقد أضاع رفاقه ، فهو يبحث عنهم ، فاذا وجدهم ، جاءوا ثلاثتهم ظهراً .

ونظر برونيه الى ساعته : انها العاشرة ، ومسح بكمه جبينه الذي يرشح عرقاً وقال : « ممتاز » ،وخيل اليه انه يريد ان يقول شيئاً آخر ، ولكن لا يدري بعد ما هو . وظلّ لحظة يتهادى فوق عامــل المطبعة وهو يكرر : « ممتاز ! ممتاز ! » ثم عاد الى السير في جهد ، ورأسه يشتعل ناراً ؛ وتداعى للسقوط بتثاقــل على شراع الخيمة ، وفكر : « انني لم اغتسل » وتحامل شنايدر على مرفقه في قلق :

– هل تشكو شيئاً ؟

فقال برونيه منزعجاً : – لا ، لا ، لا أشكو شيئاً .

واخرج منديلا فمدّه على وجهه بسبب الشمس . ولم يكن به نعاس: ليس هو تماماً بالنعاس . كان رأسه فارغاً ، وكان يخيل اليه أنه يهبط في مصعد . وسعل احدهم فوق رأسه ، فنزع منديله : إنه عامــل المطبعة مع ثلاثة اشخاص آخرين ، ونظر اليهم برونيه في دهشة ، وقال بصوت دبق :

– هل جاء وقت الظهر ؟

ثم حاول ان يستوي : كان يحس الخجل ان تأخذه الدهشة ؛ وفكر في انه لم يحلق ذقنه وانه لا يقل قذارة عن الآخرين ؛ وبذل جهــداً عنيفاً فاستقام على قدميه ، وقال :

– مرحباً .

فنظر اليه الأشخاص في فضول ؛ انهم فتيان كما يحبهم ان يكونوا: شديدو البأس ، نظيفون ، ذوو عيون قاسية . ادوات طيبة . وكانوا

ينظرون اليه ، فيفكر :

« ليس لهم هنا بعد غيري » واحس بالانتعاش . وقال :

– هل نسير قليلا ؟

فتبعوه . وانعطف عند زاوية الثكنة ، فمضى حتّى الساحة الاخرى ، والتفت فبسم لهم . وقال رجل شديد السمرة ذو رأس حليق :

– انني اعرفك .

فقال برونيه : – كان يخيل إلي جيداً اني سبق ان رأيتك في مكان ما .

فقال الأسمر : – لقد جئت اراك عام ٣٧ ، واسمي ستيفان ؛ وكنت من « الفرقة العالمية » .

وقال الآخران اسميهما : بيران ، من اورليان ، وداوروكير ، من لانس .

واستند برونيه الى جدار الاصطبلات . ونظر اليهم وفكر ، في غير ما رضى ، بأنهم شبّان . وتساءل عما اذا كانوا جائعين . وقال ستيفان:

– وإذن ماذا ينبغي لنا ان نفعل ؟

فنظر اليهم برونيه ، ولم يتذكر بعد ما كان يريد ان يقوله لهم ؛ وصمت ، وقرأ الدهشة في عيونهم ، ثم فتح فمه :

– لا شيء . ليس هناك ما يُعمل في الوقت الحاضر . سوى ان تعدّوا بعضكم ، وتظاهروا على اتصال .

وسأله بيران : – أتريد ان تجيء معنا ؟ ان معنا خيمة .

فقال برونيه بحيوية : – كلا . لنبق حيث نحن ، وحاولوا ان تروا اكبر عدد ممكن من الاشخاص ، وميّزوا الرفاق ، وتدبروا الأمر لتعرفوا قليلاً ما يدور في رؤوس الآخرين. ولا تقوموا بالدعاية، لا تقوموا بها بعد .

فكزّ وجه داوروكير وقال :

ــ إن ما يدور في رؤوس الآخرين ، أعرفه. ليس هناك شيء على الاطلاق . انهم يفكرون في معدهم .

وخيّل لبرونيه ان رأسه بدأ ينتفخ ، فأغمض عينيه نصف إغماضة وقال :

ــ يمكن ان يتغيّر هذا . هل في قطاعاتكم كهنة ؟

قال بيران : ــ نعم ، في قطاعي . بل هم يقومون بأعمال مجدية .

قال برونيه: ــ دعوهم يعملون، ولكن احترسوا من ان يعرفوكم . اما اذا فتحوا لكم ابواباً ، فلا تسدّوها في وجوههم . مفهوم ؟

فأومأوا برؤوسهم علامة الايجاب ، وقال لهم برونيه :

ــ الموعد ، غداً عند الظهر .

ونظروا اليه ، وترددوا قليلاً ، فقال لهم في لهجة لا تخلو من انزعاج :

ــ هيا : اذهبوا ! انني باق هنا .

فذهبوا . ونظر اليهم برونيه ذاهبين ، وانتظر حتى انعطفوا عند الزاوية ليقدّم رجلاً : لم يكن متأكداً من أنه لن ينهار . وفكر : « ثلاثون دورة لخطوة رياضية . » وخطا خطوتين وهو يتهادى ، وأصعد الغضبُ الدمَ الى وجهه ، وكانت تصفق رأسه ضربات عنيفة : ثلاثون دورة ، على الفور ! وانتزع نفسه عن الجدار ، وتقدم ثلاثة امتار ، ثم تمدّد على بطنه . وعاد ينهض ويسقط ، وهو يمزّق يده . ثلاثون دورة كل يوم . وتشبث بحلقة حديدية معلقة في الجدار ، فاستوى واقفاً ، وقام باندفاعة . عشر دورات ، عشرون دورة . واصطكت ركبتاه ، وكانت كل خطوة تشبه سقطة ، ولكنه كان يعلم أنه سيسقط اذا توقف . تسع وعشرون دورة ؛ وبعد الثلاثين ،انعطف لدى زاوية الثكنة وهو يعدو ، ولم يبطيء الا حين ولج الساحة الامامية . وتخطى الأجسام ، فبلغ السلّم . ولم يتحرك أحد : كانوا

كومة طافية من السمك الميت ، وبطونه في الهواء . وابتسم . واقف وحده . اما الآن ، فيجب ان أحلق ذقني . والتقط قربته ، واقترب من نافذة ، فأخذ آلة الحلاقة ، ووضع قطعة المرآة بطريقة جانبية على طرف النافذة ، وحلق ذقنه بلا ماء ؛ الألم الذي يغمض العينين نصف إغماضة . وسقطت آلة الحلاقــة ، فانحنى ليلمها ، وترك المرآة التي انكسرت تحت قدميه ، فوقع على ركبتيه . وكان « يعلم » هذه المرة انه لن يستطيع بعد ان ينهض . وعاد الى مكانه ، زحفاً على أربع ، وتداعى للسقوط على ظهره ؛ وجنّ جنون قلبه ، فكان يطرق طرقات كبيرة في صدره، ولدى كل ضربة، كان حدٌ من نار يثقب رأسه.ورفع شنايدر له رأسه بلا كلمة فدسّ تحت رقبته غطاء مطوياً الى اربع . ومرت غيوم ، وكانت فيها غيمة تشبة راهبة ، واخرى تشبه غندولا . وشده أحدهم من كمّه :

— قف ! اننا ننتقل !

فنهض من غير ان يفهم، فدفعوه الى السلم، وكان الباب مفتوحاً، ودلفت موجة لا تنقطع من الاسرى تتجه الى الثكنة . وأحسّ بأنه يصعد درجاً ، واراد ان يقف ، ولكنه دُفع من الخلف ، وقــال له صوت :

— استمرّ في الصعود .

ولكن قدميه لم تحملاه ، فسقط ويداه الى أمام . وأخذه شنايدر وعامل المطبعة كل من ذراع ، فحملاه . واراد ان يتخلص ، ولكنه لم يكن يملك القوة لذلك . وقال :

— انني لا أفهم .

فضحك شنايدر بلطف :

— انت بحاجة الى طعام .

— مثلك تماماً ، لا اكثر .

فقال عامل المطبعة :

– انت اطول وأصلب . فأنت بحاجة الى طعام اكثر .

ولم يستطع برونيه أن يتكلم بعد ، فرفعاه حتى العنبر ، وكان ممرّ طويل مظلم يخترق الثكنة من جانب الى جانب ، وعلى جانبيه شقق تفصل بينها حواجز ذات شقوق . وولجوا أحداهـا . ثلاثة صناديق فارغة ، هذا كل شيء . لا نوافذ . كانت ثمة كوة بين كل شقتين او ثلاث ؛ وكانت كوّة الشقة المجاورة تنثر عليهم نوراً مائلا يعكس على الأرض الخشبية ظلالاً كبيرة للحواجز الخشبية . ومدّ شنايدر غطاءه على الأرض ، فتداعى برونيه للسقوط عليه . ورأى ذات لحظة وجه عامل المطبعة مائلاً عليه ، فقال له :

– لا تبق هنا ، بل اذهب الى بعيد ، وموعدنا غداً عند الظهر .

واختفى الوجه ، فبدأ الحلم . وانسلّ ظلّ الحواجز متمهلاً على الارض ، انسل واستدار على الأجسام المقلوبة ، وتسلق الصناديق ، ودار ودار وامتقع ، وصعد الليل على طول الجدار ؛ وبدت الكوة ، عبر القضبان ، أشبه بجرح ، جرح ممتقع ، جرح أسود ، ثم بدت فجأة عيناً صافية مرحة ، فاستعادت القضبان دورتها ، فدارت ، ودار الظلّ كالمنارة . الوحش في القفص ، وتحرّك رجالٌ لحظة ثم اختفوا، وجنحت الباخرة مع جميع المحكومين الذين ماتوا جوعاً في أقفاصهم . لهب عود ثقاب ، وانبثقت من الظل كلمة مرسومة بأحرف حمراء ، وانعكست على احد الصناديق : « **سريع العطب** » وكان في القفص المجاور قرود شامبانزي تحشر رؤوسها الفضولية بين الحواجز ، وتمد أذرعها الطويلة نحو القضبان ، وكانت لها عيون حزينة ومجعدة ، فالقرد هو الحيوان الذي يملك أحزن العيون بعد الانسان . لقد حدث شيء ما ، وتساءل: ما الذي حدث، كارثة . اية كارثة ؟ ربما بردت الشمس ؟ وارتفع صوت من جوف الاقفاص : « سأقول لك ذات

مساء أشياء رقيقة . » كارثة ، والجميع في المغطس . اية كارثة ؟ ما الذي سيفعله الحزب ؟ إنه لمذاق عذب لأناناس نضر ، مذاق طري مرح بعض الشيء ، طفولي ، ومَضغَ الأناناس وفتت مرونتها العضلية الناعمة ، متى أكلت منها للمرة الأخيرة ؟ لقد أحببت الأناناس ،وكان أشبه بخشب مقشور لا يملك الدفاع عن نفسه ، ومضغ ، فصعد المذاق الطريّ الحشبي الأصفر من جوف حاقه كبزوغ الشمس المتردد ، وتفتح على اللسان ، وهو « يريد ان يقول » شيئاً ، فما الذي يريد أن يقوله ، هذا الشراب الشمسي ؟ لقد احببت الأناناس ، اوه ! منذ وقت طويل ، يعود الى العهد الذي كنت أحبّ فيه التزحلق والجبال والملاكمة واليخوت الشراعية الصغيرة ، والنساء . سريع العطب . ما الذي هو سريع العطب ؟ اننا جميعاً سريعو العطب ، ويدور المذاق على اللسان ، زوبعة شمسية ، مذاق قديم ، منسيّ ، لقد نسيت نفسي . «تنمّل الشمس في اوراق شجر الكستناء ، سطر الشمس على جبيني ، كنت اقرأ في ارجوحة النوم ، البيت الابيض ورائي ، ورائي منطقة التورين ، كنت أحب الشجر ، والشمس والبيت ، كنت احب العالم والسعادة ، اوه ، سابقاً ! » وتحرك وتخبط : إن عليّ شيئاً أفعله ، شيئاً افعله على التو. إن له موعداً عاجلا ، مع من ؟ مع كروبسكايا. وسقط من جديد : سريع العطب . ماذا فعلت بغرامياتي ؛ لقد قالوا لي ، انك لا تحبنا بما فيه الكفاية ، فهزموني ، لقد قشروني فرخَ نبات طرياً دبقاً بالنسغ، وحين اخرج من هنا ، سآكل حبة اناناس كاملة . وانتصب : موعد مستعجل ؛ فعاد يسقط في طفولة هادئة ، في حقل، « أزيحوا العشب وستجدون شمساً ؛ ماذا فعلت بشهواتك ؟ ليست لي شهوات ، فانا قشرة ، وقد مات النسغ ؛ وكانت القرود المعلقة بالقضبان تنظر اليه بعيونها المحمومة ، لقد حدث شيء ما . وتذكر فتحامل للنهوض ، وصاح : « عامل المطبعة » وسأل :

— هل جاء عامل المطبعة ؟

فلم يجب أحد ، وعاد يسقط في النسغ الدبق ، في « **الذاتية** » ، لقد خسرنا الحرب ، وسوف أموت هنا ، وانحنى ماتيو وهمس : انك لم تحبنا بما فيه الكفاية ، لم تكن تحبنا بما فيه الكفاية ؛ وانفجرت القرود ضاحكة وهي تضرب مؤخراتها . لم تكن تحبّ شيئاً ، أجل ، لم تكن تحب شيئاً على الاطلاق . ودار ظلّ القضبان ببطء على وجهه ، الظل، الشمس ، الظلّ إن هــذا يسليه . انني من أعضاء « الحزب » وانا احب الرفاق ؛ اما الآخرون فليس لدي وقت أضيعه من أجلهم ، إن عندي موعداً . « سأقول لك ذات مساء أشياء رقيقة ، سأقول لك ذات مساء اني احبك . » وجلس ، وكان يلهث ، وينظر اليهم ، وابتسم مولو ذاهلاً ، ووجهه ملتفت نحو السقف ، وداعبه ظلّ طريّ منسلا على خده ، فالتمعت أسنانه من الشمس .

— ايه ! مولو !

وظلّ مولو يبتسم ، وقال ، من غير ان يتحرك :

— هل تسمعها ؟

فسأل برونيه : — ماذا أسمع ؟

— سيارات الشحن .

فلم يسمع شيئاً ، وكان يخاف هذه الرغبة الهائلة التي أغرقته فجأة، رغبة ان يعيش ، رغبة ان يداعب نهدين أبيضين ، وكان شنايدر مضطجعاً الى يمينه ، فاستنجد به :

— هو ! شنايدر !

فقال شنايدر بصوت ضعيف :

— الامور سيئة .

قال برونيه : — خذ السكاير من قربتي . ثلاث كل يوم .

وانزلقت كليتاه بهدوء على الارض الخشبية ، فألفى نفسه راقداً ،

مقلوب الرأس ، ونظر الى السقف ، انني احبهم ، بكل تأكيد احبهم ، ولكن « يجب ان يخدموا » ، ما عساها تكون هذه الرغبة ؟ الجسد ، الجسد الميّت ، غابة الشهوات ، على كل غصن عصفور ، يقدمون لحم الخنزير في « ويستفالي » عـلى صحون من خشب ، المدية تقطع اللحم ، فيحس من يسحبها التحاماً خفيفاً للخشب الرطب ، لقد هزموني ، فلست الا رغبة ، ونحن جميعاً في الخراء ، وسوف أموت هنـا . اية رغبة ؟ وحملوه ، واجلسوه ، وسقاه شنايدر حساء .

— ما هذا ؟

— حساء شعير .

واخذ برونيه يضحك : كان الامر هكذا ، ولم يكن الا هكذا . تلك الرغبة الهائلة المذنبة لم تكن الا الجوع . ونام ، وسهروا عليه ، وأكل حساءه الثاني . وأحس بحروق في معدته ؛ كانت القضبان تدور ، وصمت الصوت . وقال :

— كان هناك شخص يغني .

قال مولو : — اجل .

— انه لا يغني بعد .

فقال مولو : — لقد مات . وقد نقلوه أمس .

حساء آخر ، مع الخبز هذه المرة ، وقال :

— لقد تحسنت .

وجلس بلا مساعدة ، وابتسم : الحداثة ، الحب ، « الذاتية » ، لم تكن كلها شيئاً ، لم تكن اكثر من حلم تضوّر . ونادى مولو بجذل :

— لقد انتهى الأمر بها الى المجيء ، سيارات الشحن ؟

فقال مولو : — أي نعم ! أي نعم !

وكان مولو يحك كرة خبز بمديته ، فيجوفها ويفرغهـا في بعض اماكن . انه ينحتها . وشرح من غير ان يرفع عينيه :

– انها كرة خبز عفنة . فاذا أكلت الأزرق ، كان ذلك خراء ، ولكن هناك ما يؤكل حولها .

ومدّ لبرونيه كسرة خبز ، ودس في فمه الكبير مثلهـا ، قائلاً باعتزاز :

– ظللنا ستة ايام بلا طعام . وكاد يجن جنوني .

فضحك برونيه ، وفكر في « الذاتية » ، وقال :

– وأنا ايضاً .

ونام ، ثم ايقظته الشمس ، وأحس انه مـا يزال واهناً ، ولكنه يستطيع ان ينهض .

وسأل : – هل جاء عامل المطبعة لبراني ؟

– تعلم .. اننا في هذه الأيام لم نتنبه كثيراً للزوار .

وسأل برونيه : – واين شنايدر ؟

– لا ادري .

وخرج برونيه الى الممر ، فاذا بشنايدر يتحدث الى عامل المطبعة ، وكانـا يضحكان ، فنظر اليهما برونيه في ضيق . وجاء اليه عامـل المطبعة يقول :

– لقد قمنا كلانا ، شنايدر وأنا ، بعمل محترم .

فالتفت برونيه الى شنايدر وفكر : انه يندسّ في كل مكان. وابتسم له شنايدر وقال :

– لقد تنقلنا هنا وهناك ، منذ أمس الاول ، فاكتشفنا رفاقاً جدداً .

فقال برونيه بجفاء : – هِمْ ! يجب ان أراهم .

وهبط السلم ، فتبعه شنايدر وعامل المطبعة . وفي الساحة ، توقف وهو يطرف بعينيه ، مبهوراً : انه يوم جميل . وكان رجال جالسون على درجات السلم يدخنون في سكينة ، كأنهم في بيوتهم ، يستريحون بعد كـدّ الاسبوع ؛ وبين الفينة والفينة ، كان فيهم من يهزّ رأسه

ويساقط بضع كلمات ، فيأخذ الجميع في هزّ رؤوسهم . ونظر اليهم برونيه في غضب ، وفكر : « ها هم اولاء يستقرّون . » إن الساحة والبرجين وجدار السور « لهم » ، وهم جالسون على عتبات بيوتهم يعلقون في حكمة قروية بطيئة على جميع احداث القرية : « ماذا يمكننا ان نفعل بفتية كهؤلاء ؟ انهم مصابون بهوس الامتلاك ؛ تحشرهم في الزنزانة ، وبعد ثلاثة ايام ، لا تدري ان كانوا اسرى ام مالكي السجن . » وكان آخرون يتنزهون ، كل اثنين أو كل ثلاثة ، وكانوا يسيرون بنشاط ، ويتحدثون ، ويضحكون ، ويستديرون : انهم بورجوازيون يقومون بالعرض . ويمرّ مرشحون ، بثوب عسكري خاص ، من غير ان ينظروا الى أحد ، ويسمع برونيه أصواتهم المتميّزة : « كلا ، يا عزيزي ، أستميحك العذر ، انهم لم يضعوا ميزانيتهم ؛ كان المفروض ان يضعوها ، ولكن بنك فرنسا ساعدهم». وكان ثمة شخصان يلبسان النظارات ، وهما راكعان يلعبان الشطرنج ، يحيط بهما كثيرون؛ وكان رجل قصير أصلع يقرأ وهو مقطّب الجبين ، وكان بين فترة وفترة يضع كتابه ويقلب في هياج صفحات كتاب ضخم . ومر برونيه خلفه : وكان الكتاب قاموساً . وسأله برونيه :

– ماذا تفعل ؟

– أتعلّم الألمانية .

وحول انبوب السقاية ، كان رجال عراة يصرخون ويتدافعون ضاحكين ؛ وكان غارتيزر الالزاسي مرتفقاً احد الاوتاد يتحدث بالألمانية مع حارس ألماني يصغي اليه وهو يشير برأسه علامة الموافقة . إن لقمة خبز كانت كافية ! لقمة خبز ، فاذا بهذه الساحة الكئيبة التي كان الجيش المهزوم يحتضر فيها تتحول الى شاطيء ، الى مشمسة ، الى سوق خيرية ، وكان ثمة شخصان عاريان يسمّران جسميهما في الشمس ، مضطجعين فوق غطاء ؛ وودّ برونيه لو يركل أفخاذهما المذهبة بقدمه:

أحرقوا مدنهم وقراهم ، خذوهم الى المنفى ، فسيصرّون في كل مكان على اعادة بناء سعادتهم الصغيرة العنيدة ، سعادة الفقراء ؛ إذهبوا إذن، فاعملوا في هذا الميدان . وأولاهم ظهره ومضى الى الساحة الاخرى ؛ وتوقف مأخوذاً : ظهور ، آلاف الظهور ، قرع جرس صغير ، وتنحني الوف الرؤوس . وقال :

– بلا مزاح !

فأخذ شنايدر وعامل المطبعة يضحكان :

– أي نعم ! أي نعم ! اليوم هو الاحد . ولقد اردنا ان نطلع عليك بمفاجأة .

قال برونيه : – هكذا إذن ! إنه يوم الاحد !

ونظر اليهما مشدوهاً : أي عناد ! لقد صنعا لنفسيهما « احداً تركيبياً» ، أحداً من المدينة والريف، لانهما قرأا في رزنامة ان اليوم يوم أحد . وفي الساحة الاخرى ، كان يوم الأحد في القرية ، يوم الاحد في شارع الريف الكبير ، اما هنا ، فكان يوم الاحد في الكنيسة ؛ ولم يكن ناقصاً الا السينما . والتفت الى عامل المطبعة :

– أليس من سينما ، هذا المساء ؟

فابتسم عامل المطبعة :

– إن عمال الشبيبة المسيحية سيقيمون احتفال العاب نارية .

فحرّق برونيه الأرم ، وفكر في الحوارنة الصغار ، فكر : لقد عملوا بجدّ ، بينما كنت مريضاً . ينبغي للمرء الا يمرض قط . وقال عامل المطبعة في خجل :

– انه نهار جميل .

فقال برونيه بين أسنانه : – بكل تأكيد .

بكل تأكيد ، نهار جميل ، نهار جميل على فرنسا كلها : إن الخطوط الحديدية المنتزعة الملوية تلمع تحت الشمس ، والشمس تذهّب

الاوراق المصفرّة في الأشجار المقتلعة ، والماء يبرق في جوف اوعية القنابل، والموتى يخضرّون بين القمح، وبطونهم تغني تحت سماء لا غيوم فيها . اتراكم قد نسيتم ؟ إن الرجال هم من المطاط . وارتفعت الرؤوس ، وتكلم الكاهن . ولم يكن برونيه يصغي الى ما يقول ، ولكنه كان يرى رأسه المحمرّ ، وشعره الرمادي ، ونظارته الحديدية ، وكتفيه القويتين؛ وعرفه : إنه الرجل ذو الكتاب الديني الذي لاحظه في المساء الاول . واقترب . وعلى بعد خطوتين منه ، كان الرقيب ذو الشارب يصغي اليه بحماسة ، ملتمع العينين ، متواضع الهيئة :

— ... ان كثيرين منكم مؤمنون ، ولكني أعرف كذلك أن هناك آخرين يصغون إليّ بدافع الفضول ، أو ليتثقفوا ، أو بكل بساطة ليقتلوا الوقت . إنكم جميعاً اخوتي ، اخوتي الأعزاء ، اخوتي في السلاح ، واخوتي في الرب ، وانا اتوجه اليكم جميعاً ، كاثوليكيين وبروتستانت وملحدين ، لأن كلمة الرب للجميع . والرسالة التي أحملها اليكم في يوم الحداد هذا ، الذي هو يوم الرب ايضاً ، تتلخص في هاتين الكلمتين البسيطتين : « لا تيأسوا !... » لأن اليأس ليس فقط إثماً ضد الرحمة الإلهية المعبودة : فحتى الجاحدون يوافقونني على أنه اعتداء من الانسان ضد نفسه . وهو اذا صح القول انتحار روحي . ولا ريب في ان فيكم ، يا اخوتي الاعزاء ، من خدعهم التعليم المتعصب فحملهم على الا يروا في التتابع الرائع لأحداث تاريخنا الا سلسلة من الحوادث لا معنى لها ولا رابطة . فهم يمضون اليوم مرددين بأننا قد هُزمنا لأننا لم نكن نملك عدداً كافياً من الدبابات ، ولم يكن لدينا عدد كافٍ من الطائرات . وعن هؤلاء قال الرب ان لهم آذاناً لا يسمعون بها وعيوناً لا يرون بها ، ولا ريب في انه ، حين سقط الغضب الالهي على سدوم وعمورية ، كان ثمة في المدن الفاجرة مذنبون بلغ بهم العناد ان زعموا ان مطر النار الذي كان يحيل مدنهم الى رماد لم يكن الا

ترسّباً جوياً او شهاباً . ألم يكونوا يا اخوتي يأثمون بحق أنفسهم ؟ فاذا كانت النار قد سقطت على سدوم اتفاقاً ، فلن يكون هناك عمل للانسان أو ثمرة لصبره وصناعته الا وتتحول بين ليلة وضحاهـا الى عدم ، من غير سبب ، بفعـل قوى عميـاء . فلماذا إذن يبني الانسان ؟ ولماذا يزرع ؟ ولماذا يؤسس أسرة ؟ ها نحن اولاء مهزومون وأسرى، مذلون في عزتنا القومية المشروعة ، متألمون في أجسامنا ، بلا اخبار من المخلوقات العزيزة علينا ، فكيف ؟ ايكون هذا كله بلا هدف ؟ بلا مصدر آخر غير لعبة القوى الميكانيكية ؟ اذا كان ذلك صحيحاً ، يا اخوتي ، فيجب ان نستسلم لليأس، لأنه ليس ثمة ما هو أبعث على اليأس وأشد ظلماً من ان نتألم من أجل لا شيء . ولكني يا اخوتي أسأل هذه العقول القوية بدوري : «ولماذا لم نكن نملك عدداً كافياً من الدبابات ؟لماذا لم يكن لدينا عدد كاف من المدافع ؟ » انهم سيجيبون بلا ريب : « لأننا لم نكن ننتج منها العدد الكافي . » وهنا ينكشف فجأة وجه هذه الفرنسا الآثمة التي نسيت ، منذ ربع قرن ، واجباتها وربهـا . ولماذا ، في الواقع ، لم ننتج بمـا فيه الكفاية ؟ لأننا لم نكن نعمل . وما هو ، يا اخوتي ، مصدر هذه الموجة من الكسل التي سقطت علينا كما سقط الجراد على حقول مصر ؟ لاننا كنا منقسمين بخلافاتنـا الداخلية : فالعمال قد قادهم مشاغبون اوقاح ، فانتهى بهم الأمر الى ازدراء ارباب عملهم ، وارباب العمل قد أعمتهم الانانية ، فلم يهتموا للاستجابة للمطالب المشروعة ؛ وكان التجار يحسدون الموظفين، وكان الموظفون يعيشون كشجرة الدبق على السنديانة ؛ ونوابنا ، في المجلس، بدلاً من ان يناقشوا هادئين في الصالح العـام ، كانوا يتصادمون ويتشاتمون ويصلون احيـاناً الى التماسك بالأيدي . ومـا سبب هـذه الخلافات ، يا اخوتي الاعزاء ، ما سبب هذه المنازعات على المصالح، ولماذا هذا الانحلال في الاخلاق ؟ لأن مادية قذرة قد انتشرت في البلاد كالوباء . وهل المادية الا حالة الانسان الذي انصرف عن الرب:

فهي تفكر بأنه ولد من الارض وسيعود الى الارض ، فليس له ما يهمّه بعد الا مصالحه الأرضية . ولكني أردّ على متشككينا : « انتم على حق ، يا اخوتي : لقد خسرنا الحرب لأننا لم نكن نملك «مادة» كافية ؛ ولكن لستم على حق الا جزئياً ، لان جوابكم « مادي » ، وانما هُزمتم لانكم ماديون » إن فرنسا ، ابنة الكنيسة البكر ، هي التي سجلت في التاريخ سلسلة باهرة من انتصاراتها ؛ وان فرنسا التي لا رب لها هي التي عرفت الهزيمة عام ١٩٤٠ . »

وتوقف ؛ وكان الرجال يصغون في صمت ، فاغري الافواه ؛ وكان الرقيب يوافق بايماءات من رأسه . وعاد برونيه ينظر الى الكاهن ، فلاحظ عليه هيئة الانتصار : كانت عيناه الملتمعتان تركضان بين المستمعين ، ووجنتاه تحمرّان ، ورفع يده واستأنف الكلام في اندفاع يكاد يكون جذلاً :

ـ وهكذا يا اخوتي ، لندع التفكير بأن هزيمتنا هي ثمرة المصادفة: انها في الوقت نفسه جزاؤنا وغلطتنا ؛ انها ليست مصادفة ، يا اخوتي بل هي عقاب ؛ وهذا هو النبأ الطيب الذي أحمله لكم اليوم .

وتوقف مرة اخرى ، يراقب الرؤوس الممدودة نحوه ليحكم على الأثر الذي خلفه ، ثم انحنى وتابع بصوت اكثر تعريضاً :

ـ انه نبأ قاسٍ غير سارّ ، اعترف بذلك ، ولكنه مع ذلك نبأ طيب . إن من يظن نفسه ضحية بريئة لكارثة ويلوي يديه من غير ان يفهم ، ألا نبلّغه نبأ طيباً حين نطلعه انه يكفّر عن خطأه ؟ ومن أجل هذا أقول لكم : ابتهجوا يا اخوتي ! ابتهجوا من أعماق هوّة آلامكم ، لأنه ان كان ثمةخطأ وكان ثمة تكفير ، فهناك ايضا فداء ، واقول لكم : ابتهجوا ايضاً ، ابتهجوا في « بيت ابيكم » لأنّ هنا سبباً آخر للابتهاج . فان سيدنا ومولانا الذي تألم لجميع البشر ، والذي أخذ اخطاءنا على عاتقه ، والذي تعذّب وما يزال يتعذّب

ليكفّر عنها ، إن مولانا قد أختاركم . اجل ، انتم جميعاً ، فلاحين وعمالا وبورجوازيين ، ولستم الابرياء تماماً ، كما انكم لستم الأكثر ذنباً ، لقد اختاركم لمصير لا يُقارن : اختار ان تفتدي آلامُكم ، علي غرار آلامه ، ذنوبَ فرنسا كلها التي لم يكفّ الربّ عن حبّها والتي عاقبها على مضض . هنا يا اخوتي يجب ان تختاروا ، فاما ان تئنوا وتقطّعوا شعوركم قائلين : لماذا تنزل علي هذه المصائب ؟ عليّ لا على جاري الذي كان غنياً شريراً ، ولا على السياسيين المتهنين الذين قادوا بلادي الى الهلاك ؟ واذ ذاك لا يبقى لأي شيء معنى ، ويبقى لكم ان تموتوا في الحقد والضغينة . واما ان تقولوا لانفسكم : اننا لم نكن شيئاً ، وها نحن اولاء مختارون للألم ، ها نحن اولاء الشهداء . وإذن ، حين يكون رجلٌ ارسلته العناية الالهية ، ابنٌ محترم لاولئك الذين كان الرب دائماً يوقظهم في فرنسا إذ تكون على قاب قوسين من الهلاك ..

ومضى برونيه على رؤوس أصابعه ، فوجد شنايدر وعامل المطبعة مستندين الى جدار الثكنة وقال :

– إنه يعرف مهنته .

قال عامل المطبعة : – صحيح ! إنه ينام على بعد شبرين مني ؛ وفي المساء لا نسمع سواه يعظ الرفاق .

ومرّ رجلان بقربهم ، أحدهما طويل هزيل ذو رأس طويل يلبس النظارة ؛ والآخر قصير سمين ذو فمٍ يحمل الازدراء . وقال الطويل بصوت رقيق :

– لقد تكلم جيداً جداً . وببساطة . وقال ما ينبغي ان يقال .

فأخذ برونيه يضحك : – طز !

وخطوا بضع خطوات ؛ ونظر عامل المطبعة الى برونيه في ثقة وسأل :

– وإذن ؟

فردّد برونيه : – إذن !

– هذه العظة ، ما رأيك فيها ؟

– فيها الطيب وفيها الرديء . وهو على نحو ما يعمل لصالحنا : فقد شرح لهم ان الأسر لن يكون لعبة تسلية ؛ وأعتقد أنه سيلحّ على هذه النقطة : وفي هذا مصلحته كما فيه مصلحتنا ، فما دام هؤلاء الفتيان يتصورون بأنهم سيرون صديقاتهن الصغيرات في آخر الشهر ، فلن نستطيع ان نصنع بهم شيئاً .

ماذا ؟

وتباعدت عينا العامل الجميلتان ، وأصبحت وجنتاه رماديتين .وتابع برونيه :

– لا بأس به من هذه الناحية ، بل ان بوسعكم ان تستغلوه . فخذوا رفاقكم وقولوا لهم : هل رأيت الخوري ؟ لقد قال اننا سنواجه مصاعب شديدة .

فسأل عامل المطبعة جاهداً :

– وهل تظنّ انت ، اننا سنقضي هنا وقتاً طويلاً ؟

فنظر اليه برونيه بقسوة :

– هل تؤمن ببابا نويل !

فصمت العامل وابتلع ريقه ؛ والتفت برونيه نحو شنايدر وأضاف :

– غير اني ، من جهة اخرى ، لم اكن اظنّ انهم سيقررون موقفهم بهذه السرعة ، وانما كنت اعتقد بأنهم يودّون الانتظار . ومهما يكن ، فان عظته كانت برنامجاً سياسياً حقيقياً : إن فرنسا هي إبنة الكنيسة البكر ، وبيتان هو قائد الفرنسيين . شيء يخرّيء !

ونظر الى عامل المطبعة فجأة :

– ما رأي الذين حولك فيما قال ؟

ـ إن الناس يحبّونه كثيراً .

ـ هكذا !

ـ ليس ما قد يؤاخذ عليه بالكثير . فهو يوزّع كل ما يملك ، ولكنه يشعرك بذلك. انه يبدو عليه دائماً انه يقول لك ، انني امنحك هذا لمحبة الرب. وانا أفضل الا ادخن ، على ان أدخن تبغه ؛ ولكني الوحيد في هذا الموقف .

ـ أهذا كل ما تعرفه عنه ؟

فقال عامل المطبعة ، وكأنه يعتذر :

ـ انت تعرف انه لا يكون بيننا الا في المساء .

ـ ماذا يفعل في النهار ؟

ـ انه في ردهة المرضى .

ـ وهناك الآن ردهة للمرضى ؟

ـ نعم ، في البناية الاخرى .

ـ وهل هو ممرض ؟

ـ لا ، ولكنه صديق للماجور ، فهو يلعب البريدج معه ومع ضابطين جريحين .

قال برونيه : ـ ها ! ها ! وماذا يقول الفتيان في ذلك ؟

ـ لا يقولون شيئاً ، يظنون ولكنهم لا يريدون ان يعرفوا . وأنا قد عرفت ذلك من غارتيزر ، وهو ممرّض .

ـ حسناً ، ستفضح امامهم القضية ، وستسألهم كيف يحدث ان يكون الخوارنة محشورين دائماً مع الضباط .

ـ اتفقنا .

وكان شنايدر ينظر اليهم ، منذ برهة ، ببسمة غريبة . وقال :

ـ إن البناية الأخرى ، هي بناية الألمان .

قال برونيه : ـ آه !

واستدار شنايدر نحو عامل المطبعة ، وكان ما يزال يبتسم :

— انك ترى ما ينبغي ان تقوله : إن الخوري يترك رفاقه ليذهب فيتملق الألمان بطريقة منحطة .

قال عامل المطبعة برخاوة :

— اوه ، لا أعتقد انه يرى كثيراً من الألمان .

فهزّ شنايدر كتفيه في نفاد صبر متكلف ، فشعر برونيه بأنه يتسلى. وسأل شنايدر العامل : — هل يحقّ لك انت ان تتنزه في بناية الألمان ؟

فهزّ العامل كتفيه من غير ان يجيب . وقال شنايدر منتصراً :

— انت ترى ! انني انا لا أبالي بنواياه : فربما كان يريد ان ينقذ فرنسا . ولكنه « موضوعياً » أسيرٌ فرنسي يقضي أيامه مع العـــدو . هذا ما ينبغي للرفاق ان يعرفوه .

والتفت عامل المطبعة ، مبلبلا ، الى برونيه . ولم يكن برونيه قـــد أحبّ على الاطلاق لهجة شنايدر ، ولكنه لم يكن يريـد ان يناقضه ، فقـــال :

— تدبَّر الأمر بروية ، ولا تحاول ان تهدمه الآن . والواقع ان هنا اكثر من خمسين مثله ، ولن تكفي وحدك لذلك . فجرّب ان تقول ، في الحديث : ان الخوري يعتقد بأننا لن نعود الى بيوتنـــا في وقت قريب ، ولا بدّ انه يعرف ذلك لأنـــه يلتقي بالضباط ويتحدث مع الألمان . فيجب ان يفهموا شيئاً فشيئاً ان الخوري ليس من رأيهم . مفهوم ؟

قال عامل المطبعة : — نعم .

— هل في غرفة الخوري شخص منا ؟

— نعم .

— هل هو بارع ؟

— بما فيه الكفاية .

— فليتظاهر بأنه مقتنع بآرائه . اننا بحاجة الى مخبر .
واستند الى الجدار ، وفكر لحظة وقال لعامل المطبعة .
— اذهب فاصطحب رفاقك . اثنين او ثلاثـة . على ان يكونوا جدداً .

وحين أصبحا وحدهما قال برونيه لشنايدر :
— كنت افضل ان انتظر قليلاً ؛ فبعد شهرين او ثلاثة ، سيصبح الافراد مستعدّين . غير ان الخوارنة هم اقوى مما ينبغي . فاذا لم نبدأ على الفور ، تخطتنا الاحداث . اما تزال موافقاً على ان تعمل معنا ؟
فسأله شنايدر : — أعمل بأي شيء ؟
فقطّب برونيه حاجبيه : — كنت اظن انك تريد ان تعمل معنا ، فهل غيرت رأيك ؟
قال شنايدر ؟ — لم اغيّر رأيي . وانما اسألك عما ستعملونه .
فقال برونيه : — لقد سمعت الخوري ؟ إن هؤلاء لم يسقطوا من المسطرة الأخيرة : وسوف تجدهم بعد شهر في كل مكان . وبالاضافة الى ذلك ، فلن يدهشني كثيراً ان يلتقط الألمان من بيننا كويسلنغين او ثلاثة وان يكلفوهم بان يحملوا لنا الكلام الطيب . لقد كان بامكاننا قبل الحرب ان نقيم بوجوههم التشكيلات الصابة ، الحزب ، النقابات ، لجنة الطواريء . اما هنا ، فلا شيء عندنا . فالقضية إذن هي اعادة بناء « شيء ما » . وطبعاً ، سيتحوّل ذلك الى مناقشات طويلة مملة ، ولم يسبق لي ان احببت ذلك كثيراً ، ولكن اخيراً ، ليس لنا الخيار . وإذن : معرفة العناصر السليمة وتنظيمها وشنّ حملة سرية معاكسة ،تلك هي اهدافنا المباشرة . وثمة نظريتان ينبغي نشرهما : إننا نرفض الاعتراف بالهدنة ؛ والديمقراطية هي شكل الحكومة الوحيد الذي نستطيع اليوم ان نقبله . ولا جدوى من المضيّ الى أبعد من هذا : فيجب علينا في البدء ان نكون حكماء محترسين . وانا آخذ على عاتقي ان أجد الرفاق

في الحزب الشيوعي ، ولكنّ هناك الآخرين ، الاشتراكيين والراديكاليين وجميع الافراد الذين هم « من اليسار » على نحوٍ ما ، المتعاطفين امثالك .

وبسم شنايدر بسمة باردة :

– المائعون .

– لنقل الفاترون .

وسارع برونيه يضيف :

– ولكن بامكان المرء ان يكون فاتراً وشريفاً. ولست على يقين من اني اتحدث تماماً بلغتهم . اما انت ، فلن تلاقي هذه الصعوبة ، لان هذه لغتك .

قال شنايدر : – اتفقنا . المطلوب بالاجمال أن نبعث قليلاً روح « الجبهة الشعبية » ؟

فقال برونيه : – لن يكون ذلك رديئاً جداً .

وهزّ شنايدر رأسه ، وقال :

– إذن سيكون هذا عملي . ولكن ... هل انت واثق من انه « عملك »

فنظر اليه برونيه مندهشاً :

– عملي ؟

قال شنايدر في لامبالاة :

– اوه ! اذا كنت واثقاً من ذلك ..

فقال برونيه : – اوضح قصدك ، فانا لا احب الافكار المضمرة .

– ليس لدي ما اوضحه . فكل ما اقصد اليه : ماذا يفعل الحزب في هذه اللحظة ؟ ما هي اوامره ، وأهدافه ؟ انا افترض انك تعرفها.

فنظر اليه برونيه باسماً ، وسأله :

– اتراك تدرك الوضع ؟ إن الالمان هم في باريس منذ خمسة عشر

يوماً ، وفرنسا كلها مقلوبة رأساً على عقب : فهناك رفاق لنا قُتلوا او أسروا ، وآخرون فروا الى حيث لا يعلم الا الله مع فرقتهم ، في « بو » او « مونتبلييه » وآخرون في السجن . فاذا كنت تريد ان تعرف ماذا يفعل الحزب الآن ، قلت لك انه يعيد تنظيم نفسه .

فقال شنايدر برخاوة :

ـ فهمت ، وانت من جهتك ، تحاول ان تجمع الرفاق الموجودين هنا ، هذا ممتاز .

قال برونيه ، بمثابة اختتام للحديث :

ـ حسناً ، فاذا كنت موافقاً ..

قال شنايدر : ـ ولكن بكل تأكيد يا عزيزي ، اني موافق ، لا سيما وان هذا لا يخصني ، فانا لست شيوعياً . انت تقول لي إن الحزب يعيد تنظيم نفسه : فانا لا اريد منه اكثر من ذلك . غير ان ما اردت ان أعرفه ، لو كنت في مكانك ..

وبحث في جيب سترته ، كما لو انه يبحث عن سيكارة ، وعاد يخرج يده بعد لحظة ويجعلها تتدلى بازاء الجدار :

ـ على اية اسس يعيد تنظيم نفسه ؟ ذلك هو السؤال .

وأضاف من غير ان ينظر الى برونيه.

ـ إن السوفيات متحالفون مع ألمانيا :

قال برونيه بنفاد صبر :

ـ ولكن لا . لقد وقّعوا على ميثاق عدم اعتداء ، وهو ميثاق وقتي . اسمع قليلاً يا شنايدر : لم يكن بوسع الاتحاد السوفياتي ، بعد ميونيخ ..

فتنهد شنايدر وقال : ـ اعرف ، اعرف كل ما ستقوله لي . إن الاتحاد السوفياتي فقد ثقته بالحلفاء وانه يتمهّل ريثما يصبح قوياً بما فيه الكفاية ليعلن الحرب على الألمان . أليس كذلك ؟

فتردد برونيه وقال : — ليس تماماً . فانا أميل الى الاعتقاد بان الالمان سيهاجمونه .

— ولكنك تعتقد أنه يفعل ما في وسعه ليؤخر ذلك .

— أتصوّر .

فقال شنايدر بهدوء :

— إذن لو كنت إياك ، ما كنت واثقاً الى هذا الحد بان الحزب سيتخذ وضعاً حازماً ضد النازيين : فان ذلك يمكن ان يضر الاتحـــاد السوفياتي .

وحدّد على برونيه عينيه المغتلمتين . كان له نظر ضعيف كئيب ، ولكن تصعب مقاومته . وشعر برونيه بالانزعاج ، فأدار رأسه وقال :

— لا تجعل نفسك أبله مما انت . فأنت تعلم جيداً ان القضية ليست قضية اتخاذ موقف علني . إن الحزب هو حزب غير مشروع منذ ٣٩ ، وسيظل نشاطه سرياً .

فابتسم شنايدر : — سري ، نعم . ولكن ما معنى هذا ؟ أيعني ان جريدة « الاومانيتيه » ستطبع سرياً ؟ اسمع إذن : فمن أصل عشرة الاف نسخة توزع ، ستقع مئة نسخة على الأقل في ايدي الألمان ؛ هذا مقدور : فان بالامكان ، بقليل من الحظ ، اخفاء مصدر المنشورات ، والمطابع ، والتحرير الخ .. اذا كان هذا غير مشروع ، ولكن ليس بالامكان اخفاء المنشورات نفسها ؛ لأنها مصنوعة لتنشر وتوزع . وانا اعطي الغستابو ثلاثة أشهر ليقفوا تماماً على سياسة الحزب الشيوعي .

— وبعد ذلك ؟ انهم لا يستطيعون أن يعزوها للاتحاد السوفياتي .

وسأل شنايدر : — والكومنترن ؟ هل تتصوّر ان موضوع الكومنترن لم يثر بين ريبنتروب ومولوتوف ؟

كان يتكلم بغير لهجة الهجوم ، بصوت محايد . ومع ذلك ، فقـــد كان في الحاحه شيء مريب . وقال برونيه :

– لا نجعل من أنفسنا ستراتيجيين في غرفة . إن ما يقوله ريبنتروب لمولوتوف أجهله ، فانا لست تحت الطاولة . ولكن مـا أعرفه – لأن هذه بديهية بسيطة – هو أن العلاقات قد قطعت بين الاتحاد السوفياتي والحزب .

قال شنايدر : – أتظنّ ذلك ؟

وأضاف بعد لحظة : – على كل حال ، اذا كانت قـد قطعت اليوم ، فستعاد غداً . فهناك سويسرا .

وانتهى القدّاس ، ومرّ جنودٌ أمامهما ، صامتين شاردين . وأخفض شنايدر صوته :

– انني واثق من ان الحكومة النازية تعتبر الاتحاد السوفياتي مسؤولا عن نشاط الحزب الشيوعي .

قال برونيه : – لنقرّ ذلك جدلا . فاين يقودنا هذا ؟

فقال شنايدر : – تصوّر ان الاتحـاد السوفياتي ، رغبةً منه في كسب الوقت ، يفرض الصمت على الشيوعيين في فرنسا وبلجيكا .

فهز برونيه كتفيه وقال :

– يفرض ! كيف تراك تتمثل العلاقات بين الاتحـاد السوفياتي والحزب الشيوعي ؟ الا تعرف ان هناك خلايـا في الحزب الشيوعي وأشخاصاً يناقشون ويصوّتون ، في الخلايا ؟

فابتسم شنايدر واستأنف بصبر :

– لم اكن اريد ان اجرحك . واطرح عبارتي عـلى نحو آخر : تصوّر ان الحزب الشيوعي ، رغبة منه في ألا يثير صعوبات للاتحـاد السوفياتي ، يفرض على نفسه صمتاً ...

– وهل يكون ذلك جديداً ؟

– ليس جديداً الى هذا الحد . ماذا فعلتم باعلان الحرب ؟ ومنذ ذلك الحين ، ساء الوضع بالنسبة للاتحـاد السوفياتي . واذا استسلمت

انكلترا ، كان هتلر طليق اليدين .

– لقد اتيح للاتحاد السوفياتي الوقت الكافي للاستعداد . وهو ينتظر الصدمة .

– هل انت واثق من ذلك ؟ إن الجيش الأحمر لم يكن لامعاً الى هذا الحدّ ، في هذا الشتاء . وقد كنت انت نفسك تقول إن مولوتوف يتمهّل ...

– اذا كان بين الاتحاد السوفياتي والحزب الشيوعي العلاقات التي تشير اليها ، فسيعرف الرفاق في الوقت المناسب درجة استعداد الجيش الأحمر .

– الرفاق ، نعم ، هناك في باريس . أما انت ، فلا ، « انت » الذي تعمل « هنا » ...

قال برونيه وهو يرفع صوته :

– واخيراً ، ما هي غايتك من هذا كله ؟ ماذا تريد ان تثبت ؟ ان الحزب الشيوعي أصبح فاشستياً ؟

– كلا ، ولكني اريد ان اثبت ان النصر النازي والميثاق الجرماني السوفياتي هما واقعان قد لا يروقان للحزب الشيوعي ، ولكن عليه ان يرضى بهما . وانت لا تعرف بالذات « كيف » يرضى بهما .

– أيجب عليّ ان أشبّك ذراعيّ ؟

قال شنايدر : – انا لا اقول ذلك . وانما نحن نتحدث ..

واستطرد بعد لحظة ، وهو يمرّ سبابته على جانب انفه الكبير .

– إن الحزب الشيوعي ليس أعطف من النازيين على الديموقراطيات الرأسمالية ولو كانت الاسباب مختلفة ، وما دام انه كان ممكناً تصوّر تحالف بين الاتحاد السوفياتي وديموقراطيات الغرب ، فقد اخترتم ، كقاعدة ، الدفاع عن الحريات السياسية ضد الدكتاتورية الفاشية . ولكنك تعلم خيراً مني ان هذه الحريات وهمية . إن الديموقراطيات الآن

راكعة على قدميها ؛ وقد اقترب الاتحاد السوفياتي من ألمانيا ، وأخذ بيتان السلطة ، وانما يجب على الحزب ان يواصل عمله في مجتمع فاشي او مرصود للفاشية . وانت ، بلا رؤساء ، ولا أمر ولا اتصال ، ولا أخبار ، ستعود بدافع من مبادرة خاصة الى اتخاذ تلك القاعدة الفاسدة. لقد كنا نتحدث منذ لحظة عن روح « الجبهة الشعبية» : ولكن الجبهة الشعبية قد ماتت . ماتت ودفنت . لقد كان لها معنى عام ٣٨ ، في السياق التاريخي . اما اليوم ، فليس لها اي معنى. فاحترس يا برونيه ، انك ستعمل في الظلام .

وكان صوته قد أصبح خشناً ، فكسره فجأة واستطرد في رقة يقول :

– من أجل هذا ، كنت اسألك عما اذا كنت واثقاً من عملك .

فأخذ برونيه يضحك وقال :

– كفى ! إن هذا كله ليس مريعاً الى هذا الحد . فلنجمع الافراد ولنحاول ان نجابه الحوارنة والنازيين ؛ اما الباقي ، فسننظر في أمره : إن المهمات تنبثق من تلقاء نفسها .

فأقرّ شنايدر برأسه وقال :

– بكل تأكيد ، بكل تأكيد .

فنظر اليه برونيه في عينيه ، وقال :

– انت الذي تقلقني ، فاني اجدك متشائماً جداً .

قال شنايدر في غير ما اكتراث :

– اوه ! انا ؟ اذا اردت رأيي ، فاني أعتقد ان ما نفعله ليس له أية أهمية سياسية : إن الوضع مجرّد ، ونحن غير مسؤولين . ان الذين سيعودون منا ، فيما بعد ، سيجدون مجتمعاً منظماً ، باطاراته وتقاليده . في هذا الميدان ، على الأقل . لأننا من جهة اخرى اذا استطعنا ان نردّ للرفاق بعض الشجاعة ، واذا حلنا بينهم وبين اليأس

واذا اعطيناهم سبباً للحياة هنا ، ولو كان وهمياً ، فان ذلك يستحق جهد التجربة .

قال برونيه : — حسناً ، هذا ممتاز (واضاف بعد لحظة صمت) هيّا ، اريد ان اتنزه قليلا ، ما دام هذا اول خروج لي . فالى اللقاء .

فحيّاه شنايدر باصبعين ومضى . عقلٌ سلبي ، مثقف ، ما كان ينقصني الا ان أرتبك بــه . نموذج غريب : تارة ودّيّ حارّ ، واخرى بارد ، وقح تقريباً . فأين رأيته ؟ لماذا تراه يقول « الرفاق » وهو يتحدث عن أفراد الحزب ، ولا يقول « رفاقك » كما يُنتظر منه؟ يجب ان اتدبر الأمر لألقي نظرةً على دفتره العسكري . وفي الساحة المرحة بيوم الأحد ، كان الرجال يبدون بهيئة ايام النزهة ؛ وعلى جميع هذه الوجوه المغسولة ، المحلوقة ، كانت الغيبة نفسها مرسومة . كانوا ينتظرون ، وكان انتظارهم قد أقام فيما وراء السور مدينةً برمتها ذات حدائق ومواخير ومقاه . وفي وسط الساحة ، كان أحدهم يعزف على الارمونيكا : وازواج يرقصون ، وكانت المدينة الشبح ترفع سقوفها واوراقها فوق سور السجن ، وتنعكس على الوجوه العمياء التي يحملها هؤلاء الراقصون الأشباح . واستدار برونيه على عقبيه ، وعاد الى الساحة الاخرى . تغيير في الإطــار : لقد نقلت الكنيسة . كان الفتيان يلعبون لعبة الركض وهو يصرخون ، وكانوا يعدون كالمجانين. وارتقى برونيه الجرف الصغير خلف الاصطبل ، ونظر الى القبور ؛ فاستشعر الارتياح . وكانت زهورٌ قد القيت على الارض المنكوثة ، وزرعت ثلاثة صلبان صغيرة متجاورة . وجلس برونيه بين قبرين ، وكان الأموات تحته : وهــدّأه ذلك ؛ إن البراءة ستأتي يوماً ، بالنسبة اليه ايضاً . وأخرج من التراب علبة سردين مفتوحة وصدئة ، ورماها أمامه . انه يوم أحد نزهة ومقبرة : كنت أتنزه على رابية ، وتحتي كان صبية يلعبون لعبة الركض في مدينة ، وكــانت أصواتهم

تصعد إليّ . اين كان ذلك ؟ إنه لا يعرف بعد ؛ ويفكر : « صحيح اننا سنعمل في الظلام » . فماذا إذن ؟ لا نفعل شيئاً ؟ وثارت قوته لهذه الفكرة . سأعود ، في نهاية الحرب ، وسأقول للرفاق : « هأنذا . لقد عشت . » وسيكون ذلك رائعاً ! هل أهرب ؟ ونظر الى الجدران ، ولم تكن مفرطة في الارتفـاع : حسبي ان أبلغ نانسي ، فان اسرة « بولان » ستخبئني . ولكن كان ثمة هؤلاء الاموات الثلاثة ، تحته ، وهناك الصبية الذين يصرخون في هذا الأصيل الأبدي : وألصق باطن يديه على الأرض الرطبة ، وقرر انه لن يهرب . مرونة . تجميع الفتيان، والانتظار ، وردّ الثقة لهم والأمل ، وعلى كل حال حثّهم على فضح الهدنة ، ثم الاستعداد لتغيير التعليمات وفق الأحداث . وفكر برونيه : إن الحزب لن يتخلي عنا . إن الحزب « لا يستطيع » ان يتخلى عنا . ورقد بطوله ، كالاموات ، عـلى الأموات ؛ ونظر الى السماء ، ثم نهض ، وهبط بخطى بطيئة ، وفكر بأنه وحيـد . كان الموت حوله كأنه رائحة ، كنهاية يوم أحـد ؛ وللمرة الاولى في حياته ، شعر بغموض أنه مذنب . مذنب بأن يكون وحيـداً ، مذنب بان يفكر ويعيش . مذنب بالا يكون قد مات . لقـد كان فيما وراء الجدران بيوت ميتة وسوداء بكل عيونها المفقودة : أبدية الحجر . وكان ضجيج هذا الجمع الرباني يصعد نحو السماء منذ الأزل . وبرونيه وحده ليس خالداً : ولكن الخلود منصبّ عليه كأنه نظرة . انه يمشي : وحين عاد ، كان المساء قد هبط ، لقد تنزه طوال النهار ، وكان لديه ثمة ما يقتله ، وهو لا يدري ان كان قد بلغ ذلك : إن من لا يفعل شيئاً، يعاني حالات نفسية ، هذا طبيعي . وكانت تنبعث من ممر العنبر رائحة غبار ، وكانت الاقفاص تطنّ ، إنه ذيل يوم الأحد يجرجر نفسه ، وعلى الأرض ، كانت ثمة سماء بكاملها متلألئة ، وفيها نجوم مذنّبة : كان الافراد يدخنون في الظلام . وتوقف برونيه ، وقال من غير ان

يوجه كلامه لأحد ، بصورة خاصة :

– تنبهوا حين تدخنون : حاولوا الا تحرقوا الكوخ الخشبي .

وكان الرجال يدمدمون تحت هذا الصوت الذي يهبط اليهم، من فوق، على الأكتاف . وصمت برونيه ، مبلبلا ؛ وأحس انه زائد . وقام ببضع خطوات اخرى : وانبثق كوكب أحمر فتدحرج باسترخاء عند قدميه ، فوضع عليه حذاءه ؛ وكان الليل رقيقاً أزرق ، وكانت النوافذ تبرز في الظلّ ، بنفسجية كالصور التي تبقى في العينين حين يكون صاحبهما قد نظر اطول مما ينبغي الى الشمس ، ولم يجد قفصه ، فصاح :

– هو ! شنايدر !

فقال صوت : – هنا ! هنا !

فعاد أدراجه ، وكان شخص يغني برقة ، لنفسه : «على الطريق، الطريق الكبيرة ، كان شاب يغني » . وفكر برونيه : « انهم يحبون المساء . » وقال شنايدر :

– من هنا ، تقدّم قليلا ، لقد وصلت .

ودخل ؛ فنظر الى الكوة ؛ اين هو المصباح ؟ كان الأشخاص من حوله يهمسون . انهم في الصباح يصيحون ، وفي المساء يهمسون ، لأنهم يحبون المساء ؛ فمع الليل ، يدخـــل « السلام » بخطى ذئبية الى العلبة الكبيرة المظلمة.. « السلام » والسنوات القديمة ؛ بل لكأنهم احبوا حياتهم . وقال مولو :

– اما انا ، فكأس من البيرة ، من غير ربطة عنق . في مثل هذه الساعة ، أكون في « الكادران بلو » وانا أشرب كأس بيرة ، فيما انظر الى المارة .

وسأل بلوندينه : – و « الكادران بلو » اين تراه يكون معلقاً ؟

– في الغوبلين ، عند زاوية جادة الغوبلين وبولفارسان مارسيل، اذا فهمت ما أقصد .

ـ آه ! لأن هناك دار سينما سان مارسيل ؟

ـ على بعد مئتي متر . وانا أسكن مقابل ثكنة « لورسين » . وقد كنت بعد العمل أعود الى بيتي لآكل لقمة ، ثم أهبط ثانية ، فأذهب الى « الكادران بلو » أو احياناً الى « كانون دي غوبلين » . غير ان في « الكادران بلو » فرقة موسيقية .

ـ الكلام بسرك ، في سينما سان مارسيل برامج ممتازة .

ـ صحيح . هناك « شارل تريني » ، وكانت من قابل ماري دوبا ، وقد رأيتها تخرج بلحمها وعظمها ، وكانت لها سيارة صغيرة جداً .

قال بلوندينه : ـ كنت انا أقصدها . وانا اسكن « فانف » ، وكنت اعود الى بيتي مشياً على الأقدام ، حين يكون الليل جميلا .

ـ ولكنها ليست قريبة .

ـ صحيح . غير اني كنت شاباً .

قال لامبير : ـ اما انا ، فليست البيرة هي التي تنقصني ، وهي لم تؤذني قط ، وانما هو الخمر . كان بوسعي ان اشرب من الخمر لترين في اليوم . واحياناً ثلاثة . ولكن كان لا بد لي من ان أرشحها عرقاً . تصوّر لو كان لدينا خمر هذا المساء ، زجاجة صغيرة من صنع « ميدوك » .

قال مولو : ـ عجباً ! ثلاثة ليترات ؟

ـ أجل !

ـ اما انا ، فأحسّ الدوار اذا شربت اكثر من ليتر .

ـ ذلك انك تشرب الخمر الابيض .

قال مولو : ـ آه ، صحيح . الخمر الابيض . لا أعرف غيره .

ـ ينبغي ألا تمضي الى أبعد . خذ مثلا : ان امي العجوز في الخامسة والستين ، وانا أسكن معها . وبالرغم من سنها ، ما تزال

تكرع كيلو خمرها كل يوم . غير انه من الخمر الأحمر .

وصمت لحظة ، وحلم . وكان الآخرون يحلمون ايضاً ، ويصغون بهدوء الى هذه الاصوات التي تتحدث باسم الجميع ، من غير ان يحاولوا مقاطعتها . وفكر برونيه في باريس ، وفي شارع مونمارتر ، وفي حانة صغيرة كان يقصدها ليشرب قدح خمر ابيض مصمغ اذ يخرج من « الاوما » ، وقال الرقيب :

– في يوم أحد كهذا ، أكون ذاهباً مع زوجتي الى حديقتي . إن لي حديقة على بعد خمسة وعشرين كيلومتراً من باريس ، فيما بعد « فيلنوف سان جورج » بقليل ، وهي تعطي خضاراً عظيمة .

فأقرّه صوتٌ ضخم من الجانب الآخر من القضبان :

– آه ! إن الأراضي هناك اراض خصبة كلها .

قال العريف : – إن هذه هي ساعة العودة الى البيت . او ربما قبل ذلك بقليل ، تماماً عندما تغرب الشمس ؛ وانا لا أحبّ ان اسير بسيارتي علي ضوء مصباحها . وقد كانت زوجتي تعود بزهور على مقودها ، وكنت انا أضع خضاراً على « حامل الامتعة » .

قال لامبير : – اما انا ، فلم اكن أخرج يوم الأحد . فالزحام شديد في الشوارع ، ثم اني كنت أشتغل يوم الاثنين ، ولم يكن بيتي قريباً جداً من « غاردوليون » .

– وماذا تفعل في « غاردوليون ؟ »

– اني موظف في « الاستعلامات » ؛ المبنى الذي هو في الخارج. فاذا خطر لك يوماً ان تقوم برحلة صغيرة ، فليس لك الا ان تأتي لحجز الأماكن . حتى ولو جئت عشية رحلتك : فاني أدبر أمرك .

قال مولو : – انا لا استطيع ان ابقى في بيتي ، فان ذلك يورث عندي الكآبة . يجب ان اوضح اني أعيش وحدي .

قال لامبير : – وحتى السبت ، كان يحدث غالباً ألا أخرج .

– والصاحبات ؟

– والصاحبات ؟ كنت أُصعدهنّ الى البيت .

قال بلوندينه مشدوهاً : – الى البيت ؟ وماذا كانت تقول في ذلك ، عجوزك ؟

– لم تكن تقول شيئاً . كانت تعدّ لنا الشورباء وتذهب الى السينما .

قال بلوندينه : – هكذا إذن . تستطيع ان تقول انها ماهرة ؛ فما قولك بامي التي كانت ترسل إلي الصفعات ، حتى بعد ان بلغت الثامنة عشرة ، حين كانت تلتقي بـي مع فتاة ؟

– وتسكن معها ، انت ايضاً ؟

– الآن ، كلا : فقد فتحتُ الآن بيتاً .

وصمت لحظة ثم قال : – وهذا المساء ، لم نكن لنهبط ايضاً . بل كنا بقينا للمضاجعة .

وساد صمت طويل ، وكان برونيه يصغي اليهما ، فيحس نفسه يومياً ، ويحس نفسه خالداً ، ويقول بشبه خجل :

– اما انا ، فقد كنت في مثل هذه الساعة في حانة بشارع مونتمارتر ، وكنت أشرب مع الرفاق خمراً ابيض مصمغاً .

فلم يجب أحد ، وغنى رجل « كوخي الصغير » بصوت نحاسيّ . وسأل برونيه شنايدر :

– من هو هذا الفتى ؟

فقال شنايدر : – انه غاسّو ، محصّل في المالية . وهو من بلدة « نيم » .

وظلّ الرجل يغني ، وفكر برونيه : « ان شنايدر لم يقل مـاذا كان يفعل يوم الاحد . »

انتفاض نداء طويل رخيم ، ما تراه قد كان ؟ ابيض لوح زجاج الكوّة ؛ وعلى الارض الخشبية البيضاء ، كانت القضبان تعكس ظلالها ، الساعة الثالثـــة صباحاً . وكانت الدوالي تتموّج تحت سلفتة القمر ، وكان نهر « الأوليبه » يداعب نفسه عند جزره الكثيفة العشب ، وعند جسر « فوفلورفيل » كان زارعو الكرمة ينتظرون قطار الساعة الثالثة وهم يخفقون نعالهم ؛ وسأل برونيه بجذل :

— ما تراه قد كان ؟

وانتفض لأن أحداً قد أجابه :

— هس ! هس ! استمع !

انني « لست » في سريري ، في « ماكون » ، وهذه « ليست » العطلة الكبري . ومن جديد ، النداء الطويل الأبيض ، ثلاث صفرات تتمدّد ، وتتمطّى ، وتنهار . لقد حدث شيء ما . كان العنبر يضجّ والحيوان الهائل يتحرّك علي الأرض الخشبية ؛ ومن اعماق الليل الذي لا عمر له ، صوت رقيب :

— قطار ! قطار ! قطار !

كان هذا إذن : القطار الاول . وبدأ شيء ما : إن الليل المجرد سيكثف ويحيا من جديد ، وسيعود الليل الى الغناء . وأخذ الجميع يتكلمون في وقت واحد : « القطـار » القطـار الاول ، لقد أصلحت السكّة ؛ يجب الاعتراف بأنهم أتموا ذلك في سرعة كبيرة ، ان الالماني هو دائماً عامل بارع ، ولكن اسمع ، إن هذه مصلحتهم ، ويجب ان يصلحوا كل شيء ؛ في هذا القطار، سترى ، فرنسا ، سترى في هذا القطار ؛ اين هو متجه ؟ الى نانسي ، وربما الى باريس ؛ اوه ايها الأصحاب ، اوه ايها الأصحاب ! لو كان في داخله اسرى ، اسرى يعودون الى بيوتهم ، هل تتصورون ؟ »

كان القطار يسير في الخارج على خط مرتجل ، وكان بيت كبير مظلم كامناً برمته . وفكر برونيه : انه قطار ذخيرة ؛ وحاول ، بدافـع

الاحتراس ، ان يرفض طفولته ؛ حاول ان يرى الشاحنات الصدئة ، وأغطية الوقاية ، وصحراء من الصلب والنحاس ؛ ولكنه لم يستطعَ : فقد كانت ثمة نساء نائمات تحت ضوء مصباح أزرق خافت ، في رائحة مع المقانق والخمر ، وكان ثمة رجل يدخن في الممرّ . وكان الليل الراقد على الزجاج يعكس له صوته ، غداً صباحاً ، باريس . وابتسم برونيه ، ثم عاد الى الرقاد ، ملتفاً بطفولته ، تحت ضوء القمر الهامس غداً باريس،ونَعس في القطار ، ورأسه مستند الى كتف عارية رقيقة ، واستيقظ في نور حريري ، باريس ! وأدار عينه نحو الشمال من غير ان يحرك رأسه: كان ثمة ستة وطاويط متشبثة بأرجلها بالجدران ،وأجنحتها منتشرة كأنها تنانير . واستيقظ تماماً : كانت الوطاويط هي الظلال السوداء لسترات معلقة على الجدار ، بالطبع لم ينزع مولو سترته : فاذا اجبرناه على نزعها حين ينام ، وعلى تغيير قميصه ، لأدّى ذلك الى إلصاق قملة بنا ، وتثاءب برونيه ، صباحٌ آخر ، ما تراها قد كانت ، هذه الليلة ؟ آه نعم ، القطـــار . وانتصب فجأة ، فنفض غطاءه وجلس . كان جسمه من خشب ، تشنجات متعرجة ، وفرحة مخشوشبة في ضلوعه الخدرة ، كما لو ان صلابة الارض الخشبية قد انتقلت الى لحمه ؛ وتمطّى وفكر : « اذا رجعت ؛ فلن أنــام بعد في سرير أبـــداً . » وكان شنايدر ما يزال نائماً ، فاغر الفم ، في هيئة أليمة ؛ وكان الشتيمي يبسم للملائكة؛ وكان غاسو مشعث الشعر، أحمر العينين ، يكسر فتاتاً من الخبز عـــلى الغطاء ويأكله ، وكان بين الفينة والفينة يفتح فمه ويفرك بابهامه طرف لسانه لينزع عنه قذىً او شعرة صوف بقيت في كسرة ؛ وكان مولو يحكّ رأسه في تململ ، وكانت خطوط مفحمة ترسم تجعداته : كيف السبيل الى ايجاد وسيلة لقسره على الاغتسال ؛ وكان البلوندينه الأشقر يطوف بعينيه في هيئة كئيبة متلمسة ، ثم يشرق وجهه فجأة :

ــ بلا مزاح !

ويطفو وجهه وحده من الغطاء ، ويبــدو مندهشاً مفتوناً ، فسأله مولو :

ــ ما بك ، ايها الرأس الصغير ؟

قال بلوندينه : ــ بي اني متوتر !

فقال مولو غير مصدّق : ــ انك متوتّر؟ آه ، انني لا أصدّقك ، متوتر كالمنديل !

فألقى بلوندينه عنه غطاءه ، فاذا قميصه مشمّر عن ساقيه الشقراوين المشعرتين .

وقال مولو : ــ هذا لعمري صحيح ! يا لك من محظوظ !

قال غاسو بلهجة متكلفة : ــ محظوظ ؟ بل انا اظنّ ذلك مصيبة!

قال بلوندينه : ــ ايها الحاسد الكبير ! انك تودّ كثيراً لو تحدث لك هذه المصيبة !

وهزّ مولو ذراع لامبير فصاح لامبير وانتفض :

ــ ماذا هناك ؟

قال مولو : ــ انظر !

وفرك لامبير عينيه وتطلع ، ثم اكتفى بالقول :

ــ خراء !

ونظر مرة أخرى : ــ هل أستطيع ان ألمسه ؟

قال بلوندينه : ــ سيُحدث لي ذلك ألماً كبيراً .

ــ انه احياناً فضيحة .

فردد بلوندينه مشمئزاً :

ــ فضيحة ! فضيحة ! حين كنت في الوضــع المدني ، كنت انهض كل صباح بقضيب اكبر من هذا مرتين !

وكان راقداً على ظهره ، متشابك الذراعين ، مغمض العينين نصف

إغماضة ، وعلى شفتيه بسمة طفولية . وقال ، وهو ينظر من بين أجفانه الى ذكره الذي كان يرتفع ويهبط على ايقاع تنفسه :

ـ كنت قد بدأت أقلق . ذلك ان لي امرأة ، انا !

فضحكوا . وصرف برونيه رأسه وقد صعد الغضب الى حلقه وقال مولو :

ـ اما انا ، فقد كنت أذهب الى الماخور . وقد يحدث ان يزول الأمر في الطريق ، فيكون ذلك عمل توفير .

وضحكوا ايضاً ، وأخذ البلوندينه يداعب ذكره بيد مهملة حنون ، وانتهى الى القول :

ـ الجنّة الأرضية .

والتفت برونيه فجأة نحو البلوندينه ، وقال له من بين أسنانه :

ـ خبّيء هذا !

فسأله المجعّد بصوت مدبّق بالشهوة :

ـ وممّ ؟

فقال غاسو وهو يقلد برونيه :

ـ خبّيء هذا النهد الذي لا استطيع ان اراه !

وقال برونيه بجفاف : ـ انتم جميعاً خنازير !

وأدار نحوه رؤوسهم ينظرون اليه ، وفكر برونيه :

ـ انهم لا يحبونني .

ودمدم غاسو ببضع كلمات مبهمة ، فانحنى عليه برونيه :

ـ ماذا تقول ؟

فلم يجب غاسو ، وقال مولو بلهجة مصالحة :

ـ ليس من الجريمة ان نتكلم بين فترة وفترة عن الحب . إن ذلك يغيّر الجو .

قال برونيه : ـ انما العاجزون هم الذين يتكلمون عن الحب . إن

الحبّ يُعمَل حين يستطيع المرء ذلك .

– وحين لا يستطيع المرء ذلك ؟

– يصمت .

فبدا عليهم الانزعاج والمداراة ؛ وعلى مضض ، رفع البلونديته بهدوء غطاءه . وكان شنايدر ما يزال نائماً ؛ وانحنى برونيه على الشتيمي وهزّه ، فدمدم الشتيمي وفتح عينيه ، فقال برونيه :

– رياضة !

قال الشتيمي : – اويه !

ونهض فتناول سترته ، وهبطوا الى ساحة الاصطبلات . وامام أحد الأكواخ ، كان عامل المطبعة وداوروكير وثلاثة آخرون ينتظرونهم . وصاح بهم برونيه من بعيد :

– كيف الحال ؟

– انفجارات . هل سمعت القصف هذه الليلة ؟

فأجاب برونيه منزعجاً : – نعم ، لقد سمعته .

ولكن غيظه ما لبث ان سقط : ان هؤلاء شبان ، نظيفون ، ذوو حيوية ، وكان عامل المطبعة قد زرع قبعته الى جانب ، في شيء من التأنق . وبسم لهم برونيه . وكانت الضجة قائمة ، وكان الجمع في جوف الساحة ينتظر القدّاس ، ولاحظ برونيه في رضى انهم كانوا اقل عدداً من يوم الأحد الاول .

– هل قمت بما كلفتك به ؟

وفتح داوروكير باب الكوخ ، من غير ان يجيب : كان قد نثر القش على الأرض ، فشمّ برونيه رائحة اصطبل رطبة .

– من اين أخذته ؟

فابتسم داوروكير :

– لقد تدبرت الأمر .

قال برونيه : ـ حسناً .
ونظر اليهم في ودّ ودخلوا فنزعوا ثيابهم ولم يحتفظوا الا بسراويلهم وجراباتهم ؛ وأغرق برونيه قدميه في عذوبة القش المتكسرة ، وشعر بالرضى فقال :
ـ هيّا بنا .
فاصطفّ الرجال ، مولين الباب ظهورهم . وقام برونيه بالحركات تجاههم ، وهو يعدّ . فاحتذوا حذوه ، وأنفاسهم تزفر خلال أسنانهم . ونظر اليهم برونيه في سرور بينما كانوا يقرفصون عــلى أعقابهم ، وايديهم خلف رقابهم ، أشدّاء ذوي عضلات مستطيلة ، وكان داوروكير وبرونيه أقواهم ، ولكن كانت لهما عضلات مكوّرة ؛ اما عامــل المطبعة فقد كان مفرط الهزال ؛ وتأمله برونيه في شيء من القلق ، ثم جاءته فكرة ، فانتصب وصاح :
ـ قفوا !
فبدا على عامل المطبعة انه سرّ لتوقفهم ، وكان يلهث . واقترب منه برونيه :
ـ إنك في الحقيقة شديد الهزال !
ـ منذ عشرين حزيران ، فقدت ستة كيلوغرامات .
ـ وكيف عرفت ذلك ؟
ـ إن في مركز التمريض ميزاناً .
قال برونيه : ـ يجب ان تستعيــد صحتك . انك لا تأكــل طعاماً كافياً .
ـ كيف تريد ان ...
قال برونيه : ـ هناك وسيلة سهلة جداً ، فسوف يعطيك كل منا جزءاً من حصته ...
قال عامل المطبعة : ـ اني ...

ففرض عليه برونيه السكوت :

– انا الطبيب ، واني آمرك بزيادة الغذاء . موافقون ؟

قالها ملتفتاً نحو الآخرين ، فأجابوا :

– موافقون .

– حسناً ، ستمرّ اذن كل صباح بالغرف لتجمع نصيبك . في الوقت المحدد .

انحناء ، وادارة الجذع ؛ وبعد لحظة ، تهاوى العامل ، فقطّب برونيه حاجبيه :

– ماذا هناك ايضاً ؟

فابتسم العامل بسمة اعتذار :

– إن هذا قاسٍ بعض الشيء .

قال برونيه : – المهم الا تتوقف ، لا تتوقف .

وكانت الجذوع تدور كأنها عجلات ، وكانت الرؤوس تتحدّى السماء وترتمي بين السيقان ، ثم ترتفع من جديد . « كفى ! » واستلقوا على ظهورهم ليقوموا بالحركات المِعَدية ، وستكون النهاية بالجسر الخلفي : وكان ذلك يسليهم لأنهم كانوا يظنون انفسهم مصارعين . وأحسّ برونيه عضلاته تعمل ، وكان ألمٌ طويل حادّ يشدّ أربيّته ، وكان سعيداً ؛ إنه اللحظة الوحيدة الطيبة من لحظات النهار ؛ وكانت أعمدة السقف السوداء تتدحرج الى خلف ، والقش يثب الى وجهه فيستنشق رائحته الصفراء ، وتلامسه يداه امام قدميه . وقال :

– هيا ! هيا !

قال جندي : – إنه يشدّ .

– هذا أفضل ! هيا ! هيا !

ونهض قائلا :

– انه دورك يا ماربو !

وكان ماربو يمتهن المصارعة قبل الحرب : وهو مدلّل في مهنته . وقد اقترب من داوروكير فتناوله من قامته . وضحك داوروكير ، وقد أحسّ الدغـدغة ، وتداعى للسقوط الى خلف ، على اليدين المقلوبتين . وجاء دور برونيه ، فأحسّ هاتين القبضتين بجنبيه ، وارتمى الى خلف ، فقال ماربو :

– لا ، لا ، لا تتشنّج . دع نفسك باسترخاء ، لا بقسر .

فضغط برونيه على فخذيه ، وصدر صوت قفقفه ، لقـد شاخ ، وأضحت عُقده صلبة ، وجهد حتى لمس الأرض بأطراف أصابعه ، ثم نهض ، مسروراً ، مع ذلك ، وكان يرشح ، فـأولاهم ظهره ووثب الى مكانه .

– قفوا !

والتفت فجأة ، فاذا العامل قد سقط مغشياً عليه . ووضعه ماربو بلطف على القش ، وقال بعتاب خفيف :

– ذلك أقسى من ان يحتمله .

فقال برونيه منزعجاً : – كلا . كل ما هنالك انه لم يعتد عليه .

وكان العامل قد فتح عينيه ، فبدا ممتقعاً ، وكان يلهث بمشقة ، فسأله برونيه بودّ :

– وإذن ، ايها الحصان الصغير !

وابتسم له العامل في ثقة :

– لا بأس ، يا برونيه ، لا بأس . انني أعتذر ، فانا...

قال برونيه : – طيّب ، طيّب ، ستكون في حالة افضل اذا أكلت أكثر . هذا كل شيء لهـذا اليوم ، ايها الاصحاب . فإلى « الدوش » ثم الى الخطوة الرياضية .

فركضوا الى انبوب السقاية ؛ بسراويلهم ، وملابسهم تحت أذرعهم وألقوا بثيابهم على شراع خيمة ، فجعلوا منها رزمة غير قابلة للاختراق ،

ثم اغتسلوا تحت الرذاذ . وكان برونيه وعامل المطبعة يمسكان الانبوب ويوجهان الماء الى ماربو .

ورمى العامل بنظرة قلقة الى داوروكير ، وتنحنح وقال لبرونيه :

– نود ان نتحدث اليك .

فالتفت اليه برونيه من غير ان يترك الانبوب ، فاخفض العامل عينيه : كان برونيه مغتاظاً بعض الشيء : انه لا يحبّ ان يخيف الآخرين ، وقال بجفاف :

– بعد ظهر هذا اليوم ، عند الساعة الثالثة ، في الساحة .

وفرك ماربو جسمه بخرقةمن قميص كاكي ثم ارتدى ثيابه . وقال :

– هيه ! إن هناك جديداً ، ايها الاخوان !

كان رجل طويل شديد السمرة يخطب وسط فريق من الاسرى ، فقال ماربو ، مهتاجاً :

– انه شابوش ، السكرتير . انني ذاهب لأرى ما هناك .

ونظر اليه برونيـه وهو يبتعد : إن الأبله لم يُتح له ان يلف طاقاته ، فهو يمسك واحدة في كل يد . وسأل عامل المطبعة :

– ما تظنّ أنّ هناك ؟

وكانت لهجته لهجة عدم اكتراث ، ولكن صوته لم يكن ليخدع : انه الصوت الذي يتخذونه جميعاً ، مئة مرة في اليوم ، صوت الأمل . وهزّ برونيه كتفيه :

– قد يكون نبأ الروس ينزلون في « بريم » او الانكليز يطلبون الهدنة : وهذا لا يغير شيئاً .

ونظر الى عامل المطبعة بلا ودّ . وكان الفتى الصغير يموت رغبة في ان ينضمّ الى الآخرين ولكنه لا يجرؤ . ولم يكن برونيه راضياً عن حياته : فما ان أوليه ظهري ، حتى يمضي الى هناك ، فليتزرع امام شابوش ، جاحظ العينين ، متمدّد المنخرين ، مفتوح الاذنـين على

سعتها ، وكله ثقوب للاستماع . وقال برونيه :

– إغسلني .

ونزع سرواله ، وكان لحمه يبتهج تحت الدفق القابض ، كرات من رذاذ ، مليون كرة صغيرة من لحم ، قوة ؛ ودلك جسمه بيديه ، وعيناه محددتان في المتطلعين ؛ وكان ماربو قد انسلّ وسط الجمع ، ورفع أنفه المشمّر نحو الخطيب . يا آلهي ، ليتهم يستطيعون فقط ان يفقدوا الأمل ، ليت لديهم فقط « ما يعملونه » قبل الحرب ، كان العمل هو الذي يشكل لديهم حجر الزاوية ، ويقرّر الحقيقة ، وينظم علاقاتهم بالعالم . اما وأنهم لا يعملون شيئاً ، فهم يعتقدون ان كل شيء ممكن ، انهم يحلمون ، ولا يدرون بعد ما هو الصحيح . هؤلاء المتنزهون الثلاثة ، المتمهلون الليّنون الذين يتقدمون في تموجات طبيعية طويلة ، وعلى أسفل وجوههم بسمات نباتية ، أتراهم قد استيقظوا ؟ إن كلمةً تتدحرج خارج أفواههم بين الفينة والفينة ، كما في الحلم ، ولا يبدو انهم يلاحظون ذلك . بمَ تراهم يحلمون ؟ انهم يصنعون ، من الصباح حتى المساء ، كأنه سمٌ ذاتي ، الانباءَ المثيرة التي حرموا نفوسهم منها ؛ وهم يروون فيما بينهم كل يوم القصّة التي كفّوا عن القيام بها : قصة ملأى بالأحداث المسرحية وبالدم .

– يكفي .

فانخفض الدفق ، تفجّر زبدٍ بين الحصى ، وتنشّف ماربو ، وعاد ماربو نحوهما بادي النصر ، أعمًى ، فتهادى لحظة ثم قرر ان يتكلم . وقال بلهجة عدم اكتراث مصطنعة :

– سنشهد زيارات .

فاصطبغ وجه عامل المطبعة :

– ماذا ؟ « أية » زيارات ؟

– العائلات .

فقال برونيه في سخرية : – صحيح ؟ ومتى ذلك ؟

فنهض ماريو بخفة ونظر اليه في عينيه نظرة مثيرة :

– اليوم .

قال برونيه : – بكل تأكيد . وقد أوصي على عشرين الف سرير حتى يستطيع الاسرى ان يضاجعوا نساءهم .

فضحك داوروكير ، ولم يجرؤ العامل على ألاّ يضحك ، ولكن عينيه ظلّتا جائعتين . وابتسم ماربو في طمأنينة :

– لا ! لا ! فهذا رسمي . وشابوش هو الذي قاله .

فقال برونيه وهو يتضاحك : – آه ! اذا كان شابوش !

– وهو يقول ان ذلك سيُعلَّق هذا الصباح .

فقال داوروكير : – سيعلق على قفاي !

فابتسم له برونيه . وبدت على ماربو الدهشة :

– إن الأمر جدّ ، وقد قيل ذلك لغارتيزر ايضاً ، قاله له سائق سيارة شحن ألماني ، ويبدو انها قادمة من ابينال ونانسي .

– من هي القادمة ؟

– العائلات . لقد سارت أمس، على الدراجات، ومشياً على الاقدام وفي العربات ، وفي قطار البضائع ، ونامت على القش ، وفي دار البلدية ، وذهبت هذا الصباح تبتهل الى القائد الألماني (وأضاف عجباً ! خذوا ! هذا هو الاعلان .

وكان ثمة شخص يلصق ورقة علـى الباب ، واذا بالجمع يتدفق ويتموج حول السلّم ؛ واومأ ماربو الى الباب بحركة عريضة ، وسأل بلهجة انتصار :

– ماذا ترون : هل على قفاك عُلّق الاعلان ؟ هل على قفاك ؟

فهزّ داوروكير كتفيه . وارتدى برونيه على مهل قميصه وبنطاله منزعجاً ان يكون قد أخطأ . وقال :

ـ الى اللقاء ايها الرفاق . أغلقوا الصنبور .

ومضى على مهل ينضمّ الى الجمع الذي كان يتزاحم عند الباب ؛ كان باقياً حظ واحد في ألا يكون ذلك الا وهماً كسائر الاوهام ؛ كان برونيه يحتقر السعادات التي لا يستحقهـــا المرء والتي تأتي بين الفينة والفينة لتملأ القلوب الجبانة ، كحساء لذيذ ، او زيارة اسرة ، إن ذلك يعقّد العمل . وقرأ من بعيد ، من فوق الرؤوس :

« إن قائد المعسكر يسمح للأسرى بان يتلقوا زيارات أسرهم (قرابة مباشرة) وستُعدُّ قاعة في الطابق الارضي لهذه الغاية . وستظل الزيارات مسموحاً بها حتى إشعار آخر ، يوم الاحد من الساعة الرابعة عشرة ، حتى السابعة عشرة. ولا يمكن في حال من الاحوال ان تتجاوز عشرين دقيقة . فاذا لم يبرر مسلك الاسرى هـــذا التدبير الاستثنائي ، فإنه سيلغى .»

ورفع غودشو رأسه بصرخة سعيدة :

ـ يجب ان نرد لهم هذه العدالة ، فهم ليسوا حيوانات .

والى يسار برونيه ، أخذ « غالو » القصير يضحك ضحكة غريبة نائمة . فسأله برونيه :

ـ ما يضحكك ؟

قال غالو : ـ انه يأتي . يأتي قليلا قليلا .

ـ ما الذي يأتي ؟

فبـــدا غالو مرتبكـــاً ، وأتى حركة غامضة ، ثم كف عن الضحك وردد :

ـ انه يأتي .

وشق برونيه الجمع فدلف الى السلم : وحوله ، في ظـــل الطابق الأرضي ، كان الجمع ينغل ، كأن المكان بيت للأرَض ؛ واذ رفع رأسه ، رأى ايادي ممتقعة على الدربزين ، وخطـــاً لولبياً مرتعشاً من

الوجوه الزرقاء ، فدفع . ودُفع ، وارتفع بجسمه وهو يشد على القضبان ، فسحقوه على الدربزين الذي التوى ؛ وطوال النهار ، ظل الرجال يصعدون ويهبطون بلا أدنى سبب ؛ وفكر : « لا فائدة : فانهم ليسوا اشقياء بما فيه الكفاية » . لقد أصبحوا ملاكين وأصحاب ايرادات ، والثكنة غدت لهم ، وهم ينظمون بعثات الى السقف ، والى الأقبية ، وقد اكتشفوا كتباً في سقيفة . صحيح انه ليس من عقاقير في مركز التمريض ، وليس من أغذية في المطبخ ، ولكن هناك مركز تمريض ، وهناك مطبخ ، وهناك امانة سر ، وحتى حلاقون : فهم يحسون انهم رعايا . وقد كتبوا لعائلاتهم ، ومنذ يومين ، عاد زمن المدن يجري . وحين امرهم القائد الألماني بضبط ساعاتهم على الساعة الألمانية ، اسرعوا يطيعونه ، حتى اولئك الذين كانوا ، منذ شهر حزيران ، يحملون ، على سبيل الحداد ، ساعات ميتة في معاصمهم : فان تلك المدة المبهمة التي كانت تنمو كالعشب الطفيلي ، قد اتخذت صفة عسكرية ، فلقد أعاروهم وقتاً ألمانياً ، وقتاً صحيحاً من اوقات المنتصر ، وهو نفسه الذي يجري في دانتزيغ وفي برلين : وقت مقدس. ولم يكونوا أشقياء بما فيه الكفاية : فهم محاطون ، مقادون ، يقدَّم لهم الغذاء والمأوى والإدارة ، وهم غير مسؤولين . وفي هذه الليلة ، كانت قصة هذا القطار ، وها أن العائلات ستأتي ، محملة الاذرع بالمعلبات والمؤاساة . كم سيكون من صياح ، ومن دموع ، ومن قبلات ! « لقد كانوا بحاجة شديدة الى هذا : فقد كانوا حتى الآن متواضعين على الأقل . اما الآن ، فسوف يحسّون أهميتهم . » ذلك ان زوجاتهم وأمهاتهم قد اتيح لهن الوقت الكافي لأن يخلقوا لأنفسهن الاسطورة البطولية الكبرى « للأسير » ، وهن آتيات لينقلن اليهم عدواها . وبلغ العنبر ، فحاذى الممر ، ودخل الى قفصه وهو ينظر الى رفاقه في غضب . انهم هناك ، مضطجعون على عادتهم ، لا يفعلون شيئاً ، يحلمون

بحياتهم ، مرتاحين مضلّلين . وكان لامبير يقرأ « الفتيات الصغيرات النماذج » وحاجباه مرتفعـان ، وهيئته عابسة مندهشة . وكانت نظرة واحدة كافية لادراك ان النبأ لم يبلغ العنبر بعـد . وتردد برونيه : أيخبرهم إياه ؟ انه يتمثل عيونهم الملتمعة ، وهياجهم الثرثار . « سيعرفونه في وقت مبكر بما فيه الكفاية . » وجلس في صمت . وكان شنايدر قد هبط ليغتسل ؛ ولم يكن الشتيمي قد صعد بعد ؛ وكان الآخرون ينظرون الى برونيه نظرة تململ . وسأل برونيه :

— ماذا هناك ايضاً ؟

فلم يجيبوا على التوّ ، ثم قال مولو وهو يخفض صوته :

— ان في القفص السادس قملا .

فانتفض برونيه وكز وجهه . وأحس انه ثائر الأعصاب ؛ فزادت ثورة أعصابه ، وقال في عنف :

— لا اريد قملا هنا .

وتوقف فجأة ، وعض على شفته السفلى ، وهو ينظر اليهم في عدم ثقة . فلم يتحرك أحـد : لقد بقيت الوجوه التي التفتت نحوه كابية مرتبكة بعض الشيء . وسأل غاسو :

— ما الذي سنفعله يا برونيه ؟

نعم ، نعم ، انتم لا تحبونني كثيراً ، ولكن حين تقع بنا مصيبة، فانما تسعون للبحث عني . وأجاب بلهجة ألطف :

— لم تريدوا ان تنتقلوا حين طلبت منكم .

— ننتقل الى أين ؟

— كانت هناك شقق حرّة ، وكنت قد طلبت اليك يا لامبير ان ترى اذا كان المطبخ في الطابق الارضي حراً .

قال مولو : — المطبخ ؟ شكراً لك ، ننام على البلاط فنصاب بالمغص ، فضلاً عن انه مليء بالحشرات .

– هذا أفضل من القمل . لامبر : انني أكلمك : هل ذهبت الى المطبخ ؟

– نعم .

– ماذا وجدت ؟

– انه مشغول .

– طبعاً : كان ينبغي ان تذهب اليه منذ ثمانية أيام .

وأحسّ بخدّيه يحتقنان ، وارتفع صوته ، فصاح :

– لن يكون هنا قمل ! لن يكون قمل !

قال البلوندينه : – لا ! لا ! لا تغضب : فليس الذنب ذنبنا .

ولكن الرقيب صاح بدوره :

– انه على حق في ان يغضب ويزعق ! انه على حق! لقد شهدت انا حرب ١٤ برمّتها ، فلم أر قملاً قط ، فلن ابدأ اليوم مثلكم بالقمل انتم الذين لا تعرفون حتى ان تغتسلوا !

وكان برونيه قد كظم غضبه ، فقال بصوت هادىء :

– يجب اتخاذ تدابير مباشرة .

وقهقه بلوندينه : – نحن ؟ نوافق تماماً ، ولكن أية تدابير !

قال برونيه : – اولا ، يجب عليكم « جميعاً » ان تغتسلوا كل صباح ؛ ثانياً ، يجب عليكم ان تتفلّوا كل مساء .

– ماذا تقصد ؟

– تتعرّون تماماً ، فتأخذون ستراتكم وسراويلكم وقمصانكم فتنظرون ان كان في التشريجات صئبان . واذا كنتم ترتدون زنانير من الفلانيل ، فانها تفضّل ذلك المكان .

وتنهّد كاسو : – هذا مرح !

وتابع برونيه : – واذ تأوون الى النوم، تعلقون أمتعتكم بالمسامير ، بما في ذلك القمصان : فسوف ننام عراة تحت الأغطية .

قال مولو : — خراء اذن ! لا بدّ ان أصاب بنزلة رئوية !

فالتفت اليه برونيه بحيوية : — أتى دورك يا مولو . انك عشّ قمل ، ولا يمكن لهذا ان يستمرّ .

قال مولو مختنقاً بالغيظ :

— ليس هذا صحيحاً ، وليس عندي قمل .

— ربما لم يكن عندك الآن قمل ، ولكن إن كان ثمة قملة على بعد عشرين كيلو متراً ، فأنا واثق من انها ستلتصق بك ثقّي من اننا قد خسرنا الحرب .

فقال مولو بلهجة ضيق : — ليس من مبرر . لماذا بي ، لا بك ؟ الحقيقة انه ليس من سبب لهذا .

فقال برونيه بصوت هادر : — بل هناك سبب على الاقــل ، هو انك قذر كالخنزير !

فرماه مولو بنظرة سامّة ، وفتح فمه ، ولكن جميع الآخرين أخذوا يضحكون ويصرخون :

— هو على حقّ ، انت منتن ، ورائحتك كرائحة الفتــاة الصغيرة التي تهمل نفسها ، انت وسخ ، انت قذر ، انك تقطع لي قابليّتي ، فلا أستطيع ان أستمر في الطعام حين انظر اليك !

وانتصب مولو وهو يحدجهم ، وقال في اندهاش :

— انني اغتسل ، بل ربما كنت اغتسل اكثر منـكم ، ولكني لست كالبعض الذين يتعرون في وسط ساحة الشرف ، بقصد اجتذاب الأنظار .

فوضع برونيه إصبعه تحت أنفه :

— هل اغتسلت امس ؟

— طبعاً .

— اذن أرِنا قدميك .

فوثب مولو في الهواء :

ـ هل أنت مجنون ؟

وردّ ساقيه تحته فجلس على عقبيه ، على الطريقة التركية :

ـ انني لا أُري قدميّ للناس غالباً .

فقال برونيه : ـ انزعوا حذاءه .

فارتمى لامبير وبلوندينه على مولو ، فكتفاه وسمراه على الارض مقلوباً ، ودغدغ غاسو جنبيه ، فارتعش مولو ، وصرخ وزعق ، وضحك وتنهد :

ـ كفى ! كفى ! يا جماعة ! لا تكونوا حمقى ! انني لا أستطيع ان أتحمل الدغدغات .

قال الرقيب : ـ إذن الزم الهدوء .

فظل مولو فاغراً ، لا تزال الرعشات تهزه ؛ وكان لامبير قد جلس على صدره ، وفك الرقيب سير حذائه الأيمن ، وشد ، فانبثقت القدم ، وامتقع الرقيب ، فترك الحذاء ونهض فجأة ، وقال :

ـ يلعن دين !

قال برونيه : ـ نعم ، يلعن دين !

ونهض لامبير وبلوندينه صامتين ، ونظرا الى مولو في اندهاش معجب . وعاد مولو الى الجلوس ، هادئاً وقوراً . وصاح صوت غاضب من القفص المجاور :

ـ هيه ! ماذا تعملون ، يا سكان الشقة ٤ ؟ إن رائحة الزبدة العفنة تنبعث من عندكم !

فقال لامبير ببساطة :

ـ ان مولو يخلع حذاءه .

ونظروا الى قدم مولو : كان الابهام الكبير اسود ، وكان خارجاً من الجراب المثقوب الاسود .

وسأل لامبير : ـ هل رأيت باطن القدم ؟ إنه ليس بعدُ جورباً ،

ولكنه دانتيل !

وكان غاسو يتنفس في منديله ، وكان البلوندينه يهز رأسه ويردد في لهجة احترام :

– آه ! يا للبقرة ! يا للبقرة !

قال برونيه : – هذا كاف . خبّيء قدمك !

فسارع مولو يُدخل قدمه في الحذاء . وتابع برونيه بجد :

– أنت يا مولو تشكل خطراً عاماً . وستتفضل على الفور فتذهب لأخذ حمام سريع . فإذا لم تغتسل في مدة نصف ساعة ، فلن تُعطى طعاماً ولن تنام هنا هذا المساء .

فنظر اليه مولو في حقد ، ولكنه نهض من غير ان يحتج ، واكتفى بالقول :

– اذن ، انت الذي تأمر هنا ؟

فتحاشى برونيه الإجابة ؛ وخرج مولو ، فأخذ الآخرون يقهقهون، ولكن برونيه لم يضحك ؛ كان يفكر في القمل ، كان يفكر : « على كل حال ، لن يكون عندي « أنا » قمل » .

وسأل بلوندينه : – كم الساعة ؟ ان معدتي أصبحت في قدمي .

قال الرقيب : – الظهر .

– الظهر ، هي ساعة التوزيع . دور مَنْ بالسخرة اليوم ؟

– دور غاسو .

– إفرنقع اذن يا غاسو .

قال غاسو : – امامنا متسع من الوقت .

– اقول لك افرنقع ، حين تكون في السخرة ، فان دورنا يأتي دائماً في الأخير !

فقال غاسو وهو يضع قبعته بغضب :

– كفى ! كفى !

وخرج . وعاد لامبير الى القراءة . وأحس برونيه تأكلات عصبية تسري بين راسايه ، وحك لامبير فخذه وهو يقرأ ، وكان بلوندينه ينظر اليه :

ــ هل لديك قمل ؟

قال لامبير : ــ كلا ، ولكن ذلك منذ جرى الحديث عنه .

قال بلوندينه : ــ عجباً ! وانا ايضاً .

وحكّ عنقه :

ــ برونيه ، الا تشعر بالحكاك ؟

قال برونيه : ــ كلا .

وصمتوا ، وكان البلوندينه يحكّ رقبته المتشنجة ، وكان لامبير يقرأ وهو يحكّ ؛ وادخل برونيه يديه في جيبه من غير ان يحك . وظهر غاسو ثانية على العتبة ، بادي الغضب :

ــ هل تستهزئون بي ؟

ــ اين الخبز ؟

ــ الخبز ؟ ليس ثمة أحد تحت ، حتى المطابخ لم تفتح بعد .

فرفع لامبير وجهاً مذعوراً :

ــ هل يعني هذا ان الوضع سيعود كما كان في حزيران ؟

كانت نفوسهم المتنبئة الكسول مستعدة دائماً لتصديق الأسوأ او الأحسن . والتفت برونيه نحو الرقيب :

ــ كم الساعة معك ؟

ــ الثانية عشرة وعشر دقائق .

ــ أأنت واثق من أن ساعتك تمشي ؟

فابتسم الرقيب ونظر الى ساعته في رضى ، وقال ببساطة :

ــ انها ساعة سويسرية .

وصاح برونيه بافراد الشقه المجاورة :

– كم الساعة معكم ؟
فأجاب صوت :
– الحادية عشرة وعشر دقائق .
فقال الرقيب بلهجة انتصار :
– ماذا قلت لكم ؟
فقال غاسو في حقد :
– قلت لنا ، الثانية عشرة وعشر دقائق ، ايها الأبله !
– صحيح : الثانية عشرة وعشر دقائق في فرنسا ، والحادية عشرة وعشر دقائق في ألمانيا .
فقال غاسو وهو يغلي من الغضب :
– ممحون !
وتخطى جسم لامبير وتداعى للسقوط على الغطاء . وتابع الرقيب بهدوء :
– انني لن اتخلى عن الساعة الفرنسية في الوقت الذي تغرق فيه فرنسا في الحراء !
– ليس هناك بعد من ساعة فرنسية ، ايها الساذج ! فان الالمان قد فرضوا ساعتهم من مارسيليا الى ستراسبورغ .
فقال الرقيب ، مطمئناً مصراً :
– ربما كان هذا . ولكن لم يخلق بعد من يستطيع ان يغير « ساعتي » .
والتفت الى برونيه وأضاف موضحاً :
– حين يلوذ الالمان بالفرار ، ستكونون مسرورين جداً بان تجدوا ساعتكم .
وصاح لامبير : – هيه ! انظروا الى لامبير كشخصية محترمة !
ودخل لامبير ، متورداً نضراً : وعليه هيئة يوم الأحد . فأخذ الافراد يضحكون :

– كيف وجدته يا مولو ، هل هو لذيذ ؟
– ما هو ؟
– الماء .
فقال مولو بشرود : – نعم ؛ نعم ، لذيذ جداً .
فقال برونيه : – ممتاز ! بعد اليوم ، ستّرينا قدميك كل صباح .
فلم يبد على مولو انه سمع ، ورسم بسمة خفيه ذات أهمية :
– إن هناك اخباراً ، يا جماعة ، فاستعدّوا .
– ماذا ، ماذا ؟ اخبار ؟ اية أخبار ؟
والتمعت الوجوه واحمرّت وتفتّحت ، وقال مولو :
– سوف نتلقى زيارات !

ونهض برونيه بلا ضجة ، وخرج ، وكانت الاصوات تصرخ خلف ظهره ، وحث خطاه دالفاً الى غابة السلم الصاعـــدة ، وكانت الساحة غاصة ، وكان الافراد يدورون بهدوء في الرذاذ ، الواحد تلو الآخر ؛ وكانوا ينظرون جميعاً الى داخل الدائرة التي يرسمون ؛ وكانت جميع النوافذ ملأى برؤوس تنظر : لقد حدث شيء ما . ودخل برونيه في الصف ، فأخذ يدور هو ايضاً ، ولكن بلا فضول : في هذا المكان نفسه ، يحدث كل يوم شيء ما ، افراد يتسمرون ويبدون على انتظار ، بينما يدور الآخرون حولهم وهم ينظرون اليهم . ويدور برونيه ، ويبسم له ائرقيب اندريه :

– هذا برونيه ، انا اراهن انه يبحث عن شنايدر .
فسأله برونيه بحيوية : – وهل رأيته ؟
فقال اندريه مقهقهاً : – نعم وهو ايضاً يبحث عنك .
والتفت نحو الآخرين وقهقه :
– إن هذين الاثنين قفا وقميص ، دائماً معاً ، أو احدهما يبحث عن الآخر .

وابتسم برونيه : قفا وقميص ، ولِمَ لا ؟ إنه يتحمّل صداقته مع شنايدر لأنها لا تأخـــذ من وقته : انها تشبه علاقة القارب ، فهي لا تلزم بشيء ؛ فاذا عادا يوماً من الأسر ، فلن يتقابلا بعد ابداً . صداقة بلا متطلبات ، بلا حق ، بلا مسؤولية : كل ما هنالك بعض حرارة في جوف المعدة . انه يدور ، واندريه يدور بالقرب منه ، في صمت . وفي وسط هذه الدوامة البطيئة ؛ كان ثمة منطقة من الهدوء المطلق : رجال في ستراتهم ، جالسون على الأرض أو على قربهم .

ومر كلابو فأوقفه اندريه :

– ما هؤلاء الفتيان ؟

فقال كلابو : – معاقَبون .

– ماذا ؟

فتخلص منه كلابو بنفاد صبر وقال :

– قلت لك معاقبون .

وعادوا يدورون من غير ان يغادروا بعيونهم هؤلاء الرجال الجامدين البكم . ودمدم اندريه :

– معاقبون ! انها المرة الاولى التي ارى فيها معاقبين . عَلامَ هم معاقبون ؟ ماذا اقترفوا ؟

وأشرق وجه برونيه : كان شنايدر هناك ، ملقى على حافة الدوامة ، يتفحص فريق المعـــاقبين الصغير وهو يفرك أنفه . وكـــان برونيه يحبّ طريقة شنايدر في احنـــاء رأسه الى جانب ؛ وفكر في سرور : « سوف نتحدث » . كان شنايدر ذكياً جـــداً ، اذكى من برونيه . صحيح ان الذكاء ليس هاماً الى حـــد بعيد ، ولكنه يجعل العلاقات لذيذة . ووضع يده على كتف شنايدر وبسم له ؛ فردّ له شنايدر بسمة غير مرحة . وكان برونيه يتساءل احيانـــاً اذا كان يروق لشنايدر ان يلقاه : صحيح انهما لا يكادان يفترقان ، ولكن اذا كان شنايدر يكنّ

وداً لبرونيه ، فانه لا يكشف عنه غالبــاً . وكان برونيه في الحقيقة يحمد له ذلك : فهو يستفظع المظاهرات . وسأل اندريه :

– واذن ، لقد وجدته ، صديقك شنايدر ؟

فضحك برونيه ، ولم يضحك شنايدر . وسأل اندريه شنايدر :

– قل لي ! لماذا هم معاقبون ؟

– من ؟

– هؤلاء الأشخاص ؟

قال شنايدر – انهم ليسوا معاقبين . وانمـــا هم الألزاسيون . الا ترى غارتيزر ، في الصف الاول ؟

قال أندريه : – آه ! هكذا اذن !

وبدا عليه السرور ، وظلّ لحظة بالقرب منهم ، ويداه في جيبه ، مكتفياً ، عارفاً ، ثم اضطرب فجأة :

– ولماذا هم هنا ؟

فهزّ شنايدر كتفيه : – إذهب فاسألهم !

وتردد اندريه ثم اقترب منهم بخطى بطيئة وهو يتظاهر باللامبالاة . وكان الألزاسيرن جامدين قلقين ، جالسين باستقامة ، في اللاطمأنينة ، وستّراتهم حولهم كالتنانير ، وعليهم مظهر المهاجرين على ظهر سفينة . وكان غارتيزر جالساً ويداه على فخذيه ، وعيناه الكبيرتان الدجاجيتان تتدحرجان في وجهه العريض . وقال اندريه :

– ماذا ايها الاخوة ، هل هناك من جديد ؟

فلم يجيبوا : وتأرجح وجه اندريه المتردّد فوق رؤوسهم المطرقة .

– هل من جديد ؟

لا جواب .

– كنت أحسب ان هناك جديداً لرؤيتي اياكم جالسين في دائرة . هيه ، غارتيزر ؟

وعزم غارتيزر على رفع رأسه ، فنظر الى اندريه في ازدراء .

ـ كيف حدث انكم تجمّعتم ، انتم الالزاسيين ؟

ـ لقد أمرونا بذلك .

ـ ولكن السترات والأمتعة ، هل قالوا لكم ان تأخذوها ؟

ـ نعم .

ـ ولماذا ؟

ـ لا ادري .

فاصطبغ وجه اندريه من الهياج :

ـ على كل حال ، لا بدّ ان لديكم فكرة ما ؟

فلم يجب غارتيزر ؛ وكانوا خافه يتحدثون الالزاسية بنفاد صبر . وتصلب اندريه ، مجروحاً فقال :

ـ حسناً . في هذا الشتاء ، كنتم اقلّ افتخاراً ، فلم تكونوا تتحدثون بها ، لهجتكم الاقليمية ، اما وقد ُهزمنا الآن ، فانكم لا تعرفون بعد ان تتحدثوا الفرنسية .

ولم يكلفوا نفسهم حتى رفع رؤوسهم ؛ إن اللغة الالزاسية هي هذا الحفيف المتصل الطبيعي لاوراق الشجر تحت الريح . وقهقه اندريه ونظره محدق في هذا المسرح من الرؤوس :

ـ ذلك انه ليس من الطريف ان يكون المرء فرنسياً ، في هذا اليوم ، أليس كذلك ايها الاخوة ؟

فقال له غارتيزر بحيوية :

ـ لا تحمل همّنا ، فلن نبقى طويلاً فرنسيين .

فتردد اندريه ، وقطّب حاجبيه ، وبحث عن الرد الصافع ، فلم يجده . واستدار عائداً نحو برونيه :

ـ وهكذا !

وارتفعت خاف ظهر برونيه أصوات مغتاظة :

– ما حاجتك الى ان تحدّهم ! ليس لك الا ان تتركهم وشأنهم . إنهم ألمان .

ونظر اليهم برونيه ؛ وجوه شرسة ممتقعة ، لبن فاسد : الحسد . حسد البورجوازيين الصغار تجار الحيّ الصغار ، لقد حسدوا الموظفين ثم المكلفين الخصوصيين والآن يحسدون الالزاسيين . وابتسم برونيه : ونظر الى هذه العيون الملتهبة بالحسد ، انهــم منزعجون ان يكونوا فرنسيين : فهذا أفضل من الاستسلام السلبي ؛ وحتى الحسد ، لا بدّ انه يشغل نفسه .

– هل تراهم قد أعاروك انت شيئاً ، او ساعدوك ؟

– هل انت مجنون ؟ لقد رأيت من كان معه طعام ، في الايام الاولى ، وكانوا يأكلون تحت انفك ، وكأنهم على استعداد ليدَعوك تموت جوعاً وانت فاغر الفم .

وسمع الالزاسيون ، فأداروا نحو الفرنسيين وجوههم الحمراء والشقراء، لعلّ التضارب سوف يقع . صرخة بحّــاء : وقفز الفرنسيون قفزة الى الوراء ، فوثب الالزاسيون على أقدامهم ووقفوا وقفة الاستعداد : وعلى درجات السلم برز ضابط ألماني ، طويــل ضعيف البنية ، ذو عينين كهفيتين في وجه ملطّخ . وتكلم ، فأصغى الالزاسيون ، ومدّ غارتيزر عنقه وهو محمرّ الوجه . واصغى الفرنسيون كـــذلك ، من غير ان يفهموا ، في اهتمام مليء بالاعتبار . وهدأ غضبهم : فقد كانوا يشعرون انهم يشاهدون حفلة رسمية . والحفلة دائماً تثير الرضى . وكان الضابط يتكلم ؛ والزمن يجري ، صلباً ومقدساً ، وكانت تلك اللغة الغريبة أشبه بلاتينية القدّاس ؛ ولم يكن ثمة بعد من يجرؤ على حسد الالزاسيين : فهم قد تلبّسوا وقار كورس . وهزّ اندريه رأسه ، وقال :

– ان غمغمتهم ، كلغة ، ليست رديئة .

فلم يجب برونيه : ان هذه علامات ، فهم لا يستطيعون ان يمسكوا

غضبهم اكثر من خمس دقائق . وسأل شنايدر :

ــ ماذا يقول ؟

ــ يقول لهم انه قد أطلق سراحهم .

وكان صوت الضابط يخرج من سحنته السوداء بهزّات متحمّسة ؛ كان يصرخ ، ولكن عينيه لا تلتمعان .

ــ ماذا يقول ؟

وترجم شنايدر بصوت منخفض :

ــ ان الالزاس ستعود ، بفضل الفوهرر ، الى صدر الوطن الأم .

والتفت برونيه الى الالزاسيين ، فاذا وجوههم بطيئة التعبير ، كأنها متخلفة ابداً عن عواطفهم . ومع ذلك ، فقد احمرّ وجه اثنين أو ثلاثة منهم . وتسلى برونيه . وارتفع الصوت الألماني وتسارع ، فقفز من سطح الى سطح ، ورفع الضابط قبضته فوق رأسه ، ووقّع بمرفقيه صوته المجيد ، فاذا الجميع منفعلون ، كما يحدث إذ يمرّ العلم ، أو الموسيقى العسكرية ؛ وانفتحت القبضتان ، ووثبتـــا في الهواء ، وارتعش الافراد حين هدر الضابط : « هايل هتلر ! » وبدا على الالزاسيين انهم متحجرون ؛ والتفت غارتيزر نحوهم ، فصعقهم بنظره ، ثم واجه القائد ، وقذف ذراعيه الى أمام ، وصاح : « هايل ! »

وسقط صمت غير ملحوظ ، ثم ارتفعت الأذرع ؛ وقبض برونيه بالرغم منه على معصم شنايدر وشدّه بقوة . وانطلقت الهتافات . وكان هناك من يهتف « هايل » في نوع من الاندفاع ، وآخرون يكتفون بفتح افواههم دون ان يطلقوا صوتـــاً ، كالأشخاص الذين يتظاهرون بأنهم يرتّلون في الكنيسة . وكان في الصف الأخير رجل شديد البأس ، مطرق الرأس ، ويداه في جيبه ، يبدو وكأنه يتألم . وانخفضت الأذرع ، فترك برونيه معصم شنايدر ؛ وكان الفرنسيون صامتين ، وعاد الالزاسيون يقفون وقفة الاستعداد ، وكانت لهم وجوه مرمرية بيضاء ، وكانوا

عمياناً وصماً تحت لهب شعرهم الذهبي . وألقى القائـــد امراً ، فاهتزّ العمود ، وابتعـــد الفرنسيون ، ومشى الالزاسيون بين صفّين من الفضوليين . والتفت برونيه ، فنظر الى وجوه رفاقه اللاهثة . وكان يودّ ان يقرأ فيها الغضب والحقد ، فلم يَرَ فيها الا رغبة عذبة ترف . وكان الحاجز البعيد قد انفتح ؛ وكان القائد الألماني واقفاً على الدرج ينظر ببسمة طيبة الى العمود الذي يبتعد . وقال اندريه :

– مهما يكن ! مهما يكن !

وقال صاحب لحية : – خراء اذن ! حين افكّر بأني وُلدت في « ليموج » ...

وهزّ اندريه رأسه ، وردّد :

– مهما يكن !

وسأله « شاربان » الطبّاخ :

– ما الذي لا يعجبك ؟

فقال اندريه : – مهما يكن !

وكان يبدو على الطباخ المرح والحيوية . وسأل :

– قل لي ، ايها الرأس الصغير ، اذا كان يكفي ان تصرخ « هايل هتلر » حتّى يعيدوك الى بيتك ، الا تصرخ ؟ ان هـــذا لا يُلزم في شيء . انت تصرخ ، ولكنك لا تقول ما تفكر به .

قال اندريه : – اوه ! انا ، بكل تأكيد ، أصرخ بما يريدون ، ولكنهم هم الآخرين ليسوا كذلك : انهم الزاسيون ؛ وان لهم واجبات تجاه فرنسا .

واومأ برونيه الى شنايدر ، فتسللا والتجأ الى الساحة الاخرى الخالية . واستند برونيه الى الجدار ، تحت القسم المسقوف من الساحة ، تجـــاه الاصطبلات ؛ وكان ثمة ، غير بعيد عنهم ، جندي جالسٌ عـــلى الارض ، ذو رأس مدبب ، وشعر نادر ، وكان يحيط ركبتيه بذراعيه.

ولكنه لم يكن ليضايق ، وكان في هيئة معتوه القرية . ونظر برونيه الى قدميه وقال :

– هل رأيت الاشتراكيين الالزاسيين ؟

– اي اشتراكيين ؟

– لقد اكتشفنا اشتراكيين في الالزاسيين . وقد اتصل بهما داوروكير في الاسبوع الماضي ، وكانا يريدان ان يلتهما كل شيء .

– وبعد ذلك ؟

– لقد رفعا ذراعيهما مع الآخرين .

فلم يجب شنايدر بشيء : وحدد نظره في معتوه القرية ، فألفاه شاباً ذا أنف معقوف منقوش ، انف ثري . وكان الشرود المطمئن قد أقام على وجهه ، وجه النخبة ، الذي كيفته ثلاثون سنة من الحياة البورجوازية ، مع تجعّدات دقيقة وشفافيات وجميع انحناءات الذكاء ، ورفع برونيه كتفيه :

– انها دائماً القصة نفسها : تلمس شخصاً ذات يوم ، فتجده موافقاً ، فاذا كان اليوم التالي ، لم تجد احداً ، اذ يكون قد غيَّر رأيه ، او يتظاهر بأنه لا يعرفك .

وأومأ باصبعه الي المعتوه :

– كنت معتاداً ان أعمل مع الرجال ، ولكن لا مع هذا .

وابتسم شنايدر :

– « هذا » كان مهندساً من عند تومبسون . ما يسمى بفتى المستقبل .

قال برونيه : – واذن ، فان مستقبله الآن قد أصبح خلفه .

وسأل شنايدر : – كم نحن في الواقع ؟

– قلت لك اني لا استطيع ان اعرف ذلك ؛ فالوضع فضفاض . علي كل حال ، افرض اننا زهاء مئة .

– مئة على ثلاثين الفاً ؟

ـ نعم . مئة على ثلاثين الفاً .

وكان شنايدر قد طرح السؤال بلهجة محايدة ، ولم يقم بأيّ تعليق : ومع ذلك ، فلم يجرؤ برونيه على النظر اليه ، وتابع برونيه :

ـ هناك شيء لا يجري على ما يُرام . فاذا حسبنا على أسس ٣٦ ، فقد كان بوسعنا ان نجمع ثلث الأسرى .

قال شنايدر : ـ لسنا بعد في عام ٣٦ .

فقال برونيه : ـ أعرف ذلك .

ولمس شنايدر منخره بطرف سبابته :

ـ الواقع اننا نختار المحتجين المعترضين خصوصاً . وهذا يفسر عدم ثبات زبائننا . ان المحتج المعترض ليس هو بالضرورة المستاء ؛ على العكس ، فهو مسرور بان يحتج ويعترض . فاذا عرضت عليه ان يستخرج النتائج مما يقول ، زعم انه موافق طبعاً ، حتى لا يبدو عليه انه يفقد اعتزازه ، ولكن ما ان توليه ظهرك ، حتى يتحول الى تيار هوائي : ولقد قمت بهذه التجربة عشر مرات .

قال برونيه : ـ وأنا ايضاً .

وقال شنايدر : ـ ينبغي ان نستطيع اختيار المستائين الحقيقيين ، جميع الافراد اليساريين الشجعان الذين كانوا يقرأون « ماريان » و « فاندرودي » والذين يؤمنون بالديمقراطية والتقدم .

قال برونيه : ـ نعم ! صحيح .

وكان ينظر الى الصلبان الخشبية في قمة الجرف والعشب الملتمع بالرذاذ ؛ وأضاف :

ـ ألتقي بين الفترة والفترة بفتى وحيد يجر حذاءه بهيئة ناقه كبير ، فأقول في نفسي : هذا أحدهم . ولكن ماذا تريد ان تفعل ؟ فما ان تقترب حتى يأخذهم الخوف ، فكأنهم يحذرون من كل شيء .

قال شنايدر : ـ ليس هذا كل شيء . انني اميل الى الاعتقاد

بأنهم أشخاص يشعرون بالعار . فهم يعرفون انهم مهزومو الحرب الكبار وانهم لن ينهضوا ابداً من هذه العثرة .

فقال برونيه : – انهم في الحقيقة لا يحرصون على استئناف الصراع : انهم يفضلون اقناع أنفسهم بأن هزيمتهم لا علاج لها ؛ وهـــذا أيسر وأشدّ اغراء .

قال برونيه بين أسنانه ، بلهجة غريبة :

– صحيح . إن هذا يُعزّي .

– ماذا ؟

– ان مما يُعزي دائماً ان تستطيع التفكير بان سقوطك هو سقوط الجنس كله .

فقال برونيه في اشمئزاز : – منتحرون !

قال شنايدر : – اذا شئت .

وأضاف برقة : – ولكنك تعرف ان فرنسا ، هي هم ؛ فاذا لم تدركهم ، فان ما تفعله لا يجدي .

وأدار برونيه رأسه ونظر الى المعتوه ، فانسحر بهذا الوجه القاحل ؛ وتثاءب المعتوه بشهوة وبكى ، وتثاءب كلب ، تثاءبت فرنسا ، تثاءب برونيه : وكف عن التثاؤب ، وسأل ، من غير ان يرفع عينيه ، بصوت منخفض وسريع :

– هل ينبغي ان نستمر ؟

– بمَ نستمر ؟

– بالعمل .

وضحك شنايدر ضحكة جافة لا تروق :

– تسألني انا في هذا ؟

فرفع برونيه رأسه بحيوية ، ففاجأ على شفتي شنايدر الغليظتين بسمة سادية مؤلمة توشك ان تمحّي . وسأل شنايدر :

ـ ما عساك تفعل ان تخليت عن العمل ؟

واختفت البسمة ، وعاد الوجه فأصبح أملس ثقيلاً ، هادئاً ، بحراً ميتاً ، لن أفهم شيئاً من هذا الوجه .

ـ ما أفعله : أنسحب ، وأذهب فأنضمّ الى الرفاق في باريس .

ـ في باريس ؟

وحكّ شنايدر رأسه ، فسأله برونيه بحيوية :

ـ اتحسب ان الامر مشابه هناك ؟

وفكر شنايدر :

ـ اذا كان الالمان مؤدبين ..

قال برونيه : ـ اما هذا ، فهم لا بدّ مؤدبون ! يمكن ان تتأكد من انهم يساعدون العميان على عبور الشوارع .

قال شنايدر : ـ اذا كان الامر كذلك ، فلا بدّ انه مشابه .

واستقام فجأة ونظر الى برونيه في فضول لا ألم فيه :

ـ ماذا تؤمّل ؟

فتصلّب برونيه : ـ انني لا أؤمل شيئاً : ولم أؤمل قط شيئاً ، وانا لا أهتمّ بالامل : وانما انا « اعرف » .

ـ اذن ، ما الذي تعرفه ؟

ـ أعرف ان الاتحاد السوفياتي سيدخل حلبة الرقص ، عاجلاً ام آجلاً . اعرف انه ينتظر ساعته ، واريد ان يكون رفاقنا مستعدين .

قال شنايدر : ـ لقد انقضت ساعته . إذ انكلترا ستكون هالكة قبل الخريف ،فاذا كان الاتحاد السوفياتي لم يتدخّل اذ كان ثمّة امل بخلق جبهتين ، فلماذا تريده ان يتدخل الآن ، ليكون وحده في القتال !

قال برونيه : ـ إن الاتحاد السوفياتي هو بلد العمال . ولن يسمح العمّال الروس بان تبقى البروليتاريا الاوروبية تحت الحذاء النازي .

ـ لماذا سمحوا إذن بان يوقع مولوتوف الميثاق الجرماني السوفياتي ؟

– في تلك اللحظة ، لم يكن ثمة شيء آخر يُفعل ، ان الاتحـاد السوفياتي لم يكن مستعداً .

– وما هو دليلك على أنه الآن اكثر استعداداً ؟

فأطبق برونيه باطن كفه على الجدار في غيظ وقال :

– لسنا في مقهى « التجـارة » ، ولن اناقش ذلك معك : انني مناضل ، ولم يسبق لي قط أن أضعت وقتي في افتراضات سياسية : كان لي عملي ، وكنت اقوم به . اما ما دون ذلك ، فكنت ألجأ فيه الى اللجنة المركزية والى الاتحاد السوفياتي ؛ ولن اغير اليوم مسلكي .

فقال شنايدر بحزن:– هذا هو تماماً ما كنت أقوله،إنك تعيش بالأمل

فاغتاظ برونيه من هذه اللهجة الجنائزية : وخيّل اليه ان شنايـدر يتكلّف الحزن . فقال من غير ان يرفع صوته :

– اسمع يا شنايدر : ليس من المستحيل ان يكون المكتب السياسي قد سقط برمّته في الجنون ، ولكن على هذا الاساس ، ليس من المستحيل كذلك ان يسقط سقف هذه الساحة على رأسك.غير انك لا تقضي حياتك في مراقبة السقف .وبعد هذا تستطيع ان تقول لي، اذا خطر لك،انك تؤمل في الرب ، او انك تثق بالمهندس المعمار ، فهذه كلمات : فانت تعلم جيداً ان هناك قوانين طبيعية ، وان البنايات قد اعتادت ان تظل قائمة حين تكون قد بنيت وفقاً لهذه القوانين . وإذن ؟ لماذا تريـدني ان أقضي وقتي متسائلا عن سياسة الاتحاد السوفياتي ، ولمـاذا تحدثني عن ثقتي بستالين ؟ انني أثق به ، أجل ، وبمولوتوف وجدانوف : بمقدار ما تثق بصلابة هذه الجدران . وبعبارة أخرى ، أعرف ان هناك قوانين تاريخية ، وان بلد العمال والبروليتاريا الاوروبية ، بفضل هـذه القوانين، ذات مصالح واحدة. والحق اني لا افكر بذلك غالباً، كما انك لا تفكر اكثر من ذلك بأسس بيتك : انها الارض تحت قدمي ، والسقف فوق رأسي ، وذلك يقين يحملني ويحميني ويتيـح لي ان اتابـع الأهداف

المحسوسة التي يرسمها لي «الحزب». انك حين تمد يدك لتأخذ منظارك ، فان حركتك وحدها تسلم بالحتمية العالمية ، وكذلك ، انا : ان ادنى فعل من أفعالي يؤكّد صراحة ان الاتحاد السوفياتي هو طليعة الثورة العالمية.

ونظر الى شنايدر في سخرية ، وانتهى الى القول :

— ماذا تريد ؟ انني لست الا مناضلا .

ولم يتخلّ شنايدر عن هيئة الحزن ؛ كانت ذراعاه متدليتين، وعيناه كابيتين . فكأنه كان يريد ان يقنّع حيوية فكره ببطء حركاته . وقد لاحظ برونيه ذلك مراراً : إن شنايدر يحاول ان يبطيء ألمعيته كما لو كان يريد ان يؤقلم في نفسه نوعاً معيناً من الفكر الصابر الثابت الذي يظنّ بلا ريب أنه نصيب الفلاحين والجنود . لمـــاذا ؟ أليؤكد حتى أعماق ذاته تضامنه معهم ؟ ام ليحتجّ على المثقفين وعلى الرؤساء ؟ ام ان ذلك بدافع من الادعاء والتظاهر بالعلم ؟ وقال شنايدر :

— حسناً ، ناضلْ ، يا عزيزي ، ناضل، غير ان عملك يشبه شبهاً غريباً خُطَبَ مقهى « التجارة » : لقد جمّعنا بمشقة كبيرة زهاء مئة مثالي مسكين ، ورحنا نلقي عليهم الانباء الكاذبة عن مستقبل اوروبا .

قال برونيه : — لا مفر من ذلك : فما داموا لا يعملون بعد ، فاني لا أستطيع ان اعطيهم شيئاً « يعملونه » ؛ اننا نتحدث ، ونتصل فيما بيننا ، فانتظر ريثما ينقلوننا الى المانيا، وسترى جيداً كيف نبدأ العمل.

فقال شنايدر بصوته الناعس : — أجـــل ، سأنتظر ، ويجب ان انتظر . ولكن الحوارنة والنازيين لا ينتظرون . ودعايتهم أجدى كثيراً من دعايتنا .

فزرع برونيه نظره في عينيه :

— ما الذي ترمي اليه ، اخيراً ؟

فقال شنايدر مندهشاً :

— أنا ... ولكني لا أرمي الى شيء . كنا نتحدث عن صعوبات

الاختيار ..

فسأله برونيه بعنف :

– ايكون الذنب ذنبي اذا كان الفرنسيون قذرين وليس لهم وازع ولا شجاعة ؟ ايكون ذنبي اذا ...

فاستقام شنايدر وقاطعه ، وقد قست ملامحه ، وغدا صوته من فرط السرعة والتأتأة بحيث يُظن ان « شخصاً آخر » قد سرق فمه ليهين به برونيه ، فصاح :

– انت ... انت دائماً ... انت القذر ، انت ! إن من السهل على المرء ان يتخذ مظاهر الترفع حين يكون وراءه حزب ؛ ومن اليسير على من يملك ثقافة سياسية ومن تعوّد الضربات القاسية ان يحتقر المساكين الذين لا يبدون حراكاً .

فلم ينفعل برونيه : وانما آخذ نفسه أنه قد فقد صبره ، فقال :

– انني لا أحتقر أحداً . اما الرفاق ، فمن البديهي أني أعطيهم جميع الظروف المخففة .

ولم يكن شنايدر يصغي اليه ، وقد تمدّدت عيناه الكبيرتان ، فبدا وكأنه ينتظر حدثاً داخلياً . وفجأة أخذ يصرخ :

– نعم ! انه ذنبك ! طبعاً انه ذنبك !

فنظر اليه برونيه من غير ان يفهم : وكانت حمرةٌ خبيثة تحرّ خدّي شنايدر ، هي اكثر من الغضب ، ولكأنها حقد قديم ، حقد عائلي مكتوم منذ مدة طويلة ، وهو يبتهج اخيراً بالانفجار . ونظر برونيه الى هذا الرأس الهائل المحتدم بالغضب . هذا الرأس ذي الاعتراف العلني وفكر : سيحدث شيء ما . وقبض عليه شنايدر من ذراعه فأراه مهندس « التومبسون » الذي كان يدير أصابعه في براءة . وكانت تلك لحظة صمت ، لأن شنايدر كان اشدّ انفعالا من ان يستطيع الكلام ؛ وأحسّ برونيه انه بارد وهادىء : ان غضب الآخرين يهدّئه دائماً .

وانتظر ؛ سيعلم عما قليل ما يخفيه شنايدر . وبذل شنايدر جهداً عنيفاً :

– هذا أحدهم ! أحد اولئك القذرين الذين لا وازع لديهم ولا شجاعة ، رجل مثلي ومثل مولو ومثلنا جميعاً . ليس مثلك ، بالتأكيد . « صحيح » انه قد أصبح قذراً ، هذا « صحيح » بل هو من الصحة بحيث انه اقتنع به هو بالذات . غير اني رأيته انا في « تول » في شهر ايلول ؛ كان يستفظع الحرب ، ولكنه كان يلوم نفسه ، لأنه كان يعتقد بأن لديه اسباباً وجيهة للقتال ، وأقسم لك انه لم يكن قذراً أو جباناً ... ولكنك انت تجعله كذلك . انتم جميعاً متفقون ، بيتان مع هتلر ، هتلر مع ستالين ، وانتم جميعاً تشرحون لهم أنهم مذنبون ذنباً مزدوجاً : مذنبون لأنهم خاضوا الحرب ، ومذنبون لأنهم خسروها. وجميع الاسباب التي كانوا يبررون بها قتالهم ، انما تنتزعونها منهم الآن . هذا الفتى المسكين الذي كان يتصوّر انه ذاهب لخوض صليبية « الحق » و « العدل » ، تريدون ان تقنعوه انه انزلق بدافع الطيش في حرب استعمارية ؛ إنه لا يدري بعد ماذا يريد ، ولا يعرف بعد ماذا فعل . وليس جيش اعدائه هو وحده المنتصر : وانما ايديولوجيتهم ايضاً ؛ اما هو ، فيبقى هناك ، ساقطاً خارج العالم وخارج التاريخ ، ومعه افكارٌ ميتة ، وهو يحاول ان يدافع عن نفسه ، وان يفكر مجدداً بالوضع . ولكن بأية وسائل ؟ ان وسائل تفكيره بالذات قد فسدت : لقد أشعتم الحزن العميق والموت في روحه .

فلم يتمالك برونيه نفسه من الضحك ، فسأل :

– ولكن ، لمن تراك تتحدث ،في آخر الأمر؟ إليّ انا ، ام الى هتلر ؟

قال شنايدر : – انني اتحدث الى محرر « الاومانيتيه » ، الى عضو الحزب الشيوعي ، الى الذي كتب يوم ٢٩ آب ٣٩ على عمودين محيّياً توقيع الميثاق الجرماني السوفياتي .

قال برونيه : – ها نحن قد وصلنا .

فقال شنايدر : — أجل ، ها نحن قد وصلنا .

قال برونيه بهدوء : — كان الحزب الشيوعي ضد الحرب ، وانت تعلم ذلك جيداً .

— أجل ، ضد الحرب . كان يهتف بذلك عالياً ، على الأقل . ولكنه في الوقت نفسه كان يقرّ الميثاق الذي يجعل الحرب لا مفر منها.

فقال برونيه بقوة : — كلا ، بل ان الميثاق كان حظنا الوحيد في منعها .

فانفجر شنايدر ضاحكاً : وابتسم برونيه وصمت . وكفّ شنايدر فجأة عن الضحك :

— ولكن نعم ، انظر اليّ ، انظر اليّ لحظة ؛ اتخذ هيئة طبيب الموتى . لقد فاجأتك مئة مرة وانت تراقب الرفاق بعينيك الباردتين ، فكأنما كنت تقوم بتحقيق . حسناً ، فماذا تحققت ؟ تحققت انني نفاية السير التاريخي ؟ اتفقنا . نفاية الى الحد الذي تريد . ولكني لست ميتاً ، يا برونيه ، « لست ميتاً » مع الأسف . اني مدعوّ الى ان اعيش سقوطي ، فهو مذاق في فمي ، ولن تفهم ذلك ابداً . انك تجريديّ ، وانتم التجريديين جميعاً ، انتم الذين صنعتم منا النفاية التي نحن اياها .

وصمت برونيه ، وهو ينظر الى شنايدر : وتردّد شنايدر ، وكانت عيناه قاسيتين مذعورتين ، وكان يبدو و كأنّ على لسانه كلاماً غير قابل للإصلاح . وقد امتقع فجأة ، وأقبلت غمامة من الارهاب تغشى نظره ، فأغلق فمه . وبعد لحظة ، استأنف بصوته الخشن ، الهادىء ، الرتيب :

— طيّب ، نحن اخيراً في الخراء جميعاً ، انت ونحن ، وهذا عذرك . صحيح انك ما تزال تأخذ بالسير التاريخي ، ولكن قلبك ليس بعد مؤمناً به . ان الحزب الشيوعي يتشكل من جديد بدونك ، وعلى اسس تجهلها . فبوسعك ان تهرب ولكنك لا تجرؤ ، لأنك تخاف

ما سوف تجده هناك . فالموت والحزن العميق في نفسك انت ايضاً .

وابتسم برونيه : لا ، ليس الأمر كذلك . لن يهزم هكذا ، وهذه كلمات لا تعنيه . وصمت شنايدر وارتعش : لم يحدث شيء بالاجمال . لم يحدث شيء على الاطلاق : ان شنايدر لم يعترف بشيء ، ولم يكشف شيئاً ؛ كل ما في الأمر ان أعصابه ثارت قليلا . امـــا المقطع المتعلق بالميثاق الجرماني السوفياتي ، فربما كانت هذه هي المرة المئة التي يسمعه برونيه فيها منذ ايلول . ولا بد ان الجندي قد ادرك ان الحديث كان يجري عنه : فاستقام على مهل ومضى على قدميه الطويلتين العنكبوتيتين وهو يسير جانبياً كحيوان مذعور . « من » هو شنايـــدر ؟ مثقف بورجوازي ؟ فوضوي يميني ؟ فاشي يجهـــل نفسه ؟ ان الفاشيين لم يكونوا كذلك يريدون الحرب . والتفت اليه برونيه : فرأى جنديـــاً يرتدي الاسمال ، متبرماً ليس لديه ما يدافع عنه ، ولم يبق له ما يفقده ، وهو يفرك أنفه بهيئة شاردة . وفكر برونيه : « لقد اراد ان يؤذيني » ولكنه لم ينجح في الحقد عليه . وسأله بلطف :

ــ اذا كان هذا ما تفكر به ، فلماذا انضممت الينا ؟

فبدت على شنايدر هيئة الشيخوخة والتهدّم ، وقال بصوت يدعو الى الرثاء :

ــ حتى لا أبقى وحيداً .

وساد صمت ، ثم رفع شنايدر رأسه وعلى فمه بسمة مترددة :

ــ يجب علينا ان نفعـــل شيئاً ، أليس كذلك ؟ اي شيء . من الممكن الا نكون متفقين على بعض النقاط ...

وصمت وصمت برونيه . وبعد لحظة ، نظر شنايدر الى ساعته :

ــ انها ساعة الزيارات ، فهل تأتي ؟

قال برونيه : ــ لا ادري ، اذهب انت ، وربما لحقت بك .

ونظر اليه شنايدر لحظة كما لو انه يريد ان يحدثه ، ثم استدار

مبتعداً واختفى . انتهى الحادث ، ووضع برونيه يديه خلف ظهره ، وراح يتنزه في الساحة ، تحت الرذاذ ؛ ولم يفكر بشيء ، وأحسّ نفسه أجوف مُصدياً ، واستشعر على خدّه ويديه ذبذبات صغيرة مبتلّة . الموت في النفس والحزن العميق ، حسناً ، وبعد ذلك ؟ وقال في نفسه باحتقار : « إن هذا من علم النفس ! » وتوقف ، وفكر في الحزب . وكانت الساحة خالية ، رمادية ، بلا كثافة ، وكانت تنبعث منها رائحة الأحد؛ انها منفى . وفجأة أخذ برونيه يعدو ، ودلف الى الساحة الاخرى . وكان الرجال يتزاحمون عند الحاجز صامتين ، وجميع رؤوسهم متجهة نحو الباب الكبير : « انهم » هنا ، خلف الجدران ، تحت الرذاذ نفسه . ورأى برونيه ظهر شنايدر القوي في الصف الاول، فشقّ لنفسه ممراً ، ووضع يده على كتفه . والتفت شنايدر فبسم له بسمة حارّة ، وقال :

— آه ، ها أنت ذا .

— هأنذا .

قال شنايدر : — انها الثانية وخمس دقائق . وسيفتح الحاجز عماقليل. وانحنى مرشّح الى جانبهما نحو رفيق له وتمتم :

— ربما كانت هناك نساء .

وقال شنايدر في حيوية : — يسليني ان ارى مدنيين ، فذلك يذكرني بيوم الأحد في المدرسة .

— هل كنت داخلياً ؟

— نعم ، كنّا نصطفّ امام قاعة الانتظار لنرى وصول الأهل .

وابتسم برونيه من غير ان يجيب : إنه لا يبالي بالمدنيين ؛ وانما هو مسرور لأن جميع الرفاق كانوا حوله يبعثون لديه الحرارة . وفتح الباب الكبير وهو يصرّ ، فسرت في الصفوف تمتمة خائبة :

— هؤلاء هم فقط ؟

انهم زهاء ثلاثين ، وقد رأى برونيــه من فوق الرؤوس جمعهم الصغير الاسود المزدحم العنيد تحت المظلات . وذهب المانيان للقائهم ، فتحدثا اليهم وهما يبتسمان ، وفحصا أوراقهم ، ثم ابتعدا ليتيحا لهم الدخول . نساء وشيوخ ، جميعهم تقريباً في لباس اسود ، جنــازة تحت المطر ؛ وكانوا يحملون حقائب واكياساً وسلالاً تغطّيها المناشف. وكانت النساء ذوات وجوه رمادية وعيون قاسية وهيئة متعبة ، وقــد تقدّمن بخطى صغيرة ، تتزاحم مؤخراتهن ويشعرن بالانزعاج من هذه العيون التي تلتهمهن . وتنهّد المرشح :

– طز ! كم هنّ بشعات !

قال الآخر : – ايه ، هناك ما يمكن عمله : انظر الى تلك المؤخرة السمراء !

ونظر برونيه الى الزائرات في ودّ . انهنّ بالتأكيــد قبيحات ، وهيئتهن قاسية مغلقة ، فكأنهنّ قادمات ليقلن لازواجهنّ : « هل انت مجنون حتى تقع في الاسر ؟ فكيف تريدني ان اتدبّر امري وحدي مع الصغير ؟ » غير انهنّ قد جئن ، مشياً على الاقدام او في عربات ، يحملن سلال الاغذية هذه الثقيلة . انهنّ دائماً انفسهنّ اللواتي يأتين وينتظرن ، بلا حراك ، ولا تعبير ، امام ابواب المستشفيات،والثكنات والسجون : الدمى الجميلة ذوات النظر الراعش تحمل الحداد الى البيت. وقد لقي برونيه على وجوههن – بانفعال – ضيق السلم وبؤسه . كانت لهن تلك العيون المحمومة ، الامينة ، اللاموافقة حين كان ازواجهنّ يقمن بالاضراب « الاحتلالي » ، فكنّ يأتين لهم بالحساء . اما الرجال فقد كان معظمهم مسنين سماناً اشداء ذوي هيئة هادئة . وكانوا يمشون ببطء وتثاقل ، انهم احرار : فقد ربحوا حربهم في زمنهـــم ، وهم يُحسّون راحة الضمير . ومع ذلك ، فهم يقبلون مسؤولية هذه الهزيمة التي ليست « هزيمتهم » ؛ انهم يحملونها على اكتافهم العريضة . لأنّ

من ينجب طفلاً ، عليه ان يدفع ثمن البلاط الذي يكسره : انهم قادمون بلا غضب ولا خجل ليروا الصبي الذي ارتكب آخر حماقة له كشاب . وعلى هذه الوجوه ، نصف الفلاحية ، لقي برونيه فجأة من جديد ما سبق ان فقده : معنى حياته ، كنت أتحدث اليهم ، فلا يستعجلون الفهم ، وانما يصغون بمثل هذه الهيئة من الهدوء العميق ، وهم يتحسّسون قليلاً ؛ وهم لن ينسوا بعد ابداً ما فهموه . وعادت رغبة قديمة فمدّت رأسها في قلبه : يجب ان أشتغل ، وان أحس على جسمي بأعين راشدة مسؤولة . ورفع كتفيه ، وانصرف عن هذا الماضي ، ونظر الى « الآخرين » عصبة الثائري الاعصاب الصغار ذوي الوجوه اللامعبّرة الكازّة : ذلك هو نصيبي . لقد كانوا منتصبين على رؤوس اقدامهم ، مادّين إعناقهم ، يتابعون الزوّار بنظرة قرديّة ، وقحة ، جازعة . كانوا يعوّلون على الحرب لتنقلهم الى سنّ الرجال ، ولتمنحهم حقوق رب الاسرة والمحارب القديم ؛ وكان ذلك طقساً احتفالياً للتدريب ، فقد كان لا بدّ لهذه ان تطرد تلك ، الحرب « العظمى » ، العالمية ، التي خنق مجدها طفولتهم ؛ ولا بدّ انها كانت أعظم ، واكثر عالمية ؛ فلو أطلقوا على الالمان لأنجزوا مذبحة الآباء الطقسية التي بها يبدأ كل جيل في الحياة . انهم لم يطلقوا على أحد ، ولم يذبحوا شيئاً على الاطلاق . انهم فوتوا عليهم ذلك : فلقد بقوا صغاراً غير راشدين ، وكان الاباء يمشون امامهم في عرض ، ينبضون بالحياة . كانوا يسيرون مكروهين ، محسودين ، معبودين ، مرهوبين ، فيغرقون من جديد عشرين الف محارب في طفولة الكسالى المرائية . وفجأة ، التفت أحدهم وواجه الاسرى : فتراجعت جميع الرؤوس ، وكان له حاجبان كثيفان أسودان وخدّان قرمزيان ، وكان يحمل رزمة ثياب بطرف عصاه . واقترب فوضع يده على شريط الحديد ونظر اليهم بعينيه الكبيرتين المخططتين بالدم ، وتحت

هذا النظر الحيواني ، البطيء ، اللامعبر ، كان الافراد ينتظرون متوترين ، ممسكين أنفاسهم ، وعلى استعداد لأن يرفضوا : كانوا ينتظرون الصفعتين . وقال العجوز :

– ها أنتم اولاء ، اذن !

وساد صمت ، ثم تمتم أحدهم :

– نعم ، يا بابا : ها نحن اولاء .

فقال العجوز : – يا لها من مصيبة !

فتنحنح المرشّح واحمرّ وجهه ، وقرأ برونيه على وجهه التحدّي المتشنج نفسه . أجل يا بابا ، ها نحن اولاء : عشرين الف رجل كانوا يريدون ان يكونوا ابطالاً ، ولكنهم استسلموا بلا قتال في سهل منبسط . وهزّ العجوز رأسه ، وقال بلهجة عميقة ، ثقيلة :

– يا لكم من مساكين !

فسُرّي عن الجميع ، وابتسموا له ، وانحنت القامات نحوه . واقترب الحارس الالماني فلمس ذراع العجوز بادب ، واومأ له ان يبتعد ، فلم يكن يلتفت اليه وقال :

– دقيقة واحدة ، انني آت .

وغمز الأسرى غمزة مشاركة ، فابتسم الافراد ، وكانوا مسرورين لأنه عجوز لم تكن في عينيه برودة ، عجوز عنيد من بلادهم ، فأحسوا انهم أحرار بالوكالة . وسأل العجوز :

– هل الامر أقسى من ان يحتمل ؟

ففكر برونيه : هكذا . سيبدأون الأنين . ولكن عشرين صوتاً مرحاً أجابت :

– لا يا بابا ، لا ، لا ، بل يمكن احتماله .

قال العجوز : — حسناً ، هذا أفضل ، هذا أفضل .

ولم يبق لديه شيء يقوله لهم ، ولكنه ظلّ هناك، وازناً ،مركوماً ، صلباً ، فجرّه الحارس من كمه عــلى مهل ؛ وتردّد ، واستعرض الوجوه بنظره ، فكأنه يبحث عن وجه ابنه : وبعد لحظة ، صعدت الى عينيه من البعيد البعيد فكرة ، فبدا على هيئة متّرددة ، وقال اخيراً بصوته ذي العقد :

— لو تعلمون ، ايها الفتية ، انها ليست غلطتـكم .

فلم يجب الافراد بشيء : كانوا واقفين بصلابة ، كأنهــا وقفة الاستعداد . واراد العجوز ان يوضّح فكرته . فأستطرد :

— لا أحد عندنا يفكر بأنها غلطتكم .

فظلّ الافراد على صمتهم ، وقال :

— الى اللقاء ، ايها الاخوة .

ومضى . وعند ذلك سرت فجأة في الجمع إرتعاشة ، فأخذوا يصرخون بحماسة :

— الى اللقاء ، يا بابا ، عما قريب ! الى اللقاء ! عمــا قريب !

وكانت اصواتهم تتضخم ما ابتعد العجوز ؛ ولكنه لم يلتفت . وقال شنايدر لبرونيه :

— أرأيت ؟

فانتفض برونيه ، وقال :

— ماذا ؟

ولكنه كان يعلم جيداً ما سوف يقوله له شنايدر . وقال شنايدر :

— يكفي ان يوثق بنا بعض الشيء .

فابتسم برونيه وقال :

— هل تبدو عليّ هيئة طبيب الموتى ؟

قال شنايدر : — في هذه اللحظة ، لا .

وتبادلا النظر في صداقة : وانفتل برونيه فجأة وقال :

— انظر الى تلك المرأة .

كانت تعرج ، وتوقفت ، قصيرة رمادية ، وتركت رزمتها تسقط في الوحل ، ونقلت الى يدها اليمنى الباقة التي كانت تحملها باليسرى، ثم رفعت ذراعها اليمنى فوق رأسها . ومضت لحظة ، لكأنها انتصبت بالرغم منها ، هذه اليد المنتصرة التي تشدّ كتفها وعنقها ؛ وانتهت بان قذفت الزهور بحركة مرتبكة أسقطتها على الارض ، فتناثرت ، زهور حقول ، رمنثور ، وهندباء ، وترنشاه : لا بدّ انها قطفتها من حافة الطريق . وتدافع الرجال ، فنكثوا الارض ؛ وقرصوا الأغصان بين اظافرهم الموحلة : ونهضوا وهم يضحكون فأروها الزهور كما لو انهم يحيّونها . وأحسّ برونيه بانقباض في حلقه ، فالتفت الى شنايدر وقال غاضباً :

— زهور ! ماذا كانوا يقدمون لو كنا ربحنا الحرب !

ولم تبتسم المرأة ، بل أخذت رزمتها ومضت ، فلم يكن يُرى بعد الا ظهرها يتهاوى تحت المعطف المشمع ، وفتح برونيه فمه ليتكلم ، ولكنه رأى وجه شنايدر وصمت . وتخلّص شنايدر وهو يدافع جيرانه ، وخرج من الصفوف. إنه لم يكن على ما يرام . وتبعه برونيه ، فوضع يده على كتفه :

— ما بك ؟

ورفع شنايدر رأسه ، فصرف برونيه عينيه ، وهو يحسّ الانزعاج من نظره بالذات ، نظر طبيب الموتى ، وردّد، وهو ينظر الى قدميه:

— قل ، ما بك ؟

وأصبحا وحيدين وسط الساحة ، تحت الرذاذ . وقال شنايدر :

— شيء مريع !

وساد صمت ، ثم أضاف : — ان نرى مدنيين من جديد .

وقال برونيه ، من غير ان يرفع عينيه :

– يريعني هذا كما يريعك .

قال شنايدر : – الامر بالنسبة اليك مختلف ؛ فليس لك أحد .

وبعد برهة ، فكّ شنايدر ازرار سترته ، وبحث في جيبه الداخلي، فأخرج منه محفظة مسطحة . وفكر برونيه : لقد مزّق كل شيء . وفتح شنايدر محفظته: لم يكن باقياً فيها غير صورة بحجم بطاقة بريدية. ومدّها شنايدر لبرونيه من غير ان ينظر اليها ، فرأى برونيه امرأة شابة ذات عينين معتمتين . وكان تحت العينين بسمة : ولم يسبق لبرونيه ان رأى شبيهاً لها . كان يبدو عليها انها تعرف جيداً ان في العالم معسكرات اعتقال وحروباً واسرى مسجونين في ثكنات ؛ كانت تعرف ذلك ، وهي مع هذا تبتسم : وللمهزومين والمبغدين ونفايات التاريخ ، كانت تمنح ضحكتها . ومع ذلك ، فقد بحث برونيه عبثاً في عينيها عن شعاع الاحسان الساديّ الكريه : انها تبتسم لهم بسمة ثقة بهدوء ، تبسم لقوتهم كما لو انها كانت تطلب منهم ان يصفحوا عن المنتصرين عليهم . وكان برونيه قد رأى صوراً كثيرة في تلك الفترة ، وابتسامات كثيرة . وكانت الحرب قد أفسدتها كلها ، فلم يعد النظر اليها ممكناً . اما هذه البسمة ، فقد كان النظر اليها ممكناً : لقد ولدت هذه اللحظة، وكانت موجهة الى برونيه، الى برونيهوحده ، الى برونيه الأسير ، برونيه النفاية برونيه المنتصر . وانحنى شنايدر فوق كتف برونيه ، وقال :

– بدأت تتعب .

قال برونيه : – نعم ، فلا بدّ من ان تقصّ أطرافها .

وردّ له الصورة وهي تتلألأ بالرذاذ ، فمسحها شنايدر في عناية بطرف كمه وأعادها الى محفظته . وتساءل برونيه : « هل هي جميلة ؟ » ولم يكن يدري ، انه لم يتح له الوقت الكافي لمعرفة ذلك . ورفع رأسه

فنظر الى شنايدر ، وفكر : «انها انما تبسم له هو . » وخيل اليه انه يراه بعينين أخريين . ومرّ شخصان شابّان ، يضعان زهرتي منثور في عروتيهما ، ولم يكونا يتكلمان ، وكانت جفونهما تضفي عليهما هيئة متناولين هزلية . وتبعهما شنايدر بالنظر ؛ وتردّد برونيه ، وصعدت الى شفتيه كلمة قديمة ، فقال :

— أجدهما مؤثرين .

فقال شنايدر : — صحيح ؟

وكان صفّ الفضوليين خلفهما قد تمزق ،ودخل الزوار الى الثكنة، ووصل داوروكير وهو يتهادى ، يتبعه « بيران » وعامل المطبعة . وفكر برونيه: «صحيح، انها الساعة الثالثة .» وكانت لهم، ثلاثتهم، وجوه مغلقة ؛ وتضايق برونيه وهو يفكر بأنهم قد تحدثوا فيما بينهم : فتلك أشياء لا يمكن منعها . وصاح من بعيد :

— ماذا ، يا جماعة ؟

فاقتربوا وتوقفوا ، وتبادلوا النظر ، على رهبة . وقال برونيه بصراحة :

— تكلموا ، ما بكم ؟

فأوقف عامل المطبعة عليه نظر عينيه الجميلتين القلقتين ، وكان وجهه ينمّ حقاً عن الأستياء وقال :

— لقد قمنا دائماً بما طلبته منا ، اليس كذلك ؟

فقال برونيه نافد الصبر :

— نعم ، نعم . وإذن ؟

فلم يستطع عامل المطبعة ان يضيف شيئاً آخر ، وانما تكلم داوروكير بدلاً منه ، من غير ان يرفع عينيه :

— اننا نريد ان نستمر ، وسنستمر ما طلبت منا ذلك . ولكننا نعتقد ان هذا عبث .

فلم يقل برونيه شيئاً . وقال بيران :

ـ إن الافراد لا يريدون ان يفهموا شيئاً .

وظل برونيه على صمته ، فاستطرد العامل بصوت محايد :

ـ بالأمس فقط ، تنازعت مع شخص لأني كنت اقول إن الالمان سيأخذوننا الى المانيا . فجنّ جنون الرجل ، واتهمني باني من الطابور الخامس .

ورفعوا عيونهم فنظروا الى برونيه بعناد :

ـ لقد بلغ الأمر حدّ أنه لا يمكن بعد ان تقال لهم كلمة سوء عن الألمان .

وجمع داوروكير شجاعته ونظر الى برونيه مواجهة :

ـ اننا بصراحة يا برونيه لا نرفض ان نعمل ، ولكن اذا باشرنا الأمر بطريقة خاطئة، فاننا مستعدون بالبدء من جديد على طريقة اخرى. غير انه ينبغي ان تفهمنا . اننا نتنقّل في كل مكان . ويندر ألا نتحدث في اليوم الواحد الى مئتي شخص ، فنسبر غور المعسكر ؛ اما انت ، فانك بالضرورة ترى أقل منا ، فلا تستطيع ان تعرف ما نعرف .

ـ يعني ؟

ـ يعني اذا أطلق غداً سراح العشرين ألف اسير ،فانهم،بهذا الوضع ، سيكونون عشرين الف نازي .

فأحسّ برونيه بان الحرارة تصبغ وجنتيه . ونظر اليهم واحداً بعد واحد . وسأل :

ـ أهذا هو رأيكم ؟

فأجاب الثلاثة « نعم » . وانفجر فجأة :

ـ إن في الجمع عمالاً وفلاحين ، ويجب ان تخجلوا من التفكير بأنهم سيصبحون نازيين ، وإلا كان ذلك من خطأكم : إن الانسان

ليس حطبة ، وانما هو يتحرك ، لو تعلمون، يقتنع : فاذا لم تنجحوا في تحريكهم ، فمعنى ذلك انكم لا تحسنون القيام بعملكم .

وأولاهم ظهره . وقام بثلاث خطوات ، ثم عاد اليهم فجأة ، مقدماً إصبعه :

— الحقيقة انكم تعتبرون انفسكم قوّاداً . فانتم تحتقرون رفاقكم . فاحفظوا هذا : إن عضو « الحزب » لا يحتقر أحداً .

ورأى عيونهم مشدوهة ، فزاد غيظه وصاح :

— عشرون الف نازي ! هل انتم مجانين ؟ إنكم لن تصنعوا منهم شيئاً اذا احتقرتموهم . حاولوا اولا ان تفهموهم : إن في نفوسهم الموت والحزن العميق ، هؤلاء الأشخاص ، وهم لا يدرون بعد كيف يتصرفون . وسيستسلمون للشخص الاول الذي يوليهم الثقة .

وأزعجه حضور شنايدر ، فقال له :

— هيّا ، تعال .

واذ مضى ، التفت نحو الآخرين الذين ظلوا بُكماً ومشدوهين :

— أعتبر انكم أصبتم بخوَر . وهذا أمرٌ قد نُسي . ولكن لا تعودوا بعد بهذا الخبط العشوائي . الى الغد .

ورقي السلم عدواً ، وشنايدر يلهث خلفه ؛ ودلف الى الشقة ، وتداعى للسقوط على غطائه ؛ ومدّ يده فتناول كتاباً : « اخواتهم » لهنري لافيدان . وراح يقرأ في تنبه ، سطراً فسطراً ، وكلمة فكلمة؛ وهدأت نفسه . وحين بدأ النهار يرمدّ ، وضع الكتاب وتذكر انه لم يتناول الغداء ؟

— هل احتفظتم لي برغيفي ؟

فمدّه له مولو ، فقطع برونيه القطعة التي كان عليه ان يعطيها لعامل المطبعة غداً ، ووضعها في قربته ، وأخذ يأكل. وبدا «كانتريل» و « ليفار » في فتحة الباب : كانت تلك ساعة الزيارات . وقالا من

غير ان يرفعا رأسيهما : « مرحباً ، مرحباً . » وسأل مولو :

– ما لديكما من انباء ؟

قال ليفار : – يقال ان البعض قد هرب ! ومن الذي يدفع الثمن؟ طبعاً ، نحن .

قال مولو : – ها ! هناك إذن جديد ؟

فقال ليفار : – هناك ان المعاون قد هرب .

– هرب ؟ لماذا ؟

كان هذا سؤال بلوندينه الذي جعلته المفاجأة وحشياً . وانقضى بعض الوقت قبل ان يهضم الافراد النبأ ، وكان في عيونهم بعض الذعر : وخوف خفيف يشبه خوف الجمع المتعب في المترو حين يأخذ مجنون في النباح العنيد ، وردد غاسو بهدوء :

– هرب .

وكان الشتيمي قد وضع العصا التي ينحتها وبدا قلقاً . وكان لامبر يمضغ في صمت ، وعيناه ثابتتان قاسيتان . وبعد لحظة ، قال في ضحكة استياء .

– هناك دائماً من يعتقدون أنهم اكثر استعجالاً من سواهم .

فقال مولو : – او انه يحبّ المشي على الأقدام .

وكان برونيه ينتف برأس مديته اجزاء عفنة من الخبز ، ويسقطها على غطائه ؛ وكان يشعر بعدم الراحة . ودخل هواء الخارج الرمادي الى الغرفة ؛ وفي الخارج ، في المدينة الميتة كان ثمة رجل مطارد يختبيء . اما نحن ، فاننا هنا ، نأكل ، وهذا المساء سننام تحت سقف ، وسأل على مضض :

– كيف تمكّن من الفرار ؟

فنظر اليه ليفار متصنّعاً الأهمية ، وقال :

– احزر !

– لا ادري : من الجدار الخلفي ؟

فهزّ ليفار رأسه مبتسماً ، وانتظر لحظة ، ثم قال بلهجة انتصار :

– من البـاب الكبير ، في الساعة الرابعة بعـد الظهر ، تحت أعين الألمان !

فشده الرجال ، واستمتع ليفار وكانتريل برهةً بالذهول العام ، ثم اوضح كانتريل بصوته الحادّ السريع :

– لقد جاءت زوجته العجوز للزيارة ، وكانت تحمل له ثياباً مدنية في حقيبة ، فغيَّر المعاون لباسه في خزانة ، ثم خرج متأبطاً ذراعها .

فسأل غاسو مغتاظاً :

– ولكن ألم يكن ثمة أحد ليوقفه ؟

فهزّ ليفار كتفيه :

– يوقفه ؟ كيف تريد ذلك ؟

قال غاسو :

– لو عرفته انا مثلا عند الخروج لناديت ألمانياً فقبض عليه .

ونظر اليه برونيه في ذهول :

– هل أنت مجنون ؟

فقال غاسو في غضب : – مجنون ؟ يا لفرنسا المسكينة ! إن من يريد ان يقوم بواجبه اليوم ، يُتهم بالجنون .

وألقى نظرة دائرة على الجمع ليرى ان كانوا يقرّونه وأجـاب باندفاع أشدّ :

– سترى اذا كنت مجنوناً حين يلغون الزيارات . انني اؤكد لك انهم تركوهم يدخلون ولم يكونوا مجبرين على ذلك . أليس هذا رأيكم ، يا جماعة ؟

فهز مولو ولامبير رأسيهما ، وأضاف غاسو بلهجة قاسية :

–هذا صحيح أيضاً ! لقد اتفق ان الألمان لم يكونوا وحوشاً في هذا، فكيف نشكرهم ؟ بان نخرأ في ايديهم . سيثور غضبهم ، ولن يكونوا

على خطأ .

وفتح برونيه فمه ليصفه بأنه قذر ، ولكن شنايدر رماه بنظرة سريعة وصـــاح :

– غاسو ، انك كريه !

وصمت برونيه وهو يفكر بمرارة : « لقد سارع يشتمه ليمنعني من ان « أدينه » ، انه لا يدين غاسو ، ولا يدين قط أحداً : فهو يشعر امامي بالعار بدلا منهم ؛ ومهما حدث ، ومهما فعلوا ، فقد اختـــار ان يكون معهم . » ونظر غاسو الى شنايدر بعينين يلتمع فيهما الشرر، فردّ له شنايدر نظرته : وأخفض غاسو عينيه وقال :

– حسناً ! حسناً ! هيّا ، اعملوا على الغـــاء الزيارات . انا لا يهمني ذلك : فان أبويّ في « اورانج » .

قال مولو : – وأنا ، مـــا تظنني ؟ انني يتيم . ولكن يجب مع ذلك ان نفكر بالرفاق .

قال برونيه : – صحيح . ويليق بك جداً ان تقول ذلك يا مولو، أنت الذي تغتسل كل يوم بعناية كبيرة لتجنب الرفاق القمل .

فقال البلوندينه فجأة : – ليس الامران متشابهين . صحيح ان مولو وسخ ، ولكنه لا يبعص سوانا . بينما ذاك شخص لا يخاف ان يغرق عشرين الف شخص في الخراء لمصلحته الشخصية .

قال لامبير : – اذا قبض عليه الألمان ، فوضعوه في السجن ، فلن اكون ممن يرثون له .

وقال مولو : – هل ترى ؟ إن صاحبنا يذهب قبل ستة اسابيع من العودة . ألم يكن بوسعه ان يفعل مثلنا ؟

فأقرّهم الرقيب لاول مرة ، وقال متنهداً :

– هذه هي الشخصية الفرنسية ، ومن أجل هذا خسرنا الحرب .

فقهقه برونيه وقال لهم :

ـ هذا لا يمنع انكم تودّون كثيراً ان تكونوا مكانه ، وان تشعروا بالخجل لانكم لم تقوموا بالمحاولة .

فقال كانتريل بحيوية :

ـ هذا ما يجعلك على خطأ . فلو جازف بشيء ، بأي شيء ، طلقة بندقية في المؤخرة ، لما انكرت ، فبالامكان التفكير : إنه أحمق ، رأس فارغ ، ولكنه كان ذكياً . فبدلا من هذا ، ذهب صاحبنا بهدوء ، محتمياً بزوجته ، كالجبناء . إن هذا ليس فراراً ، بل هو اساءة للثقة .

وسرت في صلب برونيه رعشة باردة ، فانتصب ونظر في عيونهم واحداً بعد الآخر وقال :

ـ حسناً ، اذا كان الامر كذلك ، فاني اخبركم اني مساء الغد سأتسلّق الجدار وأهرب . وسنرى ان كان هناك من يشي بي .

فبدا عليهم الانزعاج ، ولكن غاسو لم يسقط في يده ، فقال :

ـ لن نشي بك ، أنت تعلم ذلك جيداً ، ولكن حين أخرج من هنا ، فتأكد اني سأقصد اليك لأعاقبك : لأنك اذا هربت ، فكن على ثقة بان نتيجة عملك ستسقط على رأسنا .

فقال برونيه في ضحكة شامتة :

ـ تعاقبني ؟ أنت ؟

ـ اوه ! كفى ؛ اذا لزم الأمر ، فسنكون عدة اشخاص .

ـ كلمني في هذا بعد عشرة اعوام ، حين تعود من المانيا .

واراد غاسو ان يجيب ، ولكن ليفار قاطعه :

ـ لا تناقشه في هذا . فسوف يطلق سراحنا يوم ١٤ . وهذا رسمي .

فسأل برونيه وهو يقهقه : ـ رسمي ؟ وهل رأيته مكتوباً ؟

فتقصّد ليفار ألا يردّ عليه ، والتفت الى الآخرين وقال :

ـ لم اره مكتوباً ، ولكن الامر شبيه بهذا .

فأشرقت الوجوه في العتمة : لمبات راديو ، معتمة ولبنية . وتأملهم ليفار في بسمة طيبة ، ثم أوضح :

– لقد قال هتلر ذلك .

فقال برونيه مشدوهاً : – هتلر !

وتجاهل ليفار المقاطعة ، فاستطرد يقول :

– هذا لا يعني أني احبّه ، ذلك الشخص : انه بكل تأكيد عدّونا . والنازية لست معها ولا ضدها : فمن الممكن ان تنجح مع الألمان ، ولكن ذلك لا يناسب المزاج الفرنسي ، غير ان له ميزة ، هتلر : إنه يفعل دائماً ما يقول . لقد قال : في ١٥ حزيران ، سأكون في باريس ؛ فكان فيها ، بل سبق ذلك .

وسأل لامبر : – وهل وعد بان يطلق سراحنا ؟

– نعم . لقد قال : في ١٥ حزيران سأكون في باريس ، وفي ١٤ تموز سترقصون مع زوجاتكم .

وارتفع صوت خجول ، هو صوت الشتيمي :

– كنت احسب انه قال : « سنرقص مع زوجاتنا « نحن » : نحن الالمان . »

فحدجه ليفار قائلا : – وهل حضرت انت خطابه ؟

قال الشتيمي : – كلا هذا ما قيل لي .

فقهقه ليفار ، فسأله برونيه :

– وانت ، هل حضرته ؟

– طبعاً حضرته ! في « هاغونو » ، كان للرفاق جهاز راديو ، وحين دخلت ، كان قد نطق بهذه العبارة .

وهزّ رأسه وردّد في تلمّظ : « سنكون في ١٥ حزيران في باريس ، وفي ١٤ تموز سترقصون مع زوجاتكم . »

فردّد الأشخاص في جذل : – ها ! في ١٥ حزيران في باريس ،

وسنرقص يوم ١٤ تموز .

النساء . الرقص . وأخذ الافراد يرقصون ، واعناقهم في اكتافهم ، ووجوههم مقاوبة ، واكفّهم مطبقة عـلى أشرعة الخيم : وقضقضت الأرض الخشبية ، ودارت ورقصت الفالس تحت النجوم ، بين الحروف الكبيرة لضاحية « شاتودان » . وانحنى غاسو رقيقاً نحو برونيه ، وشرح له بصوت منطقي :

— ان هتلر ليس مجنوناً . فهل تشرح لي لماذا يُدخل مليون أسير الى المانيا ؟ مليون فم تطلب الطعام ؟

قال برونيه : — ليجعلهم يشتغلون .

— يشتغلون ؟ مع العمال الألمان ؟ ستكون معنويات الالمان عظيمة حين يكونون قد تحدّثوا قليلا معنا .

— بأية لغة ؟

— بأية لغة كانت ، بالزنجية ، بالاسبرنتو : لقد وُلد العامل الألماني خبيثاً ، وهو نقاد هُزأة وذكي ، فيكفيه يومان حتى يفسدهم، الألمان ، وبوسعك ان تثق بان هتلر قد فكر في ذلك . اوه ! أجل ، انه ليس مجنوناً ! وانا مثل ليفار : لا أحبه ، ذلك الشخص ، ولكني احترمه ، وليس هناك كثيرون أستطيع ان اقول عنهم مثل هذا .

فوافق الأشخاص برؤوسهم ، في رصانة :

— يجب ان نعترف له بهذه الميزة : انه يحب بلده .

— انه رجل له مثل أعلى . ليس هو مثلنا بالتأكيد ، ولكنه جدير بالاحترام .

— جميع الآراء جديرة بالاحترام ، شرط ان تكون مخلصة .

— ونوابنا نحن، ماذا كان مثلهم الأعلى؟ ان يملأوا جيوبهم ، أجل ، والنساء الصغيرات وكل ما هنالك . كانوا يشترون لأنفسهم الطعام اللذيذ بأموالنا . اما عندهم ، فليس الأمر كذلك : انك تدفع ضرائبك ،

ولكنك تعرف ما يفعلون بمالك . فكـل عام ، يرسل لك موظف الضرائب رسالة : لقد دفعت يا سيدي كذا ، فهذا يمثل كذا من العقاقير للمرضى أو كذا من الامتار المربعة للاوتوستراد . أؤكد لك ذلك .

قال مولو : — انه لم يكن يريد ان يحاربنا ، بل نحن الذين أعلنا الحرب عليه .

— على رسلك ، بل لسنا نحن الذين أعلناها ؛ انه دالادييه ، وهو لم يستشر حتى مجلس النواب .

— هذا ما اقوله . والذي حدث انه هو ، لو تعلم ، ليس انساناً ذليلا ؛ لقد قال : انكم تبحثون عني ، ايها السادة ، فسوف تجدونني. وفي أقل من يومين ، ركلنا على القفا . حسناً ، والآن ؟ اتظنه مسروراً مع مليون اسير ؟ سوف ترى : سيقول لنا بعد ايام : انكم ايهـا السادة تزعجونني ، فابقوا في بيوتـكم . ثم ينصرف الى الروس، فيأكل البعض انوف بعض . فرنسا ؟ ما عساها تفيده ؟ إنه غير محتاج اليها . سوف يأخذ منها الألزاس ثانية ؛ بمثابة استعادة النفوذ ، هذا صحيح . ولكني اقول لك : طز في الالزاسيين ، فاني لم أستطع يوماً ان أطيقهم.

فضحك ليفار لنفسه ، بصمت : وكانت هيئته مزهوة ، وقال :

— الكلام بسرك ، لو اننا رزقنا ، نحن ، هتلراً !

قال غاسو : — آه ، يا صديقي المسكين ! هتلر مع الجنـدي الفرنسي ؟ مريع ! في هذه الساعة ، كنا نكون في القسطنطينية . (واضاف بغمزة عين جذلة) لأن الجندي الفرنسي هو افضل جندي في العالم حين يكون له قائد .

وفكر برونيه بان شنايدر لا بد وان يحس بالعار ، فهو لا يجرؤ على النظر . ونهض ، فأدار ظهره لأفضل جنود العالم ، وفكر بأنه ليس ثمة بعد ما يُعمل ؛ وخرج . وتردد على السطيحة ، ونظر الى السلم الذي يغرق في العتمة : كان المفروض في تلك الساعة ان يكون

الباب مغلقاً . وللمرة الاولى ، شعر بأنه أسير . عاجلا ام آجلا ، لا بد ان يدخل زنزانته ويتمدد على الارض الخشبية الى جانب الآخرين ويصغي الى أحلامهم . وكانت الثكنة تحته تضجّ ، فترتفع صيحات واغنيات عبر قفص السلم . وقضقضت الارض الخشبية ، فالتفت بحيوية: كان شنايدر يتقدم نحوه في الممر المظلم وهو يعبر آخر شعاعات النهار ، واحداً واحداً . سأقول له : « قل لي ! أتكون لك الشجاعة للدفاع عنهم ! » وأصبح شنايدر بازائه تماماً ، فنظر اليه برونيه ولم يقل شيئاً. وارتفق الحاجز ، فأقبل شنايدر يرتفق بالقرب منه ، وقال برونيه :

– إن داوروكير هو الذي كان محقاً .

فلم يجب شنايدر : ماذا تريد ان يجيبني ؟ بسمة ، زهور حمراء تحت الرذاذ ، يكفي ان يولوا الثقة ، قليلا من الثقة ، قليلا جداً ، آه ! انني أصدقك ، وردّد بغضب :

– لا جدوى ! لا جدوى ! لا جدوى !

إن الثقة لا تكفي ، بكل تأكيد . الثقة بمن ؟ الثقة بأيّ شيء ؟ لا بدّ من الألم ، والخوف والحقد ، لا بد من التمرد والقتل ، لا بد من نظام حديدي . أما حين لا يبقى لهم ما يفقدونه ، وحين تصبح حياتهم أسوأ من الموت ... وانحنى كلاهما فوق الظلام ، فانبعثت رائحة غبار . وسأل شنايدر وهو يخفض الصوت :

– أصحيح انك تريد ان تهرب ؟

فنظر اليه برونيه من غير ان يجيب ، وقال شنايدر :

– سوف أشعر بالشوق اليك .

وقال برونيه بمرارة :

– ستكون الوحيد في ذلك .

وفي الطابق الارضي ، كان أشخاصٌ يغنّون في جوقة : لنشرب كأساً ، لنشرب كأسين ، نخب المحبين ، أهرب ، أشحط صليباً على

عشرين الف رجل ، أتركهم يموتون في خرائهم ، أيكون لنا الحق بالقول : لم يبق ثمة ما يفعل ؟ واذا كانوا ينتظرونني في باريس ؟ وفكر في باريس باشمئزاز أدهشه عنفه . وقال : « لن أهرب : لقد قلت ذلك وأنا غاضب . »

– اذا كنت تظن انه ليس ثمة بعد ما يعمل ...

– هناك دائماً ما يعمل . يجب ان نعمل حيث نكون ، بالوسائل التي نملك . وفيما بعد ، سنرى .

وتنهد شنايدر ، وقال برونيه فجأة :

– انت الذي ينبغي لك ان تهرب .

فهزّ شنايدر رأسه نفياً ، وقال برونيه في خجل :

– ان لك هناك زوجتك .

فهز شنايدر رأسه نفياً ؛ فسأله برونيه :

– ولكن لماذا ؟ ليس لك هنا ما يمسكك .

فقال شنايدر : – سيكون كل مكان أسوأ .

لنشرب كأساً ، لنشرب كأسين ، نخب المحبين . وقال برونيه :

– لتعش المانيا !

وللمرة الأولى ردّد شنايدر في شيء من الشعور بالعار :

– لتعش ألمانيا ! نعم ! لتعش ..

وطز في ملك انكلترا الذي أعلن لنا الحرب .

سبعة وعشرون رجلاً ، الشاحنة تصرّ ، والقناة تتمطّى على طول الطريق ، ويقول مولو :

– في الحقيقة ، ليست مهدمة الى حد بعيد .

ولم يكن الالمان قد أغلقوا باب الممرات ، وكان النور والذباب تدخل الى الشاحنة ؛ وكان شنايدر وبرونيه وعامل المطبعة جالسين على الارض الخشبية ، عند فتحة الباب ، وسيقانهم تتدلى الى الخارج ؛ انه

يوم صيف جميل . وقال مولو بارتياح :

– أجل ، ليست على الاطلاق مهدمة الى حد بعيد .

ورفع برونيه رأسه : كان مولو واقفـاً ينظر الى الحقول والسهول تجري في رضى . وكان الطقس حاراً ؛ ورائحة الرجال قوية ؛ وكان شخص يشخر في جوف القاطرة . وانحنى برونيه : كان في الشاحنة قبعات المانية تلمع فوق البنادق . يوم صيف جميل ، وكل شيء هادىء ؛ القطار يجري والقناة تجري ؛ ومن بعيد لبعيد يُرى طريق حفرته قنبلة ، او حقل مخدّد ؛ وفي جوف الحفر ، ماء يعكس السماء. وقال عامل المطبعة لنفسه :

« لن يكون القفز صعباً » .

فأومأ شنايدر الى البنادق بهزّة كتف :

– سيصطادونك كالارنب .

فلم يجب عامل المطبعة ، وأطلّ كما لو انه سوف يثب ، فأمسكه برونيه من كتفه ؛ وردّد عامل المطبعة مبهوراً :

– لن يكون ذلك صعباً جداً .

فدغدغ له مولو رقبته :

– ما دمنا ذاهبين الى « شالون » .

– ولكن هل هذا صحيح ؟ هل نكون ذاهبين اليها ؟

– لقد رأيت البلاغ مثلي .

– لم يكن مكتوباً اننا ذاهبون الى شالون .

– صحيح ، ولكن كان مكتوباً اننا باقون في فرنسا . أليس كذلك ، يا برونيه ؟

فلم يجب برونيه على التو : « صحيح » أنه كان في الليلة السابقة اعلان معلق على الجدار ، يحمل توقيع القائد : « إن اسرى معسكر باكارا مرصودون للبقاء في فرنسا . » وهـذا لا يمنع انهم الآن في

القطار ، محمولين الى جهة مجهولة . وألحّ مولو :

ـ أصحيح هذا ام غير صحيح ؟

وصاحت خلفها أصوات نافدة الصبر :

ـ نعم ، صحيح ، لا تضجرونا ، فانتم تعلمون جيداً ان هذا صحيح .

وألقى برونيه نظرة الى عامل المطبعة ، وقال بلطف :

ـ هذا صحيح .

فتنهد العامل وقال في بسمة مطمئنة :

ـ هذا طريف . انا اشعر دائماً بأني غريب حين أسافر .

وضحك من قلبه ، وهو متجه الى برونيه :

ـ قد اكون ركبت القطار عشرين مرة في حياتي ؛ ولكن ذلك يحدث لي كل مرة اثراً عميقاً .

وضحك ، فنظر اليه برونيه يضحك وفكر : « انه ليس علي ما يرام . » وكان لوسيان جالساً الى الخلف ؛ وقال وهو يحيط كعبيه بذراعيه :

ـ كان المفروض ان يأتي امي وابي يوم الأحد .

وكان شاباً رقيق الهيئة يضع نظارات . وقال له مولو :

ـ الا تفضّل ان تلقاهما في البيت ؟

فقال الشاب : ـ بلى طبعاً ، ولكن ما دام المفروض ان يأتيا يوم الأحد ، فقد كنت افضل ان نذهب يوم الاثنين .

فاحتج ركاب القاطرة :

ـ هذا شخص كان يفضل ان يبقى ثلاثة ايام اخرى ؛ خراء إذن! ان هناك من ينكرون الآن أنفسهم ؛ يوم آخر ، ولكن قل ، لماذا لا تنتظر حتى الميلاد ؟

فبسم لهم لوسيان برقّة ، وقال موضحاً :

— انهما ليسا بعد في سن الشباب ، لو تعلمون ، فيسؤوني ان ينزعجا من اجل لا شيء .

قال مولو: — عجباً ! حين يعودان إذن، فستكون انت الذي تستقبلهما.

قال لوسيان : — اود ذلك كثيراً، ولكن لن يكون لي هذا الحظ : فسيحتاج تسريحنا الى ثمانية أيام على الأقل .

قال مولو : — من يدري ؟ من يدري ؟ مع الالمان ، من الممكن ان تسير الامور بسرعة .

قال جوراسيان : — ان كل ما اطلبه شخصياً ، هو ان أصل الى بيتي في موسم قطف الخزامى .

والتفت برونيه : كانت الشاحنة بيضاء من الغبار والدخان ، وكان البعض جالساً ، والبعض الآخر واقفاً ؛ وعبرَ جذوع مقدّسة لغابة من السيقان ، لمح وجوهاً هادئة مبتسمة بغموض . وكان جوراسيان رجلاً سميناً ذا مظهر قاسٍ ورأس حليق وعصابة سوداء على عينه . وكان جالساً القرفصاء ليحتلّ اصغر مساحة . وسأله برونيه :

— من اين انت ؟

— من مانوسك . كنت في البحرية . وانا في الوقت الحاضر اسكن مع زوجتي ، ولا احب ان تقوم بالقطاف من دوني .

وكان عامل المطبعة ما يزال ينظر الى الطريق ، وقال :

— لقد آن الاوان .

فسأله برونيه : — ما بك ، ايها الرأس الصغير ؟

— آن الاوان ليسرّحونا .

— نعم ؟

قال عامل المطبعة : — كنت مصاباً بالسويداء .

وفكر برونيه : « هو ايضاً ! » ولكنه رأى عينيه اللامعتين المجوّفتين فصمت . وفكر : « سيلاحظ شأنه في وقت مبكر . »

وقال شنايدر :

– صحيح ، ايها الرأس الصغير ، لقد انقطعت عن إضحاكنا ، فما بك ؟

قال العامل : – اوه ! لا شيء الآن .

وكان يود ان يشرح امراً ما ، ولكن الكلمات كانت تعوزه . واتى بحركه اعتذار واكتفى بالقول :

– انني من « ليون » .

وأحسّ برونيه بالانزعاج ، وفكر : « لقد نسيت انه كان من ليون . ها قد مضى شهران ، وانا أشغله من غير ان أعرف عنه شيئاً . وها هو الآن حارّ بازائي ، وهو يشعر بالحنين الى بلده. » وكان العامل قد انفتل اليه ، فقرأ برونيه في اعماق عينيه لوناً من الرقة القلقة ؛ وسأل العامل فجأة :

– أصحيح اننا ذاهبون الى شالون ؟

فقال مولو نافد الصبر : – آه ؟ انك تطرح السؤال من جديد !

قال برونيه : – هيا ، كفى ، هيّا ! حتى ولو لم نكن ذاهبين الى شالون ، فسوف ينتهي الأمر بعودتنا .

قال عامل المطبعة : – بل ينبغي ان نذهب الى شالون ، ينبغي ان نذهب الى شالون .

وبدا وكأنه يقوم بصلاته . وقال لبرونيه :

– أتعلم ؟ لولاك لهربت منذ وقت طويل .

– لولاي ؟

– نعم . كان ينبغي ان أبقى ، ما دام هناك مسؤول .

فلم يجب برونيه ، وفكر : « طبعاً ، إن هذا بسببي » ولكن ذلك لم يكن يسرّه قطّ . واستطرد العامل :

– سأكون اليوم في ليون . هل تتصوّر ، انني مجنّد منذ عام ٣٧،

وانا لا أعرف بعد مهنتي .

قال لوسيان : — ولكن سرعان ما تعتادها من جديد .

فهزّ العامل رأسه ، بهيئة عاقلة ، وقال :

— اوه ! ليس بهذه السرعة . سترى . إن العودة اليها ذات مشقة .

وظلّ جامداً ، فارغ النظرات ، ثم قال :

— كنت لدى أهلي في المساء ألمّع كل شيء ، فانا لم اكن احب ان ابقى من غير ان اعمل شيئاً ، ويجب ان يكون كل شيء نظيفاً .

ونظر اليه برونيه من زاوية عينه : لقد فقد هيئته الواضحة المرحة، وكانت الكلمات تتدافع برخاوة خارج فمه ؛ وكانت باقات من الشعر الأسود تنمو بالاتفاق على خديه الهزيلين . وابتلع نفقٌ شاحنات الرأس، ونظر برونيه الى الثقب الأسود الذي يغرق فيه القطار ، ثم التفت فجأة الى العامل :

— اذا كنت تريد ان تهرب ، فهذه هي اللحظة المناسبة .

قال العامل : — ماذا ؟

— ليس عليك الا ان تقفز حين ندخل النفق .

ونظر اليه العامل ، ثم غدا كل شيء اسود ؛ وتلقى برونيه دخاناً في فمه وعينيه ، فسعل . وابطأ القطار ، فقال برونيه وهو يسعل :

— اقفز . هيّا اقفز !

ليس من جواب ؛ وارمدّ النهار عبر الدخان ، ومسح برونيه عينيه وغمرته الشمس دفعةً واحدة . وكان عامل المطبعة قائماً هناك . فسأله برونيه :

— ماذا اذن ؟ .

فطرف العامل بعينيه وقال :

— وما الفائدة ؟ ما دمنا ذاهبين الى شالون .

فرفع برونيه كتفيه ونظر الى القناة . وكان على حافة الشاطيء

قارب ، وفوقه رجل يشرب ، وترى قبعته وقدحه وانفه الطويل فوق المشى . وكان آخران يسيران على الحافة ، وهما يرتديان قبعة من القش ويتحدثان بهدوء ؛ ولم يتكلفا حتى ادارة رأسيهما نحو القطار . وصاح مولو :

– هيه ! هيه ! يا جماعة !

ولكنهم كانوا قد أصبحوا خارج مدار النظر . حانــة اخرى ؛ جديدة كل الجدة : « صيد سمين ! » وضربت انغام بيانو راعشة صاهلة وجه برونيه ، ثم اختفت ؛ وانما كان يسمعها الآن ألمان القطار ، ورأى برونيه قصراً لا يرونه بعد ، قصراً في نهــاية حقل ، يكتنفه برجان مروّسان ؛ وكان في الحقل فتاة صغيرة تمسك دولاباً وتنظر برصانة : وعبر عينيها الفتيتين ، كانت فرنسا بريئة عتيقة تنظر اليهم يمرّون . ونظر برونيه الى الفتاة الصغيرة وفكر في بيتان ؛ وكان القطار يجري عبر هذه النظرة ، عبر هذا المستقبل المليء بالألعاب العاقلــة ، والافكار الطيبة ، والهموم الصغيرة ، كان يجري نحو سهول البطاطا والمصانع وفبارك السلاح ، نحو مستقبل الرجال الحقيقي الأسود . وكان الاسرى ، خلف برونيه ، يحركون ايديهم ؛ وفي جميع القاطرات ، كان برونيه يري ايدياً تحمل المناديل : ولكن الصغيرة لم تكن لتجيب، وكانت تشدّ دولابها على جسمها . وقال اندريه :

– ان بوسعهم ان يرسلوا لنا تحية : لقد كانوا مسرورين جداً ، في ايلول ، بان نذهب فنحطم رؤوسنا دفاعاً عنهم .

قال لامبير : – صحيح ، ولكن ما حدث ، اننا لم نحطّمها .

– وما معنى ذلك ، أهو ذنبنا ؟ اننــا أسرى فرنسيون ، ونحن نستحق تحيّة .

وبدا عجوز ، وهو يصطاد بالصنارة ، جالساً على كرسي قابل

للطيّ ؛ ولم يرفع حتى رأسه ، وقهقه جوراسيان :

ـ لقد استعادوا حياتهم الصغيرة الطيبة .

قال برونيه : ـ هذا ما يبدو لي تماماً .

وكان القطار يجري عبر السلام : صيّادو صنارة ، قوارب ، مجذّفون ، والسماء الصافية . والقى برونيه نظرة خلفه ، فرأى وجوهاً متمتمة متذمرة ، ولكنها مفتونة .

قال مارتيال : ـ الكلام بسرّكم ، إن العجوز ليس على خطأ . فبعد ثمانية ايام ، سأذهب انا نفسي للصيد .

ـ وبأيّ شيء تصطاد ؟ بالصنارة ؟

ـ ! كلا ، طز : وانما بالقارب .

انهم « يرونه » ، تحررّهم ؛ يلمسونه تقريباً في هذا المنظر المألوف . فوق هذه المياه الهادئة . السلام ، العمل ، سيدخل العجوز هذا المساء وهو يحمل سمكاً ، بعد ثمانية ايام سيكونون احراراً : إن الدليل هنا ، رقيقاً موحياً . وشعر برونيه بضيق :

ليس حسناً ان يعرف وحده المستقبل . وصرف رأسه ، فنظر الى ازقة الطريق الآخر وهي تهرب . وفكّر : « ماذا أستطيع ان أقول؟ انهم لن يصدقوني . » وفكر بأن عليه ان يبتهج ، وبأنهم سيفهمون في آخر الأمر ، وان بوسعه أخيراً ان يعمل ولكنه أحسّ ازاء كتفه وذراعه حرارة عامل المطبعة المحمومة ، فأخذه اشمئزاز غامض شبيه بندم . وابطأ القطار في سيره .

ـ ما هذا ؟

فقال مولو بلهجة مزهوة : ـ انه تغيير السكة . انني اعرف هذا الخطّ . فمنذ عشرة اعوام كنت رحالة ، وكنت اسافر عليه كل اسبوع . سترون : اننا سنعطف الى الشمال والسكة

الى اليمين تفضي الى لونافيل وستراسبورغ .

فقال بلونديته : — لونافيل ؟ ولكني كنت أحسب اننـــا سنمرّ بلونافيل حتماً .

— لا ، لا . اقول لك اني اعرف الخط . من المرجح ان تكون السكة الى لونافيل مقطوعة ، وقـــد مررنا عن طريق « سان ديا » لنتجنبّها ، وها نحن الآن نصعد من جديد .

وسأل صوت « راميل » القلق :

— والمانيا ، الى اليمين ؟

— نعم ، نعم ، ونحن نسلك الى اليسار . فهناك نانسي وبارلودوك وشالون .

وابطأ القطار وتوقف . والتفت برونيه ينظر اليهم. كانت لهم وجوه هادئة طيبة ، وكان فيهم من يبتسم . الا « راميل » استاذ البيانو ، فقد كان يعضّ شفته السفلى ويلمس نظارتيه بهيئة مضطربة متوزعة . وحدث مع ذلك صمت ، ثم أخذ مولو فجأة يصرخ :

— هيه ! الفراخ ؟ قبلة ايتها الغندورات ، قبلة صغيرة !

فالتفت برونيه ، فاذا هنّ ست بأثواب خفيفة واذرع سمينة حمراء ووجوه نضرة ، ستّ ينظرن اليهم ، من وراء الحاجز . وارسل مولو لهن قبلات ، فلم يبتسمن ؛ واخذت سمينة سمراء ، غير قبيحة ، تتنهد ؛ وكانت التنهدات تعلو بصدرها الكبير ؛ اما الاخريات فقد كنّ ينظرن بعيون كبيرة حزينة : وكانت الافواه الستة تقلد حركات طفل يوشك ان يبكي في هذه الوجوه الريفية اللامعبّرة . وقال مولو :

— هيّا ! هيّا ! حركة لطيفة !

وأضاف وقد أخذه إلهام مفاجيء :

— الا تُرسلن قبلات لفتيان ذاهبين الى المانيا ؟

فارتفعت من خلفه أصوات احتجاج :

– هيه ! لا سمح الله ! لا تتحدث عن المصائب !

فالتفت مولو ، في ارتياح كامل :

– اصمتوا ! إني اقول لهن ذلك لكي يُرسلن لنا بسمة !

فضحك الافراد وصاحوا : – هيّا ! هيّا !

وظلّت السمراء تنظر اليهنّ بعينيها الخائفتين ؛ ورفعت يداً متردّدة، فأسندتها الى شفتيها المتدليتين ثم قذفتها بحركة آلية . فقال مولو :

– أحسن من هذا ! أحسن من هذا !

فصاح به صوت باللغة الألمانية ، فسارع يدخـل رأسه . وقال جوراسيان :

– إخرس ! انك ستسبب اغلاق القاطرة .

فلم يجب مولو ، ولكنه دمدم لنفسه وحده :

– كم هنّ فروج حمقاوات ، نساء هذا البلد !

وأخذ القطار يصرّ ، واهتزّ على مهل ، فصمت الأفراد ، وظل مولو ينتظر ، فاغر الفم ، وفكر برونيه : هذه هي اللحظة ، وحدثت قضقضة مفاجئة ، اهتزازة ، ففقد مولو توازنه وتشبث بكتف شنايدر وهو يطلق صرخة نصر :

– انتهى الأمر ، يـا جماعة ، انتهى الأمر ، فنحن ذاهبون الى نانسي .

فضحك الجميع وصاحوا . وارتفع صوت راميل العصبي :

– هذا مؤكد اذن ، اننا ذاهبون الى نانسي ؟

فقال مولو وهو يشير الى الطريق :

– ما عليك الا ان تنظر .

وفعلاً انعطف القطـار الى اليسار ، فرسم قوس دائرة ، وكان بامكان المرء في تلك اللحظة ان يرى المحرك ، من غير ان يُطلّ .

– وبعد ذلك ؟ تواً الى نانسي ؟

والتفت برونيه ، فاذا وجه راميل ما زال رمادياً ، وشفتاه المتقعتان ما انفكتا ترتجفان .

وسأل مولو مقهقهاً :

– تواً ؟ أتظن انهم سيغيرون لنا القطار ؟

– لا ، وانما أقصد : هل هناك تغيير سكة آخر ؟

فقال مولو : – بل هناك تغييران آخران . واحد قبل « فروار » ، والآخر عند « بايني سورنوف » .

ولكن لست بحاجة للاهتمام بذلك ، فنحن ذاهبون يساراً ، دائماً الى اليسار ، باتجاه بار لودوك وشالون .

– ومتى نتأكد من ذلك ؟

– ماذا تريد اكثر من هذا ؟ اننا متأكدون .

– أقصد بالنسبة لتغيير السكة ؟

قال مولو : – آه ، اذا كان هذا مـا تقصده ، فلدى التغيير الثاني . إذا سلكنا الى اليمين ، فهذا يعني ميتز واللكسمبورغ . امـا الثالث ، فلا يُعوّل عليه : فالى اليمين خط فردان وسيدان ، وماذا تريدنا ان نفعل هناك ؟

قال راميل : – انه الثاني إذن ، وهو القادم ...

ولم يقل بعد شيئاً ، وانطوى على نفسه ، وركبتاه الى ذقنه ، بهيئة راعشة ضائعة . وقال اندريه :

– اسمع ، إنك تكاد تخرّينا . سوف تتأكد عما قليل .

فلم يجب راميل ، وهبط على الشاحنة صمت ثقيل ، وكانت الوجوه لا معبرة ، ولكنها متقلّصة بعض الشيء . وسمع برونيه لحن هارمونيكا لطيفاً ، فقفز اندريه في الهواء :

– آه ! كلا ، لا موسيقى !

فقال صوت من جوف الشاحنة : – ان لي الحق بان أعزف على

الهارمونيكا .

قال اندريه : — لا موسيقى .

وصمت الرجل . وكان القطار قد أخذ يسرع قليلا ، ومرّ على جسر ، فتنهد عامل المطبعة :

— انتهت القناة .

وكان شنايدر نائماً وهو جالس ، ورأسه مهتز . وأحس برونيه الضجر ، وهو ينظر الى الحقول ، فارغ الرأس ؛ وبعد لحظة ، خفف القطار سيره . فاستقام راميل ، وعيناه شاردتان :

— ما هذا ؟

فقال مولو : — لا تهتمّ . انها نانسي .

وارتفع رمل السكة الحديدية فوق القاطرة ، وواجهوا آنذاك جداراً. وفوق الجدار كان يمتدّ كورنيش من الحجارة البيضاء، وفوق الكورنيش دربزين حديدي ذو الواح متوازية ، وقال مولو :

— هناك شارع ، فوق .

وأحس برونيه فجأة انه مسحول بعبء هائل ، فقد انحنى الافراد وهم يستندون عليه ، مديرين رؤوسهم نحو السماء . ودخل الدخان في غيوم كبيرة الى الشاحنة ، فسعل برونيه ، وقال مارتيال :

— انظروا الى الجماعة فوق .

فارتدّ برونيه برأسه الى الخلف ، فأحس لدى رأسه بشيء قاس ، وكانت أيدٍ تدفع كتفيه : كان ثمة في الواقع شخص منحن على الدربزين . وعبر القضبان ، كانت ترى سترته السوداء وبنطاله المخطط . وكان يحمل محفظة جلدية ، ويبدو في الاربعين . وصاح مارتيال :

— مرحباً .

فقال الرجل : — مرحباً .

وكان له شارب أنيق في وجه هزيل صلب ، وكانت له عينان

زرقاوان شديدتا الصفاء .

وقال الافراد : — مرحباً ! مرحباً !

وسأل مولو : — كيف حال نانسي ، هل هي مهدمة جداً ؟

قال الرجل : — لا .

قال مولو : — هذا أفضل ، هذا أفضل .

فلم يجب الرجل ، وكان يحدّق فيهم ، بشيء من الفضول . وسأله جوراسيان :

— وهل عاد الناس الى أعمالهم ؟

وصفر المحرّك ، فوضع الرجل يده حول اذنه وصاح :

— ماذا ؟

فقام جوراسيان بحركات فوق رأس برونيه ليوضح انه لا يستطيع ان يصيح بصوت أعلى . وقال له لوسيان :

— اسأله عن اسرى نانسي .

— وماذا ، بشأن الأسرى ؟

— اسأله ان كان يعرف شيئاً عن الأسرى .

فقال مولو : — انتظر ، ان أحدنا لا يسمع الآخر بعد .

— اسأله بسرعة ، فالقطار يكاد يسير .

وانقطع الصفير ، فصاح مولو :

— الأعمال ، هل عادت ؟

فقال المدني : — أتظنّ ذلك ؟ وجميع الألمان الموجودين في المدينة؟

وسأل مارتيال : — وهل فتحت دور السينما من جديد ؟

فسأل المدني : — ماذا ؟

فقال لوسيان : — طز ! على قفانا دور السينما ، حُلّ عنا انت ودور السينما ، ودعني أتحدث .

وأضاف : — والأسرى ؟

فسأل المدني : — أيّ أسرى ؟

— أليس من أسرى ، هنا ؟

— بلى ، ولكن لم يبق بعد من أسرى .

وصاح مولو : — اين ذهبوا ؟

فنظر اليه المدني في شيء من الدهشة وأجاب :

— ولكن ، الى المانيا !

قال برونيه : — ايه ! لا تدفعوني !

وتقوّس بكلتا يديه على الارض الخشبية ؛ وكان الافراد يسحقونه ويصيحون معاً :

— الى المانيا ؟ هل انت مجنون ؟ تريد ان تقول الى شالون ؟ الى المانيا ؟ من قال لك انهم كانوا ذاهبين الى المانيا ؟

فلم يجب المدني بشيء ، وكان ينظر اليهم بهيئته الهادئة . وقال جوراسيان :

— اسكتوا يا جماعة ، ولا تتكلموا جميعاً معاً .

فسكت الافراد ، وصاح جوراسيان :

— وكيف عرفت ذلك ؟

وانبعثت صيحة غاضبة ، ثم قفز من العجلة حارس ألماني ، وحربته في بندقيته ، فارتمى أمامهم . وكان شاباً فتياً محمراً من الغضب ، وكان يصرخ بالالمانية بلهجة سريعة جداً ، وصوت أبحّ ؛ وأحسّ برونيه بغتة أنه قد تخفف من العبء الهائل الذي كان يسحقه ، فلا بد ان الافراد قد عادوا الى الجلوس بسرعة . وصمت الحارس ، وظل قربهم ، وسلاحه امام قدمه . وكان المدني ما يزال هناك ، مطلا فوق الدرابزين ، وهو ينظر ، وتمثل برونيه ، في ظل القاطرة ، جميع هذه العيون المحمومة التي ارتفعت تسائل في صمت .

وتمتم لوسيان خلفه : — انها قذارة ! قذارة !

وظل الرجل جامداً ، أبكم ، غير صالح للاستعمال ، ومع ذلك مليئاً بعلم خفي . وصفر المحرك ، ودلفت الى القاطرة دوامة من الدخان ، فاهتز القطار وعاود السير . وسعل برونيه . وانتظر الحارس ان تمر العجلة امامه ، فألقى فيها بندقيته ؛ ورأى برونيه أربع ايـدٍ ذات اكمام خضراء تلتقطه من كتفيه وترفعه .

— اولا ، ما يدريه ، ذلك الفرج ؟

— نعم ، ما يدريه ؟ اذا كانوا قد ذهبوا ، فكل مـا هناك انه رآهم يذهبون .

وانفجرت الأصوات الغاضبة خلف برونيه ، وابتسم برونيه من غير ان يقول شيئاً .

وقال راميل : — كل ما في الامر انه يفترض ذلك ، « يفترض » انهم ذهبوا الى المانيا .

وأسرع القطار في سيره ، وحاذى محطات كبيرة خالية ، وقرأ برونيه على لافتة :

« باب خروج . ممر تحت الارض » . ومضى القطـار . المحطة ميتة . وكانت كتف عامل المطبعة ترتجف ازاء كتف برونيه . وانفجر العامل بوحشية :

— انها قذارة إذن ، ان يقول ذلك ، من غير ان يكون متأكداً .

قال مارتيال : — صحيح . انه لقذر !

قال مولو : — وكيف ! ليست هذه أشياء تعمل . لا بدّ انّه فرجٌ غريب ...

فردّد جوراسيان : — فرج ؟ انك لم تنظر اليه ! اقسم لك انه ليس فرجاً ، ذلك الشخص . كان يعلم ما يفعله ، اؤكد لك .

— كان يعلم ما يفعله ؟

والتفت برونيه ، فابتسم جوراسيان بهيئة وحشية وقال :

— انه واحد من الطابور الخامس .

قال لامبير : — واذا كان على حق ، يا جماعة ؟

— اخرس ايها الفرج ! اذا كنت راغباً في الذهاب الى المانيـــا ، فتطوّع ، ولا تأت الينا لتخرّينا .

قال مولو : — ثم طز ! سنعرف الحقيقة عند مفترق السكة .

فسأل راميل : — ومتى نصل اليه ؟

وكان أخضر اللون ، يربت بأصابعه على معطفه .

— بعد ربع ساعة ، أو عشرين دقيقة .

وكفّ الافراد عن الكلام ، وجعلوا ينتظرون . وكانت لهم وجوه قاسية ، وعيون ثابتة لم يعهدها برونيه منذ الكارثة . ثم سقط كل شيء في الصمت ، فلم يكن يسمع غير صرير القاطرات . وكان الطقس حاراً ، وكان بودّ برونيه ان ينزع سترته ، ولكنه لم يستطع ، فهو محشور بين عامل المطبعة والجدار . وكانت قطرات من عرق تتدحرج على عنقه . وقال عامل المطبعة ، من غير ان ينظر اليه :

— اوه ! برونيه !

— ماذا ؟

— هل كنت تسخر مني ، حين قلت لي ان أقفز ؟

فسأله برونيه : — لماذا ؟

فأدار العامل اليه وجهه الطفولي الرقيق الذي لم تكن التجعدات ولا الاوساخ ولا اللحية لتستطيع ان تشيخه ، وقال :

— لن يكون في استطاعتي ان احمل الذهاب الى المانيا .

فلم يجب برونيه بشيء . وقال العامل :

— لن أستطيع ان أتحمل ذلك . سوف أموت . انني متأكد اني سأموت هناك .

وهزّ برونيه كتفيه وقال :

ــ ستفعل كما يفعل الجميع .

قال العامل : ــ ولكن الجميع يموتون . الجميع . الجميع . الجميع .

وأخرج برونيه يداً فوضعها على كتفه وقال له بشغف :

ــ لا تثر أعصابك ، ايها الرأس الصغير .

وكان العامل يرتجف ، وقال له برونيه :

ــ اذا ظللت هكذا ، فستنقل الخوف الى الرفاق .

فجرض العامل بريقه ، وبدت عليه الوداعة ، فقال :

ــ انت على حق يا برونيه .

وندّت عنه حركة يأس وعجز ، فأضاف بحزن :

ــ انت دائماً على حق .

فابتسم له برونيه . وبعد لحظة ، استطرد عامل المطبعة بلهجة صماء :

ــ كان ذلك إذن مزاحاً ؟

ــ ما هو ؟

ــ حين قلت لي ان اقفز ، كنت تمزح ؟

قال برونيه : ــ لا تهتم بذلك .

قال العامل : ــ واذا قفزت الآن ، هل تلومني ؟

وكان برونيه ينظر الى رؤوس البنادق التي كانت خارجة من العجلة متلألئة . وقال :

ــ لا ترتكب حماقات ، فانك ستدق رأسك .

قال العامل : ــ دعني أجرّب حظي ، دعني أجرب حظي .

فقال برونيه : ــ ليست هذه لحظة مناسبة .

قال العامل : ــ مهما يكن ، فاذا ذهبت الى هناك ، متّ . فما دام الأمر كذلك ...

فلم يجب برونيه ؛ وقال عامل المطبعة :

ــ قل لي فقط اذا كنت تلومني ؟

وكان برونيه ما يزال ينظر الى رؤوس البنادق ، فقـــال بهـدوء وبرودة :

– نعم ألومك . واني أمنعك من ذلك .

فخفض العامل رأسه ، ورأى برونيه فكّه الذي يتحرّك .

وقال شنايدر : – إنك فظّ الى ابعد حد .

فلفت برونيه رأسه : كان شنايدر ينظر اليه نظرة قاسية . ولم يجب برونيه ، بل تجمّع لدى العمود ؛ وكان بوّده ان يقول لشنايدر : « اذا لم أمنعه من الوثوب ، الا ترى أنه سيقتل نفسه ؟ » ولكنه لم يستطع ، لأن العامل سوف يسمعه ؛ وأحسّ باستياء أن شنايدر يدينه . وفكر : « ان هــذه لحماقة » ونظر الى رقبة عامل المطبعة الهزيلة ، وفكر : « واذا كان سيموت هناك ؟ » وفكر: « خراء! انني لستُ بعدُ أنا . » وأبطأ القطار : هذا موقف تغيير السكة . بكل تأكيد ، الجميع يعلمون ان هنا التغيير ، ولكنهم لا يقولون شيئاً . وتوقف القطار ، وساد الصمت . ورفــع برونيه رأسه . وكان مولو منحنياً فوقه ينظر الى السكة ، فاغر الفم . وكان ازرق متجهماً . وفي عشب الردم ، كان يسمع صوت صراصير تغني . وقفز ثلاثة من الألمان الى السكة ليزيلوا خدر سيقانهم ، فمروا امـــام القاطرة ضاحكين . واخذ القطار يسير ، فاستداروا عــلى أعقابهم وركضوا ليلحقوا بالمركبة . وارسل مولو هديراً :

– الى اليسار ، يا جماعة ، اننا ننعطف الى اليسار !

واهتزّت القاطرة وصرت ، حتى لكأنها ستنتزع نفسها من الخط . ومن جديد ، أحسّ برونيه على كتفيه وزن عشرة أجسام منحنية الى أمام ، وكان الافراد يصرخون :

– الى اليسار ! اننا ذاهبون الى شالون !

وعلى ابواب القاطرات الاخرى ظهرت رؤوس سوداء من الدخان ،

وهي تضحك ، وصاح اندريه :

– ايه يا شابو ! اننا ذاهبون الى شالون !

وكان شابو مطلاً من القاطرة الرابعة ، وهو يضحك ويصيح :

– هذا قليل يا جماعة ! هذا قليل !

وكان الجميع يضحكون ، وسمع برونيه صوت غاسو :

– لقد خافوا مثلنا .

فقال جوراسيان : – اترون يا جماعة ؟ لقد كان من الطابور الخامس .

ونظر برونيه الى عامل المطبعة . فاذا هو صامت ، وما يزال يرتعش ، ودمعة تسيل على خده الايسر فتخط ثلماً في الوسخ والفحم . واخذ رجلٌ يعزف على الهارمونيكا ، فيغني آخر على الايقاع : « سأبقى اميناً لك ، يا ثوبـي الكاكي . » وأحسّ برونيه بحزن فظيع ، وكان ينظر الى السكة التي تجري ، فتأخذه في الرغبة القفز . وكانت القاطرة في الرأس ، والقطار يغني ، كقطارات المفاجأة فيما قبل الحرب . وفكر برونيه : « إن في النهاية مفاجأة ، وارسل عامل المطبعة تنهدة ارتياح ورضى كبيرة ، وقال :

– آه لا لا ! آه لا لا !

ونظر الى برونيه نظرة خبيثة ، وقال :

– انت ، كنت تظنّ اننا ذاهبون الى المانيا .

فتصلب برونيه قليلاً ، وأحسّ بان نفوذه قد مُس ، ولكنه لم يجب بشيء . والواقع ان عامل المطبعة كان يظهر بمظهر مصالحة ، فأضاف بحيوية :

– يمكن لكل انسان ان يخطيء : فانا نفسي كنت اظنّ هذا ، مثلك .

وصمت برونيه ، واخذ العامل يصفر ، وقال بعد لحظة :

ـ سأخبرها قبل ان اذهب اليها .

فسأله برونيه : ـ من تقصد ؟

قال العامل : ـ صاحبتي . وسوف تقع مغشياً عليها !

قال برونيه : ـ هل لك صاحبة ؟ في سنّك هذه ؟

قال العامل : ـ نعم . بل كان المفروض ان نتزوج، لولا قصة الحرب هذه .

ـ وما عمرها ؟

قال العامل : ـ ثماني عشرة سنة .

ـ هل التقيت بها في الحزب ؟

ـ كلا ، في حفلة رقص .

ـ وهل تفكر مثلك ؟

ـ في اي شيء ؟

ـ في كل شيء .

قال العامل : ـ الحقيقة ، لا ادري بمَ تفكر . وأعتقد أنها لا تفكر بشيء : فهي طفلة . ولكنها طيبة وعاملة . . ثم انها ملتفّة الجسم !

وحلم قليلاً ، وقال :

ـ وربما كان هذا هو الذي أثار سويدائي . كنت مشتاقاً اليها . هل لك صاحبة ، يا برونيه ؟

قال برونيه : ـ ليس لديّ الوقت .

ـ إذن ، كيف تدبّر أمرك ؟

فابتسم برونيه وقال : ـ احياناً ، هكذا ، بطريقة عابرة .

قال العامل : ـ اما انا ، فلا أستطيع ان اعيش هكذا . الا يعجبك ان يكون لك بيت حقيقي وبداخله امرأة صغيرة ؟

ـ لن يكون لي ذلك ابداً .

قال العامل : — نعم ، نعم .
وبدا عليه الاضطراب ، وقال كأنما يعتذر :
— انا لست بحاجة الى شيء كثير ؛ وهي كذلك . ثلاث كراسي وسرير .
وابتسم في الفراغ ، وأضاف :
— لولا هذه الحرب ، لكنّا سعيدين .
وانزعج برونيه ، فنظر الى عامل المطبعة بلا ودّ ؛ وعلى هذا الوجه الذي كان الهزال قد جعله شديد التعبير ،قرأ شهوةً نهمة للسعادة، وقال على مهل :
— لم تقع هذه الحرب بطريق المصادفة . ثم انك تعرف جيداً اننا لا نستطيع ان نعيش سعداء في عهد الطغيان .
قال العامل : — اوه ! كنت سأتخذ لنفسي ركني الصغير ..
فهزّ برونيه كتفيه وقال له بجفاء :
— لماذا انت شيوعي إذن ؟ إن الشيوعيين لم يُخلقوا ليدفنوا انفسهم في الثقوب !
قال العامل : — من اجل الآخرين . كان في الحي الذي اسكنه بؤس كثير ، وكنت اودّ ان يتغير ذلك .
قال برونيه : — حين ندخل في الحزب ، فلا يبقى ما هو هامّ غير الحزب . كان ينبغي لك ان تعرف ما الذي تلتزمه .
فقال العامل بحيوية : - ولكني كنت أعرفه . هل حدث ان رفضت يوماً ما كنتَ تطلبه مني ؟ ولكن قل لي ، حين أضاجع ، لا يكون الحزب موجوداً ليحمل لي الشمعدان . فهناك لحظات ..
ونظر الى برونيه وتوقف فجأة . ولم يقل برونيه شيئاً ، وكان يفكر :
— إنه هكذا لأنه يعتقد اني اخطأت . ينبغي للمرء ان يكون معصوماً .

وكان الحرّ يشتدّ ، والعرق يبلل قميصه ، والشمس تصفع وجهه: يجب ان نعرف لماذا يدخل هؤلاء الشبان جميعاً الحزب الشيوعي؛ فحين يدخله احدهم بدافع من افكار سمحة ، فلا بدّ ان تأتي لحظة يُحس فيها بالضعف والتداعي . «وانت، انت، لماذا دخلته! اوه ! لقد انقضى على ذلك وقت طويل ، فليس له بعد من أهمية ، انا شيوعي لانني شيوعي، هذا كل ما في الأمر .» واخرج يده اليمنى ، فمسح العرق الذي يبلل حاجبيه ونظر الى الساعة : الرابعة والنصف . اننا لسنا على وشك ان نصل ، بالنسبة لهذه الدورات . سوف يغلق الألمان القاطرات هذه الليلة ، فننام على سكة مرأب . وتثاءب . وقال :

— انك لا تقول شيئاً ، يا شنايدر .

وسأل شنايدر : — وماذا تريد ان أقول ؟

وتثاءب برونيه ، ونظر الى السكة تجري ، وكانت سحنة ممتقعة تقهقه بين الخطوط، ها ، ها ، ها ، وسقط رأسه ، واستفاق منتفضاً، وكانت عيناه تؤلمانه ، واندفع الى خلف ليتفادى من الشمس ، وقال احدهم « حكمٌ بالاعدام » ، وسقط رأسه ، واستفاق مرة اخرى فحمل يده الى ذقنه المبللة : لقد سال لعابي ، فلا بد اني نمت مفتوح الفم ؛ واستبشع ذلك .

— هل تريد ان تفرغها ؟

ومدّ له علبة مفتوحة من لحم القرد ، وكانت ساخنة ، فقال :

— ما هذا ! آه ، حسناً .

وقلبها في الخارج ، فسقط المائع الأصفر مطراً على السكة :

— ايه ! ارجعها بسرعة .

فمدّها من غير ان يلوي ، فأخذت من يده ، واراد ان يعود الى النوم ، ولكن يداً ضربته على كتفه ، فأخذ العلبة وأفرغها . وقال عامل المطبعة :

ـ اعطني اياها .

قدّ برونيه العلبة الى العامل الذي نهض على مشقة . ومسح برونيه أصابعه الرطبة بسترته ، وبعد لحظة ، امتدت ذراع فوق رأسه فأمالت علبة التنك ، فتناثر الماء الأصفر وجرى قطرات بيضاء نحو الخلف . وعاد العامل الى الجلوس وهو يمسح أصابعه ، وترك برونيه رأسه يسقط على كتف العامل ، وسمع أنغام الهارمونيكا ، ورأى حديقة جميلة ملآى بالزهور ، واستغرقه النوم . وأيقظته صدمة ، فصاح :

ـ ماذا ؟

كان القطار قد توقف في الريف .

ـ ماذا ؟

قال مولو : ـ لا شيء ، بوسعك ان تعود الى النوم : انها « باني سور موز »

والتفت برونيه ، كل شيء هادىء ، لقد الف الافراد فرحتهم ، وكان بينهم من يلعب الورق ، آخرون يغنون ، وآخرون صامتون مسحورون يروون لانفسهم الحكايات ، وعيونهم ملآى بالذكريات التي يجرؤون أخيراً على ان يتركوها تصعد من أعماق قلوبهم ، ولم يتنبه أحد لتوقف القطار ، وغرق برونيه في النوم ، وحلم بسهل غريب يجلس فيه حول نار كبيرة رجال عراة ذوو لحى رمادية ، هزيلة الاجسام كأنهم هياكل ؛ وحين استيقظ ، كانت الشمس قد انخفضت كثيراً على الافق ، وكانت السماء بنفسجية ؛ وكانت بقرتان ترعيان في مرج ، وكان القطار على سكونه ، والافراد يغنون ؛ وعلى المنحدر ، كان جنود ألمان يقطفون زهوراً ، وكان ثمة جندي قصير سمين شديد البأس ، ذو خدين أحمرين ، اقترب من الأسرى وقد وضع بين اسنانه زهرة لؤلؤية ، وهو يبسم لهم بسمة عريضة . فبسم له مولو واندريه ومارتيال . وظل الالماني والفرنسيون لحظة يتبادلون النظر باسمين ، ثم

قال مولو فجأة بالالمانية .

— سجاير .

فتردد الجندي والتفت الى المنحـــدر ؛ وكان رفاقه الثلاثة المنحنون يبدون مؤخراتهم ،. وبحث بخفة في جيبه ، ثم قذف بعلبة سجايره الى القاطرة ؛ وسمع برونيه خلفه ضجة وصخباً ، ونهض راميــل الذي لم يكن يدخن فصاح بالالمانية وهو يبتسم :

— شكراً .

فأشار له القصير السمين بان يصمت . وقال مولو لشنايدر :

— اسأله الى اين نحن ذاهبون .

وتحدث شنايدر بالألمانية الى الجندي ، فأجاب الجندي وهو يبتسم ؛ وكان الآخرون قد فرغوا من قطف الزهور ، فاقتربوا حاملين باقاتهم باليد اليسرى ، والزهور متجهة الى أسفل ؛ وكانوا الرقيب وجنديين ، وكان يبدو عليهم الجذل ، وقــد انخرطوا مشاركين في الحديث وهم يضحكون . وقال مولو وهو يبتسم ايضاً :

— ماذا يقولون ؟

فقال شنايدر نافد الصبر :

— انتظر قليلا ، ودعني أفهم .

وألقى الجنود نكتة أخيرة وعادوا إلى المركبة ، على غير ما عجل، وتوقف الرقيب ليبول عند وتد القاطرة ، ثم زرر فتحة بنطاله ، وهو متباعد الساقين ، ورمى الى رجاله بنظرة ، وفيما هم مديرون ظهورهم ، قذف بعلبة سجاير الى القاطرة .

وقال مارتيال بصحة سعيدة :

— ها ! انهم ليسوا حيوانات !

قال جوراسيان : — ذلك لأننا قد أطلق سراحنا ؛ فهم يريدون ان يتركوا لنا تذكاراً جميلا .

قال مارتيال حالماً : — هـذا ممكن . ان كل ما يفعلونه هو في الواقع من قبيل الدعاية .

وسأل مولو شنايدر : — ماذا قالوا ؟

فلم يجب شنايدر ، وكانت هيئته غريبة .

قال اندريه : — نعم ، ماذا قالوا ؟

فابتلع شنايدر ريقه بمشقة وقال :

— انهم من هانوفر ، وقد قاتلوا في بلجيكا .

— والى اين نحن ذاهبون ، كما قالوا ؟

فبسط شنايدر ذراعيه وابتسم وقال بلهجة اعتذار :

— الى « تريف » .

قال مولو : — تريف ؟ واين هي معلقة ؟

فقال شنايدر : — في مقاطعة بالاتانيا .

وساد صمت غير محسوس . ثم قال مولو :

— تريف ، في المانيا ؟ لقد سخروا بك اذن !

فلم يجب شنايدر . وقال مولو في ثقة هادئة :

— إن من يمرّ بـ « بارلودوك » لا يذهب الى المانيا .

وظل شنايدر على صمته ، فسأل اندريه بلا اكتراث :

— كانوا يضحكون ام ماذا ؟

فقال لوسيان : — لقد رأيت جيداً انهم كانوا يضحكون ..

وقال شنايدر على مضض : — ولكنهم لم يكونوا يضحكون حين قالوا لي ذلك .

فسأله مارتيال في غضب : — ألم تسمع ما قال مولو ؟ ان الطريق الى المانيا لا تمرّ بـ « بارلودوك » ، فليس هذا معقولا .

فقال شنايدر : — اننا لا نمر بـ « بارلودوك » وانما نعطف الى اليمين .

فأخذ مولو يضحك : ــ آه ! هــذا لا ! اسمح لي ان اعرف الطريق خيراً منك . فالى اليمين فردان وسيدان . واذا تابعت الى اليمين، فربما وصلت الى بلجيكا ، اما الى المانيا ، فلا !

واستدار نحو الآخرين بهيئة اقتناع مطمئن :

ــ ما دمت اقول لكم اني كنت اتجوّل في المنطقة كل اسبوع . واحياناً ، مرتين في الاسبوع !

أضاف هذه الجملة الاخيرة ، ووجهه يعبر بيأس عن الاقتنــاع . وقال الافراد :

ــ طبعاً ، طبعاً ، لا يمكن ان يكون مخطئاً .

قال شنايدر : ــ اننا نمرّ باللكسمبورغ .

وجهد في ان يتكلم ؛ وشعر برونيه ، انه ما دام قد بدأ الكلام ، فانه يريد ان يغرس الحقيقة في رؤوسهم ، وكان ممتقعــاً ، يتكلم من غير ان ينظر الى أحد . وأدنى اندريه وجهه من وجه شنايدر وصاح به:

ــ ولكن لماذا نقوم بهذه الدورة ؟ لماذا ؟

وكان الافراد يصيحون من خلفه :

ــ لماذا ؟ لماذا ؟ فهذه حماقة ! لماذا ؟ ما كان لنا الا ان نمر إذن بـ « لونافيل » .

فاحمرّ وجه شنايدر ، والتفت تمامــاً الى جوف القاطرة ، وواجه الذين يصرخون ، فصاح في غضب :

ــ انا لا اعرف شيئاً من هذا ، لا اعرف شيئاً . ربما لأن السكك منسوفة ، أو لأن على الخطوط الاخرى قطارات المانية ، فلا تجعلوني اقول اكثر مما أعرف ، وفكروا بما تشاءون .

وصاح صوت ثاقب من فوق جميع الاصوات الأخرى :

ــ لا حاجة بكم الى الغضب يا جماعة ، فسوف نعرف عما قليل .

وردّد الافراد : ــ هذا صحيح ، سنرى ، سنرى ، ولا حاجة

الى جعل دمنا يغلي .

وعاد شنايدر الى الجلوس من غير ان يجيب . وبرز من القاطرة قبل الأخيرة رأسٌ مجعّد الشعر ، وصاح بهم صوتٌ فتيّ :

— ايه ! هل قالوا لكم يا جماعة الى اين نحن ذاهبون ؟

— ماذا يقول ؟

— انه يسأل الى اين نحن ذاهبون .

وانفجر الافراد في القاطرة ، انفجروا ضاحكين :

— ان هذا يجيء في اوانه . إن حاسة شمه قوية ، فهذه لحظة مناسبة لهذا السؤال .

وانحنى مولو ، وقد كوّر يديه حول فمه ، وصاح :

— الى قفاي !

واختفى الرأس المطلّ . وضحك الجميع ، ثم انقطع الضحك ، وقال جوراسيان :

— هل نلعب ، يا جماعة ؟ هذا افضل من ان نختلق الافكار .

فقالوا : — هيّا بنا .

فجلس الأفراد حول معطف مطويّ الى أربع ، وكان جوراسيان قد التقط الورق فأخذ يوزّعه . وكان راميل يقرض أظافره في صمت ؛ وكانت الهارمونيكا تعزف رقصة فالس ؛ وكان ثمة شخص واقف بازاء الجدار الداخلي يدخن سيجارة ألمانية ؛ بهيئة تفكُّر . وقال ، كأنما يحدّث نفسه :

— إن التدخين الآن لذة .

والتفت شنايدر نحو برونيه فقال له بلهجة اعتذار :

— لم اكن استطيع ان اكذب عليهم .

فهز برونيه كتفيه من غير ان يجيب . وقال شنايدر :

— أجل ، لم اكن أستطيع .

قال برونيه : — ما كان ذلك ليجدي شيئاً ، فلا بد ان يعرفوا ذلك عما قليل .

ولاحظ انه تكلم برخاوة ؛ كان مغتاظاً من شنايدر ؛ من أجل الآخرين .

ونظر اليه شنايدر نظرة غريبة وقال :

— من المؤسف ألا تعرف الألمانية .

فسأله برونيه مندهشاً : — ولماذا ؟

— لأنك « انت » كنت تكون مسروراً بإخبارهم .

فقال برونيه في تعب : — انك مخطيء .

قال شنايدر : — ومع ذلك ، فان هذا الرحيل الى المانيا قد تمنيتَه.

فقال برونيه : — نعم ، لقد تمنيته .

وعاد عامل المطبعة يرتجف ، فأحاط برونيه كتفيه بذراعه وشده اليه بارتباك . وبهزة من رأسه ، اومأ الى شنايدر نحوه وهو يقول :

— اسكت .

فنظر شنايدر الى برونيه ببسمة مندهشة ؛ وكان كأنما يقول له : متى بدأت تهتم بتوفير الهموم على الناس ؟ وأدار برونيه رأسه ، ولكن ليرى وجه العامل النهم . كان العامل ينظر اليه ، وشفتاه ترتعشان ، وعيناه الكبيرتان الرقيقتان تدوران في وجهه الشفقي . وكان برونيه يهم بان يقول له : « هل كنت مخطئاً ؟ » ولكنه لم يقل شيئاً ، ونظر الى رجليه تتدليـــان فوق العجلات الجامـــدة ، وكان يصفر . ومالت الشمس ، وكان الحر قد خف . وكان ثمة فتى يهش عـــلى البقرات بعصاه ، فتكردح ثم تهدأ وتمضي على الطريق بخيلاء ؛ فتى يدخل الى بيته ، وبقرات تعود الى الاصطبل ، إن هذا لخيبة . وفي البعيد البعيد، فوق احد السهول ، كانت طيور سود تحوم : ليس جميع الموتى في الأرض . ذلك القلق الذي كان يحفره ، لم يكن برونيه يعرف بعد ان

كان قلقه ام قلق الآخرين ؛ والتفت فنظر اليهم ليبقيهم على بعض المسافة منه : وجوه رمادية شاردة ، هادئة تقريباً ، فعرف فيهم تلك الهيئة الغائبة لجموع ستلتهب بالغضب . وفكر : « هذا حسن . حسن جداً . » ولكن بلا فرح . واهتز القطار ، وسار بضع دقائق ، ثم توقف . وكان مولو مطلا من القاطرة ، يرقب الأفق ، وقال :

— إن نقطة تغيير السكة على بعد مئة متر .

قال غاسو : — الا ترى انهم يتركوننا هنا حتى الغد ؟

قال اندريه : — ستكون معنوياتنا عظيمة !

وأحس برونيه ، حتى عظامه ، بجمود القطار الثقيل . وقال أحدهم:

— انها حرب الأعصاب تعود .

وسرت في القاطرة طقطقة جافة ، انها ضحكة . وانطفأت . وسمع برونيه صوت جوراسيان الهادىء :

— « أتو وأتو . »

وأحس بهزة ، فالتفت ؛ كانت يد جوراسيان الذي يحمل « آس قلب » قد ظلت في الهواء ، حين عاد القطار الى السير ؛ وانتظر مولو، وبعد برهة ، أسرع القطار ، ثم انبثق خطان حديديان من تحت العجلات ، برقان متوازيان سيضيغان الى الشمال ، بين الحقول . وقال مولو :

— خراء ! خراء ! خراء !

وصمت الافراد : لقد فهموا . وترك جوراسيان آسه يسقط على المعطف ، وسوّى الثنية ؛ وكان القطار يسير بلطف وهو يلهث بانتظام، وكانت الشمس الغاربة تحمر وجه شنايدر ، وقد بدأ الطقس يترطب . ونظر برونيه الى عامل المطبعة وأمسك به فجأة من كتفيه :

— لا ترتكب حماقات ، أتسمع ؟ لا ترتكب حماقات ، يا صديقي الصغير !

فتشنج الجسم الهزيل تحت أصابعه ، فشدّ شداً أقوى ، فتقلص الجسم ، وفكر برونيه . « سأمسكك حتى الليل » وعند الليل ، يأتي

الألمان فيغلقون القاطرة ، حتى اذا جاء الصباح ، تكون نفسه قد هدأت. وكان القطار يجري تحت السماء البنفسجية ، في صمت مطلق : انهم الآن يعرفون ، في جميع القاطرات يعرفون . واستسلم عامل المطبعة كامرأة على كتف برونيه . وفكر برونيه : « هل يحق لي ان امنعه من ان يقفز ؟ » ولكنه ظل يشد . ضحكة خلف ظهره ، صوت :

– صاحبتي التي كانت تريد طفلاً ! يجب ان اكتب لها ان تدعو الجار الى ان يتسلقها !

وضحكوا . وفكر برونيه : « يضحكون من فرط الشقاء ؟ » وملأت الضحكة القاطرة ، وصعدا الغضب ، وردد صوت ضاحك :

– كم كنا فروجاً حمقى ! كم كنا فروجاً حمقى !

سهل بطاطا ، مصانع الصلب ، المناجم ، الاشغال الشاقة : بأي حق أمنعه من ذلك ؟ وردد الصوت :

– كم كنا فزوجاً حمقى !

وتدحرج الغضب وصعد . وشعر برونيه تحت اصبعيه بتمايل الكتفين الهزيلتين ، وتهافت العضلات الرخوة ، وفكر : « انه لن يستطيع ان يتحمل المجازفة » وضغط ، بأي حق؟ وزاد ضغطه ، فقال عامل المطبعة :

– انك تؤلمني .

وظل برونيه يضغط : انها حياة شيوعي ، فهو يخصنا ما دام حياً . ونظر الى هذا الوجه السنجابي الصغير : أجل ، ما دام حياً . ولكن أما زال يعيش ؟ لقد انتهى ، فقد تحطمت النوابض ، وهو لن يشتغل بعد ابداً . وصاح عامل المطبعة :

– ولكني دعني ! يلعن دين ! دعني !

واستغرب برونيه نفسه ؛ كان يمسك بين يديه هذه الجثة : عضواً من الحزب لا يستطيع بعد ان يخدم . كان بوده ان يحدثه . وان يحثه ، وان يساعده ، فلا يستطيع ، فان كلماته « للحزب » و « الحزب » هو الذي اكسبها معانيها ؛ وفي داخل « الحزب »

كان برونيه يستطيع ان يحب ، ويقنع ، ويعزّي . ولكن عامل المطبعة قد سقط خارج هذا المغزل الضوئي الهائل ، ولم يكن لدى برونيه بعدُ ما يقوله له . غير ان هذا الطفل ما يزال يعاني . ما دام هنا موت وهناك موت... آه ! فليصمم ! ومن الافضل ان يفرّ ، فاذا بقي ، فان موته سيجدى . وكانت القاطرة تضحك اكثر فاكثر ؛ وكان القطار يجري ببطء ، فكأنه موشك على التوقف . وقال عامل المطبعة بصوت مداور :

— أعطني العلبة ، فيجب ان ابول .

فلم يقل برونيه شيئاً ، ونظر الى العامل ، فرأى الموت . الموت ، هذه الحرية .

وقال العامل : — خراء ! الا تستطيع ان تعطيني العلبة ؟ اتريد ان ابول في ثوبي !

والتفت برونيه فصاح : — العلبة !..

ومن العتمة الملأى بالغضب ، خرجت يد تمد العلبة ، وازداد بطء القطار ، وتردّد برونيه ، ونقش أصابعه في كتف العامل ؛ ثم ترك فجأة كل شيء ، واخذ العلبة ، كم كنا فروجاً حمقى مع ذلك ، كم كنا فروجاً حمقى ! وكفّ الأفراد عن الضحك . واحسّ برونيه بصدمة قاسية في مرفقه ، لقد انزلق عامل المطبعة من تحت ذراعه .

ومدّ برونيه يده ، فالتقط الفراغ : لقد سقطت الكتلة الرمادية مطوية الى اثنين ، طيراناً ثقيلا ، وصاح مولو ، وانسحق طيف على التراب المردوم ، متباعد الساقين ، متصالب الذراعين ، وانتظر برونيه طلقات النار ، وكانت « قد أصبحت » في اذنيه ؛ وطفر عامل المطبعة بعد ان مسّ الأرض ، وهـا هو ذا واقف ، شديد السواد ، حراً . و « رأى » برونيه طلقات النار : خمسة اشعاعات فظيعة . وأخذ عامل المطبعة يعدو بحذاء القطار ، لقد أخذه الخوف ، فهو يريد ان يصعد ، وصاح به برونيه :

— اقفز الى المنحدر ، يلعن دين ، اقفز !

وصاحت القاطرة برمتها :

— اقفز ! اقفز !

فلم يسمع العامل ، وكان يكردح ، فوصل الى مستوى القطار ، ومدّ ذراعيه وصاح :

— برونيه ! برونيه !

ورأى برونيه عينيه المذعورتين ، فهدر فيه :

— المنحدر !

ولكن العامل أصمّ ، وليس هو بعد الا هاتين العينين الهائلتين ، وفكر برونيه : « اذا صعد بسرعة ، فان له حظاً بالنجاة » وانحنى : كان شنايدر قد فهم، فزنره بذراعه اليسرى ليمنعه من السقوط . ومدّ برونيه ذراعيه ؛ فلمست يد عامل المطبعة ، وأطلق الألمان ثلاث طلقات فتداعى العامل باسترخاء الى الوراء ، وسقط ، وابتعد القطار ، ووثبت ساقا العامل في الهـــواء ، ثم سقطتا ، واذا العارضة والحصى اسود من الدم حول رأسه . وتوقف القطار فجأة ، ووقع برونيه على شنايدر ، فقال وهو يكز بأسنانه :

— لقد رأوا جيداً انه سيصعد من جديد ، فأردوه بطيب خاطر .

وكان الجسد هناك ، على بعد عشرين خطوة ، وقد أصبح شيئاً ، أصبح حراً . « سأتخذ لنفسي زاويتي الصغيرة » ولاحظ برونيه انه ما يزال يمسك العلبة في يده ، لقد مدّ ذراعه للعامل من غير ان يتركها. انها فاترة . وتركها تسقط على الحصى . وخرج اربعة ألمان من المركبة وركضوا نحو الجسد ؛ وكـــان الافراد ، خلف برونيه ، يدمدمون ، وهكذا ، أطلق عقال الغضب . ومن احدى قاطرات الرأس ، خرج زهاء عشرة ألمان ، فتسلقوا العارضة وواجهوا القطار ، ورشاشاتهم في ايديهم . ولم يخف الافراد ، وهدر أحدهم خلف برونيه :

— يا للقذرين ! يا للقذرين !

وكان الغضب بادياً عـــلى الرقيب الألماني الضخم ، فانحنى ورفع الجسد ، ثم تركه يسقط وركله بقدمه .

والتفت برونيه فجأة :

ـ هيه لا ! انكم ستلقونني الى الأرض !

كان عشرون شخصاً قد اطلوا ، ورأى برونيه عشرين زوجاً من العيون الملأى بالقتل : ستكون هذه الضربة القاسية . وصاح :

ـ لا تقفزوا يا جماعة ! فستعرّضون نفوسكم للقتل .

ونهض على مشقة ، وهو يصارعهم ، وصاح :

ـ شنايدر !

فنهض شنايدر ايضاً ، وأخذ كل منهما بقامة الآخر ، وتشبّثا ، بواسطة الذراع الأخرى ، بقوائم الباب .

ـ لن تمرّوا .

وظلّ الافراد يدفعون ؛ ورأى برونيه هذا الحقد كله ، حقده ، أداته ، فأخذه الخوف . واقترب ثلاثة ألمان من القاطرة ، فصوّبوا على الافراد . وتمم الافراد ، وكان الألمان ينظرون اليهم ؛ ورأى برونيه المجعّد الضخم الذي كان يرمي اليهم بالسجاير : كانت له عينا قاتل . وتبادل الفرنسيون والألمان النظر ، « انها الحرب » : انها الحرب للمرة الاولى منذ ايلول ٣٩ . وتراخى الضغط رويداً رويداً ، وتراجع الافراد، فأمكنه ان يتنفّس . واقترب الرقيب وقال :

ـ « هيناين ، هيناين »

وتراكم برونيه وشنايدر ازاء الصدور ، وكان خلفهم ألماني يقفل الباب بالمزلاج ، فما تلبث القاطرة ان تغرق في السواد ، وتنبعث رائحة العرق والفحم ، ويقرقر الغضب ، وتضرب الأقدام الخشب ، فكأنه جمع يسير . وفكر برونيه :

« انهم لن ينسوا . وهذا كسب . » وشعر بالضيق ، وتنفّس بضيق ، وكانت عيناه مفتوحتين على الظلام : وكان بين الفينة والفينة يحسهما منفوختين ، كبرتقالتين ضخمتين ، يوشكان على تفجير محجريه .

ونادى بصوت منخفض :

ـ شنايدر ! شنايدر !

فقال شنايدر : ــ انا هنا .

وتلمّس برونيه فيما حوله ، وكانت به حاجة للمس شنايــدر . وأخذت يدٌ يده فشدّتها .

ــ هذا انت ، يا شنايدر ؟

ــ نعم .

وصمتا ، جنباً الى جنب ، واليد في اليد . وحدثت هزّة ، وتحرّك القطار وهو يصرّ . ماذا فعلوا بالجثة ؟ وأحس نَفس شنايــدر بازاء أذنه . وفجأة ، سحب شنايدر يده ، واراد برونيه ان يستبقيها ، ولكن شنايدر تخلص بانتفاضة ، وذاب في الظلام . وظلّ برونيه وحيــداً متصلباً ، غير مرتاح ، في حرارة تنّور . وكان واقفاً على قدم ، بينما كانت الاخرى محشورة فوق الأرض الخشبية ، في خليط معقــد من السيقان والأحذية . ولم يحاول ان يخلصها ، فقد كانت به حاجة لأن يبقى في الموقّت : إنه عابر ، وفكره عابرٌ في رأسه ، والقطار عابر في فرنسا ، وتدفقت الافكار ملتاثة فسقطت على السكة ، خلفه ، قبل ان يتمكن من تمييزها ، وابتعد ، وابتعد ، وابتعد ؛ على هذا النحو من السرعة ، يمكن للحياة ان تُطاق . توقّفٌ تام : انزلقت السرعة وسقطت على قدميه ؛ وكان ما يزال واثقاً من ان القطار يسير : فهو يصر ويصدم ويرتجّ ؛ ولكنه لم يكن يشعر بعدُ بالحركة . إنه في وعاء ضخم للقمامة ، وهناك من يركله بقدمه . وخلف ظهره ، على المنحدر ، كان الجسد باقياً ، مجرداً من العظام ؛ وكان برونيه يعلم انهم كانوا يبتعدون عنه كل لحظة ، وكان يود ان يُحس ذلك ، ولكنه لا يستطيع : فكل شيء يأسن . والليل وحده ، يمر حيّاً ، فوق الميت وفوق القطار الساكن . غداً يغطّيهما الفجر بالنــدى نفسه ، وسيقطر اللحم الميت والفولاذ الصديء بالعرق نفسه . غداً تأتي الطيور السود .

انتهت